

جَامِعُ أَسْرَارِ الْخَالِقِ الْمَتِينِ عَنِ الْمَادَّةِ وَالْخَلْقِ فِي الْقُرْآنِ الْمُبِينِ

تأليف

حَمَزَةُ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ عَيْسَى بْنِ أَحْمَدَ بْنِ خَلِيلِ بْنِ
إِسْمَاعِيلِ بْنِ يَاسِينَ بْنِ خَطَّابِ الْبَحْيَصِيِّ

إصدارات دار إبي-كتب

لندن 2023

BY: Hamza Elbuhaisi

All Rights Reserved to the author ©

Published by e-Kutub Ltd

Distribution: TheBookExhibition.com & Associates

All yields of sales are reserved to the author

ISBN: 9781780587028

First Edition

London, 2023

**** * ****

الطبعة الأولى،

لندن، 2023

جامع أسرار الخالق المتين عن المادة والخلق في القرآن المبين

المؤلف: حمزة البحيسي

الناشر: e-Kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في إنجلترا برقم: 7513024

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التوزيع: TheBookExhibition.com

كل عائدات البيع محفوظة للمؤلف

لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونياً أو على ورق. كما لا

يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.

أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.

إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة أخرى غير موقع الناشر (إي- كُتُب) أو

غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك

بالكتابة إلينا:

ekutub.info@gmail.com

يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:

hamza.elbuhaisi@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ
فَأَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا
يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}

{المجادلة: 11}

الفهرس

- 12.....مقدمة المؤلف
- الفصل الأول: الخطاب القرآني في تعليل أنواع الخلق الأساسية
والفرعية.....22
- 23.....المراتب التصنيفية في القرآن "فصيلة وأطوار وسلالة"
- 23.....أولاً: الفصيلة:
- فطرة الإنسان السليمة، والإكراه على الإجرام داخل
فصيلته.....25
 - العقاب الإلهي الأخرى للقاتل/المجرم في ثلاث آيات
مركزية.....26
 - الإنسان كائن غير مستوحش وغير قابل للتدجين.....30
 - العقاب الإلهي بالحشرات المتغذية على الدماء،
وعلاقتها بالمجرمين.....31
 - التكريم والتفضيل لفصيلة بني آدم.....33
 - (الرتبة) للرئيسيات (والمرتبة) للآدميات.....38
 - التقارب البيوكيميائي بين (الرتبة) للرئيسيات
و(المرتبة) للآدميات.....40
 - معنى الخسء للقردة، وعلاقته بالنوع الآدمي في ثلاث
آيات قرآنية.....42
 - علاقة أمر الخسء الإلهي للقردة والخنازير بشهوة
الغذاء.....43
- 45.....ثانياً: الأطوار:
- (الإحيائية الإصلاحية) في القرآن مقابل (الانتخاب
الطبيعي) أو (البقاء للأصلح) عند داروين.....47
 - الطور في السياق الجنسي وعلاقته بالزمن والجغرافيا
.....49

ثالثاً: السلالة:.....51

- التسلسل بين الصعود (البداية) والهبوط (النهاية)51
- الفرق بين سلالة (الطين) وسلالة (الماء المهين).....52
- علاقة السلالة بالنسل والذرية.....55

أنواع الخلق الأساسية والفرعية في القرآن.....56

- زمن وشكل وعملية إنتاج مراحل الخلق.....57
- أربعة أنواع أساسية لخلق الكائنات الحية.....58

الفصل الثاني: ماء الله وجنته تحت عرشه، وناره درك أسفل أرضي

63

الأول: ماء خلق وإحياء النوع البشري وهو أربعة أنواع:.....64

أولاً: ماء خلق آدم وذرئته:.....64

ثانياً: ماء إحياء الإنسان.....80

- علاقة الماء بالذرة والعناصر المكونة لها.....82
- تعدد أنواع السلاح في الجهاد/القتال في التاريخ.....85
- الفرق بين الجهاد والقتال والعنف في منظور قرآني.....85
- المسؤولية "الملائكية" والمسؤولية "الروحانية" في مسائل الجهاد/القتال.....89

ثالثاً: ماء إحياء الموتى.....96

- علاقة خشوع الأرض بالجفاف واليؤوسة من دون الماء.....99
- الفرق بين الأرض الخاشعة والأرض الميتة.....100
- قدرة الإنسان على الإحياء والإخراج وعلاقته بالدور الإلهي.....101

رابعاً: ماء العقاب يوم القيامة.....105

- الفرق بين الزحزحة عن النار والإزلاف للجنة.....111

- علاقة شهوة الغذاء بـ (ماء المُهل) و (ماء الحميم) 115
- علاقة الهوى (المرئي وغير المرئي) بأدنى درجات الجنة.....128
- الثاني: ماء إحياء الأرض (النباتات والحيوانات) 131*
- حساب الذين آمنوا يوم القيامة.....149
- الإنسان المؤمن ملاكاً في الجنة، أم يحمل صفات الملائكة.....150
- الشبه بين قسوة قلب الإنسان والحجارة المكونة من عنصر الأكسجين.....155
- علاقة المواد الناتجة عن الزبد الأول والثاني بالحق والباطل.....164
- علاقة عنصر الأكسجين بشوائب المعادن168
- الثالث: ماء الخالق (السموات السبع والجنة) 184*
- أزمان الخلق، وأزمان الاستواء.....186
- معنى الاستواء إلى السماء مقابل الاستواء إلى العرش.....191
- حالة الله قبل الاستواء وبعده.....193
- معنى الاستواء.....195
- المواد التي خلقها الله قبل استوائه على العرش.....197
- دلالة قوله تعالى: "فمن يأتيكم بماء معين"؟.....198
- الفصل الثالث: مركزية (التراب والطين والصلصال الفخار والحمأ المسنون) في نشأة وديمومة الكائنات الحية (آدم والنباتات والحيوانات) 201
- 204..... الآيات التي ورد فيها كلمات "تراب – تراباً – ترائب"*
- مراحل عمر الإنسان، من بداية الخلق وحتى البعث.....204

- 244..... الأيات التي ورد فيها كلمات "طيناً - طين - الطين"
- 245..... - دلالة رفض سجود إبليس لآدم عليه السلام.....
- دلالة رفض إبليس أن توضع النار على موضع التراب
- 253.....
- 254..... - احتراق الشياطين داخل نوع من أنواع بني آدم.....
- 272..... الأيات التي ورد فيها جملة "صلصال من حما مسنون"
- الخلق (مادة وفعل إلهيين) والخلق (اسم الله)
- 276..... والأخلاق (علم).....
- 279..... الأيات التي ورد فيها جملة "صلصال كالفخار"
- 290..... - جنس الملائكة إنسي أم غير إنسي.....
- خلق الملائكة من العناصر المكونة للرياح/الهواء
- 296..... (النيتروجين والأكسجين).....
- نسبة الهيدروجين في الماء، والشمس والغلاف
- 300..... الخارجي.....
- خلق الملائكة قبل أم بعد خلق الماء أسفل عرش
- 301..... الرحمن (الله).....
- علاقة الهيدروجين بعنصري خلق الملائكة
- 303..... (النيتروجين والأكسجين).....
- علاقة مادة الملائكة (النيتروجين) بالطاقة الناتجة عن
- 303..... (فتق الرتق).....
- 306..... - مادة الخالق (هل الله مخلوق من المادة؟).....
- علاقة الطاقة بالضوء (كيف تنتج الطاقة الضوء
- 308..... وتتحكم به؟).....
- 309..... - علاقة إنتاج الطاقة للضوء بالحركة.....
- مكونات الغلاف الذري الإلكتروني وعلاقته بالضوء
- 311.....
- 313..... - أنواع الإلكترونات.....

- الفرق بين الإلكترون (الحر المغلق) و (الحر المفتوح) مسار الحركة.....315
- حالات سقوط الإلكترون والتسبب بالفناء.....316
- أول عنصر مادي وجد في الكون وتسبب بخلق الكون (فتق الرتق)319
- تزامن خلق الكون (فتق الرتق) مع خلق الماء320
- (الانفجار العظيم) أم (الخلق وفتق الرتق)320
- هل تدخل الملائكة النار؟326
- معنى (الفخار) وعلاقته (بالفخر) و (الصلصال الفخار)328

الفصل الرابع: الأسبقية القرآنية في الاستدلال على الوحدات

- 335 الأساسية البنائية للمادة (الذرة)
- علاقة الذرة بالخلية وعلاقتها بالمادة.....336
- 338..... "ذرة" التي ورد فيها كلمة "ذرة"
 - أصل حبة الخردل في الصخرة، وفي السماوات والأرض.....339
 - وزن الخردل إلى وزن الذرة.....340
- 350..... "ذرية" واشتقاقاتها
 - آية مركزية في اصطفاء ذرية الأوائل (آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران)353
 - نواة آدم (عليه السلام) ونواة باقي البشر.....365
 - النباتات (الغذاء الأول) والحيوانات (الغذاء الثاني).....399
 - علاقة جريمة القتل بالشهوة المتدنية (النباتات)400
 - علاقة النباتات والحيوانات (الشهوة الصغرى والكبرى)، بشهوة الجنس (النكاح)402
 - دلالة عدم ذكر اسم (حواء) في القرآن405

- دلالة قوله "اهبطوا" وليس "اهبط" لأدم من الجنة 405
- دلالة وصف الدين بأنه "خَلق الله" 446

الفصل الخامس: خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم في عملية الخلق..... 459

- عملية إنجاب مريم من أمها العاقر (حنة بنت فاقوذ، جدة النبي عيسى عليه السلام) 462
- توصيف أنثروبولوجي حيوي لجنس مريم..... 462
- (آل عمران) أهم اصطفاء عائلي في القرآن..... 464
- مصدر ونوعية (الرزق/الغذاء) لمريم..... 469
- ماهية القبول الحسن لمريم..... 470
- دلالة إنبات مريم نباتاً حسناً..... 472
- مضمون كفالة زكريا..... 481
- مكان سكن مريم وعلاقة المحراب بالمسجد..... 485
- رزق مريم من عند الله..... 486

عملية خلق عيسى (عليه السلام) (جُمع في خلقه كل الأنواع).
..... 500

- قدرة الله على (خلق ما يشاء) و (القضاء في الأمر) و (تثبيت مشيئته) 500
- الفرق بين (الغلام) و (الولد) في تسمية عيسى..... 502

الخلية أم النطفة في رحم مريم العذراء "أم النبي عيسى" (عليه السلام).
..... 503

- أدوات التشبيه، وصيغة المماثلة، وبلاغة الوصف في خلق آدم وعيسى 504
- معقولية التعبير القرآني: "إن عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب" 507
- خلية وليس نطفة في رحم مريم العذراء 511

- 512..... كيفية التدخل الإلهي في خلق عيسى
- 513..... التمكين الإلهي لعيسى في الاقتدار على الخلق
- 515..... الحية
- 518..... الطائر المنقرض (أركيوبتركس) يجمع بين صفات الزواحف والطيور
- 520..... تقسيم الطيور عند الجاحظ، وتقسيمنا التاريخي المقترح
- 522..... نوع وجنس الطير الذي خلقه عيسى (الخفاش)
- 524..... لماذا قيل "أخلق الطير" ولم يقل "أخلق الطير أو أخلق طيراً"؟
- 526..... خفافيش من جنس الذكور في الطبيعة، وعلاقتها بمرض كورونا والمشركين
- 529..... العبرة الإلهية في تمكين عيسى خلق طير من جنس أنثى وليس ذكراً
- 530..... العلاقة بين العناصر المكونة لطبقة تروبوسفير (Troposphere) مع مكونات الخلية الأولى في رحم مريم
- 533..... العلاقة بين أنثوية جنس الخفاش، وحياة مريم
- 535..... سماد الخفافيش وعلاقته بمادة خلق الملائكة
- 537..... العلاقة بين مظهر وحال الخفاش بالملائكة
- 542..... الفرق بين (منطق الطير) و (أمم الطير)
- 544..... التماثل بين النوعين الأدمي (الإنسان) والحيواني (الدواب والطيور)
- 546..... أصل اسم (الخفاش)، ولماذا نقترح اسم (شبيه الطير انكي)؟
- الجدل القرآني بشأن ألوهية عيسى وأمه مريم أمام ألوهية الخالق
- 550.....

- نفي عيسى ادعاء الألوهية أو التفكير فيها.....551
- مراجع الكتاب553
- دعاء الختام559

مقدمة المؤلف

فكرت مراراً في هذا السؤال، هل يمكن وضع تفسير مادي تاريخي للقرآن الكريم؟ لكنني عدت وفكرت في أصل ودورة حياة المادة في التاريخ منذ خلقها الأول بأمر الله، وتأملت حركة المادة ودورها في الكون والطبيعة، وكذلك دلالة معانيها وسياقها التاريخي في القرآن، وإذا قلنا سياق تاريخي، فإننا بذلك نتوقع زمناً محدداً لخلق بداية أو أول المادة، علماً بأن خلق أول المادة ليس له زمن وفق التقديرات الآدمية الدنيوية لأن تحديد زمن خلق أول المادة يعني الاشتراك مع الخالق في تحديد زمن خلقها، وبالتالي تحديد زمن خلق الكون بشكل دقيق، علماً بأن زمن خلق أول المادة بأمر الله لا يشترك في معرفة وجوده الابتدائي وآلية نشأته أحد إلا الله (وكملاحظة نقول إن المقصود بالمادة في كل مواضع ذكرها في الكتاب هو العناصر الكيميائية في الجدول الدوري). كما أنني فطنت بعد طول نظر وقراءة في كتب علوم المادة والطبيعة، وبالتحديد نظرية عالم الأحياء الطبيعي والبيولوجي البريطاني تشارلز داروين وما بُني على إثرها، وما لاقتنه من قبول عند عالم الأحياء الإنجليزي توماس هكسلي وغيره، فطنت أنه لا يمكن تفسير القرآن تفسيراً مادياً، لأنَّ المادة جزء من موضوعه وليس كل موضوعه، والطبيعة أيضاً جزء من موضوعه وليس كل موضوعه، لكن موضوع المادة والطبيعة (ويشكلان الكون معاً) موضوعان مركزيان ومتأصلان في الحياة وفي القرآن، ويتلاحق معهما خلق آدم (عليه السلام) باعتباره أول الخلق الإلهي الإحيائي الروحي، وكذلك عيسى (عليه السلام) باعتباره آخر الخلق الإلهي الإحيائي الروحي.

لقد وجدت إمكانية التأسيس لمقدمة نظرية عن الفلسفة المادية في قراءة نص القرآن، لكنني قررت أن تقدم هذه القراءة ضمن فلسفة مادية إحيائية أو إن شئنا تسميتها "فلسفة حركية" أو "إحيائية" لأنها

تقوم بواجب الإحياء والانبعاث وتشتمل على الحركة في خلق الخلق خلقاً إحيائياً روحياً أو إحيائياً مادياً أو إحيائياً نشورياً.

يعتبر القرآن أسبق من المادة لأنه كلمة الله المنزلة عبر الوحي، والوحي أسبق من المادة، ومادة خلق الوحي أسبق منه، ولأن خالق المادة هو الله، ولأن كلمة الله أسبق وأقدم من المادة ومن خلق الكون والقرآن والوحي، فيكون أصل خلق المادة لعة أمر وكلمة الله العليا هي أمر، وقد عبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" {يس: 82}. عندما وضعت نص الكتاب فكرت بروية وحكمة بالغة بشأن العلاقة بين القرآني (الديني) والمادي (الطبيعي)، وفكرت مراراً بنزع السياق (الديني) عن المادي (الطبيعي)، وتقديم كل ما يتعلق بالمادة بصيغة أبدو معها كأني أنكر أو أستنكر الديني وعلاقته مع المادة والطبيعة، وبالتالي أتنگر للنص القرآني أو كل ما هو ديني، ولكن ذلك لم يحدث أبداً. وعندما فكرت بالمادة المجردة عند لحظة خلق الكون، وتلك الموجودة في المجرة والمذكورة في القرآن الكريم، وجدت أنه لا فكاك بين المادة ونص القرآن الكريم من ناحية أهمية وضرورة تدبر مادة الخالق (أي المادة التي صنعها الخالق)، ومادة خلق الله، (أي مادة تكوين الكائنات الحية كلها بما فيها آدم وعيسى (عليهما السلام) والنباتات والحيوانات). لذلك نقلت في هذا الكتاب كافة الآيات التي تتعلق بالمادة وخلق الكائنات الوارد ذكرها في القرآن الكريم، والتي تعتبر في جوهر صناعة الكون، وهي تدل على أن القرآن ينطق بلسان حال المادة، وهو أعلى منها، كما أن المادة هي التي تعلل العلاقة بين العقل والروح وعلاقتها مع اللوح المحفوظ، وعلاقة اللوح المحفوظ بالخالق. لقد ساعدني فهم العلاقة بين الخالق والمادة واللوح المحفوظ على تقديم رؤية جديدة في طريقة فهم الآيات القرآنية. ولإتمام المادة على أكمل وجه في النظر إلى التخصص في طرح موضوع المادة والخلق، اطلعت بالدرجة الأولى وبشكل مركزي ومكثف على أبرز ستة تفاسير: وهي التفسير

بالرأي الجائز لفخر الدين الرازي، والتفسير الفقهي لأبي عبد الله القرطبي، والتفسير بالرأي الجائز أيضاً لناصر الدين الشيرازي البيضاوي، وتفسير الزيدية لمحمد بن علي الشوكاني، والتفسير بالمأثور لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، وتفسير المعتزلة لأبي القاسم الزمخشري الخوارزمي، وذلك بحسب إدراكي لأهمية هذه التفسيرات كما تم شرحها في تاريخ كتب التفسير في ثلاثة أجزاء بعنوان: (التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي). هذه التفسيرات التي اخترتها للتحري والتقصي مرتبة حسب أهميتها وأوليتها بالنسبة لي وفق قناعاتي بخصوصية الرؤى وجدية وكثافة الطرح المنطقي والأخلاقي والعلمي في هذه التفسيرات وتعدد التخصصات ومنه المنقول (النقلي) - وهو التفسير بالمأثور - أو المعقول (العقلي) - وهو التفسير بالرأي ويشمل ذلك على الفقه - علماً بأن ابن خلدون صنف التفسير إلى صنفين: تفسير نقلي مسندٌ إلى الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي. أما الصنف الآخر من التفسير فهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب¹. يُعلم أن الفرق بين الصنفين جوهري لأنه يميز بين ما تم نقله عن الصحابة والتابعين مع حفظ النص المنقول كما تمت روايته وفق الأصول وهو يتطلب التحري، وما تمت صناعته بحسب حذاقة اللسان العربي وإبداعيته وتفردته في إقامة الحجة في التفسير. لم يقل ابن خلدون إن التفسير الثاني الخاص باللسان العربي هو تفسير عقلي وجعل خصوصيته متعلقة بإجادة اللغة العربية وقواعدها وعلومها، لكن مع تطور هذا النوع من التفسير صار يُعرف بالتفسير العقلي نظراً لتبحره في علوم اللغة العربية. بالنسبة لي أرى أن محتوى كتابي "الجلي النقي في معرفة الوحي" وبحثنا "الفلسفة الإنسانية لمفهوم

¹ عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، مقدمة ابن خلدون، ج2، (دمشق: دار يعرب، 2004)، ص175، 176.

"الفداء" في النص القرآني من منظور عقلاني" وبحث " فهم تأويلي لمسألة "تعدد الزوجات" في النص القرآني" جميعها مقدمة للبرهان على الاتجاه (الفقهي اللغوي المفاهيمي) في تفسير القرآن باستخدام النظر (التأمل) العقلي، عبر الاختصاص بالنظر اللغوي عبر التأسيس الفقهي للمفهوم في نص القرآن من خلال التحليل العقلاني الفلسفي لمعاني ودلالات المفهوم. أما بالنسبة لمادة هذا الكتاب، فهي امتداد لهذا المشروع الذي يتأكد من خلاله إضافة فرع آخر داخل الاتجاه (الفقهي اللغوي المفاهيمي) في التفسير، وهو فرع نسبي، ونسبيته تتعلق بحصر الآيات القرآنية التي تتناول موضوعي المادة والخلق، ولذلك لا نقول إنه اتجاه مادي في التفسير، بل نقول إنه تفسير فقهي لغوي (للمفاهيم المادية) في النص القرآني. وهذا الأمر يجعلنا نقول بوجود تفسير فقهي لغوي للمفاهيم الاجتماعية، وتفسير فقهي لغوي للمفاهيم التشريعية والعرفية، وتفسير فقهي لغوي للمفاهيم الأخلاقية، وتفسير فقهي لغوي للمفاهيم السياسية وهكذا، وهي جميعها تندرج تحت التفسير (الفقهي اللغوي المفاهيمي) ولهذا التفسير رؤية تأسيسية أو مقدمة نظرية تعمل عليها في كتاب خاص، ومن خلاله سوف يتم إنجاز المشروع التاريخي بعنوان: (التفسير المقدسي للقرآن الكريم).

لقد اخترنا نقل الآراء العقلانية المنطقية في شرح كل آية بما يتناسب مع رؤيتنا للنص القرآني من منظور خلق المادة والكائنات الحية، وقد استثنينا كثيراً من الآراء التي لم يثبت صوابها حتى ولو بشكل نسبي، ومع ذلك رجحنا أهم الآراء التي ثبتت صحتها والتي كانت معززة بالدليل المنطقي، ما يعني أننا نقدم في هذا الكتاب جوهر ما يمكن فهمه عن خلق المادة والكون والكائنات الحية، وأهمها آدم وعيسى (عليهما السلام) كما هو مذكور في نص القرآن الكريم. وهنا وجبت الملاحظة أننا أضفنا رأينا الفقهي التأويلي في كل آية، وقد أشرنا إلى هذا الرأي غالباً بكلمة (نقول)، اعتقاداً جازماً منا بأن هذا القول هو قول روعي إنسي خالص، وما هو بقول إلهي ولا قول جني أو

شيطاني، وحثتنا في أنه قول روحي آدمي يعود إلى أول الخلق هو قوله تعالى في سورة (ق): "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (16) إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (17) ما يُلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (18)". إن الآية تجمع بين قول الإنسان ورقابة الملائكة، وهذا ما يفسر وجود ارتباط شديد من هذين الجنسين، وهو محور أساسي في فهمي لخلق مادة الإنسان ومادة الملائكة، وعلاقة الروح بين الاثنين، وبالتحديد الانتقال الذي يحدث لروح الإنسان المعززة بالملائكة لتكون هي ذاتها روحاً ملائكية ويُصرف عنها أرواح شياطين الجن والإنس. ورغم أن القول في الآية (18) هو قول روحي إنسي بامتياز، فإنه قول له تقاديره في قسطاس العدل الإلهي الذري، فإما أن يكون القول والفعل من الشياطين أو الوسواس الخناس، وهذا مستبعد في أقوال وأفعال الأرواح الإنسية للأنبياء والعلماء الأتقياء والعارفين الزاهدين الصالحين أو يكون قولاً إنسياً تقليدياً عادياً، أو إنسياً لكنه ملائكي بفعل ما انتمرت به الروح داخل العقل، وفعل ما انتهت عنه في الحياة الدنيا والأخرة، وإن صيغة لغة الأمر والنهي شريعة إلهية قرآنية، فيكون في الخطاب الإلهي كرامات وتجليات وتمكين لجوهرة المعرفة من الله، فيكون جولان الفكر والروح في عالم الملكوت، ويخترق بهما الطوق الدنيوي السفلي والعلوي. لقد أثرنا كتابة كلمة (نقول) بصيغة الجمع عند كل إشارة إلى رأينا أو تأويلنا داخل النص على كلمة (أقول) بصيغة المفرد، وذلك حرصاً وإقراراً بأن كل قول مفرد له روحية وإحاطة علوية إلهية تختلف عن غيرها، فتكون مجموع الأقوال بصيغة (نقول) هي الروح الملهمة في حالة تعدد انشغالاتها الفكرية، وذلك إثباتاً منا بأن الروح مصدرها العقل، والعقل محل التفكير، والتفكير أسبقيته مُجازة بالقول قبل الكتابة، والقول متعلق بالكلام، والكلام متعلق بعضو النطق وهو الفم، والنطق مرتبط بالإدراك، وعند الإدراك تكتمل دائرة النوع الأدمي (الإنسان) لأن الإدراك مرتبط

بالعقل، والعقل مرتبط بالتفكير، والتفكير مرتبط بالخلق، والخلق مرتبط بالأرض، والأرض مكونة من مادة التراب والطين والماء، وجميعها نزل بأمر من الله، فجعل به كل شيء حي، وإن الخلق أمر من الله، بالتالي فإن علاقة الخالق بآدم (عليه السلام) بدأت من خلقه بصيغة الأمر (كن) في قوله تعالى: إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون {يس: 82} ثم تعليمه بصيغة الأمر (اقرأ) في قوله تعالى: اقرأ باسم ربك الذي خلق {العلق: 1} ثم إحيائه بصيغة الأمر (قل) في قوله تعالى: قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين {الأنعام: 162}، والقول إما أن يكون خلقياً علوياً تعززه إرادة الخالق، أو أرضي معزز بإرادة البشر، فهو إن كان خلقياً سيغادر إلى دائرة الأرواح العلوية نحو لوازم ومقتضيات الخواطر الملكية الربانية، وإن كان أرضياً لا يغادر دائرة النفس والهوى والبدن. وهذا ما جعلنا نفهم كيف جمع الله بين سبب الخلق في أمرين وهما (القول الخلقي العلوي) و (القول الأرضي الدنيوي)، من خلال ذكر كل أنواع النباتات التي مصدرها الأرض والتراب/الطين والماء التي خلق منها آدم (عليه السلام) وذكر كلمة (يتفكرون) في قوله تعالى: "يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون" {النحل: 11}. فأراد بكلمة (الزرع) القول الأرضي الدنيوي، وأراد بكلمة (يتفكرون) القول الخلقي العلوي. كما أن التفكير ورد ذكره مصاحباً للمادة وحالتها ولضرورة التأمل في الرسالة السماوية التي نزلت على النبي محمد (ﷺ)، باعتبار أن هذا الخطاب الذي أنزله الوحي جبريل على النبي محمد (ﷺ) من الله عزوجل هو خطاب للعقل الإنسي لأنه متعلق بخلق آدم (عليه السلام) أصلاً، وذلك في قوله تعالى: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" {الحشر: 21}. لأننا قلنا إن التفكير مرتبط بالخلق، وبأن خلق آدم (عليه السلام) مرتبط بالأرض، والأرض مصدر

(التراب/الطين والماء) والماء هو أول مادة لإحياء الخلق، وجب القول بأن العبرة من إنزال القرآن على جبل هو توكيد وترسيخ لعلاقة كلمة الله وشريعته بالطبيعة ومادتها وحالتها، والآية تدل على حالة سجود الجبل وهي (الخشوع) وكثرة مادته وهي (التراب). إذا فهمنا معنى ودلالة القول، سوف نفهم أن أصل الرسالات السماوية كانت قولاً عبر الوحي، وبُنيت كلها على الأمر الإلهي. لذلك لاحظنا أن فاعلية الخطاب القرآني تبرهن على ضرورة القراءة الشرعية والعلمية، ولم تتفك المعرفة الشرعية عن المعرفة العلمية ولا حتى عن المعرفة الخالصة التي تنتج عن الوعي والإدراك وفهم الحقائق من خلال التجارب والمهارات، والدليل على ارتباط الشرعي بالعلمي قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعلم" (5). نلاحظ في الآية أن لغة الأمر في قوله تعالى: (اقرأ) جاءت مصاحبة لضرورة القراءة عن الخلق، أي اقرأ كيف خلق الله الكون والكائنات الحية، وتدبر دلالة هذا الخلق ولماذا خلق؟ وكيف خلق؟!، ثم قام بالإرشاد والتوجيه في الخطاب القرآني من خلال تعيين نوع القراءة في قوله تعالى: "خلق الإنسان من علق"، أي النطفة أو الخلية، كأن الله يقول إن القراءة يجب أن تكون في أصل الخلق الذي بدأ (باسم ربك) أي باسم الخالق. وأما إشارته إلى القلم، وأنه علم الإنسان ما لم يعلم فهذه تعتبر دعوة إلى التأمل في الحقائق الإلهية في طبيعة التكوين الآدمي، أي يكفي الإنسان أن يفكر في بنائه الجسدي الذي خلقه الله. لهذا السبب نقول إن الفرد الواحد (الطبيب)، أو المُقبل على تعلم الطب، يحتاج إلى نحو سبع سنوات كي يتعلم تخصصاً واحداً في جسد الإنسان، كأن يختص في الدماغ، أو العظام، أو الباطنة، أو القلب، أو الصدر، أو العيون، أو الأنف وأذن وحنجرة، وغيرها. فماذا لو أراد إنسان واحد أن يتعلم كل ما سبق؟ نقول لن يكفيه كل عمره. لذلك نحن نؤصل على سبيل التشريف ما ذكره الفيلسوف المغربي طه عبد

الرحمن في قوله إن "الأصل في الشرائع السماوية أنها نزلت، لا لنشر العلم فحسب، بل لنشر المعرفة"²، فنقول إنها نزلت في الأصل لنشر العلم، والعلم أصل في القرآن، وإن كل ما هو معرفي يعتبر نسبياً إلى ما هو علمي، والعلمي لا يلغي المعرفي، بل يبرهنه ويؤكدّه. بمعنى دقيق آخر نقول إن العلم أخروي وإفاضته علوية، والمعرفة دنيوية وانشغالاتها أرضية، لأن الأصل أن الله وشريعته تُعَلِّم الخلق قبل أن تُعرِّف الخلق، فنحن نقول علوم الدين ولا نقول معارف الدين. لهذه الأسباب السابقة عدلت عن كتابة كلمة "نظرية" أو ما يدل عليها في عنوان الكتاب لأن أمر الله ليس نظرية، ولأن النظرية تفسر ظاهرة طبيعية، وإن الله لا يتساوى مع الظاهرة الطبيعية لأنه خالق المادة، والمادة تصنع الظاهرة، والمادة والظاهرة جزء من النظرية، بالتالي لا يكون خالق المادة جزء أو كل من النظرية بل هو أعلى من النظرية والمادة أو مادة النظرية، ولأن اسم "النظرية" دنيوي وليس علوياً، ولأننا نرى أن الإنسان لا يختص بالنظر (التأمل) العقلي قبل الاختصاص بالتعلم، ولا يختص بالتعلم قبل الاختصاص بالاستخبار، ولا يختص بالاستخبار قبل الاختصاص بالتفقه، ولا يختص بالتفقه قبل الاختصاص بالتربية، فالعالم قبل المفكر، والمفكر قبل الفقيه، والفقيه قبل الشيخ والشيخ قبل مريده، والمريد قبل المُربي، والمُربي قبل التلميذ وهكذا. ولذلك لم أقتنع بجدوى اعتبار مادة الكتاب نصف لنظرية داروين لأسباب مركزية، منها أن المحتوى الذي أطرحه أقدم بكثير من نظرية داروين التي تشرح التطور البيولوجي لأنواع الكائنات الحية من خلال عملية الانتقاء الطبيعي للطفرات الوراثية، ولأن ما أقدمه أسبق من موضوع التطور وهو موضوع خلق الكائنات الحية وأهمها خلق آدم وعيسى (عليهما السلام) والنباتات والحيوانات، وكذلك علاقة خلق كافة الكائنات الحية بالمادة، علماً بأنه ثمة فرق بين

² طه عبد الرحمن، سؤال العنف بين الأنتمانية والحوارية، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2017) ص100.

الخلق والتطور، ما يعني أنني أضع تأسيساً لنظرية داروين وكل ما تلاها، ولكنه تأسيس يخالف النظرية من ثلاث مسارات (علمية وأخلاقية ودينية).

بالإضافة لما سبق، نقول إن علم التوحيد أو الفقه الأكبر يختص بالنظر والاستدلال ضمن العقيدة، وأوجب المسائل التي يستحق النظر فيها هي إدراك ما وراء الطبيعة، وسر الوجود واشتماله على المادة والطاقة كأبرز مكونات لهذا الوجود. ويعتبر فهم أربع مسائل ضرورية في الحياة هي الجزء الأصيل من العقيدة، كما يلي:

- فهم الخالق وأمره وإرادته
- فهم المادة التي خلقها الله
- فهم الكون ونشوء الطبيعة
- فهم خلق الملائكة وإبليس وآدم وذريته وعيسى
- فهم الوحي المحمدي النبوي (وهذا كتبت فيه كتاباً بعنوان:

الجلي النقي في معرفة الوحي)

معلوم بين العلماء أن القرآن مقسم إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول: معتقدات، والقسم الثاني: أحكام وتشريعات، والقسم الثالث: قصص وأخبار. نقول إن هناك قسم آخر وهو (البديهيات) ويتفرع منه نوعين آخرين وهما: أولاً: خلق المادة، وتشتمل على (الكوني والأدمي). وثانياً: خلق الطبيعة، وتشتمل الطبيعة على (النباتي والحيواني)، وجميعها تسمى (المادة والطبيعة الكونية) بكل ما خلق الله فيها من مكونات، وهذا ما نضيفه إلى الأقسام الأخرى. ونقول إن كل ما هو كوني يخدم بقية الأقسام، يليه الأدمي ثم النباتي ثم الحيواني. يتغذى بنو آدم (عليهم السلام) على كل ما هو نباتي وحيواني، كلاهما أو أحدهما، ويتغذى الحيواني على النباتي، بينما تتغذى النباتات على المياه والأسمدة بأنواعها سواء كانت عضوية أو غير عضوية. أما الماء فهو منتج إلهي ولا يمكن صناعته بأيدي بشرية. ولذلك قال الله عز وجل في ذكر الماء: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" {الأنبياء: 30}،

أما الأسمدة فهي منتجة من مواد موجودة في الطبيعة وكثير منها قابل للتحلل. إن كل ما سبق يخدم الشرائع السماوية، ومن بينها الشريعة الإسلامية، أي أن الكوني يخدم الإنسان في إتمام دينه لأن الكوني أصله شرعي، وإذا كان الكوني يخدم الإنسان في دينه وهو شرعي، فإن النباتي والحيواني يفعلان ذلك أيضاً بتصرف من الإنسان، فكيف يخدم بعض ما هو كوني الدين الإسلامي؟

نقول إن تعاقب الشمس والقمر يخدمان ثلاث فرائض وهي: الصلاة، والصوم، والحج، لمعرفة مواعيتهما، فلا يمكن الصلاة بدون معرفة شروق وغروب وتعامد الشمس، ولا يمكن الصيام من دون رؤية هلال رمضان في اليوم التاسع والعشرين من أيام شهر شعبان وأول ليلة من رمضان. وكذلك الحج وفق توقيت معلوم وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "الحج أشهر معلومات" {البقرة: 197}. كما لا يمكن أن تتم الصلاة أو تصح من دون صحة شروطها، ومن شروط الصلاة الطهارة، والطهارة لا تجوز إلا باستخدام مكوّنين، إما الماء أو التراب، وكلاهما موجودان في الكون والطبيعة على سطح الكرة الأرضية، وهما مادة خلقها الله عند خلق الكون. لذلك نقول إن المادة وخلق الكائنات الحية هما جوهر القرآن وحقيقته التي يُبنى عليها كل شيء، وهما دليل ومرجع بني آدم (عليه السلام) إلى الحياة الآخرة. أخيراً، نقول إننا اعتمدنا في هذا الكتاب على طرح الأسئلة والإجابة عليها وشرح الأفكار من خلال الآيات القرآنية التي تخص موضوع من مواضيع المادة أو الكائنات الحية، حيث لكل آية أسئلة وإجابات عن التفاصيل التي تتعلق بالمادة والخلق، وليس من خلال الاعتماد على الموضوعات العلمية المادية بشكل منفصل. ونشير إلى الإحاطة بخصوصية الشرح وأهمية الأسئلة المطروحة عقب قوله تعالى: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار" {الرحمن: 14} في الفصل الثالث.

الفصل الأول

الخطاب القرآني في تعليل أنواع الخلق
الأساسية والفرعية

المراتب التصنيفية في القرآن "فصيلة وأطوار وسلالة"

ورد في القرآن ثلاث كلمات تشير إلى المراتب التصنيفية ضمن المستويات النسبية في هرم المراتب بالمعنى الحديث، وقد ذكرت في القرآن وهي أسبق من التصنيفات الحديثة لعلاقتها بخلق الله ومسؤولية الخالق عن خلق الكائنات الحية، وأهم أنواع الخلق "الإنسان" ككائن حي آدمي ويسمى آدم (عليه السلام). هذه الكلمات هي "فصيلة وأطوار وسلالة". وهي كلمات مرتبطة بالدرجة الأولى بخلق النوع البشري الذي بدأ بآدم (عليه السلام) وذريته، وهي على صلة بتطور الجنس البشري. نقول: إن "الفصيلة" هي تعبير عن أول الخلق، أي آدم (عليه السلام)، و "أطوار" تعبير عن تطوّر الخلق وتغير هيئاتهم وألوانهم وأحجامهم، و "سلالة" تعبير عن تعدد النسل والأعراق والجماعات والأقوام والقبائل.

أولاً: الفصيلة:

وردت كلمة "فصيلته" مرّة واحدة في القرآن³. وذلك في قوله تعالى في سورة المعارج: "يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه (11) وصاحبته وأخيه (12) وفصيلته التي تؤويه (13)". أولاً سوف نذكر ما قاله المفسرون في كلمة "فصيلته". قال الشوكاني: أي عشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب، أو عند الشدائد، ويأوي إليهم. قال أبو عبيد: الفصيلة دون القبيلة. وقال ثعلب: هم أبائهم الأذنون. قال المبرد: الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد. وسميت عشيرة الرجل فصيلته تشبيهاً لها ببعض منه. وقال مالك: "إن

³ معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج4، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص338.

الفصيلة هي التي تربيته" 4. وقال الرازي: المراد من الفصيلة المفصولة، لأن الولد يكون منفصلاً من الأبوين. قال (عليه السلام) "فاطمة بضعة مني" فلما كان هو مفصلاً منهما، كانا أيضاً مفصولين منه، فسميا فصيلة لهذا السبب، وكان يقال للعباس فصيلة النبي صلى الله عليه وسلم، لأن العم قائم مقام الأب. وقوله تعالى: "ثم ينجيه" فيه وجهان (الأول) أنه معطوف على يفتدي، والمعنى: يود المجرم لو يفتدي بهذه الأشياء ثم ينجيه (والثاني) أنه متعلق بقوله "ومن في الأرض" والتقدير: يود لو يفتدي بمن في الأرض ثم ينجيه، وثم، لاستبعاد الإنجاء، يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه 5. نقول: إن التسلسل في موضوع الخلق جاء محكماً بحسب توصيف تطور نوع آدم (عليه السلام)، ففي المواضع التي ذكرها الله في القرآن أشار إلى مادة خلقه وهي التراب/الطين، ثم بعد ذلك أشار إلى الفصيلة التي تسمى عائلة أو كل ما ينتمي إلى عائلة، والفصيلة تشتمل على الجنس في الترتيب الهرمي للتصنيف البيولوجي، والجنس تحت مرتبة الفصيلة، والنوع هو مجموعة من الكائنات الحية القادرة على التزاوج فيما بينها وإنتاج نسل خصب 6، وبالنسبة لنا هناك أمر هام في الآية وهي ارتباط كلمة "الفصيلة" بالمجرم كما ورد ذكره في الآية (11)، بمعنى أن هذا المجرم يود لو يفتدي من العذاب بأربعة أنواع من الناس وهم بنيه

4 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1529.

5 الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،

ص126، 127.

<https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2> 6

وصاحبه وأخيه وفصيلته. قيل "المجرم هو الكافر، وقيل إن الكلمة تتناول كل مذنب"⁷.

فطرة الإنسان السليمة، والإكراه على الإجرام داخل فصيلته

إذا فهمنا من هو المجرم سوف نفهم لماذا يفتردي بفصيلته وكل من تم ذكرهم في الآية. المجرم هنا هو الحالة الشاذة عن الأقرباء ومنهم الأبناء والأخوة وكذلك الأصحاب والفصيلة ككل، وهو الشخص الذي لا تنسجم طباعه مع الفطرة التي فطر عليها، ولا ينسجم مع النسق الاجتماعي الذي تربى فيه ولا ينسجم مع مادة خلقه من الماء والتراب/الطين الذي خلقه الله بها. كما أن الشخص الذي لا يتناغم مع طبائع فصيلته من ناحية سلوكية سواء كانت بمحض إرادته أو بالإكراه والتي قد تكون أدت إلى ارتكابه للجريمة. لقد كان القتل أول جريمة في الأرض عندما قتل قابيل أخيه هابيل، ولهذا الجرم علاقة بالقربان الذي قرباه بحيث أن هذه القصة تشير إلى علاقة آدم (عليه السلام) وذريته بأصل شهوة الغذاء وبالطبيعة والمادة التي خلقوا منها، والسبب الذي نزلوا من أجله إلى الأرض بعد وسوسة الشيطان لأبيهما آدم (عليه السلام) في الجنة، وهذه المسألة يتضح معناها أكثر عند شرح وفهم معنى "الصلصال الفخار" أي المادة التي خلق منها آدم (عليه السلام) في سورة {الرحمن: 14} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص279}. ورغم وقوع القتل في بداية تاريخ خلق نسل آدم (عليه السلام) لأسباب تتعلق بشهوة الغذاء، وهي الفتنة الأولى التي أنزلت آدم (عليه السلام) إلى الأرض، إلا أننا نجزم بأن الإنسان العاقل هو الكائن الحي الوحيد من بين الكائنات الحية غير المفترسة، أي أنه لا

⁷ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص126.

يقتل وهو بعقل واعٍ أو بفعل منطقي، وإذا فعل الإنسان العاقل ذلك فيكون لسبب وجيه من خلال التزامه بشريعة مضادة للإجرام أو القتل، كأن يكون هدفه إقامة حد من حدود الله، أو تنفيذ شريعة إلهية ملتزماً بدستور أو قوانين، وهذه الحدود والشرائع لها ضوابط قاسية، وهو لا يسمى قتلاً في الأعراف القانونية الإسلامية، بل قصاصاً أو عقاباً كما ورد في القرآن لقوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلمكم تتقون" {البقرة: 179}. سوف أورد أهم ثلاث آيات ورد فيها العقاب الإلهي للمقاتل أو المجرم بحسب الشريعة الإسلامية وسوف أستثني العقوبات الدنيوية لأن العقوبات الإلهية الأخروية أوجه وأشرف وأكثر قسوة على النحو التالي:

العقاب الإلهي الأخروي للمقاتل/المجرم في ثلاث آيات مركزية

الآية الأولى: قوله تعالى: "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً" {النساء: 93}.

قال الشوكاني: ذهب أهل العلم إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: عمد، وشبه عمد، وخطأ. وذهب آخرون إلى أنه ينقسم إلى قسمين: عمد، وخطأ ولا ثالث لهما⁸. ونقل عن ابن عباس أنه قال: توبة من أقدم على القتل العمد العدوان غير مقبولة، وقال جمهور العلماء: إنها مقبولة، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن الكفر أعظم من هذا القتل فإذا قبلت التوبة عن الكفر فالتوبة من هذا القتل أولى بالقبول.

الحجة الثانية: قوله تعالى في آخر الفرقان "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن

⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج5، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص319.

يفعل ذلك يلق أتماماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً⁹، وإذا كانت توبة الآتي بالقتل العمد مع سائر الكبائر المذكورة في هذه الآية مقبولة: فبأن تكون توبة الآتي بالقتل العمد وحده مقبولة كان أولى. الحجة الثالثة: قوله تعالى: "ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" هو وعد بالعفو عن كل ما سوى الكفر، فبأن يعفو عنه بعد التوبة أولى⁹، نقول: إن "من" في قوله تعالى: "من يقتل" شرط، وجوابه "فجزاؤه" والشرط هنا مرتبط بأمرين أولاً: الشروع في القتل. ثانياً: أن يكون لإنسان مؤمن. ثالثاً: أن يكون متعمداً، بالتالي يجب أن تتحقق الشروط الثلاثة قبل إقرار الجزاء، وإن الجزاء تم إقراره لأن قاتل المؤمن يحمل صفات نقیضة له، فليس كل مسلم هو مؤمن لأن الإيمان درجة عالية رفيعة، والإيمان يحتاج إلى صدق وتصديق، فالقاتل يكون موصوفاً بأنه أبعد عن الله ما يكون من غيره وقد لا يكون مسلماً أصلاً. أما الجزاء فهو مكون من أربعة أجزاء: الأول: جهنم خالداً فيها. ثانياً: غضب الله عليه. ثالثاً: لعنه. رابعاً: أعد له عذاباً عظيماً. بالتأكيد فإن لكل واحد من أجزاء هذه العقوبات الإلهية شرح مطول في نص القرآن، فإذا كان غضب ولعنة الله ثابتين؛ فإن جهنم لها درجات كثيرة موصوفة في القرآن. قال رسول الله: "قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا. ورؤي عن عبد الله قال: قال رسول الله: "أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء¹⁰، عموماً سوف نشرح علاقة القتل بإحياء النفس الإنسانية في الأرض خلال شرحنا لسورة {فصلت: 39} في موضوع الإحياء والإخراج من الأرض وعلاقة الإحياء والإخراج

⁹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّین ابن العلامة ضياء الدّین عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج10، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص246.

¹⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السّنة وأبي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج7، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص38، 39.

بالخلق والنبات والأمن الغذائي { انظر الشرح في الفصل الثاني، ص97-101 } حيث ذكرنا أن إحياء البشر في الأرض مرتبط بعمارة الأرض وزراعتها بالنباتات وإغنائها بالأشجار وإعدام الفساد فيها سواء كان فساداً مادياً أو غير مادي وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً" {المائدة: 32}.

الآية الثانية: قوله تعالى: "ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً" {الكهف: 49}.

قوله تعالى: "وضع الكتاب" معطوفة على عرضوا على ربك" في الآية التي قبلها. وقوله تعالى: "فترى المجرمين مشفقين مما فيه" أي: خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع¹¹، وقيل: خائفين من ظهور أعمالهم الخبيثة لأهل الموقف فيفتضحون، وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون يا ويلتنا ينادون هلكتهم التي هلكتها خاصة من بين الهلكات "مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها"¹². نقول: إن الإشفاق ليس من عذاب الله، ولكن من عنصر المفاجأة في رؤية كيف أن الله أحصى أعمالهم كبيرها وصغيرها، وهذا ما عبّر عنه الله في قوله تعالى: "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً" {الإسراء: 13} ومن جملة ما يحصيه الله من كبيرة وصغيرة، كل طعام يأكله

¹¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج5، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص863.

¹² الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص135.

الإنسان، وكل شراب يشربه، وكل مال يجمعه، وكل فعل يفعله، وكل كلام ينطق به.. إلخ، بالتالي يكون مفهوم الفداء والإجرام وكيفية إدارة النظام الغذائي بالنسبة للإنسان داخل في موضوع كتاب القرآن الذي وضع كي يشفق منه المجرمون.

الآية الثالثة: قوله تعالى: "إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى" {طه: 74}.

إن قوله تعالى: "من يأت ربه مجرمًا" بأن يموت على كفره وعصيانه¹³، و"من" في الآية هي معرض الشرط وتفيد العموم بدليل أنه يجوز استثناء كل واحد منها¹⁴، ومعنى: "لا يموت فيها ولا يحيى" أنه لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه. قال الميرد: لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة، فهو يألم كما يألم الحي ويبلغ به حال الموت في المكروه إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، والعرب تقول: فلان لا حي ولا ميت إذا كان غير منتفع بحياته¹⁵. قيل: نفس الكافر معلقة في حنجرته، كما أخبر الله تعالى عنه، فلا يموت بفراقها، ولا يحيا باستقرارها¹⁶. نقول: إن عدم موت أو إحياء المجرم في الآخرة هو دليل على أنه سلك في الأرض مسالك الإجرام والقتل، فكان له ألا يموت في جهنم ولا يحيا فيها، ما يعني أنه يعيش حالة الوعي واللاوعي معاً، وهذا أفسى أنواع العذاب، لأنه تعدى على حد

¹³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج16، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص398.

¹⁴ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج22، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص90.

¹⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج16، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص916.

¹⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص107.

من حدود الله، مع أهمية توضيح الفرق بين القتل، أو الجريمة، أو العنف، أو القتال، أو الجهاد في سبيل الله. أراد الله بهذه العقوبات أن يثبت بأن الإنسان لم يخلق لغرض القتل. لذلك قيل "إن البشر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان حيث إن الإنسان هو كائن بشري مستأنس غير مستوحش "اجتماعي" ¹⁷.

الإنسان كائن غير مستوحش وغير قابل للتدجين

إذا كان الإنسان كائناً غير مستوحش أو اجتماعي، فإنه بذلك يثبت تضاد تصرفاته، ومنطق تفكيره مع الكائنات الأخرى وأبرزها الحيوانات، ومنها نوعين حيوانات مفترسة ورد ذكرهما في القرآن، وهما الأسود والذئب لقوله تعالى: في سورة المدثر: "كأنهم حُمُر مستنفرة (50) فرّت من قسورة (51)". وقوله تعالى: "قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون" {يوسف: 13}. نلاحظ أن (القسورة) هو الأسد، وهو حيوان مفترس من فصيلة السنوريات، وكذلك الذئب حيوان مفترس من فصيلة الكلبيات. في كثير من الأحيان نلاحظ وجود حيوانات مفترسة تم تدجينها ومنها الذئب، وهذا ما دفع داروين إلى القول بأن هذه "الحيوانات المدجنة تتمايز بشكل أكبر عن تلك الموجودة في البيئة الطبيعية، ويبدو أن ذلك راجع إلى التنوع والتغيير في طبيعة الظروف التي خضعت لها. من هذه الناحية فإن الأعراق المختلفة التابعة للإنسان، تماثل الحيوانات المدجنة" ¹⁸. نلاحظ قول داروين بأن الأعراق المختلفة التابعة للإنسان تماثل الحيوانات المدجنة، لأن بيانه هذا فيه افتراض غير منطقي وغير أخلاقي بأن الإنسان أصله مفترس

¹⁷ محمد شحرور، الكتاب والقرآن، (دمشق، الأهالي للنشر والتوزيع)، ص 281.

¹⁸ تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص 133.

ومجرم وتم تدجينه ليكون منتشر حول الأرض في أعراق مختلفة تم تدجينها لتتشابه مع الحيوانات التي كانت في الغابة وتم تدجينها. ونقول إن الأعراق المختلفة في الأصل كلها تابعة لأدم (عليه السلام)، وهو أول كائن حي عقلائي غير مستوحش، ولم يتم تدجينه، لأن الله خلقه في أفضل هيئة وأحسن تقويم وفق حسابات الطول والعرض والارتفاع والحجم للإنسان العاقل القديم، وهو نسل آدم (عليه السلام)، تماماً كما خلق الله عيسى (عليه السلام) وشبهه بخلق آدم (عليه السلام) كما سآبين بالشرح والتحليل في الكتاب؛ خلال تأملي لأيات القرآن استدللت على آية تربط بين الإجمام والعقاب بنوع من الحشرات، وبالتحديد (بالدم) الموجود في هذه الحشرات وهي قوله تعالى: "فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين" {الأعراف: 133}. لاحظنا ذكر كلمة "مجرمين" في الآية، وذلك في وصف قوم موسى مع إرسال خمسة أنواع من العذاب إليهم، منها ثلاثة أنواع تتعلق بالحشرات ثم الدم. لماذا استخدم الله "الجراد والقمل والضفادع والدم" في العقاب أو هذا النوع من العذاب وما علاقة ذلك بالجريمة؟

العقاب الإلهي بالحشرات المتغذية على الدماء، وعلاقتها بالمجرمين

بالنسبة لسبب العذاب وكيفية وقوعه، فإن الله أرسل عليهم الجراد، فأكل النباتات وعظم الأمر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعاً، فأكلت النباتات، فصرخ أهل مصر، فدعا موسى (عليه السلام) فأرسل الله تعالى ريحاً فاحتملت الجراد فألقته في البحر، فنظر أهل مصر إلى أن بقية من كلئهم وزرعهم تكفيهم، فقالوا: هذا الذي بقي يكفيننا ولا نؤمن بك. فأرسل الله بعد ذلك عليهم القمل. سبتاً إلى سبت، فلم يبق في أرضهم

عود أخضر إلا أكلته؛ فصاحوا وسأل موسى (عليه السلام) ربه، فأرسل الله عليها ريحاً حارة فأحرقتها، واحتملتها الريح فألقتها في البحر، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع بعد ذلك فخرج من البحر مثل الليل الدامس، ووقع في الثياب والأطعمة، فكان الرجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضفادع، فصرخوا إلى موسى (عليه السلام)، وحلفوا بالله لننرفعنا هذا العذاب لنؤمن بك، فدعا الله تعالى فأمات الضفادع، وأرسل عليها المطر فاحتملها إلى البحر، ثم أظهروا الكفر والفساد، فأرسل الله عليهم الدم فجرت أنهارهم دماً فلم يقدرُوا على الماء العذب، وبنو إسرائيل يجدون الماء العذب الطيب حتى بلغ منهم الجهد، فصرخوا وركب فرعون وأشراف قومه إلى أنهار بني إسرائيل فجعل يدخل الرجل منهم النهر فإذا اغترف صار في يده دماً ومكثوا سبعة أيام في ذلك لا يشربون إلا الدم¹⁹. نقول: ثمة علاقة بين استخدام هذه الحشرات كعقاب مع استكبار قوم موسى وإصرارهم على الإجرام، وذلك لأن هذه الحشرات تتغذى في الغالب على الدم أو تمتصه فيكون غذاؤها ذو طبيعة دموية، رغم قلة قطرات الدماء التي تمتصها نتيجة صغر أحجام بطونها. على سبيل المثال: القمل، يوجد في فروة الرأس، ويتغذى على دماء الرأس، علماً بأن طول القملة الواحدة حوالي (3) ملليمتر، ما يعني أن حجم بطنها يكون أقل من ملليمتر، وهذا دليل على دقة الوصف الإلهي في اختيار نوع العذاب، من ناحية استصغار قوم موسى من خلال استصغار نوع العذاب، ودقة اختياره للعقاب رداً على قولهم إنهم لا يؤمنوا بآيات رسول الله موسى، لقولهم: "وقالوا مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين" {الأعراف: 132}، فجاءهم الرد الإلهي مباشرة من خلال إرسال الحشرات عليهم والطوفان والدم، واستخدام هذا النوع من العذاب هو

¹⁹ الإمام محمد الرّازي فخر الثّين ابن العلامّة ضياء الثّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص227.

رفع لشأن موسى (عليه السلام). وهنا نسأل، لماذا ذكر الاستكبار قبل الإجماع في الآية؟ نقول: لأن الاستكبار مرتبط بالفخر بأنفسهم، والفخر مرتبط بالفخار، والفخار مرتبط بالمادة التي خلق منها نوع بني آدم (عليه السلام) لقوله تعالى: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار" {الرحمن: 14} {انظر شرح الآية وكلمة فخار في الفصل الثالث، ص279}. إذا فهمنا هذه العلاقة سوف ندرك أن الاستكبار مرتبط بنمط التفكير العقلي لدى قوم موسى والطبيعة التربوية الشهوية الغذائية لهم، لأن الله خاطبهم قبل ثلاث آيات في نفس السورة بقوله تعالى: "ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون" {الأعراف: 130}. بالتالي فإن الدماء في رأس قوم موسى التي تدفعهم نحو الإجماع عندما تتفاعل وتسخن في رؤوسهم فتستكبر من خلال الميل إلى شهواتهم ونزعاتهم فتتطابق مع غذاء الحشرات، وهو الدم، أو تفوقه، وهذا معقول إذا أدركنا أن شهوة الغذاء (ومصدرها وسوسة الشيطان لأدم وحواء في الجنة) سبقت غريزة القتل منذ لحظة خلق آدم (عليه السلام) كما في قصة هابيل وقابيل. بمعنى صريح، نقول: إن النمط الغذائي للإنسان أو السلوك الأدمي الإنسي اليومي في السعي نحو طلب الغذاء يتصل بشكل أساسي بحركة الجسد ونشاط الدورة الدموية ودرجة حرارة جسم الإنسان وسرعة ضربات القلب وكمية الهرمونات المفروزة في جسمه الذي يدفعه نحو إدارة ذاته أو اضطراب كيانه، وهذا مدخل أساسي نحو الاستقرار أو ارتكاب الجرائم.

التكريم والتفضيل لفصيلة بني آدم

بالعودة إلى طرح تشارلز داروين حول التشابه بين تدجين الحيوانات والإنسان، والذي خالفناه، نقول: إن الله جعل نسل بني آدم (عليه السلام) أهم نوع مكرّم ومفضّل ومقدّم على سائر الكائنات الحية

لقوله تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" {الإسراء: 70}. نلاحظ التمييز في الآية بين بني آدم (عليه السلام) وغيرهم من المخلوقات في أكثر من ناحية، الأولى: "الكرامة" في قوله تعالى: "كرّمنا". والثانية: "الحَمْل" في قوله تعالى: "وحملناهم". والثالثة: "الرزق" في قوله تعالى: "ورزقناهم". والرابعة: "التفضيل" في قوله تعالى: "فضلناهم". سوف نشرح فقط معنى "التكريم" و "التفضيل" لعلاقة التوصيفين بالمحتوى والسياق المتعلق بالفصيلة، أي فصيلة بني آدم (عليه السلام). نقول الكرامة اسم يوضع للإكرام²⁰، والإكرام فعل أخلاقي أو جهد إنساني تطوعي غائي، لأن التكريم يقوم إما مكافأة على جهد أو تحفيزاً للجهد، وآدم (عليه السلام) لم يحم بأي جهد، فلماذا كرّمه الله؟

نقول: كرّمه باعتباره أول خلقه وأهم نوع في كائناته الحية، أي أنه بداية النسل البشري، وأول من اصطفاه في الدنيا وآخر من تقوم به الساعة وتطوى به الأرض. وقد حقق الله التكريم لآدم (عليه السلام) حتى تكون فيه صفة الكرم، فيكون جواداً كريماً، تماماً مثل الخالق، لأن "الكريم من صفات الله وأسمائه، وهو الكثير الخير، الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، وهو الكريم المطلق"²¹، وقيل إن التكريم الإلهي كان بحسن الصورة، والمزاج الأعدل واعتدال القامة، والتمييز بالعقل، والإفهام بالنطق، والإشارة، والخط والتهدي، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود

²⁰ محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، ج42، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص3862.
²¹ المصدر السابق، ص3861.

عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقفُّ الحصر دون إحصائه²². وقال بعضهم هذا التكريم معناه أنه تعالى خلق آدم (عليه السلام) بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون. ومن كان مخلوقاً بيد الله كانت العناية به أتم وأكمل، وكان أكرم وأكمل، ولما جعلنا من أولاده وجب كون بني آدم أكرم وأكمل²³. أما "التفضيل" في قوله تعالى: "فضلناهم"، فهو إما أن يكون فضل في مسار التمكين والتثبيت للإنسان أو يكون في زيادة التفضيل بين أمرين أو أكثر، ويقال في الوصف "الأفضلية في الأمر أو الشيء". ومن الفضل الإلهي على الإنسان أنه مميّزه بالعلم على سائر المخلوقات فأمره به كما ورد في خطابه للإنسان لقوله تعالى: "اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعلم" (5). قيل: الفضل هو الزيادة عن الاقتصار، وذلك ضربان: محمود كفضل العلم والحلم، ومذموم؛ كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفضل في الم محمود أكثر استعمالاً والفضول في المذموم، والفضل إذا استعمل لزيادة أحد الشئيين على الآخر فعلى ثلاثة أضرب: فضل من حيث الجنس كفضل جنس الحيوان على جنس النبات، وفضل من حيث النوع كفضل الإنسان على غيره من الحيوان. وفضل من حيث الذات كفضل رجل على آخر. فالأولان جوهريان كفضل رجل على آخر. فالأولان جوهريان لا سبيل للناقص فيهما أن يزيل نقصه، وأن يستفيد الفضل كالفرس والحصان لا يمكنهما أن يكتسبا الفضيلة التي خص بها الإنسان، والفضل الثالث قد يكون عرضياً فيوجد السبيل على اكتسابه ومن هذا النوع التفضيل المذكور في قوله تعالى: "والله فضل بعضكم على بعض في الرزق" {النحل: 71} وقوله تعالى: "التبتغوا فضلاً من ربكم" {الإسراء: 12} يعني المال

²² ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص311.

²³ الإمام محمد الرّازي فخر الثّين ابن العلامّة ضياء الثّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص16.

وما يكتسب. وقوله تعالى: "بما فضل الله بعضهم على بعض" {النساء: 34} فإنه يعني بما خص به الرجل من الفضيلة الذاتية له والفضل الذي أعطيه من المكنة والمال والجاه والقوة. وقال تعالى: "فضل الله المجاهدين على القاعدين" {النساء: 95} وكل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها فضل نحو قوله تعالى: "واسألوا الله من فضله" {النساء: 32} وقوله تعالى: "ذلك فضل الله" {المائدة: 54} 24. نقول: إن التفضيل في قوله تعالى: "فضلناهم" يجوز أن يعود إلى قوله تعالى: "حملناهم في البر والبحر"، لكن كيف ذلك؟ الجواب: يكون تفضيل المقصود هو تفضيل على كل شيء حمله الله في البر والبحر، أي فضلنا بني آدم (عليه السلام) على كل شيء حملناه في البر والبحر، فيكون آدم (عليه السلام) وذريته أعلى وأسمى في النوع والمرتبة من كل الذي حمله الله في البر والبحر. قال ابن عباس في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل وفي البحر على السفن. ولأنه تعالى سخر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويعزو ويقاثل ويذب عن نفسه. وكذلك تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم (عليه السلام) 25. ونقول: إن الفضل في الآية هو فضل متعدد ومتنوع منذ خلق آدم (عليه السلام) حيث يكون التفضيل لكل ما جاء بعد إتمام خلقه في الأرض، فكان أول وأهم تفضيل قبل العلم وقبل التمايز عن الآخر، هو تفضيله في ماهية الخلق ومنه العقل، وما يشتمل على ذلك من تفضيل في مادة الخلق والهيئة والحواس وغير ذلك. كما أن التفضيل يكون في مجموعة من الصفات العلوية التي لا توجد لدى البهائم مطلقاً، كالتفضيل في الأخلاق والقدرة على الصبر وأداء الأفعال السلوكية المقررة في

24 الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص493.

25 الإمام محمد الرّازي فخر الثّين ابن العلامّة ضياء الثّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص16.

النصوص السماوية أنها أفعال إرادية، أي تتعلق بإدارة العقل لها. نقول صفة الأخلاق لأنه مشتقة من نفس الجذر اللغوي "خلق"، وفي الفرق بين الخلق والخلق، ذكر طه عبد الرحمن "أن الخلق (بالفتح) هيئة، وكذلك الخلق (بالضم) هيئة؛ كما أن الخلق هيئة للجسم، فكذلك الخلق هيئة للروح، كما أن الخلق هيئة ناتجة عن فعل محله الجسم، فكذلك الخلق هيئة ناتجة عن فعل محله الروح؛ وهذا يعني أن الأخلاق هي عبارة عن هيئات ناتجة عن أفعال روحية"²⁶. ونلاحظ هنا أن الأفضلية كانت في العدد، حيث كان آدم (عليه السلام) مقابل كافة المخلوقات أو الكائنات الحية على الأرض لأن الله فضّله على كثير من الخلق، والكثرة في الخلق في قوله تعالى: "كثير ممن خلقنا" تعني التعدد والتنوع خارج النوع الإنسي، أي خلق الحيوانات والرئيسيات (غير النياندرتال، أي الإنسان العاقل)، سواء كان التنوع في الخلق فيه ما يشبه الإنسان ومن فصيلته أو ليس مشابهاً للإنسان وليس من فصيلته، مثل رتبة الرئيسيات والتي منها القرود، والتابعة للمملكة الحيوانية، وهي خلق إلهي، لكنه خلق لم يُكرّم مثل الكرامة الإلهية التي مُنحت لنوع بني آدم (عليه السلام). بالإضافة لما سبق، فإن تشارلز داروين لم يقدم دليلاً واحداً في كتبه على التشابه بين نوع بني آدم (عليه السلام) والحيوانات المفترسة في طبائع العيش والصفات الأخلاقية وكل ما يتعلق بالنهم العصبي والافتراس، ولم يجزم ولم يقل إن الإنسان العاقل أصله قرد، ورغم تقدم العلم لم يستطع أحد أن يثبت علمياً في التاريخ المعاصر تحوّل قرد من الطبيعة إلى إنسان عاقل أو إمكانية تطوير أو تعديل القرد كي يصبح إنساناً عاقلاً يلتزم بكافة القواعد النظامية السلوكية والأخلاقية للإنسان العاقل. لم يكن ذلك معقولاً منذ خلقت القرود، ما يعني أن تلك الدائرة المفقودة بين الإنسان والقردة تمثل نموذجاً للاختلاف الحقيقي والواقعي، حتى لو كان

²⁶ طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ط1، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013)، ص100.

اختلافاً بسيطاً أو ملحوظاً، ولذلك فنحن لسنا مع الرأي القائل بوجود حلقة مفقودة أو ناقصة بين القرد والإنسان أو كائن مشترك بينهم، ولكننا نقول إن القردة هي إحياء مادي وليس إحياء خلقي، والإحياء المادي هو إحياء دنيوي وليس علوي، وهو ما سوف نشرحه في موضوع الأطوار في الصفحات التالية {انظر الشرح هذا الفصل، ص45}. كل ما ورد في كتاب داروين "أصل الأنواع" هو مقاربتة للعلاقة بين الإنسان والقردة، حيث ذكر بأن "الإنسان يشترك مع الشامبانزي في تكوين هبائي Moleculaire متطابق مع تكوين القرد بنسبة 98 ٪ وهو ما يقتضي وجود أصل مشترك انحدر منه كلاهما. ففي المستوى الصبغي أو الكروموزومي يشترك الإنسان مع الشامبانزي والغوريلا في عدد من الصبغيات، إحدى عشرة منها لم يمسخا تبدل، وسبع منها شهدت تغييراً في الموضع ذاته²⁷. وأوضح داروين بأن الإنسان والشامبانزي إجمالاً يرجعان إلى أصل واحد مشترك من الرئيسيات، فكلاهما منحدر من كائن واحد قديم، حيث أفاد بأنهما إذن ابنا عمومة متباعدان في المظهر المورفولوجي ومتقاربان في التكوين البيوكيميائي. فالإنسان لا ينحدر من القرد، ولكنه يشترك معه في سلف واحد قديم أصله كائن من الرئيسيات، وبهذا المعنى يمكن أن يُعتبر الإنسان ابن عم الشمبانزي (وليس حفيداً له)²⁸. السؤال هنا: هل الإنسان من نفس رتبة الحيوانات أم أن له توصيفاً آخر؟

(الرتبة) للرئيسيات (والمرتبة) للآدميات

نقول: إن داروين يخالف الوصف الذي تم منحه لـ (إنسان النياندرتال) وهو وصف العقلانية المعروف باسم (إنسان النياندرتال

²⁷ الإنسان نشوؤه وارتقاؤه، من نظرية داروين إلى مكتشفات العلوم الحديثة، جان شالين، تعريب الصانق قسومة، ط1، (دمشق: بئرا للنشر والتوزيع، 2005)، ص21.
²⁸ المصدر السابق، ص22.

العاقل)، وهذا المسمى في حد ذاته يعتبر تمييزاً أخلاقياً بين الكائن الحي "الإنسان" وباقي الكائنات الحية. لقد صنّف النياندرتال (الإنسان العاقل) على أنه فصيلة من رتبة الرئيسيات، رغم أننا لا نعتقد بصواب أو دقة الجمع بين كافة أنواع (الرئيسيات) تحت رتبة واحدة في سلسلة المراتب الثماني الرئيسية للتصنيف الحيوي، بل يلزم أن يكون النياندرتال (الإنسان العاقل) خارج تصنيف (الرتبة)، فيكون ضمن (المرتبة) على أن يضاف هذا المسمى إلى (سلسلة المراتب)، أي أن يتم تمييز (الرتبة عن المرتبة) وذلك لأن (المرتبة) أعلى من (الرتبة)، حيث تطلق (الرتبة) على الرئيسيات كلها باستثناء النوع الإنسي الذي يجب أن يصنف ضمن (المرتبة) أو يطلق عليه اسم (مرتبة الأدميات) (Adanismo) وليس الإنسانيات (Homininae)، لأن الإنسانيات فصيلة من الثدييات تتبع قرده عليا، ولأن الأنسنة تنطبق على كافة الكائنات الحية، لكن لا تنطبق الأدمية إلا على النوع البشري، والأدمية مقترنة بالعقل، وهي ثابتة، لأنها تبدأ بنوع إنسي واحد وتنتهي إليه وهو آدم (عليه السلام) سواء كان في الجنة، أم في الأرض، أم عند البعث، أم عند الرجوع إلى الأرض، فهو واحد في مرتبته، وهي مرتبة علوية أخلاقية. وإن علوية مرتبة نوع بني آدم (عليه السلام) تؤكد كمالته الإحيائية من خلال الإدراك في العقل الغريزي (الهيولاني/ المادي) والموجود فقط لدى النوع الأدمي وهو إدراك إحيائي خلقي وليس إحيائياً مادياً مثلما هو في الحيوانات. كما أن أهم ما يدل على (المرتبة) هو أن العقل الأدمي الذي يمثله آدم (عليه السلام) هو عقل له إرادة على ذاته ونسبيه (عقل تشريعي) أو هكذا مقرر له أن يكون وفق الشريعة الإلهية، وليس فقط عقل غرائزي متعلق بوسوسة الشيطان. أما (الرتبة) فهي حيوية تصاعدية ومتغيرة لأنها دنيوية أرضية، وهي شديدة الغرائزية ومعدومة العقلانية، فالحيوانات الأرضية ليس لها وجود في الجنة، لأنها وجدت في الأرض، ولم تنزل إلى الحياة الدنيا مثل آدم وحواء (عليهما السلام). لذلك مهما ارتفعت

(الرتبة) أو انخفضت سوف تظل أرضية. أما (المرتبة) مهما ارتفعت أو انخفضت فسوف تظل علوية. لذلك، صح قول تشارلز داروين أن الإنسان لا ينحدر من القرد، ولكن لا يصح قوله إنه يشترك معه في سلف واحد قديم أصله كائن من الرئيسيات بسبب الاختلاف الذي وضحته بشأن (الرتبة) و (المرتبة). ومن أبرز الأدلة على ذلك أن "العلماء وجدوا من خلال الحمض النووي الريبوزي في عظام النياندرتال (الإنسان البدائي هو أحد أنواع جنس هومو الذي يندرج تحت فصيلة البشرانيات في علم التصنيف الحيوي) أنها تحتوي على أكسجين منقوص، وأن هذا الحمض يملك النسخة نفسها من جين FOXP2 الموجودة عند الإنسان الحديث، حيث يلعب هذا الجين الذي وُصف خطأً على أنه جين قواعدي دوراً في السيطرة على الحركات الفموية الوجهية التي تشارك في الكلام عند الإنسان الحديث"²⁹. بالتالي فإن القرد وبنو آدم (عليهم السلام) ليسوا أبناء عمومة، فإذا كان داروين اعترف بأنهما متباعدان في المظهر المورفولوجي (من حيث الشكل والبنية والخصائص)، فإن هذه المسألة أصيلة من عدة جوانب (عضوية، وجمالية، وأخلاقية)، وذلك لأن الإنسان موصوف في القرآن أنه مخلوق في أحسن هيئة وصورة وتقويم، وهذه المسألة سوف تتضح خلال شرحنا في الكتاب لماهية الخلق والمادة التي خلق منها آدم (عليه السلام). بالتالي فإن التباعد في المظهر المورفولوجي يؤكد أن (الرتبة) للرئيسيات غير (المرتبة) للآدميات. نسأل هنا ماذا عن التقارب في التكوين البيوكيميائي؟ وهل يجعلهما في نفس الرتبة؟

التقارب البيوكيميائي بين (الرتبة) للرئيسيات و(المرتبة) للآدميات

²⁹ <https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3644635/>

نقول: إن التكوين البيوكيميائي متصل بالخلايا الحية التي يعود أصلها إلى طبيعة النظام الغذائي. كما أن التكوين البيوكيميائي له علاقة بقواعد السلوك العام، ونشاط الإنسان في الحياة التي تتطلب عقلاً يفكر، أو عقلاً إدارياً، مثل التوريث عند الإنسان والوصية والدفن، والكثير من الصفات السلوكية. وعندما يتعلق الأمر بأهم تمييز بين بني آدم والقردة غير المذيلة، يكون (العقل التشريعي) هو الفاصل المطلق بين الاثنين، ولهذا يقول داروين إنه "تم في الأصل التأكيد، وإعادة التأكيد، بإصرار زائد على أن الدماغ الخاص بجميع القردة غير المذيلة، حتى الأعلى منها، يختلف عن ذلك الخاص بالإنسان، في الغياب الخاص بمثل تلك التراكيب الواضحة كالفصوص الخلفية الخاصة بنصفي الكرة المخية، مع احتواء القرن الخلفي الخاص بالبطين المخي الوحشي وقرن آمون المخي الصغير، في داخل تلك الفصوص، وهي التي تكون في غاية الوضوح في الإنسان"³⁰. نقول: إن هذا الاختلاف بين عقل القردة غير المذيلة والإنسان هو الذي يجعل قيمة الإنسان في (دماغه الشرعي المعقلن) حيث لا نظير لأساسات عقله، وذلك لا ينفي عن الإنسان اشتراكه مع كثير من الكائنات الحية في عدد محدود جداً من الصفات أو الاستجابة للمؤثرات المحيطة، مثل اشتراك الأطفال عند بلوغ مراحل النطق الجزئي بالتقليد اللساني مع طائر الببغاء، لكن ذلك لا يعني تشابه نوع الجنسين مطلقاً، علماً بأننا نعتقد من ناحية بيولوجية بوجود علاقة بين ألسنة الببغاوات وألسنة السكان في المناطق التي تنتشر فيها الببغاوات بكثرة مثل جنوب شرق آسيا وأميركا اللاتينية والهند. أما بالنسبة لاشتراك الإنسان مع الشامبانزي في التكوين الهبائي فهو نسبي وغير مأمول، والنسبي إلى المتطابق لا يجعله مثيلاً له أو يحاكيه لأن الطابع الخلفي التكويني من المادة (مادة الخلق) تختلف بين آدم (عليه السلام) وكافة الكائنات

³⁰ تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص444.

الحية. أما من ناحية أخلاقية فإن آدم (عليه السلام) تم ستر عورته باللباس وتمت أخلاقه وصفاته في الأرض بشكل مغاير تماماً للكائنات الحية كلها، وهو ما لم يحدث للقردة أو أي حيوان من الرئيسيات، وذلك كما ورد في قوله تعالى: "يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير من آيات الله لعلهم يذكرون" {الأعراف: 26}. أما القردة فقد ورد ذكرها ثلاث مرات في القرآن، وجاءت مرتين مصحوبة بوصف "خاسئين" للقردة، نسأل هنا، ما هي علاقة أمر الخسء الإلهي بشهوة الغذاء، وكيفية ارتباطه بالقردة والخنازير كرتبة ونوع حيواني في الآيات القرآنية الثلاثة التالية؟

معنى الخسء للقردة، وعلاقته بالنوع الآدمي في ثلاث آيات قرآنية

- قال تعالى: "قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل" {المائدة: 60}.
- قال تعالى: "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين" {البقرة: 65}.
- قال تعالى: "فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين" {الأعراف: 166}.

سنقوم بشرح الآيات الثلاثة مع بعضها البعض؛ لأنها تحمل نفس المعنى والمقصد الدال على هوية القردة والخنازير. نلاحظ في الآية الأولى أنها ذكرت نوعين من الكائنات الحية (الحيوانات) وهم القردة والخنازير، وأن الخطاب جاء موجهاً للبشر، وقيل إن هؤلاء البشر هم أصحاب السبت: اليهود الذين مسخهم الله وجعلهم (خلقهم) قردة وخنازير لأنهم خالفوا أمره بأن اصطادوا يوم السبت، وهم أنفسهم الذين تم ذكرهم في الآية الثانية في قوله تعالى: "اعتدوا منكم في السبت" {البقرة: 65} وكذلك هم ذاتهم الطائفة التي اعتدت في السبت

وتقدمت على استحلال ما حرم الله عليها وذكرت في الآية الثالثة {الأعراف: 166}. والخنازير هم كفار مائدة عيسى كما قال الرازي³¹. نقول: إنه لا يصح القول بأن الله خلقهم قردة وخنازير ولكن يصح القول مسخهم، والمسخ غير الخلق مكاناً وزماناً وأمرأً لأن الله لا يخلق كائنات حية خاسئة، ولأن المسخ دنيوي بأمر شرعي مقرر مسبقاً، أما الخلق فهو بأمر علوي إلهي مقرر أمرأً، وهناك فرق بين المقرر أمرأً والمقرر شرعاً. كما أن قوله تعالى: "أنبئكم بشر" هو دليل على صدق الخبر والتبليغ في أمر إلهي خاص يتعلق بالخلق (خلق الكائنات الحية)، وهو إخبار بعلم الغيب، وهو من خصوصية الله وحده. هذا النبأ من عند الله هو نبأ الغضب على نوع من البشر (الآدميين) الذين خلقهم الله ولم يطيعوه أو يسترشدون بشريعته في الحياة الدنيا ولا في الحياة الآخرة فجعلهم قردة وخنازير، والجعل هنا خلق دنيوي، لأن الجعل في كثير من آيات القرآن معناه الخلق، لكن في هذه الآيات تعني أنه غير نوعهم من النوع (كائن حي آدمي) إلى النوع (كائن حي حيواني) وذلك يعتبر إنزالاً من الرتبة إلى المرتبة، لأن المرتبة أعلى من الرتبة، وسبق أن ذكرت أن (الرتبة) تطلق على الرئيسية كلها باستثناء (النوع الآدمي) الذي يجب أن يُصنّف ضمن (المرتبة) أو يطلق عليه اسم (مرتبة الآدميات) (Adanismo) وليس الإنسانيات (Homininae) لأن الإنسانيات فصيلة من الثدييات تتبع قردة عليا، وبالتالي فإن الله غير نوع البشر (اليهود وكفار مائدة عيسى) إلى قردة وخنازير.

علاقة أمر الخسء الإلهي للقردة والخنازير بشهوة الغداء

³¹ الإمام محمد الرّازي فخر الثّين ابن العلامّة ضياء الثّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج39، ط12، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص139.

لقد غير الله نوع البشر (اليهود وكفار مائدة عيسى) إلى قرودة وخنازير وذلك بعد إقرار سببين في الآية وهما اللعنة من الله والغضب عليهم في أمر يتعلق بالصيد والإفساد في الطبيعة، وكذلك لأمر يتعلق بكفار مائدة عيسى، فكان الخسء متعلقاً أساساً بشهوة الغذاء وهو أساس فتنة آدم (عليه السلام) في الجنة، وإن اختيار القرودة والخنازير من بين بقية أنواع الحيوانات لأن لها صفات اجتماعية معيشية وغذائية موهلة في الدنيوية والدناءة الأرضية. لذلك نجد أن الخنازير حيوانات شرهة تتغذى على الجيفة والفضلات والقاذورات، ولذلك فهي حيوانات مترمة ننتة وقد قال تعالى: "قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس" {الأنعام: 145}. وقد سبق أن شرحنا في الصفحات السابقة علاقة الدم في الجراد والقمل والضفادع بالجريمة وارتباط ذلك بالعقاب الإلهي، والدم تكرر ذكره هنا في الآية مع الخنزير في دليل على أن كل هذه الأمور المترابطة تتعلق بشهوة الغذاء. أما القرودة فهي تعيش وتنام فوق الأشجار في الطبيعة في دليل على دنيوية طباعها، فالقروود حتى وإن كان سلوكها إنساني وعاطفي إلا أنها مخالفة للتعقل والتفكر والصفات الأخرى مثل السكن والنكاح والأخلاق والزهد والصدق والعبادة وكافة الصفات الأخلاقية والشرعية الأدمية، فهذه الحيوانات لا تتبع الدين الذي هو اعتقاد يتكون من نظام شرعي (وهو نظام تشريعي)، ونظام أخلاقي (وهو نظام تربوي). ونظام طبيعي (وهو نظام مادي خلقي إحيائي وروحي). أما قوله تعالى في الآية إن هؤلاء "شر مكاناً" فنقول: إن المكان هنا يقصد به الموضع الذي أنزلهم الله إليه (وهي الرتبة داخل بيئة الحيوانات، أي الحظيرة أو الغابة أو أي مكان تجتمع فيه هذه الحيوانات وغيرها). وقوله تعالى: "أضل عن سواء السبيل" يقصد به الضلال عن (المرتبة والنوع الأدمي). ولهذه الأسباب السابقة نفهم أن الخسء حدث لأقوام سابقة بعد خلق آدم (عليه السلام) في أحسن تقويم وقد حدث هذا الخسء لكل

الأعراق والجماعات والأقوام التي لم تلتزم أبداً بالقواعد الأخلاقية الإلهية المقررة في القرآن، ولذلك نحن نخالف ما ذكره عالم الحفريات والأحياء التطوري نيل شوبين عن المستحاثات باعتبارها جزء من تاريخنا، بالإضافة إلى الإنسان الإفريقي (African Hominids)، والسلف الذي يمشي على رجلين (Australopithecus afarensis) الشهير بلوسي (Lucy) حيث قال إن رؤية لوسي تجعلنا قادرين على فهم تاريخنا كبدايات متطورة جداً، ورؤية التكتاليك، هي كرويتنا لتاريخنا كأسماء³². نقول: إن هذه ليست بدايات تطويرية وإنما بشكل دقيق وقاعدي صارم هو خسر تاريخي للجنس غير الأخلاقي، الذي لم يلتزم بقواعد الشريعة الإلهية والرسالات السماوية، وآخرها رسالة النبي محمد (ﷺ).

ثانياً: الأطوار:

تختلف كلمة (أطواراً) عن كلمة (طور)، وقد وردت كلمة (أطواراً) في القرآن مرة واحدة³³، وذلك في قوله تعالى في سورة نوح: "وقد خلقكم أطواراً (14) ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً (15) وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس والقمر سراجاً (16) والله أنبتكم من الأرض نباتاً (17) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً (18)". قيل: الطور في اللغة: المرّة، أي: من فعل هذا وقد ر عليه فهو أحق أن تعظموه. وقيل: (أطواراً): صبياناً، ثم شباباً، ثم شيوخاً وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطواراً أي: أنواعاً: صحيحاً وسقيماً، وبصيراً وضريراً،

³² نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخل، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص44.
³³ معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج4، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص153.

وغيراً وفقيراً. وقيل: إن (أطواراً): اختلافهم في الأخلاق والأفعال³⁴، على حين قال الرازي: أي تارات خلقكم أولاً تراباً، ثم خلقكم نطفاً، ثم خلقكم علقاً، ثم خلقكم مضغاً، ثم خلقكم عظماً ولحمياً، ثم أنشأكم خلقاً آخر. وقيل: إن الأطوار فيه وجهان (الأول): قال الليث الطورة التارة يعني حالاً بعد حال كما ذكرنا أنه كان نطفة، ثم علقة إلى آخر التارات (الثاني): قال ابن الأنباري الطور الحال، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضهم بعضاً³⁵، نقول: إن ورود هذه الآية في سورة نوح يعني أن الإشارة إلى الأطوار له صلة بالفترة الزمنية التي عاش خلالها النبي نوح (عليه السلام) على الأرض وذريته من بعده، وهي مختلفة تماماً عن أي زمن بالمعنى الطبيعي والاجتماعي، والأهم أنها مختلفة بالمعنى التكويني للإنسان، فإنسان ذلك الزمان ليس كإنسان هذا الزمان، فمثلاً "بعض القياسات والتجارب لدى العلماء نتج عنها ملاحظات تفيد بأن هناك تأثيرات محلية معينة تحدث تأثيراً مباشراً على طول القامة"³⁶، كل ذلك يرجع لاختلاف نمط وسبل العيش والبناء العمراني ونوعية النباتات، وحركة الإنسان، ووسائل مواصلاته، وإدارته لحياته، لأن علاقة الإنسان بالزمن مرتبطة بالحركة، والحركة أصلها يقوم على الجهد المبذول من الإنسان في بيئته الأولى وهي التفكير، وبيئته الثانية وهي الجهد النفسي، وبيئته الثالثة وهي الجهد الغرائزي الشهوي، وبيئته الرابعة وهي الجهد البدني العضلي، وذلك بمساعدة الموارد التي تتاح له. لذلك فإننا نرى

³⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج21، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص256.

³⁵ الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص139.

³⁶ تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص136، 137.

أن الأَطوار اسم يطلق على زمن مشغول بحركة النوع الأدمي، أو بمعنى آخر تاريخ مُعَمَّر بالنوع الأدمي. كما أن الأدوات والموارد الطبيعية لعبت دوراً في توجيه بني آدم (عليهم السلام)، مثل استخدم الإنسان الحطب بغرض الطهي ثم استخدامه للأجهزة العصرية لنفس الغرض حتى لعب دوراً في تغيير نمط حياته، فأصبح ذلك طوراً جديداً من البشر يتعلق بحركة بني آدم (عليهم السلام) وكيفية إدارتهم لشؤون حياتهم، ولذلك فإن كلمة (أطوار) اشتق منها التطوير والتحديث.

(الإحيائية الإصلاحية) في القرآن مقابل (الانتخاب الطبيعي) أو (البقاء للأصلح) عند داروين

يوجد علاقة بين تعدد الأَطوار والتكيف، لأن كل طور لبني آدم (عليه السلام) ينجو خلال حقبة زمنية/تاريخية محددة يكون قد خطا خطوات فعالة مع التكيف. لقد بُنيت نظرية داروين على حقائق واضحة، منها: "أن كل أفراد الكائنات الحية تختلف عن بعضها البعض، فلا يوجد إنسان مشابه للآخر تماماً ولا توجد يمامة أو ضفدعة أو بقرة مطابقة للآخرى تماماً. وأنه في ظل التكاثر هناك صراع على المكان والغذاء والبقاء. وقد أطلق داروين على هذا الصراع اسم "الانتخاب الطبيعي Natural selection وقد قبل التعبير الذي أطلقه صديقه هربرت سبنسر Herbert Spencer (1820 – 1903) "البقاء للأصلح" Survival of the fittest³⁷، عموماً تشير جملة "البقاء للأصلح" إلى مسألة هامة في علاقة الإنسان مع محيطه الطبيعي وهي "الانسجام" أو "التكيف الجيد"، إذ لا يمكن أن يتحقق البقاء بدون تحقق شرط التكيف. الواضح أن كل الحيوانات والطيور والزواحف وحتى النباتات التي انقرضت لم تستطع التكيف مع البيئات

³⁷ تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص22.

التي نشأت فيها، علماً بأن الإنسان وحده هو الكائن الحي الوحيد الذي عاش منذ الأزل وظل حياً بسبب قدرته المطلقة على التكيف، وهذا ما يسمى الاستخلاف في الأرض بهدف عمارتها لقوله تعالى: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" {هود: 61}. وقوله تعالى: "ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون" {يونس: 14}. عموماً، نقول: إن التسمية الأصوب هي "الإحيائية"، وهي تسمية قرآنية ذات بعد ديني اجتماعي وأخلاقي شرعي، وهي تشمل نوعين من الإحياء وهما: الأول: الإحياء الخلقى. والثاني: الإحياء المادي. بالنسبة للإحياء الخلقى يكون من خلال إحياء الإنسان لنفسه من خلال التزاوج والتكاثر من أجل استمرار سلالته طوراً بعد طور منذ خلق آدم (عليه السلام). وأما الإحياء المادي؛ فهو إحياء دنيوي، ويكون عبر إحياء الأرض من خلال زراعتها باعتبار أن المادة أصل في خلق السموات والأرض، علماً بأن هناك علاقة متماسكة وأصيلة بين التزاوج الجنسي، وتناول الغذاء، وإصلاح الأرض وإعمارها، وإن تكاملهما عبر إحيائهما بالطريقة الطبيعية السليمة سوف ينتج عنها عملية (إصلاحية تكاملية)، وبالتالي تصبح العملية (إحيائية إصلاحية) إذ لا جدوى للإحياء بدون الإصلاح، حيث تلعب الجودة دوراً أساسياً في العملية الإحيائية، ولا يمكن تثبيت هذه الجودة واستمراريتها إلا من خلال ديمومة الإصلاح، لكن الإحياء دائماً يكون سباقاً لأن أول الخلق بدأ بالإحياء، وهذا ما عبّرت عنه الآية في قوله تعالى: "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً" {المائدة: 32}. إذا فهمنا هذه العملية "الإحيائية" في الحياة الدنيا سوف ندرك ضرورة ما شرحناه في موضوع الفصيلة وعلاقة ذلك بتفكير الإنسان وأخلاقياته في التاريخ، ولذلك لا يمكن الالتزام أو النظر بواقعية أخلاقية وجدية علمية إلى قول داروين بأن "الملكات الفكرية والأخلاقية الخاصة بالإنسان قابلة للتمايز وقد تم توارثها، وقد اكتملت وتقدمت من خلال الانتقاء

الطبيعي، لأن قضية التطور مفادها أن الإنسان البدائي وجوده العليا مشابه في بعض صفاته بالقرود غير المذيلة"³⁸. صحيح أننا نتفق مع الشق الأول في قوله إن الملكات الفكرية والأخلاقية قابلة للتمايز، وقد تم توارثها واكتمالها وتقدمها بفعل الانتقاء أو الانتخاب الطبيعي، لكن قضية التطور ليس لها علاقة بالتشابه بين الإنسان البدائي والقرود غير المذيلة، بل بالتشابه بين الإنسان البدائي الأدمي المخلوق، ونقيضه البهيمي الذي انسلخ عنه زمنياً نتيجة لاختلاف ذهني عقلي وشرعي أخلاقي، فيكون للإنسان جدود أقدم منه ضمن دائرة (المرتبة) التي تتبع لها كل (الأدميات) وليس (الرتبة) التي تتبع لها (البهيميات). بالإضافة لما سبق ذكره، نلاحظ أن كل ما ذكره الله في الآيات التالية يشير إلى أن أطوار الإنسان لها علاقة بالطبيعة من خلال ذكره عزوجل في سورة نوح: "والله أنبتكم من الأرض نباتاً (17) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً (18)". هذه الآية تدل على الجهد والبذل الإنساني الذي بدأ بالنشاط الزراعي ثم تطور إلى النشاط الصناعي. إن الإشارة إلى الأطوار في الآية يدل على أن بدايتها ومنتهاها يكون من خلال خلق النوع من الأرض، أي التراب/الطين، ونشاط للنوع في الأرض، أي التراب/الطين، فمن هذه الأرض بدأ آدم (عليه السلام) وفيها مارس نشاطه، ومنها سوف يعود لأنه قال في البدء "أنبتكم من الأرض"، وقال في العودة إلى يوم الحساب "يعيدكم ويخرجكم إخراجاً" ما يعني أن استكمال الأطوار لم ينته إلا بعد الإخراج من الأرض وبهذا تكون دورة الحياة انتهت بالنسبة للإنسان وسوف يحاسب وقتها، فإما يكون في الجنة أو النار.

الطور في السياق الجنسي وعلاقته بالزمن والجغرافيا

³⁸ المصدر السابق، ص319.

في بعض الأحيان يُعبّر الطور عن مرحلة زمنية عابرة للحدود، كأن ينشغل الإنسان بعلاقة حميمية جنسية شرعية خارج السياق الاجتماعي الخاص به، وخارج محيطه الجغرافي، فيشكّل بذلك حالة انتقالية من طور محلي إلى طور إقليمي، أو من طور جنسي طبقي اجتماعي له خصوصية تقليدية شعبية إلى طور طبقي آخر برجوازي اقتصادي، أو من طور جنسي ثقافي نظامي أخلاقي إلى طور جنسي ثقافي غير نظامي انحلاّلي، وهذا الأخير لا يحدث في العلاقات الشرعية كلها، وهكذا. وعموماً لا أرى أن تقسيم ديزموند موريس عالم الحيوان البريطاني للأطوار في كتابه "القرود العاري" هو تقسيم منطقي أو أخلاقي لا سيما أنه يربط الأطوار بثلاثة تقسيمات: وهي تشكيل الزوجين، وفترة ما قبل الجماع ثم فترة بعد الجماع، ويقول إنها لا تأخذ الترتيب نفسه، يقصد أن الإنسان يمكن أن يقوم بالجماع ثم يشكل علاقته الزوجية³⁹. نقول: إن تقديم الجماع على تشكيل العلاقة بين الزوجين هي مسألة لا تشكل أطواراً أخلاقية، وإنما أطواراً انحلاّلية شاذة لا تتسق مع أصالة الخلق الذي ابتداءً بأدم (عليه السلام) أو ذريته اللاحقة، ولا مع القيم الأخلاقية الموجودة في أصل الإنسان والشريعة الإلهية. كما أن هذا التفسير للأطوار هو تفسير جنسي غريزي لا يعبر عن منطق اجتماعي، أو تربوي، أو شرعي، لأن الأصل في الطور أن يبدأ من البذرة الأولى أو نقطة التحول وهي "الخلية أو النطفة" وينتهي إلى مسار من الاستدامة البشرية لنمط محدد من الحياة يشترك فيه ذكر وأنثى ويعبران من خلاله عن طورهم الخاص في زمن ما وجغرافيا دائمة لهما، ومن ثم يورثان طوراً آخر لأبنائهم أو أبناء أبنائهم في زمن آخر وجغرافية أخرى مختلفة، حيث يلعب كلاً من الزمن والجغرافيا اللذان يتشكلان عبر الحركة بكافة أشكالها دوراً أساسياً في تعريف ماهية الطور.

³⁹ ديزموند موريس، ترجمة: ميشيل أزرق، القرود العاري، دراسة في التطور العضوي والجنسي والاجتماعي للإنسان، ط1، (اللائقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1984)، ص43.

ثالثاً: السلالة:

نقول: إن السلالة من التسلسل، والتسلسل يدل على التتابع، والتتابع فيه تلاحق، والتلاحق هو جوهر الاستمرارية، والاستمرارية أصل داخل الحركة؛ لأن الحركة تكون داخل موضع الزمن، والزمن إما سريع أو بطيء أو ثابت معدوم. فإذا كانت الحركة سريعة كان التسلسل سريعاً، وانتشار السلالة أسرع، وإذا كانت الحركة بطيئة كان التسلسل بطيئاً، وانتشار السلالة أبطأ، وإذا كان انتشار السلالة ثابتة معدومة، أي لا أصل ولا وجود لها، أو أنها منقطعة، أي حدث لها انقطاع في النسل نتيجة التوقف عن النكاح، كان التسلسل منتهياً، وكان انتشار السلالة معدوماً. بالتالي فإن للحياة معنيين: حياة السلالة وهي الحياة الحقيقية المستمرة، وحياة الفرد وهي وقتية عرضية. وما حياة الفرد إلا جزء من سلسلة الحياة العامة المستمرة، حياة السلالة⁴⁰.

التسلسل بين الصعود (البداية) والهبوط (النهاية)

إن للتسلسل بداية ونهاية، فأما البداية فهي طائفة فيها فائدة وهي عامرة، وأما النهاية فهي فاجعة فيها نازلة وهي صادمة. فالإنسان يبدأ صعوداً (وتسمى البداية) وينتهي هبوطاً (وتسمى النهاية). فأما الصعود، فهو من نظرته الأولى إلى أعلى ما فوقه، عندما كان على أرض الجنة في نعيمة المقيم، أي نظرة آدم (عليه السلام) إلى شجرة الوسوسة التي أزله الشيطان للمساس بها، فجعلت صعوده إليها (مساسه بها) هبوطاً إلى الدنيا. وأما الصعود أيضاً، فهو من نظرة الإنسان نحو الآخرة، والتي تبدأ من نظرته إلى الدنيا وصولاً إلى عودته نحو الآخرة، فيكون بين الصعود الشهوي والصعود الأخروي

⁴⁰ نقولا حداد، ذكر وأنثى خلقهم، أو مرشد الشبيبة، (القاهرة: المطبعة العصرية)، ص16.

النهائي هبوطاً أرضياً طارئاً اسمه "الحياة الدنيا". ومن الصعود أيضاً الصعود الدنيوي الذي يبدأ من إغماض الإنسان في رحم أمه إلى تفتح عينيه عند الولادة، ومن نظرتة الدنيا التي أنتجتها نطفة من شهوة جامحة إلى نظرتة العليا التي أنتجتها شريعة الله في الحياة الدنيا والآخرة. ومن أنواع الصعود كذلك، صعوده من نومه اليومي في سبات عميق إلى نهوضه للسعي في الحياة الدنيا كما ورد ذكره في سورة النبأ: "وجعلنا نومكم سباتاً (9) وجعلنا الليل لباساً (10) وجعلنا النهار معاشاً (11)"; فيكون الليل استعداداً للصعود، والنهار بداية الصعود، والعودة إلى أول النوم نهاية الهبوط، ويكون ما بين الصعود والهبوط الدنيوي "منتصف الليل أو ذروة النوم" وهو ليس صعوداً ولا هبوطاً بل هو إما استقرار مؤقت في دار الدنيا أو موتاً في دار الدنيا أو خلود أبدي في دار الآخرة لقوله تعالى: "وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى" {الأنعام: 60}. وردت كلمة (سلالة) مرتين في القرآن كما يلي 41:

- قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12}.

- وقوله تعالى: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" {السجدة: 8}.

الفرق بين سلالة (الطين) وسلالة (الماء المهين)

الآية الأولى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12}.

قيل إن (من) في قوله تعالى: "من سلالة" ابتدائية متعلقة بخلقنا، وفي "من طين" بيانية متعلقة بمحذوف، وقع صفة لسلالة، أي: كائنة

41 معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج3، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص158.

من طين، والمعنى: أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أولاً من طين؛ لأن الأصل آدم، وهو من طين خالص وأولاده من طين ومني⁴². قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: إن قوله تعالى: "من سلالة من طين" يعني: صفوة الماء. وقال مجاهد: "من سلالة" أي: من مني آدم. وقال قتادة: استل آدم من الطين⁴³. وقيل المراد بالسلالة: ابن آدم؛ قاله ابن عباس وغيره. والسلالة فُعالة من السل، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد. فالنطفة سلالة، والولد لسلسل وسلالة؛ عنى به الماء يُسَلُّ من الظهر سلاً. قال حسان بن ثابت:

فجاءت به عَضْبُ الأديم غَضَنفراً سُلالة فرج كان غير حصين
وقال آخر: وهل هندُ إلا مهرةٌ عربية سليلَةٌ أفراسٍ تجلَّها بغلٌ
وقال الكلبي: السلالة: الطين؛ إذا عصرته انسل من بين أصابعك، فالذي يخرج هو السلالة⁴⁴. وقال الرازي: السلالة هي الأجزاء الطينية المبتوثة في أعضائه التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منياً، وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: "وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" وفيه وجه آخر، وهو أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي إنما تتولد من فضل الهضم وذلك إنما يتولد من الأغذية، وهي إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء، فالإنسان بالحقيقة يكون متولداً من سلالة من طين، ثم إن السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منياً

⁴² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج18، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص979.

⁴³ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص465.

⁴⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص17.

45. وقيل: السُّلالة: الصفو الذي يُنتزع برفق. وقيل: سُميت النطفة سُلالة لأنها مستخلصة من الغذاء⁴⁶. نلاحظ هنا الإشارة في الآية إلى الإنسان كنوع، والسلالة كمجموعة لهذا النوع، والطين كمادة لهذا النوع، والنسل كمجموعة محددة داخل السلالة، وسُميت بذلك لأنها تنسل منه، أي تنفصل عنه⁴⁷. وعندما نقول إن السلالة كمجموعة داخل النوع فإن السلالة هي ضمن النوع الذي هو مجموعة من الكائنات الحية التي تستطيع التزاوج بين بعضها البعض وإنتاج النسل، والنسل متعدد الجماعات والأقوام والقبائل، ويطلق على هؤلاء جميعهم اسم (ذرية) وهي تكون للفرد الواحد، ويُسمى نوع من ذرية آدم (عليه السلام)، وبشكل عملي "لما بيّن الله خلق الإنسان، بيّن أنه لما خلقه، ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد، فإذا مات الأب يقوم الابن مقامه"⁴⁸.

الآية الثانية: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" {السجدة: 8}.

هذه الآية جعلت السلالة متعلقة "بالماء المهين"، في حين أن السلالة في الآية السابقة كانت متعلقة "بالطين"، فما الفرق؟

⁴⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج85، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص23.

⁴⁶ معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج3، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص158.

⁴⁷ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج70، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص21.

⁴⁸ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص111.

نقول: إن السلالة الأولى من الطين هي سلالة آدم (عليه السلام) لأنه وحده هو الذي خلق من الطين مباشرة مع الماء. أما السلالة الثانية من "ماء مهين" فهي سلالة ذرية آدم (عليه السلام) وثمة فرق بين خلق آدم (عليه السلام) وخلق ذريته. قيل "النسل" هو الذرية⁴⁹، وسميت الذرية نسلًا لأنها تنسل منه، أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل ونجل⁵⁰. وقال ابن كثير: أي يتناسلون من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة⁵¹.

علاقة السلالة بالنسل والذرية

نلاحظ هنا أنه ذكر كلمة "نسل" قبل كلمة "سلالة"، وهو ما يعني أن النسل أخص من السلالة، والنسل يأتي تحت ترتيب النوع في المرتبة التصنيفية، وفي النوع يقع الإنسان العاقل وهو الإنسان الوحيد الذي لم ينقرض. أما "السلالة" فهي النوع باعتبار أن النوع مجموعة أو سلسلة من الكائنات الحية التي تتزوج فيما بينها وتكون قادرة على إنتاج نسل من خلال إثبات قدرتها على الخصوبة، وهذا في الأساس يرجع إلى قدرتها الطبيعية المستمدة من بيئة النباتات وأصلها الماء والتربة التي خلق منهما الإنسان. بالتالي نقول: إن النسل يبدأ من المني أو النطفة التي يغرسها الرجل في القرار المكين داخل رحم المرأة. أما السلالة فهي تبدأ من مادتي الماء والطين اللتين خلق منهما النوع، وهو بني آدم (عليه السلام) أو الإنسان في هذه الحالة. قيل إنه في القرن السادس قبل الميلاد، قال طاليس Thales بعد دراسة للحياة في بحر

⁴⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج21، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص70.

⁵⁰ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقوال في وجوه التأويل، ج21، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص842.

⁵¹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص360.

إيجيه "إن مياه البحر هي الأم التي نشأت منها كل أنواع الحياة" وقال زميله وصديقه أناكسمندر Anaximander "إن الحياة قد نشأت من الطين على شكل سمكة مزودة بأشواك خارجية". بل وقد افترض أرسطو أن الحياة قد بدأت بالنبات وتطورت إلى "النباتات الحيوانية" ثم الحيوانات ثم بخطوات متطورة ونيّدة إلى الإنسان⁵². نقول: لما بدأت نشأة الكون بانفجار عظيم بسرعة الضوء، كان ذلك ناتجاً عن احتكاك ذرتي هيدروجين مع ذرة أكسجين، واللذان كونتا الماء، وبالتالي كان الماء أول ما وصل إلى الكرة الأرضية عند عملية إنشائها "فتق الرتق" ولهذا السبب كانت نسبة مياه الأنهار والبحار تشكل 71% من مساحة كوكب الأرض، في حين أن نسبة اليابسة تشكل 29% من مساحة الكوكب.

بالتالي نقول: إنه من الطبيعي الجزم بأن الخلق بدأ من المناطق التي تلتقي فيها مناطق الماء مع اليابسة. وإذا قلنا إن الحياة بدأت من سمكة أو من النباتات فإن ذلك يعني أنها بدأت من الطعام لأن السمك والنباتات هما غذاء في الأصل، وهذه فتنة آدم (عليه السلام) التي أنزله الله بسببها إلى الأرض وذلك في قوله تعالى: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (35) فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (36)".

أنواع الخلق الأساسية والفرعية في القرآن

هناك ثمانية مراحل من الخلق ذكرت في القرآن لكننا سوف نركز على أربعة أساسية منها في هذا الكتاب. أما الأنواع الثمانية فقد ذكرت

⁵² تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص20.

كلها في آية واحدة بطريقة متسلسلة إبداعية في الوصف، وذلك في سورة الحج لقوله تعالى في سورة الحج: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (5)".

زمن وشكل وعملية إنتاج مراحل الخلق

إن هناك ثمانية مراحل لتطور عملية الخلق، ولأن كل مرحلة لها زمن، وشكل، وعملية إنتاج فإن كل مرحلة تسمى خلقاً، بحسب الآية، هي: أولاً: الخلق من تراب. ثانياً: الخلق من نطفة. ثالثاً: الخلق من علقة. رابعاً: الخلق من مضغة مخلقة وغير مخلقة. خامساً: الخروج طفلاً. سادساً: بلوغ الأشد. سابعاً: أرذل العمر، "أي الهرم والخرف الذي لا يعقل فيه الإنسان". ثامناً: أنبتت من كل زوج بهيج. وهناك آيات في سورة أخرى من القرآن تناولت جميعها كافة أنواع الخلق بالترتيب. أما الآيتين الأخريين فذكرتا سبعة أنواع من الخلق، وهي قوله تعالى في سورة غافر: "هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون (67)". كما نلاحظ هنا الأنواع السبعة على التوالي بحسب الآية، هي: أولاً: الخلق من تراب. ثانياً: الخلق من نطفة. ثالثاً: الخلق من علقة. رابعاً: الخروج طفلاً. خامساً: بلوغ الأشد. سادساً: لتكونوا شيوخاً. سابعاً: الوفاة أو بلوغ الأجل المسمى. أما آيات سورة المؤمنون فقال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (12) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (13)

ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (14)".

نلاحظ هنا أنواعاً سبعة من الخلق أيضاً، وهي على التوالي بحسب الآية: أولاً: سلالة من طين. ثانياً: نطفة في قرار مكين. ثالثاً: علقة. رابعاً: مضغة. خامساً: عظماً. سادساً: لحماً. سابعاً: أنشأناه خلقاً آخر.

هذه الآيات الثلاثة سوف نشرحها بالتفصيل في هذا الفصل لتبيين مركزية التراب/الطين في نشأة وديمومة الكائنات الحية ومنها آدم (عليه السلام) والنبات والحيوان، وذلك لأن بدء الخلق كان باشتراك عنصر التراب/الطين بعد دخول عنصر الماء عليه كعنصر أساسي.

وهنا يجب أن نوضح مسألة مهمة فيما يتعلق بمقصد كلمة خلق، إذ أن الكلمة تبدو للوهلة الأولى أنها محصورة في صورة نموذجية تقليدية واحدة وسياق فعلي يبدأ بحالة الجماع بين الذكر والأنثى وينتهي بولادة الجنين، وهذا كل ما يدركه الإنسان بصرياً أو تقليدياً عن معنى الخلق، لكن القرآن يطرح معنى مختلف للخلق، فيجعل الخلق معنى لمرحلة، والمرحلة تعبير عن زمن، وعلى إثر ذلك تصبح كل فترة زمنية يحدث فيها تحوّل بيولوجي جذري للنوع الإنساني هي مرحلة، والمرحلة هنا تصبح نوعاً من الخلق. إن الخلق مسألة تكوينية إبداعية والتكوين يعتني بالتفاصيل، وفي حال الإنسان لا تسمى تفاصيل وإنما تأصيل للنوع الإنسي الذي يتميز عن بقية الكائنات الحية، وأهم تمييز هو بالعقل.

أربعة أنواع أساسية لخلق الكائنات الحية

رغم علمنا بأهمية تلك المراحل في الخلق، إلا أننا سوف نختصرها ونلخصها في أربعة مراحل أساسية هي التي أشار إليها القرآن في كثير من المواضع، وهذه الأنواع الأربعة في مسارات خلق الإنسان هي، أولاً: التراب/الطين مع الماء. ثانياً: الخلية/النطفة، فأما الخلية

فهي أول ما خلق منه آدم (عليه السلام) كنتيجة لجبل الماء بالتراب، والنطفة هي خلق نسل بني آدم جميعهم. ثالثاً: الإنشاء/التصوير، وهذا يشتمل على مراحل العلقة والمضغة والخروج طفلاً وبلوغ الرشد، أي جمعناها كلها في النوع الثالث من الخلق وأسميناه "الإنشاء/التصوير". رابعاً: البعث/الإحياء، ومنه إحياء الأموات من القبور، وهذا يحدث يوم القيامة، وفي النوع الرابع من الخلق، يدخل أرذل العمر لأن الإنسان يهرم ويذبل وربما يفقد عقله، وهو في ذلك يُعد كالميت أو كالجنين الذي لا يعقل، وكأنه عاد من جديد إلى أول الخلق، ولكن في صورة الهرم وليس الصغر، أي صورة الانتهاء وليس الابتداء. لقد عبّرت واحدة من الآيات القرآنية عن ثلاث من هذه المراحل في آية واحدة في قوله تعالى: "قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلّقتك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً" {الكهف: 37}. نلاحظ أن المسار الأول: ونسميه الخلق الأول، وهو خلق آدم (عليه السلام) من تراب/طين، ومن ثم إحياءهما في الأرض. والمسار الثاني: ونسميه الخلق الثاني "من خلية/نطفة"، وهو مسار تتكاح آدم (عليه السلام) وحواء وتتاسلهم وتكاثرهم. لكل مسار من هذين المسارين سردية مختلفة من ناحية البناء البيولوجي الحيوي. فمسار الخلق من التراب/الطين هو مسار طبيعي تأسيسي خلقي يحظى بخصوصية إلهية، وأما مسار التناكح بين آدم (عليه السلام) وحواء فهو مسار إنشائي تكويني ثم تراكمي، ويحظى بالتزام معرفي عن طريقة الأداء الواجب نحو تحقيق الإنجاب، وقد عبر القرآن عن هذه العملية بقوله تعالى في سورة الطارق: "فليُنظر الإنسان مم خلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من الصلب والترائب (7)". والمسار الثالث: ونسميه الخلق الثالث، وهو مسار "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة باعتبار أن نمو الأعضاء واكتمالها إنما هو خلق لهذه الأعضاء بصيغة النمو، وفيه مراحل متعددة. والمسار الرابع: ونسميه الخلق الرابع، وهو "البعث/بعث الروح في الجسد"، وهو من المسارات التي تعتبر من

خصوصية الإله، ويكاد يكون أصعب المسارات فهماً من ناحية تطبيقية، لأنه لم يقع بعد، وهو في علم الغيب، لكنه مذكور صراحة في القرآن الكريم في كثير من المواضع. نقول: إن كل تفاصيل أنواع الخلق يرجع أصلها إلى المادة وأنواعها في الطبيعة منذ لحظة خلق الكون، حيث تتعدد أنواع المادة بتنوع الهياكل؛ والهياكل من أصولها أجناس مختلفة. واختلف أصحاب الطوائف في هذا: فمنهم من زعم أن الأجسام في الأصل أربعة أجناس، فهي الأرض، والماء، والنار، والهواء، وسائر الأجسام مركبة منها. ومنهم من قال بجنس خامس وهو الريح، وزعم أن الريح غير الهواء المتحرك⁵³. هذا صحيح لكن العناصر التي تتكون منها الأجناس تسبق الأجسام، فعنصري الماء، وهما الهيدروجين والأكسجين يسبقان الماء نفسه. وكذلك الحال مع بقية العناصر الموجودة في الطبيعة منذ لحظة خلق الكون. وعموماً، هذه الأجناس الأربعة هي التي شكلت هيئة آدم (عليه السلام) وهي المواد الأساسية في خلقه. أما بالنسبة للكائنات الأخرى فهي أيضاً مخلوقة من نفس المواد، ولكن في ظروف وعملية مختلفة. ولذلك قيل في رواية أخرى، إن الأجسام المركبة نوعان: نام وغير نام. أما الذي ينمو ويزيد على مجرى العادة نوعان: حيوان ونبات. والنبات نوعان: نجم وشجر. والشجر ما نبت على ساق والنجم ما نبت على غير ساق. والحيوان نوعان: أحدهما محسوس لنا في العادة، والثاني: غير محسوس الآن لنا مع جواز رؤيتهم في الآخرة وفي بعض الأحوال. أما الحيوان المحسوس في العادة فأربعة أنواع: أحدها: حيوان ماش إما على رجل أو رجلين أو على أرجل. والثاني: حيوان يطير بجناحين أو أكثر. والثالث: حيوان يغوص في الماء. والرابع: حيوان يدب على بطنه كالحية والدود ونحوهما⁵⁴. نقول: إن الآية التي

⁵³ أبو منصور التميمي البغدادي، تحقيق أحمد شمس الدين، أصول الدين، ط1، (بيروت: دار

الكتب العلمية، 2002)، ص73.

⁵⁴ المصدر السابق، ص57.

عبرت عن هذه الأنواع هي قوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {النور: 45}. على حين قال الرازي: إن أجسام هذا العالم إما بسائط وإما مركبات، أما البسائط فهي الأرض والماء والهواء والنار. والإنسان ينتفع بكل هذه الأربع. وأما المركبات فهي إما الآثار العلوية، وإما المعادن والنبات، وأما الحيوان والإنسان كالمستولي على هذه الأقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل أقسامها. تنقسم المخلوقات إلى أربعة أقسام إلى ما حصلت له القوة العقلية الحكيمة ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة، وإلى ما يكون بالعكس وهم البهائم وإلى ما خلا عن القسمين وهو النبات والجمادات وإلى ما حصل النوعان فيه وهو الإنسان، ولا شك أن الإنسان بوصفه مستجماً للقوة العقلية القدسية المحضة، وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون أفضل من البهيمية ومن السبعية⁵⁵. نقول: إن المركبات والبسائط أصلها كلها (مادة) والمادة مخلوقة، وخالقها هو الله، وأصلها الله نور السماوات والأرض، والنور من توصيفاته لدينا أنه شرارة بوابة الجنة. إن أول مادة خُلقت في الجنة هي (النار)، وأول من خلق من هذه النار هو الشيطان، فوضع الله نعيم الجنة ورغبتها، ووضع الشيطان فيها بالتزامن، فكان الشيطان مخلوقاً بهدف الوسوسة لبني آدم (عليه السلام) في الجنة للتمتع بكل شيء يحل له وفق أوامر شريعته القرآنية، وينتهي عما حرّم الله أن يقترب منه وفق أوامر شريعته القرآنية. وثاني مادة خُلقت بعد النار هي (النيتروجين)، وأول من خُلِق من هذه المادة هم الملائكة. وثالث مادة خُلقت بعد النيتروجين هي (الهيدروجين والأكسجين)، وأول ما تشكل من هذه المادة هو

⁵⁵ الإمام محمد الرّازي فخر الثّنين ابن العلامّة ضياء الثّنين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص14، 15.

الماء. ورابع مادة خلقت بعد الهيدروجين والأكسجين هي (التراب/الطين)، وأول ما خلق من (التراب/الطين) ويدخل فيه الماء هو الكائنات الحية بأنواعها وأولها آدم (عليه السلام). نقول: إن الذي يشعل النار في الجنة هو ذاته حدث خروج آدم (عليه السلام) من الجنة، وذلك من خلال الوسوسة ضمن عملية سوف نسميها عملية "خروج المارد اليائس"، ويتم ذلك من خلال الاشتعال الذي يتطلب ثلاثة عوامل تسمى (مثلث النار)، وهي وجود مادة وقود قابلة للاحتراق (كالخشب، الوقود أو الفحم) ومادة مُؤكسدة (كالأكسجين من الهواء، ومُؤكسيدات أخرى) وحرارة عالية. نقول: إن المادة القابلة للاحتراق في الجنة هي الشجرة أو كل مادة غذائية قابلة للاشتعال، وتكون قابلة للاشتعال بسبب وجود مادة داخل جسد الإنسان تنسجم مع المادة القابلة للاشتعال (أي الشجرة)، وهذه المادة التي في جسد الإنسان هي الشيطان الداخلي (المارد اليائس) الذي يتكوّن من مادة النار، وأحد عناصر المادة المساعدة على الاشتعال هي الأكسجين وهو متوفر في مادة النيتروجين الثالثة التي خلقت بعد النيتروجين وهي مادة الملائكة.

الفصل الثاني

ماء الله وجنته تحت عرشه، وناره درك أسفل
أرضي

ذكر في القرآن ثلاثة أنواع من الماء، وهذه الأنواع كلها في الأصل ماء واحد، وهو الذي استوى فوقه عرش الله، وهذا الماء هو الذي أحيا به الله السماوات والأرض وكافة الكائنات الحية بما فيها آدم (عليه السلام). إن الماء هو في الأصل مادة مكونة من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، ما يعني أن خلق الكون هو خلق مادي، لكن الذي يحول دون اعتبار الحياة مادية هو العملية الإحيائية ثم وجود الروح في الإنسان، وعدم تساوي الخالق مع مادة الخلق التي خلقها.

الآيات التي وردت فيها كلمة (ماء) في القرآن بحسب الأنواع الثلاثة للماء

الأول: ماء خلق وإحياء النوع البشري وهو أربعة أنواع:

أولاً: ماء خلق آدم وذريته:

الآية الأولى:

قال تعالى: "وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً" {الفرقان: 54}.

سنتناول بالشرح معنى كلمة "الماء" وكلمة "نسباً وصهراً" في الآية. قال البيضاوي: يعني الذي خمر به طينة آدم، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع لتبشر وتسلس وتقبل الأشكال والهيئات بسهولة، أو النطفة "فجعله نسباً وصهراً" أي قسمه قسمين: ذوي نسب أي ذكور يُنسب إليهم، وذوات صهر، أي إناثاً يُصاهر بهن كقوله تعالى: "فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى"⁵⁶. وقال الشوكاني: ماء النطفة أي: خلق من ماء النطفة إنساناً، فجعله نسباً وصهراً، وقيل: المراد بالماء الماء

⁵⁶ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج19، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص527.

المطلق الذي يُراد في قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" {الأنبياء: 30}. قال الواحدي: قال المفسرون: النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله: "حرمت عليكم أمهاتكم" إلى قوله تعالى: "وأمهات نسائكم" {النساء: 23} ومن هنا إلى قوله تعالى: "وأن تجمعوا بين الأختين" {النساء: 23} تحريم بالصهر، وهو الخلطة التي تشبه القرابة، حرم الله سبعة أصناف من النسب، وسبعة من جهة الصهر، وقد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها، والسابعة قوله تعالى: "ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء" {النساء: 22} وقد جعل ابن عطية، والزجاج، وغيرهما الرضاع من جملة النسب، ويؤيده قوله تعالى: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب"⁵⁷. وذكروا في هذا الماء قولين (أحدهما): نه الماء الذي خلق منه أصول الحيوان، وهو الذي عناه بقوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء (والثاني): أن المراد النطفة لقوله تعالى (خلق من ماء دافق)، (ومن ماء مهين)⁵⁸.
 نميل إلى رأي البيضاوي باعتبار أن ذكر الماء جاء متوافقاً مع ذكر النوع وهم البشر، فلما كان أول البشر آدم (عليه السلام)، كان الماء جزءاً أصيلاً من خلق آدم (عليه السلام)، فيكون معنى الماء في الآية هو الماء الذي خلق منه آدم (عليه السلام) وليس نريته، ثم صار بعد ذلك يسمى ماء مهين أو ماء دافق وهو الذي ينتج عن عملية النكاح بين الذكر والأنثى. أما قوله تعالى: "فجعله" أي فخلقه، لأن خلق الإنسان يسمى خلقاً بالتالي تسمى مادة خلق الإنسان الأولى خلقاً، فيكون الماء مخلوقاً باعتبار أنه أصل وليس فرع. وأما قوله تعالى: "فجعله نسباً وصهرًا" فهي تعود على الماء، أي جعل من الماء نسلاً متوارثاً في الأجيال عبر التناكح، ومنه النسب والمصاهرة، والنسب

⁵⁷ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1045.

⁵⁸ الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر

بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،

ص101.

أخص، والمصاهرة أعم. ولما جعل الله من الماء مادة لخلق البشر، فإنه وضع في قالب هذا النوع البشري شيئاً كثيراً من الماء، فجعل الإنسان لا يحيا إلا به، فكان الإنسان مخلوق من ماء، والماء أصل في خلقه. وإن طباع الإنسان في برودته ودفنه وحرارته أو برودة ودفء وحرارة دمه وجسده كلها تتعلق برابطته الحيوية مع الماء. فالماء هو الذي يجعل الإنسان مستأنساً غير متناقل أو متشيطان إذا شربه، أو خلطه، أو اغتسل به، أو توضأ به، أو سبج فوقه، أو غاص فيه، أو أكل من فاعليته أو خيراته، على تعدد أشكاله وأنواعه وحالاته السائلة والصلبة والغازية. ونقول: إن الماء هو من خلق الله وحده، ولا يمكن خلق الماء في الكون بواسطة أي كائن حي. كما أن هذه الآية دالة على أن الله جعل القدرة على خلق أو تكوين الماء متعلق به، وبقدرته وحده فقط على إنتاج الماء، والأهم من ذلك إبراز قدرته على استخدام مادة الماء في خلق الإنسان وكافة الكائنات الحية، ولذلك قال صراحة في القرآن: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" {الأنبياء: 30} أي أن الله جعل خلق الإنسان وكافة الكائنات من مادة يصعب خلقها أو تصنيعها في الأصل، وذلك يدل على عظمة القدرة. إذا كانت عملية إحياء كل الكائنات على وجه الأرض لا تتم إلا من خلال الماء، فذلك يعني أن فقدان الماء على وجه الأرض مؤثر على فقدان الحياة، لكن الماء لن ينفذ إلا بتدمير الكرة الأرضية ولربما يفنى الجنس البشري قبل نفاذ الماء، لأن وجود الماء أكثر من وجود اليابسة على سطح الأرض، كما أن مصادره متعددة، وإن قوة الطبيعة التي خلقها الله قبل الإنسان أكبر بكثير من قوة الإنسان، وهذه حقيقة، فالإنسان لا يستطيع التحكم أبداً بحركة الطبيعة مهما بذل من جهد ومهما أوتي من قوة، لأن هذا الكون مخلوق من الله، ولا يمكن إدارته إلا بواسطة خالقه، وأما الإنسان فهو مأمور وفق الشريعة القرآنية بالحفاظ عليه وإصلاحه وعدم الإفساد فيه دون أن يكون له القدرة في التحكم به، وهذا ما يدل

عليه وجود اختلالات في الطبيعة مثل الزلازل والبراكين والفيضانات التي يصعب التحكم أو التنبؤ بها مطلقاً.

الآية الثانية:

قال تعالى في سورة السجدة: "وبدأ خلق الإنسان من طين (7) ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين (8)".

قال الرازي⁵⁹، وابن كثير⁶⁰، والشوكاني الماء المهين هو النطفة⁶¹. وقيل: إن المني هو ماء الرجل، والسياق القرآني يفترض أن (الخلق) قد أتى بعد أن كان منياً ثم علقه⁶². نقول: إن الماء المهين المذكور في الآية هو المخصوص لذرية أو نسل آدم (عليه السلام). كما أن الماء يكون وصفاً لماء الشرب الذي هو موجود أصلاً في الطبيعة منذ خلق الكون، وهو أيضاً وصف للمني الذي يتكون في صلب الرجل، ويجب التمييز بينهما، فالماء هو المادة الأولى التي دخلت على التربة التي تحوّلت مع الوقت إلى طين ثم صلصال، وهو الماء الذي تكوّن منه آدم (عليه السلام)، ثم أصبح العنصر الذي وُجد في جسد آدم (عليه السلام) بعد أن سخّره الله لآدم (عليه السلام) ولبقية الكائنات الحية ومنها النباتات والزواحف والحيوانات فيما بعد. بعد ذلك صار الماء هو مني الرجل، وأصبح ماءً مشتركاً بين الذكر

59 الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص174.

60 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص360.

61 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1149.

62 معاذ بني جابر، الجسد والوجود، ط1، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2015)، ص32.

والأنثى، والعملية الاستيلادية هي عملية تقوم على طرفي معادلة انبثائية بدءاً، ما يعني أن غياب أحدهما يعني غياب الآخر" ⁶³.

الآية الثالثة:

قال تعالى في سورة الطارق: "فليُنظر الإنسان مم خُلق (5) خلق من ماء دافق (6)".

نقول: إن الآيتين تشيران إلى الماء باعتبار أنه يحمل صفتين عندما ينغرس في رحم المرأة، فالصفة الأولى أنه مخلوق لأن الله طلب من الإنسان التأمل والنظر بصيغة السؤال في الآية: "فليُنظر الإنسان مم خلق". أما الصفة الثانية فهي للماء حيث قيل إنه دافق في قوله تعالى: "خلق من ماء دافق". إن الدفق للماء (المني) لا يعني أنه يحدث بطريقة سهلة، وإنما يكون نتيجة جهد أو حركة سريعة خلال عملية النكاح ينتج عنها طاقة. قيل إن أحد التصورات عن التوالد أنه يأتي من الرأس: فهو يتكون في الدماغ، ثم ينزل عبر مخ النخاع إلى الأجزاء السفلى من الجسد. وذلك هو، حسب المبدأ العام للتصور الفيثاغوري: ففيه، كان المنى يعتبر "نطفة من المخيخ تحوي في ذاتها بخاراً ساخناً"؛ ومن هذه الشذرة من المادة المخية يتكون بعد ذلك مجموع الجسد بـ "العروق، واللحم، والعظام، والشعر"؛ ومن النفس الحار الذي تحويه هذه الشذرة قد تتكون نفس الجنين والإحساس ⁶⁴. كما يقصد "بالماء الدافق" ذلك الماء الذي خلقت منه ذرية أو نسل آدم (عليه السلام) حتى يومنا هذا، فيكون معنى الدفق دالاً على استمرارية النكاح عند النوع البشري، واستمرارية التناسل والتعدد في الذرية. فيكون "ماء دافق" يعني "ماء مستمر في العطاء". كما أن الآيتين تفهمان بشكل مترابط ومتسلسل، فأولها الدعوة الإلهية للإنسان بهدف

⁶³ معاذ بني جابر، الجسد والوجود، ط1، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2015)، ص32.

⁶⁴ ميشال فوكو، ترجمة محمد هشام، تاريخ الجنسية، استعمال المتع، الجزء الثاني، (الدار

البيضاء: أفريقيا الشرق، 2004)، ص126، 127.

النظر في طبيعة مادة الخلق الخاصة بالذرية أو النسل، وليس في مادة خلق آدم (عليه السلام) من ماء وتراب، وذلك في قوله تعالى: "م خلق" وهو استفهام، أي: من أي شيء خلق الإنسان وليس آدم (عليه السلام)؟ أي الماء المهين المتكون في جسد الذكر نتيجة النظام الغذائي الذي يتبعه، لأنه قال صراحة "خلق من ماء دافق" وقد ذكر في سورة عبس قوله تعالى: "من أي شيء خلقه (18) من نطفة خلقه فقدره (19)". وبالتالي فإنه لم يقصد ماء آدم (عليه السلام)، لأن ماء آدم (عليه السلام) الذي تكون فيه عندما اختلط مع التراب كان ماءً طبيعياً خالصاً وليس منياً، قال الفراء والأخفش: "من ماء دافق" أي: مصبوب في الرحم. ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما. وعن عكرمة عن ابن عباس: "دافق": بمعنى لزج⁶⁵. وقيل: المعنى: فلينظر نظر التفكير، والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته، ثم بيّن سبحانه وتعالى ذلك فقال: "خلق من ماء دافق" والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والماء: هو المنى⁶⁶. وقال الزمخشري: إنه لم يقل ماءين لامتزاجها في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه⁶⁷. أي أن الماء الدافق هو القادم من صلب الرجل، وهو منبع القوة، أي الحيوانات المنوية أو ما يعرف بالنطف، والرحم منبع استقبال ماء الرجل، ومنبع غرس أو زراعة واستقرار البويضة نفسها. عندما يتم إنتاج البويضة المخصبة من أحد المبيضين أو كلاهما تنزل عبر قناة فالوب نحو الرحم لكي تنتظر دخول الماء. تدخل الحيوانات المنوية بعدد كبير متجهة نحو

⁶⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفران، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص206.

⁶⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج30، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1608.

⁶⁷ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج30، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1194.

الرحم بكميات هائلة، فالحيوان المنوي الأقوى والسليم يتجه بسرعة لكي ينغرس داخل البويضة. عندما ينغرس هذا الحيوان المنوي داخل البويضة تقوم البويضة بتشكيل غلاف عازل حولها لمنع دخول حيوان منوي آخر. فتبدأ هنا رحلة انقسام البويضة لتشكيل أولى الخلايا المكونة للجنين، في عملية تسمى بعملية الانقسام المنصف بحيث تنقسم الخلية الأولى والتي تسمى البويضة المخصبة أو اللاقحة الزيجوت أو البيضة الملقحة (بالإنجليزية: Zygote) لتعطي خليتان متشابهتان في جميع الخصائص، ثم تنقسم الخليتان إلى أربعة ثم الأربعة إلى ثمانية وهكذا بشكل تدريجي لكي يتم تشكيل أعضاء الطفل أو الجنين. وهكذا بشكل تدريجي يتكون النسيج ثم الأعضاء التي تكون الأجهزة وتجتمع هذه الأجهزة معاً لتشكيل الجنين الكامل. لقد شرحنا موضوع الحيوان المنوي في الآيتين التاليتين {القيامة 36-39} و {المرسلات: 20}. {انظر الشرح هذا الفصل، ص71-74}. على حين قال القرطبي: الضمير في "يخرج" للماء. ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان⁶⁸. على حين قال الرازي: الولد مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. وقال آخرون إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب، واحتج صاحب القول الثاني على مذهبه بوجهين: (الأول): أن ماء الرجل خارج من الصلب فقط، وماء المرأة خارج من الترائب فقط، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب، وذلك على خلاف الآية. (الثاني): أنه تعالى بيّن أن الإنسان مخلوق "من ماء دافق" والذي يوصف بذلك هو ماء الرجل، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج، يعني هذا الدافق من بين الصلب والترائب، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل فقط (أجاب) القائلون بالقول الأول عن

⁶⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص210.

الحجة الأولى: أنه يجوز أن يقال للشيين المتباينين أنه يخرج من بين هذين خير كثير، ولأن الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد، فحسن هذا اللفظ هناك، وأجابوا عن الحجة الثانية: بأن هذا من باب إطلاق اسم البعض على الكل، فلما كان أحد قسمي المني دافقاً أطلق هذا الاسم على المجموع، ثم قالوا: والذي يدل على أن الولد مخلوق من مجموع المائين أن مني الرجل وحده صغير فلا يكفي، ولأنه روى أنه (عليه السلام) قال: "إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكراً ويعود شبه إليه وإلى أقاربه، وإذا غلب ماء المرأة فإليها وإلى أقاربها يعود الشبه" وذلك يقتضي صحة القول الأول⁶⁹.

الآية الرابعة:

قال تعالى: الآيات من سورة القيامة: "أحسب الإنسان أن يترك سدى (36) ألم يك نطفة من مني يُمنى (37) ثم كان علقة فخلق فسوى (38) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (39)".

قيل: الجملة في قوله "ألم يك نطفة من مني يُمنى مستأنفة: أي ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني يُراق في الرحم، وسُمي المني منياً لإراقته، والنطفة: الماء القليل، يقال نطف الماء إذا قطر⁷⁰. وقال ابن كثير: هي نطفة ضعيفة من ماء مهين⁷¹. نقول: إن المقصود بالنطفة في الآية هو نطفة الإنسان أو النوع البشري بشكل عام، وهم جميعاً من ذرية آدم (عليه السلام). كما أن النطفة أخص من المني، والنطفة هي أول الماء، وعلى وجه الدقة، النطفة هي أول الذرات التي يتكون

⁶⁹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج31، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص130.

⁷⁰ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1561.

⁷¹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص283.

منها الماء، وهما ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وندرك أن الرجل يطلق ما يقارب عشرات الملايين من الحيوانات المنوية في كل عملية قذف، لكن بويضة المرأة داخل الرحم تحتاج إلى حيوان منوي واحد لتخصيبها، ولذلك نرى بأن هذا الحيوان المنوي يتكون من الماء الذي فيه ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، ويحتوي أيضاً على خلايا حيوانات وبلازما منوية، ويتكون من مواد غذائية وهرمونات تفرزها الغدد الجنسية، وهذا كله ينعكس على تكون الجنين، فالجنين المعافى تماماً يكون قد تخصص من حيوان منوي فيه ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين وهرمونات سليمة ونظام غذائي صحي، وإن أي اختلال في نسبة الذرات المنوية أو الهرمونات أو طبيعة النظام الغذائي يؤدي إلى اعتلال الجنين. في هذا السياق نشير إلى إحدى الدراسات العلمية التي أثبتت من خلالها باحثون في جامعة دورهام في شمال شرق بريطانيا أن نتائج الدراسة التي أجروها كانت أول دليل مباشر على أن الأطفال يتفاعلون بشكل مختلف مع الروائح والأذواق المتعددة قبل ولادتهم، وهو الأمر الذي يظهر على وجوههم بوضوح. وقام فريق من العلماء بدراسة نتائج التصوير الشعاعي الرباعي الأبعاد لمائة امرأة حامل واكتشفوا أن وجوه الأطفال الذين تذوقوا نكهة الجزر بدت إشارات "ضاحكة" على وجوههم. أما الذين تذوقوا نكهة الكرنب الأبعد، فبرزت على وجوههم إشارات البكاء والانزعاج⁷². يفسر أرسطو المنى على أنه المنتج المتخلف عن الغذاء. منتج نهائي مكثف في كميات صغيرة، ونافع كما هو شأن مبادئ النمو التي تستخلصها العضوية الحية من الغذاء. وبالفعل، فإن التبلور النهائي، بالنسبة لأرسطو، لما تقدمه التغذية إلى الجسد يوفر مادة ينسحب طرف منها على كل أجزاء الجسد ليجعلها تنمو بكيفية غير محسوسة كل يوم، فيما ينتظر الطرف الآخر إخراجاً سيمكّنه، حالما يستقر في رحم المرأة،

<https://www.durham.ac.uk/research/current/research-news/fetuses-72/react-to-taste-and-smell-in-the-womb>

من تكوين الجنين. وإذن، فإن نمو الفرد ووالده إنما يقومان على نفس العناصر ويجدان مبدأهما في نفس المادة؛ فعناصر النمو من جهة، والسائل المنوي من جهة أخرى، هي أزواج تنتج عن تبلور غذائي يتعهد حياة الفرد ويسمح بولادة حي آخر⁷³. نقول: الدفق يكون للنطفة والتكوين يكون للعقدة، ولذلك جاء ذكر النطفة قبل العقدة، كدليل على الترتيب، لأن النطفة تسبق العقدة. إن دفق النطفة هو دفق غذائي عادي من جهة أو دفق غذائي عضوي بيولوجي من جهة أخرى. تنتج النطفة بعد نضوجها نتيجة تفاعل طويل الأمد لكل إنسان مع شهواته ورغباته تجاه نوعية الطعام الذي يقرر تناوله، مع الأخذ بعين الاعتبار سلسلته الوراثية التي تلعب دوراً أساسياً في عملية إدارة النطفة. ولهذا السبب فإن "كل شيء حي نشأ من بعض المعلومات الوراثية الأبوية. إن هذه الصيغة تحدد الأبوة بطريقة تصل حتى الآليات الحيوية للوراثة، وتسمح لنا بتطبيقها على كائنات كالبكتيريا، التي لا تتناسل بالطريقة التي نفعل"⁷⁴. أما العقدة فهي للتكوين، ولذلك جاءت كلمة "عقدة" في الآية متبوعة بقوله تعالى: "فخلق فسوى"، أي أن الخلق يبدأ من العقدة وليس من النطفة، فليس كل النطف صالحة لبدء عقدة الإنسان. نلاحظ هنا قوله تعالى: "خلق الإنسان من علق" {العلق: 2}. هذا التعبير القرآني يتضمن أن القدرة الإلهية هي المسيطرة على حركة الكون بقانون عليّ تكون فيه العقدة، وهي أصغر الأشياء وأقلها قيمة سبباً للإنسان وهو أعظم الكائنات وأرفعها، وهكذا الأمر فيما يحدث في الكون من أصغر عناصره إلى أعظمها⁷⁵. نقول: إن العقدة أو خلق الإنسان من علق هو فعل تقديري يتعلق بالظرف والزمن، فهو لما قال

⁷³ ميشال فوكو، ترجمة محمد هشام، تاريخ الجنسية، استعمال المتع، الجزء الثاني، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2004)، ص128.

⁷⁴ نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخل، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص245.

⁷⁵ د. عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط2، (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993)، ص40.

تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي" {الحجر: 29} في إشارة لآدم (عليه السلام) كان يقصد أن التسوية زمن والنفخ لحظة من الزمن. ولأن آدم (عليه السلام) لم يُخلق من نطفة، فقد كانت التسوية هي المعادل الموضوعي للعلاقة. فكان الخلق واقعاً بين التسوية والعلاقة. لذلك قال محمد شحرور "بين الخلق والتسوية توجد أداة "إذا" في الآية وهي ظرف لما يستقبل من الزمن" ⁷⁶.

الآية الخامسة:

قال تعالى: "ألم نخلقكم من ماء مهين" {المرسلات: 20}.

يقصد بالماء المهين في الآية هو الماء الذي نسلت منه ذرية آدم (عليه السلام). قال الشوكاني: ماء ضعيف حقير، وهو النطفة ⁷⁷. وقال البيضاوي: من نطفة مذرة ذليلة ⁷⁸. نقول: إن تحقير النطفة التي هي أول المنى بإطلاق توصيف "ماء ضعيف حقير" أو "نطفة مذرة ذليلة" كما أورد الشوكاني والبيضاوي هو في غير محله وهو إساءة لأصل الخلق، وبالتالي إساءة للخالق، لأن فيه إنكار أو انتقاص من أهمية التناكح والتناسل في الإسلام. بشكل تفصيلي، إذا كانت النطفة مكونة من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وخلايا حيوانات وبلازما منوية، ومواد غذائية وهرمونات تفرزها الغدد الجنسية فإن تحقيرها وتذليلها هو تحقير وتذليل للمادة، أي مادتي الهيدروجين والأكسجين، وهو تحقير أو تذليل للغذاء أو لأصل الشهوة في الإنسان، ومنها الشهوة الجنسية. ولهذا السبب روى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة

⁷⁶ محمد شحرور، الكتاب والقرآن، (دمشق، الأهالي للنشر والتوزيع)، ص281.

⁷⁷ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، 4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1561.

⁷⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج29، 1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص484.

قال: ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار⁷⁹. لذلك قيل إن تمتع الحيوان يكاد ينحصر في شهوته التناسلية ولا يتخطاها. أما تمتع الإنسان يتخطاه إلى تمتعات عديدة لا تكاد تحصى، وكلها تحبب بالحياة وترغب في استمرار النوع ونموه وتفوقه على سائر الأنواع⁸⁰. لهذا السبب نفهم من ثقافة العرب كيف أن الرجل الذي لا يركب الخيل ويفضل ركوب الحمير، يكون من صنف الرجال الذين يتبعون أهوائهم الدنيوية، فيفضل أن تتشابه صفاته مع صفات الحمير على أن تتشابه صفاته مع صفات الخيول. ومما جاء في عقاب قوم لوط قوله تعالى في سورة الحجر: "فأخذتهم الصيحة مشرقين (73) فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل (74)" قال الرازي: العذاب ثلاثة أنواع: أحدها الصيحة الهائلة. وثانيها: أنه جعل عاليها سافلها. وثالثها: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل⁸¹.

والجملة "أمطرنا عليهم حجارة من سجيل" في محل نصب صفة لطير. قال في الصحاح قالوا: هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم⁸². نقول: إن اختيار كلمة "سجيل" بعد نوعين من العذاب وهما الصيحة، وقلب الأعمال إلى الأسافل يدل على شدة العذاب. كما أن إنزال أو خفض ما هو أعلى أو أدنى إلى ما هو أسفل يتعلق بتمييز الحق من الباطل، فغالباً يكون الحق علوي والباطل دنيوي، ولأن الحقوق تتمايز أمام الله، فليس كل من يظن أنه سينجو من أخف درجة من النار أنه لن يعود إلى أسفل درجة منها، وهي الهاوية كما سنشرح

⁷⁹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج1، (مصر: شركة ومطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص110.

⁸⁰ نقولاً حداد، ذكر وأنتى خلقهم، أو مرشد الشيبية، (القاهرة: المطبعة العصرية)، ص12،

⁸¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر

بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،

ص208.

⁸² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج30، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1655.

دركات النار العشرة في سورة {الأعراف: 50} {انظر الشرح في هذا الفصل، ص107} وذلك لأن الأمر يتعلق بالجهد المبذول في الأرض من المسلمين في إقامة الشريعة وحدود الله في الأرض. بالتالي إذا فهمنا التذليل والتحقير للمادة في الآية، أي مادتي الهيدروجين والأكسجين، باعتبار أنه تحقير أو تذليل للغذاء أو لأصل الشهوة في الإنسان، ومنها الشهوة الجنسية سوف نفهم علاقة ذلك بالحياة الطبية والأدوية وأبرزها المواد الكيميائية التي يتم تصنيعها من المواد الطبيعية الموجودة منذ خلق الكون. لهذا السبب سوف نلاحظ على سبيل المثال أن دواء مثل: سيبروتيرون أسيتات (Cyproterone acetate) اختصاراً (CPA)، المعروف أيضاً باسم أندروكور الذي يعالج كافة المسائل الخاصة بالنسل والجنس والهرمونات الذكورية والأنثوية والشذوذ الجنسي رمزه الكيميائي يشير إلى أنه يتكون من 24 ذرة كربون C و29 ذرة هيدروجين H وذرة كلور CL و4 ذرات أكسجين O، ومن هنا نفهم سبب ارتفاع نسبة الهيدروجين في الدواء لأنه ينظم عملية الغذاء، وبالتالي ينظم النشاط الجنسي، لأن النشاط الجنسي عند الإنسان مرتبط بالمخ، وهو بذلك ينظم عملية التفكير عند الإنسان، فيعالج الاعتلال عند البشر وفي سلاسلهم الوراثية بشكل عام. لهذا السبب ذكر داروين في الباب الثاني من كتابه أصل الأنواع بعنوان "التمايز في الطبيعة" أن هناك "ما يُسمى الشواذ في الخلق"، ومعناه الانحراف الكبير في التركيب، الذي يكون على وجه العموم ضاراً، أو غير مفيد للنوع⁸³. يقصد داروين الكائنات الحية، ولا أظن أنه قصد بذلك الإنسان، لأن الكائنات الحية وأبرزها النباتات والحيوانات في الطبيعة -وهو مجال بحث داروين الأساسي- هي التي تتعكس في نشاطها الدنيوي على حياة الإنسان. بالتالي فإن الشذوذ في خلق الكائنات الحية يقصد به الشذوذ في الخلايا الأساسية

⁸³ تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص110.

أو على نحو دقيق، خلل في الخلية الأولى الصغيرة، أو في السائل اللزج داخل الخلية الذي يُسمى البروتوبلازما الذي يسبح داخل النواة، وذلك يكون ناتجاً عن خلل في الوظائف الحيوية وطريقة التفاعل مع الحرارة الأرضية والماء وكل ما من شأنه أن ينبت النبات، وهذا كله ناتج عن خلل في سعي البشر وفسادهم في الأرض، وأقل خلل في موضوع الفساد في الأرض مثلاً: سقاية النباتات بمياه غير صالحة للري وهو ما يؤثر على السائل اللزج المسمى "بروتوبلازما"، ويمكن أن ينتقل الخلل إلى الألياف والأوعية والأنسجة (كالنسيج الخلوي والليفي والوعائي)، وهذا الخلل في الطبيعة ناتج عن الإفساد في الطبيعة الذي هو ناتج عن فساد الإنسان، وفساد الإنسان ناتج عن خلل في طريقة تفكيره وإدارته لذاته في الطبيعة ولما هو حوله أو يحيط به. لذلك فإن "كل الكائنات متساوية في أنها غير مثالية كما يجب أن تكون بالنسبة إلى الظروف المحيطة بها"⁸⁴. على سبيل المثال، مما ذكره داروين في كتابه أصل الأنواع أنه "عندما سأل بعض العاملين في المزارع في ولاية فرجينيا كيف تأتي أن جميع خنازيرهم سوداء اللون، فإنهم أخبروه بأن الخنازير قد أكلت من جذور نبات الصبغة (نبات الصابوغ) الذي تسبب في اكتساب عظامهم اللون الأحمر الوردي كما تسبب في تساقط حوافر جميع الخنازير فيما عدا الضروب السوداء منها"⁸⁵. نقول: إن حياة النباتات تنعكس على حياة الحيوانات، وبالتالي على حياة الإنسان. لذلك فإن أي خلل في السائل اللزج داخل نواة النبات، سببه الأصلي طريقة تفكير الإنسان. لذلك سوف يعود الخلل أو الضرر الذي يلحق بالنبات أو ينتج عن النبات على الحيوانات وعلى الطبيعة نفسها، وبالتالي على عقل الإنسان الذي لن يستطيع تناول طعامه من النباتات أو الحيوانات، ولن يتمكن من التمتع في

⁸⁴ المصدر السابق، ص336.

⁸⁵ تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص68، 69.

الطبيعة، وهذا كله يعود إلى عدم قدرة الإنسان على إدارة عقله في كيفية رعاية النباتات والحيوانات، وبالتالي رعاية ما حوله في الطبيعة. وهذا يعني أن عقل الإنسان الأول، أي عقل آدم (عليه السلام) لم يكن عقلاً شاذاً ولم يكن تفكيره شاذاً لأنه خلق في أحسن تقويم، ولأن الطبيعة لم يكن فيها أي فساد أو إفساد، حيث لم يبدأ وقتها الإنسان في تعмир الأرض، ولم يكن هناك بشر غير آدم (عليه السلام)، لكن تراكم الفساد الذي نتج عن التعمير التراكمي العشوائي، وأفعال ذريته، هو الذي أدى إلى حالة تدمير طبائع العقل البشري والطبيعة معاً. ومع ذلك فقد كان عقل آدم (عليه السلام) الأول عقلاً شهوياً يميل إلى الغذاء، وقد كان هذا العقل هو السبب الذي أنزله إلى الأرض. رغم كل ما سبق، وحرصاً على العدالة والمنطق في التفكير نقول إن الذي يجعل هذا التحقير والتذليل غير عادل هو الروح التي ينفخها الله في الإنسان عند لحظة خلقه، والروح غير ممكنة بدون الأكسجين والنيروجين، والأكسجين من الماء، والماء أصل في خلق الكون وفي بقاء كل الكائنات حية لقوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30} والنيروجين مادة مخلوقة قبل خلق عناصر الماء، وعندما نقول إن الروح غير ممكنة بدون الأكسجين، فذلك يعني أننا نجيب بشكل جزئي عن معنى الروح بشكل علمي، وذلك إجابة على السؤال القرآني: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" {الإسراء: 85}. ونقول: إن الروح عندما تنفخ في جسد الإنسان يكون نفخها في العقل داخل المضغعة والتي تكون قطعة من اللحم، وبها تكون ثم تتكون بذرة العقل الأولى، وهذه البذرة هي منبع الروح. في هذه المسألة قال عالم الحفريات والأحياء التطوري نيل شوبين عن الجوهر في الأجنة "لا أحد يبدأ حياته برأس: الحيوان المنوي والبويضة يجتمعان لإنشاء خلية مفردة. وبين لحظة الإخصاب والأسبوع الثالث الذي يليها، نتحول من خلية واحدة إلى

كرة من الخلايا، ثم إلى مجموعة من الخلايا تشبه الطبقة الطائر (Frisbee)، ثم إلى شيء يبدو كأنبوب بشكل غريب يتضمن أنواعاً مختلفة من الأنسجة. بين اليومين الثالث والعشرين والثامن والعشرين بعد الإخصاب، يغلظ الطرف الأمامي من الأنبوب وينطوي على الجسد، بحيث يبدو الجنين ككرة كبيرة. تحمل قاعدة هذه الكرة أساس كثير من التنظيم الأساسي لرأسنا. تظهر أربع انتفاخات صغيرة حول المنطقة، التي ستتطور لتصبح الحنجرة. وبعد عمر ثلاثة أسابيع تقريباً، يمكننا أن نرى أول اثنين، ثم يظهر الاثنان الآخران بعد أربعة أيام تقريباً. كل انتفاخ يبدو كأنه حذبة صغيرة للخارج، انتفاخ بسيط يفصل عن التالي بأخدود صغير. عندما تتبع ما يحدث لهذه الانتفاخات، والأخاديد، يمكن أن تبدأ بمشاهدة نظام الرأس وجماله، بما في ذلك العصب ثلاثي التوائم، والعصب الوجهي. ومن بين الخلايا الموجودة ضمن كل واحدة من هذه الانتفاخات، المعروفة بالأقواس، يشكّل بعضها أنسجة العظم، وأخرى العضلات، والأوعية الدموية⁸⁶. وبالنسبة لغوتة فإن الرأس ينشأ من فقرات تلتحم، وتنمو على شكل حجرة؛ لتحمل أدمغتنا وأعضاءنا الحسية. لقد كانت هذه فكرة ثورية؛ لأنها وصلت بين الرؤوس والأجسام بوصفهما نسختين من المخطط الأساسي ذاته⁸⁷. نقول: حتى نفهم العقل والروح لا بد أن نفهم القرآن، والقرآن ليس مادياً، ولكنه ينطق بلسان حال المادة، وهو أعلى منها، ولذلك نجزم بأن اللوح المحفوظ يقع فوق المادة، وهو موجود قبل خلقها، ولأن القرآن في اللوح المحفوظ وهو أمر الله وخطابه، فإن أمر الله وخطابه أسبق من المادة، ولأن صفة علو شأن القرآن من شأن علو الله وصفته الأولى وهي "الخالق". ونقول: إن اللوح المحفوظ هو العقل والروح العلويتين في أسمى تجلي نبوي علمائي لهما، وإن العقل

⁸⁶ نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص126، 127.
⁸⁷ المصدر السابق، ص129.

والروح هما أمر الله الذي لا يماثلهما شيء ولا يعرف عن طريقة خلقهما أي أحد شيء، وخاصة مادة الروح. نسأل هنا: إذا كان الهيدروجين هو من ذرات العناصر المكونة للماء، فهل لذلك علاقة بالروح؟

نقول إن الهيدروجين يدخل في تكوين الماء، وفي تكوين الشمس بالإضافة إلى الهيليوم، وهو من أبرز عناصر الغلاف الهوائي الخارجي وليس الأرضي، ومع ذلك فإن نسبة هيدروجين الماء أكبر من نسبة هيدروجين الشمس؛ لأن الماء موجود قبل خلق الكون، وبالتالي قبل وجود الشمس، وقبل وجوده في الأرض وفي الغلاف الأرضي وفي الفضاء الخارجي وهذه حقيقة. إذا كان الهيدروجين يدخل في تكوين الماء، والماء هو الأساس في خلق الكائنات الحية ومنها آدم (عليه السلام) بالتالي فإن للهيدروجين علاقة بالروح عبر الماء. سوف نشرح موضوع الهيدروجين في سورة {الجن: 16} التالية، وفي سورة {الأنعام: 99} انظر الشرح في هذا الفصل، ص141 وفي سورة {الإسراء: 61} انظر الشرح في الفصل الثالث، ص245.

ثانياً: ماء إحياء الإنسان

الآية الأولى:

قال تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً" {الجن: 16}.

قيل في معنى قوله تعالى: "لأسقيناهم ماءً غدقاً" أي لوسعنا عليهم الرزق، وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر؛ لأنه أصل المعاش والسعة⁸⁸. وقال مقاتل: ماء كثيراً من السماء، وذلك بعد ما رفع عنهم

⁸⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج29، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص456.

المطر سبع سنين. وقال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعاً لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق مثلاً؛ لأن الخير كله والرزق بالمطر⁸⁹. نقول: إن هذه الآية تدل على وجود نوعين من الماء، وهما الماء الطبيعي الذي يشربه الإنسان، والماء الذي يتحول إلى مادة أخرى ويُستخدم في إنتاج السلاح النووي. إذا فهمنا ذلك سوف ندرك الربط الإلهي بين الاستقامة والماء، كدليل موضوعي على تكافؤ هذا الربط مع مسألة أخرى وهي العمل الصالح مع الشر أو الخير لقوله تعالى في سورة الزلزلة: "فمن يعمل ذرة خيراً يره (7) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (8)". نقول إن الذرة هي من الجذر اللغوي (ذرر) ومنه الذرية، والجسيمات تتكون منها الذرة وهي البروتونات والإلكترونات والنيوترونات، وهي على ثلاثة أقسام رئيسية للبتونات والكواركات والبوزونات. والنيوترونات جسيم تحت ذري، وهي تعمل على انشطار أنوية اليورانيوم أو البلوتونيوم فتتولد طاقة حرارية، والانشطار النووي يعتبر عملية انقسام لنواة ذرة ثقيلة إلى قسمين أو أكثر. بالتالي فإن النيوترونات كجسيم أصغر من الذرة وتصنف على أنها ذرية، تستخدم في تخصيب اليورانيوم في صنع القنابل النووية. في عام 1938م تمكن عالم كيميائي ألماني هو أوتوهان أن يشطر ذرة اليورانيوم بقذف النواة بنترون حيادي يستطيع أن يمر دون أن يتأثر بالإلكترون السلبى أو البروتون الإيجابى، وعند صدمه لقلب النواة اختل التوازن فتحوّلت الذرة إلى مادة جديدة، فبعد أن كانت يورانيوم أصبحت مادتين جديدتين مختلفتين تماماً بخواصهما هما الباريوم والكريبتون⁹⁰. بمعنى آخر فإن الذي يستقيم أو يكون صراطه مستقيماً تماشياً مع قوله تعالى في الآية محل الشرح: لو استقاموا على

⁸⁹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1571.
⁹⁰ خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص111.

الطريقة. أو كما في قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم" {الفاتحة: 6} فإنه سوف يسقى ماءً غدقاً، وإن الذي لا يستقيم في حياته ومنها أفعاله وأقواله وكذا التزامه بالمنهاج الشرعي الإسلامي، فإنه سوف يحاسب محاسبة أصغر من الوحدة الذرية، وهي النيوترونات كجسيم تحت ذري، أي سيحاسب محاسبة نيوترونية وفق أفعاله وأقواله، وهذا هو الحساب الإلهي للإنسان تثبيناً لقوله تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره (7) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (8)". نسأل هنا: ما علاقة الماء بالذرة والعناصر المكونة لها أو الجسيمات التي هي أصغر منها؟

علاقة الماء بالذرة والعناصر المكونة لها

نقول إن الماء الثقيل يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين يسمى ديوتيريوم ورمزه الكيميائي D بدلاً من الهيدروجين العادي، علماً بأن الماء العادي يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين. وتبلغ كتلة ذرة الديوتيريوم حوالي ضعف كتلة ذرة الهيدروجين العادي. ولهذا السبب تختلف خواص الماء العادي عن خواص الماء الثقيل، لكنه في النهاية ذات الماء وذات العناصر مع اختلاف مقاديرها وطريقة استخدامها، ما يعني أن الماء ذاته الموجود قبل خلق الكون وعناصره المكونة له هي ذاتها المعيار الإلهي في الحساب والعقاب، أو بمعنى آخر هي النار الإلهية التي تحرق كل من يخالف المنهاج الشرعي والثوابت القرآنية. إذا أدركنا أن الله أنبت النباتات وأحيا كافة الكائنات بالماء ومنها الإنسان بعد خلق الكون لقوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}، فإننا سندرك أن من خواص الماء الثقيل الذي يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين ويسمى ديوتيريوم أنه لا تنبت فيه البذور ولا تعيش فيه الحيوانات، وهذا عكس إرادة الله

في خلق الكون، وعكس فكرة الإحياء، وعكس رحمة الله بعباده، وعكس فكرة العيش التي أوجدها الله في الإنسان مع الأخذ بعين الاعتبار الفتنة التي بسببها نزل آدم (عليه السلام) إلى الأرض، وهي شهوة الغذاء، ما يعني أن كل إنسان غير موحد بالله وغير ملتزم بأحكام الشريعة التي أنزلها الله في القرآن هو إنسان لا يقر بقوة وإرادة الله وبالمادة التي خلقها، وبالروح التي أوجدها في الكائنات الحية ومنها روح آدم (عليه السلام)، وهو إنسان معارض لما يتحتم عليه فعله في الأرض لإبقائها حية وإنهاء الفساد فيها لقوله تعالى: "ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون" {يونس: 14}. هذا يعني أن صناعة النووي أو النار التي توقد بفعل تمكين الله للإنسان من العلم هي في الأول والآخر نار إلهية، وإنه كلما زاد فعل الخير والإصلاح في الكرة الأرضية كلما قلت الحاجة إلى استخدام هذه النار، وكذلك قلت الحاجة للمفاعلات النووية التي تزهق أرواح البشر. لذلك نرى أن كل إنسان ملتزم بالشرائع الدينية الأخلاقية يهدف في حياته للحفاظ على الطبيعة في الكرة الأرضية باعتبار أن ذلك يشكل حماية للإنسان فيها، والكرة الأرضية بالمعنى السيناوي (نسبة إلى ابن سينا) تعتبر جسماً مثل الشمس والقمر والنجوم وباقي الأجسام في الكون الواسع. يقول ابن سينا: إن هذه الأجسام عظيمة ولها قوة، وكلما كانت أعظم صارت قوتها أشد، وكانت أفعال وزمانها أقصر، فيجب من ذلك أن يكون فعل غير متناهي لا في زمان، وقد فرض في زمان" ⁹¹. ما يقصده ابن سينا هو أن فاعلية الأرض بما فيها من نشاط حيوي مستمر وضغط، وما يصدر عن هذا الكوكب من انبعاثات كله يجعل من زمان هذا الجسم الكبير أقصر، ويُعرضه للخطر. لذلك، كلما قل النشاط الصناعي والبشري زادت فرصة تحسين الحياة وإطالة عمر

⁹¹ أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، تحقيق سعيد زايد، الشفاء، الطبيعيات، السماع الطبيعي (قم المقدسة: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1984)، ص224.

الكرة الأرضية. في هذا السياق، يستوجب ذكر الفتوى التي أصدرها المرشد الأعلى في إيران السيد علي خامنئي عام 2003 وأعيد التأكيد عليها في عام 2005، وذلك خلال مسار إيران في السعي للحصول على سلاح نووي. تفيد هذه الفتوى بضرورة حظر استخدام سلاح الدمار الشامل في ظل الإسلام. وقد نشرت هذه الفتوى على موقعه الرسمي باللغات العديدة، وتبين معارضته لصناعة الأسلحة النووية من الناحية القانونية والأخلاقية والدينية والإسلامية⁹². نقول: إن فتوى خامنئي كانت سياسية في جانب منها، وهي تتعلق بالظروف التي تمر بها الجمهورية الإسلامية الإيرانية بالدرجة الأولى ثم إنها رأي شخصي نابع من الرابطة الدينية الأخلاقية والعاطفية مع الدين والمحيط الإسلامي، لكن الفتوى لم تأت على ذكر التبريرات أو البرهان الشرعي والحجج الفقهية حول ضرورة عدم استخدام السلاح النووي أو جدوى استخدامه كأداة قتال أو جهاد في الإسلام. لذلك فإن تفاصيل مادة هذا الكتاب تعتبر السند الشرعي والفقهي والأخلاقي الإسلامي الدال على حرمة استخدام الأسلحة النووية، ومن جهة أخرى هي السند الشرعي الفقهي الإسلامي لضوابط ومواقيت وضرورات استخدامه كعقاب إلهي مقرر في القرآن من خلال استخدام النار وفق حدود المعقولات الشرعية التاريخية. في هذا السياق، سوف أتحدث عن مسألتين تخصان معاني الجهاد والقتال في الإسلام والضوابط والمواقيت والضرورات التي تجيز استخدام السلاح بكافة أنواعه، بما فيها السلاح النووي كما يلي:

المسألة الأولى: تعدد أدوات وأنواع السلاح المستخدم للجهاد أو القتال في التاريخ.

المسألة الثانية: الفرق بين الجهاد والقتال والعنف في منظور

قرآني.

92- [https://web.archive.org/web/20170815101448/http://farsi.khamenei.ir/treatise-
content?id=228](https://web.archive.org/web/20170815101448/http://farsi.khamenei.ir/treatise-content?id=228)

تعدد أنواع السلاح في الجهاد/القتال في التاريخ

المسألة الأولى: تعدد أدوات وأنواع السلاح المستخدم للجهاد أو القتال في التاريخ

السلاح قديماً يختلف عن السلاح حديثاً وهو على ثلاثة أنواع في التاريخ:

الأول: السلاح الأبيض قديماً (ويشمل السكاكين والخناجر والسيوف وغيرها).

الثاني: السلاح الناري حديثاً (ويشمل البنادق والسلاح البيولوجي والكيميائي النووي).

الثالث: سلاح الفناء (وهو السلاح النووي في أقصى حالات تطوره وانتشاره في الكرة الأرضية).

لن نشرح التفاصيل والفرق بين أنواع الأسلحة، لأن هذه مسألة اختصاصية عسكرية وتتطلب بحثاً منفصلاً، لكننا سوف نخصص الشرح للمسألة الثانية باعتبارها أكثر أهمية واتساقاً مع محتوى الكتاب.

الفرق بين الجهاد والقتال والعنف في منظور قرآني

المسألة الثانية: الفرق بين الجهاد والقتال والعنف في منظور قرآني.

نقول: إن أهم رأي نتفق معه وينسجم مع محتوى كتابنا في موضوع سؤال العنف والجهاد هو رأي الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن في كتابه النوعي "سؤال العنف- بين الائتمانية والحوارية" لكن لدي ملاحظة ابتدائية وهي أنه ذكر في بداية كتابه الآية 27 - 30 من سورة المائدة وهي تتعلق بقصة جريمة القتل التي وقعت بين هابيل

وقابيل في بداية التاريخ بعد خلق آدم (عليه السلام). أراد طه عبد الرحمن تأصيل مفهوم "القتل" في السياق التاريخي من حيث ابتدأت الجريمة؛ لكننا نقول إن دوافع أول "جريمة" تاريخية مختلفة نسبياً عما يطرحه طه عبد الرحمن في كتابه، فهي لا تدخل في سياق المفاهيم الثلاثة التي يناقشها وهي "العنف أو الجهاد أو القتال"، لكنها تدخل في سياق الدوافع الإجرامية الكامنة في النفس البشرية، وهي جريمة قتل قابيل لهابيل والتي تتعلق بشهوة الغذاء الذي قسّمته إلى نوعين: النوع الأول: النباتات (الغذاء الأول) وهو الشهوة الصغرى، والنوع الثاني: الحيوانات (الغذاء الثاني) وهو الشهوة الكبرى، وقلنا إنهما مختلفان عن شهوة الجنس (النكاح)، وذلك في شرحنا التفصيلي لسورة {النساء: 9} {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص394}. عموماً، سوف نستعرض أهم التفاصيل التي ذكرها طه عبد الرحمن حول مفاهيم "العنف والجهاد والقتال" قبل تقديم رأينا في هذه المسألة. يقول طه عبد الرحمن "إن الجهاد الذي دعت إليه الشريعة الإسلامية يضاد العنف على أكمل وجه بموجب خاتمته، إذ يضاده لا باعتباره جهلاً وظلماً فحسب، بل باعتباره إيغالاً في الجهل والظلم، والإيغال في الجهل هو نسيان المعاني الملكوتية التي تخص بها المعرفة، وضد المعرفة هو الجهالة. هناك التباس بين الجهاد والعنف عند بعض المسلمين، إذ إنَّ الفرق بين الجهاد والعنف غاية في الدقة. المحاربون المسلمون الذين وقعوا في العنف فاتهم القيام بشروط الأصل الذي يوصل إلى المعاني والخيرات الملكوتية، ألا وهو الروح! فالتبس عليهم الأمر فحاضوا الحرب، ظانين أنهم يخضونها بنوايا روحية، والحق أنهم كانوا يخوضونها بنوايا نفسية، والنوايا النفسية تجعل المحاربين ينسبون إلى أنفسهم جهادهم، ويقدمون استيفاء حقوقهم على الإيفاء بواجباتهم، ويأتون من البطش ما تسعه قدرتهم، وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه الحالة في قوله تعالى: "ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئاً وضأقت عليكم

الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين" {التوبة: 25}. إن القتال يكون جهاداً متى استوفى الشروط الروحية، ويكون عنفاً متى لم يستوفها؛ كما يمكن أن يكون مشتبهاً. إذ يكون بعض المقاتلين قد دخلوا الحرب بنوايا روحية تصلهم بعالم الملكوت؛ وبعضهم دخلها بنوايا نفسية تشدهم إلى عالم الملك كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف "سئل رسول الله عن الرجل الذي يقاتل شجاعة ويقاقل حمية، ويقاقل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله. وواضح أن الشجاعة والحمية والرياء صفات نفسية في حين أن "إعلاء كلمة الله" صفة روحية بحق. وأوضح أن العنف جهد نفسي صريح؛ والجهد النفسي باطش، بينما الجهد الروحي راحم؛ وهذا الجهد الروحي الراحم الأقصى ليس ضرباً واحداً، بل ضرباً مختلفاً، وليس رتبة واحدة، بل رتباً متعددة. العلماء والنظار اختزلوا الجهاد في نوعين "جهاد الدفع" و "جهاد الطلب" مع حمل اسمه على معنى "القتال"؛ والحال أن هذا الاختزال ضيق ما يعلمون أن القرآن الكريم وسعه بموجب الآية 25 من سورة الفرقان المكية "فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً"؛ فالظاهر أن ضمير الغائب في هذه الآية يعود على القرآن، وإذا كان الأمر كذلك جاز أن نستنبط من هذه الآية حقيقتين:

الأولى: أن لفظ الجهاد استعمل بصدد "الجهاد بالقول" أو قل "جهاد القول" قبل أن يُستعمل بصدد "الجهاد بالفعل" أو قل "جهاد الفعل"، والجهاد ينقسم إلى قسمين كبيرين "جهاد اعتقاد" و "جهاد اشتغال" فيكون "الجهاد بالقرآن" جهاد اعتقاد.

والثانية: أن الجهاد بالقرآن هو جهاد بملكوته القرآن، وقد ذكرت أن الملكوته قسمان روحيان: معرفة وإحسان، فيكون الجهاد بالقرآن "جهاد بالروح" أو "جهاد روح". فيلزم من هاتين الحقيقتين أن الأصل في الجهاد أن يكون "جهاد اعتقاد روحي" أو قل "جهاد الاعتقاد الروحي" وهو الأصل الذي ينبغي أن تنفرع عليه كل ضروب الجهاد

الأخرى، فلا تعد ضرورياً جهادية حقّة، حتى تكون قد قامت بشروطه. ويقول طه عبد الرحمن بالنسبة لجهاد الاعتقاد على سبيل المثال: "جهاد الإيمان" سمي "إخلاصاً" و "جهاد الرأي" سمي "اجتهاداً" و "جهاد الفكر" سمي "تفكيراً" و "جهاد العلم" سمي "تعلماً"؛ وهناك بالنسبة لجهاد الاشتغال على سبيل المثال "جهاد العبادة" سمي "مجاهدة" و "جهاد التربية" سمي "تزكية" و "جهاد المال" سمي "إنفاقاً" و "جهاد الصناعة" سمي "إتقاناً" و "جهاد النفس" سمي "قتالاً". الفارق بين الجهادين: الاعتقادي والاشتغال هو أن الغاية التي يُبذل لها أقصى الجهد الاعتقادي هو "محو الجهل" وأن الغاية التي يُبذل لها أقصى الجهد الاشتغال هو "إزالة الظلم". وخير دليل على تفرد هذا الاشتغال جهاد القتال كما حدده وصية أبي بكر للجيش قبل فتح الشام، إذ جاء فيها: "وإنكم ستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم في الصوامع، فاتركوهم وما حبسوا له أنفسهم، ولا تقتلوا كبيراً، ولا امرأة، ولا وليداً، ولا تخربوا عمراناً، ولا تقطعوا شجرة إلا لنفع، ولا تعقرن بهيمة إلا لنفع، ولا تحرقن نخلاً، ولا تعرقنه، ولا تغدر، ولا تمثل، ولا تجبن، ولا تغل". فلولاً أن العنصر الروحي الناتج عن المعرفة والإحسان الملكوتيين قد يشد في باطن المجاهد، وهو يقاتل عدوه إلى حد أن يسوي بين البشر والشجر، وبين الإنسان والعمران، ما كان ليتسع شعوره بالأمانة لكل الكائنات⁹³. نقول: إن العنف ليس له ذكر في القرآن وفي الشريعة الإسلامية الأخلاقية وهو مسألة طارئة على المجتمعات الإسلامية وغالباً ما تكون مستوردة من مجتمعات أخرى لأسباب تتعلق بالاختلاط غير المبرر شرعياً، أي أنه يكون اختلاطاً ثقافياً، علماً بأنه ليس لزاماً على المسلمين أن يبرروا أنفسهم ثقافياً، لكنه إلزام عليهم أن يبرروا أنفسهم علمياً وشرعياً بشكل متلازم، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هناك فرق بين التبرير الدعوي

⁹³ طه عبد الرحمن، سؤال العنف، الإنتمانية والحوارية، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2017) ص85-108.

البحث أو التبرير العلمي الشرعي المتزامن، والإسلام يحض على السياقات العلمية الشرعية أكثر من السياقات الدعوية الخيرية الإصلاحية الخالصة، لكن كل ما هو خيري إصلاحي يعتبر داخلاً في الشرعي، وهو جزء أصيل منه، لكنه ليس أهم؛ لأنه تفصيلي خاص وعام، فحتى لو وقع المحاربون الإسلاميون في العنف في أي زمن دون إرادة منهم بنوايا أو دوافع نفسية كما يقول طه عبد الرحمن، فإنه لن يدخل بأي طريقة في ضرورات تبريره لأن تبريره من خلال القول عليه إنه نفسي أو غير نفسي يعني تبرير للجريمة أو مجتمع الجريمة الداخلي وهو المجتمع الصغير الطارئ على المجتمع الكبير، ويسمى المجتمع الأول (مجتمع الأسرة) والثاني (مجتمع الأمة). بالتالي فإن العنف بالنسبة لنا يدخل في مفهوم "الجريمة" لكن طه عبد الرحمن حاول التخفيف من حدة التوصيف فقال بوجود دوافع نفسية، وفي الحقيقة هي دوافع جنائية إجرامية لها أسباب ومسببات. لقد شرحنا موضوع علاقة "فصيلة" بني آدم (عليه السلام) منذ خلق الكون بالإجرام أو ارتكاب الجريمة، وذكرت ثلاث آيات تتعلق بتوصيف المجرمين والعقاب الإلهي لمرتكبي الجرائم في مجتمعاتهم. {انظر الشرح في الفصل الأول، ص26} نقول: إن الذي يضبط كل المسائل المتعلقة بالجهاد أو القتال بأي طريقة، وفي أي زمن، وضد أي فرد أو جماعة، ولأي سبب شرعي، ليس رجال الدين أو الشيوخ أو المجاهدين أو العلماء، وإن كان للعلماء والفقهاء دور نسبي، لكن الذي يضبط كل ذلك هو "المسؤولية"، والمسؤولية تنقسم إلى نوعين "مسؤولية ملائكية" و "مسؤولية روحية".

المسؤولية "الملائكية" والمسؤولية "الروحية" في مسائل الجهاد/القتال

الأولى: (المسؤولية الملائكية): وهي مسؤولية كبرى عظيمة ومطلقة، وهي لله وحده لا شريك له فيها أحد، وهي مسؤولية عن الخلائق (الكائنات الحية كلها) وكذلك إدارة شؤون الكون الذي خلقه، وهو الذي عبّر عنه في قوله تعالى: "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين" {الأنعام: 59}. والمسؤولية الملائكية تُبني على فاعلية لغة "الأمر" في الشريعة الإلهية والتي يمثلها "القرآن" الذي أنزله الوحي.

الثانية: (المسؤولية الروحية): وهي مسؤولية صغرى ونسبية، وهي للإنسان المستخلف في الأرض منذ خلق آدم (عليه السلام)، ولم أرَ أعظم وأكثر شمولاً من التوصيف الإلهي للمسؤولية الروحية في القرآن، وهي عموماً مسؤولية دنيوية، لكننا قلنا إنها روحية، فما الذي يجعل الروحي دنيوي؟ نقول: إن أقصى بلوغ لهذه المسؤولية في القرآن هو "المسؤولية عن الأمانة" والتي عبر عنها الله في قوله تعالى: "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً" {الأحزاب: 72}. قال الرازي: "الأمانة هي التكليف، ولكن التكليف ليس في السماوات والأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه؛ الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط"⁹⁴. نقول: إننا نخالف الرازي في نفيه موضوع التكليف لأنه داخل في الأمانة، والتكليف كلي لأن الأمانة تشمل كل شيء خُلق قبل آدم (عليه السلام)، والكون خُلق قبل الإنسان وفيه كل شيء، والإنسان هو الجزء داخل الكل، فيكون الكل أعظم من الجزء، وبالتالي يكون الإنسان وهو الجزء ضعيفاً أمام تحمل مسؤولية

⁹⁴ الإمام محمد الرّازي فخر الثّين ابن العلامّة ضياء الثّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص235.

الكل. في حين قال القرطبي: الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال. وقيل: هي الفرائض التي اتّمن الله عليها العباد. وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال؛ فقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنها في كل الفرائض، وأشدّها أمانة المال. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن اتّمنت المرأة على فرجها. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه، وقال: هذه أمانة استودعتكها، فلا تلبسها إلا بحق. فإن حفظتها حفظتك، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له⁹⁵. نوافق قول القرطبي في جميع ما ذكر، لكننا نقول إن أمانة المال تدرج تحت أمانة شهوة الغذاء وهي على نوعين: النباتات (الغذاء الأول) شهوة صغرى، والحيوانات (الغذاء الثاني) شهوة كبرى، وكلا النوعين يعتبر خلقاً، وهذه تعتبر جزءاً من الكون، وبالتالي هي جزء من الكل. أما قول عبد الله بن عمرو بن العاص بأن أول ما خلق الله من الإنسان فرجه فإننا نخالف هذا الرأي، حيث لم يكن أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، بل أول ما خلق الله في الإنسان (خليته/نطفته) التي تتدفق من صلب الرجل (وهي مادية وأصلها من الماء وجزيئاته الهيدروجين والأكسجين) ثم بداية تشكل بنيته بعد (المضغة) وهي التي يتم إحياء (الروح) فيها بأمر الله، لكن حديثه عن خلق الفرج أولاً يتعلّق بمصدر خروج المني، وهو يقصد بذلك أن الذرية أو السلالة أصلها يتكون من فرج الرجل وفرج المرأة المسؤولين عن عملية الجماع. بالتالي جعل تكون الفرج أمراً لا يتعلّق بخلق آدم (عليه السلام) أو خلقاً في رحم المرأة ولكن خلقاً متصلاً بالنسل والتكاثر. نقول: إن "الأمانة" في الآية هي تمثيل للمسؤولية أو

⁹⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السّنة وأيّ الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص244، 245.

القدرة على المسؤولية الكبرى المطلقة عن الخلق (الكائنات الحية) وشؤون الكون كلها (وهي لله الذي خلقها)، حيث وضعها الله أمام بني آدم (الجنس البشري) وتحت تصرفهم وفق إرادته، ولأن الله هو الذي خلق النوع البشري كله ابتداءً بآدم (عليه السلام) فإنه يعرف مدى ضعف نوع بني آدم وقدراته المحدودة وحياته القصيرة الفانية، ولذلك قال تعالى: "والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً (27) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً (28)". من هذا الواقع أفهم من جوهر معنى المسؤولية الروحية أنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المسؤولية المباشرة: تبدأ هذه المسؤولية من الأعلى إلى الأسفل، وتُستهل بالاصطفاء العلوي أو الاختيار الدنيوي، والاختيار غير ممكن بدون الاتفاق، والاتفاق غير ممكن بدون الشورى، والشورى تقوم على العلمية، والأعلمية تقوم على الاجتهاد، والاجتهاد يُصدق بالإجماع، فإن لم تكن مجتهداً لن تكون مسؤولاً، والاجتهاد في الأمة الإسلامية نسبي في القرون الحديثة لأسباب مادية جذرية.

القسم الثاني: المسؤولية غير المباشرة: تبدأ هذه المسؤولية من الأسفل إلى الأعلى، وتُستهل في السنوات الأولى من عمر الإنسان، ولذلك نسميها "مسؤولية تأسيسية" وتمثل الصعود نحو المسؤولية المباشرة، وهي أهم من المسؤولية المباشرة، لأن أي خلل في المسؤولية التأسيسية سوف يظهر أثره في المسؤولية المباشرة، وبالتالي يكون تأثيره بيئياً وفادحاً. تقول المعادلة في كلا النوعين من المسؤولية (المباشرة وغير المباشرة) أنه كلما زاد عدد الأشخاص الواقعين تحت مسؤولية الإنسان، سوف تكثر مهامه وتزيد أعباؤه، وبالتالي تزيد لديه الأمانات، فالمسؤولية "الروحية الصغرى" نسبية ضعيفة وتظل "أمانة دنيا"، والمسؤولية "الملائكية الكبرى" مطلقة عظيمة وتظل "أمانة عليا"، أي أن الأمر والنهي فيها قائم وحتمي مهما

تراوحت الأوامر والنواهي بحسب طبيعة الظروف (بدايتها ونهايتها).
 عموماً سواء كانت هذه الأمانات تابعة للمسؤولية المباشرة أو
 المسؤولية غير المباشرة فإن الأصل فيها أنها أمانات للخالق (الله)،
 ويستوجب الحفاظ عليها في الأرض، وإن السبيل لصون أمانات الله
 هي من خلال الالتزام بالشريعة التي أنزلها الله في القرآن، ومادة هذا
 الكتاب هي جزء أصيل من فهم هذه الشريعة، ولذلك يستوجب
 المحاسبة (الثواب والعقاب) على هذه (المسؤولية الروحية) بنوعيتها
 المباشرة وغير المباشرة وفق أحكام الشريعة.

الآية الثانية:

قال تعالى: "وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً"
 {المرسلات: 27}.

قال الزمخشري: "ماء فراتاً" ليحتمل إفادة التبعية لأن في السماء
 جبلاً. قال تعالى: "ونزل من السماء من جبال فيها من برد" وفيها
 ماء فرات أيضاً، بل هي معدنه ومصبه⁹⁶. وقيل: الفرات هو الغاية
 في العذوبة. كما قال تعالى: وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات
 وهذا ملح أجاج {الفرقان: 53}⁹⁷.

نقول لقد وردت الإشارة إلى مسألتين في آيتين سابقتين من نفس
 السورة، الأولى في قوله تعالى: "ألم نخلقكم من ماء مهين (20)"
 والثانية قوله تعالى: "ألم نجعل الأرض كفاتاً (25) أحياءً وأمواتاً
 (26)"، وكلتا الآيتين تشيران إلى أنه قد تم ذكر الماء المهين أولاً،
 وذكر الأرض ثانياً، وذكر الأحياء والأموات ثالثاً، وجميعها مصدراً
 لخلق آدم (عليه السلام)، فهو خلق من الماء والتراب/الطين الذي في

⁹⁶ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون
 الأقاويل في وجوه التأويل، ج29، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1169.

⁹⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الثّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر
 بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،
 ص274.

الأرض، ثم أنه يحيا في الأرض ويموت فيدفن فيها، وفي النهاية يبعث منها. قيل: ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها، والأموات في باطنها تضمهم وتجمعهم. وقيل في معنى "وأسقينكم ماءً فراتاً" أي: عذباً، والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به. قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث⁹⁸. رغم كل ما تقدم إلا أنه يستوجب القول بأن مصدر هذا الماء الفرات هو الجبال الرواسي، وهو أحد مصادر الماء في الأرض.

الآية الثالثة:

قال تعالى: "ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر" {القمر: 28}.

قال الشوكاني في تفسيره: أي نبئهم أن الماء قسمة بين ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله تعالى: "لها شرب ولكم شرب يوم معلوم" {الشعراء: 155} وقال: "نبئهم" بضمير العقلاء تغليياً "كل شرب محتضر" وهو الحظ من الماء. ومعنى "محتضر": أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوماً، وهم يحضرونه يوماً. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون⁹⁹. نلاحظ أنه استخدم الفعل نبئهم مع الماء، ولم يستخدم الفعل أخبرهم لأن الخبر العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر¹⁰⁰. ولأن الخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب¹⁰¹. نقول: لأن الماء هو من عند الله وهو حق، جاز استخدام مفردة "نبئهم" على

⁹⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1571.

⁹⁹ المصدر السابق، ص1430.

¹⁰⁰ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكتبة نزار مصطفى الباز)،

ص188.

¹⁰¹ العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1،

(القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص84.

سبيل أن الخبر معلوم وصادق لأنه خبر إلهي. وقد استخدمت بعض الآيات معنى الإخبار في تحرى الصدق من الكذب وذلك في قوله تعالى: "قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله" {التوبة: 94}. وقوله تعالى: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم" {محمد: 31}. أما كلمة "نبئهم" فهي من الجذر اللغوي نبأ، ومنه النبوءة والنبوة، وإذا كان الأمر كذلك فالنبوة هي التصديق الكامل، وقد شرحنا علاقة الصدق بالنبوة وكيف أن صفة الصدق كانت سابقة على اصطفاء الأنبياء في كتابي "الجلي النقي في معرفة الوحي" {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص285}. ولأن آيات الله ليس فيها كذب فقد استخدم كلمة "نبئهم" وهي دالة على تأكيد الصدق في التبليغ، والأسبقية في التبليغ، وكذلك العلم ببواطن الأمور. قيل: تنبأ الشخص بالأمر: أخبر به قبل وقوعه، وأخبر بالغيب. قال تعالى: "نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم" {الحجر: 49} وقال تعالى: "ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون" {الجمعة: 8}. وقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" {الحجرات: 6} وقال في سورة النبأ: "عم يتساءلون (1) عن النبأ العظيم (2)"¹⁰²، إذا أردنا استيضاح الآيات السابقة فنقول: إن الله حين ينبي عباده بالمغفرة والرحمة فالنبأ هنا حق وعدل وليس صدقاً فحسب. أما إقرار الله بأنه سوف ينبي عباده بأفعالهم يوم القيامة بصفته العالم للغيب، فذلك إظهار للقوة والإرادة الإلهية وإبراز لمقتضى الرجوع والحساب والحق والعدل، وكل ذلك فيه صدق. وكذلك بالنسبة لضرورة تبيين النبأ الصحيح من النبأ الكاذب إذا نقله شخص فاسق؛ وذلك لأن صحة النبأ من عدمه قد يُبنى عليه الكثير من الأمور وليس أقلها أن يكون النبأ بمثابة شهادة زور، أو كذب، أو افتراء محض، أو نيمية، أو ظن سيء. وبالنسبة للآية التالية فإن النبأ العظيم يقصد به

¹⁰² أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص2153.

البعث بعد الموت، وإذا كان أي نبي آخر فهو حتماً نبأ مصدره من الله، ولا شك أن كل نبأ مصدره السماء موثوق.

ثالثاً: ماء إحياء الموتى

الآية الأولى:

قال تعالى: "والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون" {الزخرف: 11}.

قيل أي: بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم وحسبما تقتضيه المصلحة ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرائعكم ويهدم منازلكم ويهلككم بالغرق، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى¹⁰³. قال ابن عباس: أي لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر لا طوفان مغرق، ولا قاصر عن الحاجة، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم¹⁰⁴. وقيل: يعني بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ولم يكن طوفاناً¹⁰⁵. وقال ابن كثير: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم¹⁰⁶. أو كما قال البيضاوي: بمقدار ينفع ولا يضر¹⁰⁷.

¹⁰³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج25، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1335.

¹⁰⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص10.

¹⁰⁵ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، ج25، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص985.

¹⁰⁶ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص220.

¹⁰⁷ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج25، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص246.

نقول: إن الآية دالة على أن الفاعل في أمر تنزيل الماء هو الله، وذلك في الإشارة إليه بـ "الذي"، وقوله تعالى: "نَزَلَ" وليس "ينزل" في الآية يدل على أن الأمر الإلهي محتوم في تقدير الماء وإدارته في الكون، وأن فعل إنزاله بدأ مع خلق السماوات والأرض واستمر حتى يومنا هذا لأنه عيّن مكان النزول وهو "السماء" ولم يقل الماء المتفجر من الأرض. وإن قوله تعالى: "بقدر" يدل برأينا على تعاقب نزول الماء في فصل الشتاء. كما أنه وضّح نتيجة إصابة الماء للأرض، فذكر إحياء الأجساد وإخراجها، وهذا تأكيد على أن الإنسان يعود كما خلق أول مرّة من نفس المادة التي أحيى بها وهي الماء وتراب/طين الأرض.

الآية الثانية:

قال تعالى: "ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير" {فصلت: 39}.

نقول: إن الماء في هذه الآية له علاقة بما ذكر قبله وبعده في الآية، فأولاً: له علاقة بكلمة "آياته". وثانياً: له علاقة بالأرض الخاشعة. وثالثاً: له علاقة باهتزاز وربت الأرض. ورابعاً: له علاقة بالقدرة على إحياء الأرض مثل إحياء الموتى.

أولاً: فيما يتعلق بكلمة "آياته"، سوف نشرح معنى كلمة "الآية" وعلاقتها بالذرية في قوله تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون" {يس: 41} {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص 430} نقول: إن كلمة "الآيات" أو "الآية" الوارد ذكرها في غالبية آيات القرآن تتعلق بالأفعال والصفات المذكورة في أسماء الله الحسنى المذكورة في القرآن وأكثر من ذلك. على سبيل المثال: آية الله أنه مبدئ الخلق ومعيده، وأنه محيي ومميت وأنه محصٍ وحق، وأنه وكيل

وباعث، وأنه واحد صمد، وأنه قادر مقتدر، وأول وآخر وباطن وظاهر وتواب ومنتقم وعفو ومقسط وجامع وباقٍ وهو ذو الجلال والإكرام... إلخ. وفي هذا الموضع من الآية قيل: إن الخطاب لكل عاقل، أي: "ومن آياته" الدالة على أنه يحيي الموتى¹⁰⁸.

ثانياً: قوله تعالى: "ترى الأرض خاشعة" أي خشوع الأرض قبل نزول الماء. قال القرطبي: خاشعة: أي: يابسة جدبة، هذا وصف الأرض بالخشوع. والأرض الخاشعة: الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي: مغيرة لا منزل بها¹⁰⁹. قال الزمخشري: استعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها كما وصفها الله في قوله تعالى: "وترى الأرض هامدة"، وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ إذا أخضبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه¹¹⁰. نقول: هذه المسألة تأخذنا إلى علاقة خشوع الأرض بسجود الإنسان على الأرض، وهو ما سنشرحه بالتفصيل في قوله تعالى: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً" {الإسراء: 61}. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص245} لقد جعل الله الأرض خاشعة من دون الماء، أي أن ذلك توصيف لطبيعة الأرض في أول خلقها بعد خلق السماوات والأرض حيث لم يكن الماء قد نزل عليها، وبالتالي فقد كانت جافة يابسة. وهنا يبرز لدينا سؤالين كما يلي:

أولاً: لماذا جعل الله الخشوع للأرض مع الجفاف واليبوس من دون الماء؟

¹⁰⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص425، 426.

¹⁰⁹ المصدر السابق، ص425.

¹¹⁰ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج24، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص970.

ثانياً: ما علاقة خشوع الأرض في حالتها قبل نزول الماء عليها وبعده بسجود آدم (عليه السلام) وذريته لله خلال أداء العبادات؟

علاقة خشوع الأرض بالجفاف واليبوسة من دون الماء

نقول: إن الإنسان عندما يسجد على الأرض، فإنه يسجد لأصل الأرض وأصلها ما بين رطب وجاف، لأن خلق الكون بدأ من خلال انفجار الماء الذي هو أكبر من نسبة اليابسة في الأرض، وهذا يعني أن آدم (عليه السلام) المخلوق أو المتكون جسده لحظة خلقه من التراب/الطين والماء والرياح التي تكونت بفعل حرارة الشمس لا يسجد -بالمواد الثلاثة المتكون منها- إلا لمادة التراب التي خلقها الله بصفته خالق السماوات والأرض، ولأن الله هو الذي خلق الماء لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30} ولأن الله استوى عرشه على الماء كما ورد في قوله تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" {هود: 7} أي أنه سبحانه وتعالى خالق الماء وجاعل عرشه فوق الماء الذي خلقه. بالتالي فإن الجفاف واليبوسة حدثان أرضيان بسبب عدم نزول المطر أو لوجود الجفاف واليبوسة في مناطق صحراوية أصلاً، وهذا ما يفسر قوله تعالى في الآية: "فإذا أنزلنا عليها الماء" أي بعدما كانت خاشعة في يبوسها تنتظر إحياءها لإحياء الكائنات الحية ومنها النوع البشري وأوله آدم (عليه السلام) ثم النباتات والحيوانات. بمعنى آخر تعتبر هذه المسألة، أي التقديم والتأخير في خلق المواد في الكون وفي آدم (عليه السلام) دالة على وحدانية الله في الخلق. كما أنه يستحيل أن يسجد الإنسان بمكونات مادته الثلاثة "التراب، والماء، والرياح" لمكونات التراب والماء الذي نزل بفعل حركة الرياح إلى الأرض، ولكن يُقبل أن يسجد الإنسان بمكونات مادته الثلاثة للأرض في حالتها الأصلية. لذلك نقول: إن

الإنسان في حالة السجود يسجد للأرض التي خلقها الله في حالتها الأصلية من غير وجود الماء فيها. ومن هذه المسألة نفهم كيف أن إبليس رفض السجود لآدم (عليه السلام) زاعماً أنه مخلوق من طين كما ورد في الآية، في دليل على أن مادة خلق إبليس -وهي النار- لا تجتمع مع مادة خلق آدم (عليه السلام) -وهي التراب الذي تحوّل إلى طين بفعل الماء- لأن الماء يطفئ نار إبليس، وهكذا يفعل المسلم عند وضوءه لإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم يطفئ بها نار إبليس. كما أن ذلك يفسر وجود إبليس قبل وجود آدم (عليه السلام) ونزوله إلى الأرض، لأن العناصر الثلاثة التي يتكون منها آدم (عليه السلام) ومنها الماء تطفئ نار إبليس، علماً بأن الأرض/التراب -قبل وجود الماء فيها- وقبل خلق آدم (عليه السلام) لا يمكنها أن تطفئ نار إبليس، وهو ما يدل على أن إبليس موجود في الأرض قبل آدم (عليه السلام) وقبل خلق الأرض أو تزامناً مع وجوده مع خلقها لأنه مخلوق من نار، والأرض تكونت من الانفجار العظيم الذي نتج عن وجود قوة نارية هائلة، وإبليس مخلوق من هذه النار باعتبار أنه قاد عملية الوسوسة لآدم (عليه السلام) في الجنة فأنزله إلى الأرض، ولهذا السبب يأتي القرآن على ذكر آيات كثيرة تطلب من الإنسان المسلم التعوذ من إبليس ومجاهته. قال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: أمرني رسول الله فقال: "إذا رقدت فأغلق بابك، خمر إناءك، وأوك سقاءك، وأطفئ مصباحك، فإن الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يكشف إناء، ولا يحل وكاء، وإن الفأرة الفويسقة تحرق أهل البيت¹¹¹. وهنا يبرز سؤال: لماذا قال الله إن الأرض خاشعة ثم قال إنها ميتة؟

الفرق بين الأرض الخاشعة والأرض الميتة

¹¹¹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص121.

نقول: إن خشوع الأرض هو تمثيل لوجودها من دون إحياءها، أي وجود بنيتها، تماماً مثل وجود آدم (عليه السلام) في الجنة أو مثل بنيته قبل نفخ الروح فيه. أما الأرض الميتة فهي الأرض غير الإحيائية التي لا قدرة لأحد في الكون على إحياءها سوى الله. وأيضاً في الآية الأولى {فصلت: 39} التي ذكر فيها أن الأرض خاشعة قال في بداية الآية "ومن آياته" ويعني بذلك أن واحدة من آياته أن يبرر مسألة علاقة السجود بالخشوع، وبما يتضمن ذلك من مسائل تتعلق بالساجد -وهو آدم وذريته بكل عناصر خلقهم- والخاشعة -وهي الأرض بكل عناصر وآلية خلقها- كما سبق ذكره. أما في سورة {يس: 33} فقال "وآية لهم" ولم يقل "من آياته" وهذا دليل على أن موت الأرض آية من آيات الله، وهنا نقول: إن قوله تعالى: "أحييناها وأخرجنا" بصيغة الجمع يعود على الملائكة التي أمرها الله بإنفاذ أمره في خلق السماوات والأرض وإنزال المطر. وكذلك تعودان على الإنسان.

نسأل هنا: هل الإنسان قادر على الإحياء والإخراج علماً بأن هذا فعل إلهي بامتياز؟

قدرة الإنسان على الإحياء والإخراج وعلاقته بالدور الإلهي

نقول: إن اثنين من بني البشر مكن لهم الله القدرة على إحياء الموتى والطير بعد اصطفائهم كرسول وليس بصفنتهم كباقي البشر، والاصطفاء له خصوصيته في التعيين والطريقة، وهما عيسى وإبراهيم (عليهما السلام). أما عيسى (عليه السلام) فقد كانت معجزته القدرة على إحياء الموتى والطير لقوله تعالى: "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" {آل عمران: 49} انظر الشرح في الفصل الخامس،

ص513}. وأما إبراهيم (عليه السلام) فقد كانت معجزته القدرة على إحياء الطير كما في قوله تعالى: "وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم" {البقرة: 260}. نقول: بالنسبة لآدم (عليه السلام) أو ذريته فهم مأمورون من الله بإحياء الأرض من جهة العمل بها، وهذا لا يعني أن المقصود في الآية هو إحياء أو بعث الموتى من القبور، بل هو نوعين من الإحياء: الأول: إحياء حيوي، والثاني: إحياء معنوي، فالحيوي هو نشاط الإنسان في الأرض، والمعنوي هو إحياء حياة الناس بالاستقامة والعدل عبر ترسيخ الصفات الأخلاقية فيهم، ما يعني أن الإحياء الحيوي والمعنوي سوف ينعكسان على حياة بقية الناس سواء كانوا مرضى أم أصحاء أم أحياء أم أموات. بالتالي فإن الإنسان مأمور من الله باستخدام أداة الخلق، وهذا لا يجعله يتساوى مع الخالق في خلقه، لأن الله قال في بداية الآية "وآية لهم" في قوله تعالى: "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون" {يس: 33} وهذه تكفي أن يكون كل ما عداها أو ذكر بعدها هو من خلق الله وإرادته. بالتالي من الصواب القول إن الإحياء والإخراج هو بسبب عمل الإنسان في الأرض، أي فلاحته فيها، وليس خلقه للنبات أو تقديره لكيفية إنباته لأن الله تعالى قال: "أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون" {الواقعة: 64}، لكنه قال مخاطباً ذرية آدم (عليه السلام) أو الإنسان وكافة البشر في قوله تعالى: "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيها فكأنما أحيى الناس جميعاً" {المائدة: 32}، نلاحظ هنا أن الإفساد في الأرض هو نقيض إحيائها، فيكون الإحياء في الأرض إحياءً للبشر مجازاً عقلياً، لأن الفعل الأصلي للإحياء هو بقدرة الله وهو أحياء روحي، لكن إحياء الأرض بيد البشر هو إحياء على سبيل مساعدة الناس للبقاء على قيد الحياة، وإتمام عيشتهم والعمل على

استقرار حياتهم في الدنيا وهو إحياء مادي، ولذلك يعتبر غرس النباتات بهدف إطعام الناس سبباً لإحياء النوع البشري، وقتل النباتات وحرقها سبباً لقتل النوع البشري، ولذلك فإن الاعتداء على الطبيعة هو قتل للنوع والجنس الإنسي واعتداء على تحذير من محاذير الله بشكل مباشر.

ثالثاً: أن الماء له علاقة باهتزاز وربت الأرض، نقول: إذا فهمنا كل ما سبق سنفهم أن عملية خلق الكون في التسلسل، مثل عملية خلق آدم (عليه السلام) في التسلسل، وكذلك مثل عملية إحياء الأرض في التسلسل، وأول خطوة في سلسلة إحياء الأرض هو إنزال الماء عليها، ولما حدث ذلك اهتزت وربت، والاهتزاز فعل من الإنعاش تماماً كما هو نفخ الروح في آدم (عليه السلام) وفي ذريته وباقي البشر عند ولادتهم، أيضاً يعتبر الاهتزاز في هذا الموضع نفخ للروح في الأرض بنزول ماء المطر عليها بفعل حركة الرياح. لكن المفسرين استنبقوا ولم يذكروا هذه الخطوة الإحيائية للأرض التي جعلت فيها الأكسجين كي تنففس، وذهبوا للقول بأن اهتزت: يعني تحركت بالنبات، وهو ما قاله الشوكاني¹¹². وكذلك قال مجاهد: أي: اهتزت بالنبات. يقال: اهتز الإنسان، أي: تحرك¹¹³. أما قوله تعالى: "وربت" فهي تعني بدء تحرك البذرة ونشوتها وتكونها الذي يؤدي مع الوقت إلى انتفاخ الأرض وتشقق التراب أو إزاحته لخروج الساق. ولذلك قال الزمخشري: وربأت أي ارتفعت لأن النبات إذا همُّ أن يظهر ارتفعت له الأرض¹¹⁴. وقال مجاهد: "وربت" أي: انتفخت وعَلَّت قبل أن

¹¹² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1317.

¹¹³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص425، 426.

¹¹⁴ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج24، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص970.

تنبت. أي: تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: ربت واهتزت. والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فربوها ارتفاعها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورايبة؛ فالنبات يتحرك للبروز، ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً. وقرأ أبو جعفر وخالد: "وربات" ومعناه: عظمت؛ من الربيئة. وقيل: "اهتزت" أي: استبشرت بالمطر "وربت" أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقت بالنبات: وُصفت بالضحك، فيجوز وصفها بالاستبشار أيضاً. ويجوز أن يقال: الربو والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات¹¹⁵.

رابعاً: إحياء الماء للموتى مثل إحياء الأرض. قال البيضاوي: المقصود في قوله تعالى "إن الذي أحيانا" أي بعد موتها. "المحيي الموتى إنه على كل شيء قدير" من الإحياء والإماتة¹¹⁶.
نقول: إن قوله تعالى: "إن الذي أحيانا" يدل على أمرين: الأول: أن الأرض كانت خاشعة ولا نقول ميتة كما قال البيضاوي وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقاً، ولأن الله لا يخلق شيئاً ميتاً، باعتبار أن ذلك انتقاص من قدرته ويدل على عجزه، وهو قادر وليس عاجزاً، ولأن الماء كان متوفراً وسابقاً على وجود الأرض وتكونها، والماء مخلوق بواسطة الله وهو تحت ظل العرش، والأرض أنشئت كنتيجة لوجود الماء، فإنه يستحسن القول إن الأرض انفجرت حية؛ لأن الماء كان جاهزاً وسابقاً على انفجارها أو وجودها.

¹¹⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص425، 426.

¹¹⁶ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج24، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص227.

بالتالي وجب القول إن الله أحيها بعد خشوعها وليس بعد موتها لأنه خالقها، وخشوعها من خشوع وإحيائية الماء المخلوق قبلها، وإن الله بشكل مأمول لا يخلق شيئاً ميتاً أبداً؛ لأن الله كامل في عدله وفي صدقه.

رابعاً: ماء العقاب يوم القيامة

نقول: إن أنواع العقاب يوم القيامة كلها دنيوية، ولا يكون العقاب يوم القيامة عقاباً أخروياً، فالإنسان يُعذب في الدنيا حتى يصل إلى الآخرة وقد اكتمل حسابه، وإن لم يكن مكتملاً فإنه يعود لاكتماله.

الآية الأولى:

قال تعالى في سورة إبراهيم: "واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد (15) من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد (16)".

قال البيضاوي: هو عطفٌ على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقي فيها ما يُلقى ويُسقى من ماء. وقوله تعالى: "صديد" عطف بيان لماء، وهو ما يسيل من جلود أهل النار¹¹⁷. وقيل: اشتقاقه من الصد، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته، وهو دم مختلط بقيح¹¹⁸. وقال القرطبي: هو ماء يسيل من فروج الزناة والزواني. وذكر ابن المبارك: أخبرنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بسر، عن أبي أمامة، عن النبي في قوله تعالى: "ويُسقى من ماء صديد يتجرعه" قال: "يُقرب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعائه حتى تخرج من دبره، يقول الله: وسقوا ماءً حميماً

¹¹⁷ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص219.

¹¹⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص742.

فقطع أمعاءهم" {محمد: 15} ¹¹⁹، وذكر ابن كثير: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنتن، كما قال: هذا فليذوقه حميم وغساق {ص: 57} ¹²⁰. نقول: إن الماء الصديد ارتبط بالجبروت والعناد لأن الإنسان يكون في حالة غير سوية من ناحية نفسية، فالجبار قد يكون له صفات أخرى كأن يكون طاغية أو قاتلاً أو مصمماً ومعانداً في كفره، ولذلك جعل الله عذابه أو خيبته في السقيا من الماء الصديد حتى يدخل في جوفه فيكون عذاباً مساوياً لصفتيه وهما الجبروت والعناد لقوله تعالى: "كل جبار عنيد".

الآية الثانية:

قال تعالى: "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً" {الكهف: 29}.

قيل: الماء المهل هو: الحديد المذاب. قال الزجاج: إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر، وقيل: هو دردي الزيت. وقال أبو عبيدة والأخفش: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس. وقيل: هو ضرب من القطران ¹²¹. وقال القرطبي: المهل ماء غليظ مثل دُردي الزيت. مجاهد: القيح والدم. الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود، وشجرها أسود، وأهلها سُود. وقال

¹¹⁹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص121.

¹²⁰ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص485.
¹²¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص857.

أبو عبيدة: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد وورصاص، ونحاس وقزدير، فتموج بالغليان، فذلك المهل. قال سعيد بن جبير: المهل ضرب من القطران، يقال: مهلت البعير فهو ممهول. وقيل: هو السم¹²². نقول: إن الله لما جعل للإنسان حرية في الإيمان والكفر، كذلك أكد على أن الله حق، وأن الحق يكون منه وهو من تمام عدله، وجعل الظلم من صفات الكفار، من خلال إنكار وجود الله أو الشرك به، وهذا الأمر فيه تحدي لله ولما خلقه وأوجده في الكون. ونلاحظ أن العذاب هو النار لقوله تعالى: "أعدنا للظالمين ناراً". أما ماء المهل فهو زيادة في العذاب، بل هو العذاب الذي يجعل الاستغاثة من الكفر والشرك والرجوع عنها مستحيلة يوم القيامة، ولهذا جاء التعبير القرآني في قوله تعالى في نهاية الآية: "بئس الشراب وساءت مرتفقاً".

الآية الثالثة:

قال تعالى: "ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمها على الكافرين" {الأعراف: 50}.

قال البيضاوي: معنى أفيضوا علينا من الماء: أي: صبوه، وهو دليل على أن الجنة فوق النار¹²³. وقال الشوكاني: الإفاضة يعني التوسعة، يقال أفاض عليه نعمة طلبوا منهم أن يواسوهم بشيء من الماء، أو بشيء مما رزقهم الله من غيره من الأشرطة أو الأطعمة، فأجابوا بقولهم: "إن الله حرمها على الكافرين" أي: الماء وما رزقهم

¹²² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص262.

¹²³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج8، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص546.

الله من غيره ¹²⁴. وقال الرازي: إنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بطونهم من الاحتراق واللهيب لسبب شدة حر جهنم ¹²⁵. بين القرطبي أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب. وقال: في هذه الآية دليل على أن سَقِيَ الماء من أفضل الأعمال. وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة: "أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله". وروى أبو داود أن سعداً أتى النبي فقال: أي الصدقة أعجب إليك؟ قال: "الماء". وفي رواية: فحفر بئراً فقال: "هذه لأم سعد". وعن أنس قال: قال سعد: يا رسول الله، إن أم سعد كانت تحب الصدقة، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: "نعم، وعليك بالماء". وفي رواية: أن النبي أمر سعد بن عبادَةَ أن يسقى عنها الماء. فدَلَّ على أن سقى الماء من أعظم القُرَبات عند الله تعالى. وقد قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقى الماء. وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلاً مؤمناً موحداً وأحياه. وفي حديث عائشة عن النبي: "ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق رقبة، ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء، فكأنما أحياها". خرجه ابن ماجه في "السنن" ¹²⁶. نقول: إذا أدركنا أن الله جعل الجنة فوق النار، فيكون ذلك من خلال إدراكنا أن الجنة أسفل عرش الرحمن لأنه سبحانه وتعالى قال: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7} فيكون الترتيب هكذا، الله أولاً، ثم عرشه، ثم الفردوس الأعلى، ثم درجات

¹²⁴ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج8، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص477.

¹²⁵ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص98.

¹²⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السّنة وأيّ الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص233، 234.

الجنة، ثم النار ودرجاتها، ما يعني أن أعلى درجات الجنة أو الفردوس الأعلى يكون أكثر قرباً من الله، أي على حافة عرش الرحمن والماء، وهذا ما عبّر عنه الله في سورة القيامة لقوله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة (22) إلى ربها ناظرة (23)". ثم يكون من درجات الجنة ما هو في الماء نفسه، وهذا ما عبّر عنه الله في قوله تعالى: "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من حُمُر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم" {محمد: 15} وهذه الآية تدل على اختلاف أنواع وطعم وأشكال ودرجات الماء في الجنة، ثم تتدرج باقي الدرجات بعد ذلك، فيكون درجة على حافة الماء أو أسفل منه بقليل حتى يكون أقربها درجة قريب من النار، ولذلك قال الله تعالى: "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" {آل عمران: 185} يعني أن النار موصولة بالحياة الدنيا، والنار هي المادة التي خلق منها إبليس أو الشيطان، وسبق أن ذكرنا بأن الشيطان موجود في السماء والأرض، وشرحنا سبب وكيفية وجوده قبل خلق آدم (عليه السلام) في سورة {فصلت: 39}. {انظر الشرح في هذا الفصل، ص97}. ولذلك كلما زادت النار بُعداً عن الجنة كلما كانت دنبوية أرضية، وهذا ما نقرؤه في قوله تعالى: "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً" {النساء: 145}. قيل: "الدرك الأسفل من النار" هو الطبقة التي في قعر جهنم. وسُميت طبقاتها السبع دَرَكَات لأنها متداركة بعضها فوق بعض¹²⁷. وقيل الدرك الأسفل هي: الهاوية، وأعلى الدركات جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى جميعها الطبقة

¹²⁷ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج6، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص404.

العليا¹²⁸. وقيل الدرجات: أي: طبقات ومنازل، إلا أن العرب استعملوا لكل ما تسافل: أدراك. يقال: للبئر أدراك. كما أن أعلى الدرجات: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية¹²⁹. سأل الخوارزمي: لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر؟ وقال: لأنه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم¹³⁰. وقوله تعالى: "ولن تجد لهم نصيراً" يعني لن يخرجهم منها¹³¹. نوافق القرطبي بأن للنار سبع درجات وهي جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، لكننا نقول إنها تصنف إلى درجات أساسية ودرجات ثانوية، فنقول إن الدرجات السبع هي من الدرجات الأساسية ويضاف إليها ثلاث درجات أخرى وهي: (ماء المهل/أو ماءً حميماً - الصواعق -إعصار فيه نار) -وهي درجات أساسية يوم القيامة- فيصبح مجموعة الدرجات الأساسية عشر درجات. أما الحرارة -وهي درجة ثانوية لكنها دنيوية- كما سنشرحها وفق آيات القرآن. نقول: بالنسبة للحر أو الدفء فهو موجود في الحياة الدنيا عبر طاقة الشمس، وهي درجة أو نوع دنيوي من العذاب بامتياز يكون المرء فيه حياً شاهداً على هذا النمط من العقاب المؤجل لقوله تعالى: "فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون" {التوبة: 81}. قال الشوكاني: المعنى: أنكم أيها المنافقون كيف تفرّون من هذا الحر اليسير، ونار جهنم التي

¹²⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج5، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص339.

¹²⁹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج7، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص195، 196.

¹³⁰ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج5، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص267.

¹³¹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج6، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص404.

ستدخلونها خالدین فیها أبداً أشد حراً مما فررتم منه، فإنکم إنما فررتم من حر یسیر فی زمن قصیر، ووقعتم فی حر کثیر فی زمن کبیر، بل غیر متناه أبداً الأبدین ودهر الداهرین¹³². أما بخصوص الدرجات الأساسية الثلاثة التي أضفناها ومنها (ماء المهل/ماء حمياً – الصواعق – إحصار فيه نار) فهي التي تقع بين دركات أو منازل النار السبعة، ودليل وجود تلك الدرجات الثلاثة كدرجات أساسية ورود كلمة "زحزح" في قوله تعالى في الآية: "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز" {آل عمران: 185}. كما وردت كلمة "مزحزحه" في موضع يتحدث عن العذاب في آية أخرى لقوله تعالى: "ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون" {البقرة: 96} أو كلمة "أزلفت" في قوله تعالى: "وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد" {ق: 31}. نلاحظ أن الله استخدم تعبير "الزحزحة" مع النار والعذاب، في حين استخدم تعبير "الإزلاف" مع الجنة، فما الفرق؟ ولماذا؟ أو ما السبب؟

الفرق بين الزحزحة عن النار والإزلاف للجنة

قال الأصفهاني في معنى: "زحزح عن النار" يعني أزيل عن مقره فيها¹³³. لكننا نرى أن الزحزحة لا تعني الدخول أو الانتقال من مكان إلى آخر، ولا نرى أن هناك عامل فجائي في هذه المسألة لأن كلمة زحزح في سورة {آل عمران: 185} سبقها حرف "من" وهو يفيد التبعية، كأنه أراد القول "من عمل صالحاً جعله يتزحزح عن النار فدخل الجنة"، كأن "من" يقصد بها الأشخاص المؤهلون لدخول الجنة.

¹³² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج10، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص589.
¹³³ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص280.

لذلك نحن نتفق مع معنى زحزح: أي تحرك تحركاً ضئيلاً¹³⁴. يعني ذلك أن "الزحزحة" تتعلق بعدم وجود حدود فاصلة بشكل دقيق تماماً بين الجنة والنار، وكذلك بين أنواع النيران السبعة نفسها يوم القيامة، ما يثبت صحة قولنا إن ما بين الجنة والنار هو ما يقع بين أسفل عرش الرحمن مباشرة، وما هو دنيوي أرضي بامتياز، ويكون الدنيوي على شكل الهاوية، أي بقاء الإنسان في الأرض خالداً مخلداً فيها أبداً متبعاً لأهوائه وشهواته وجرائمه. أما كلمة "أزلفت" فقيل: أزلف الشيء يعني قرّبه. قال الزجاج: تأويله أي قُرب دخلوهم فيها ونظرهم إليها. ومزدلفة والمزدلفة: موضع بمكة؛ قيل: سُميت بذلك لاقتراب الناس إلى منى بعد الإفاضة من عرفات¹³⁵. وقيل: الزُلفى يعني الحظوة، قال تعالى: ليقربونا إلى الله زُلفى {الزمر: 3} والمزالف: المراقي¹³⁶. نوافق قول الأصفهاني بأنها حظوة، ونقول إن معنى القرب هو أقل وصف لكلمة "أزلفت"، لأن المراد لهم دخول الجنة هم المتقين كما في الآية، ويستحيل تأخير شخص تقي عن دخول الجنة، لاسيما أن الآيات التالية كلها تتحدث عن صفات المتقين واستحقاق دخولهم الجنة كقوله تعالى في استكمال الآيات من سورة (ق): "هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ (32) من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (33) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (34) لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد (35)". بالنسبة لدرجات الجحيم، نقول إن أول الدرجات الأساسية التي أضفناها هي (ماء المُهل) التي ورد ذكرها في أحد الآيات، لكن نلاحظ أولاً أن الآية التي شرحناها تتضمن طلباً على

¹³⁴ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، م2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص975.

¹³⁵ محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م1، ج2، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص1853.

¹³⁶ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص283.

لسان الكفار: "ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله" {الأعراف: 50}. ماذا كان الجواب؟

نقول: كان الجواب في نفس الآية على لسان أهل الجنة: "قالوا إن الله حرمها على الكافرين" {الأعراف: 50} لكن هناك إجابة مباشرة من الله على كفرهم تتضمن العقاب بماء المهل في آية أخرى حيث قال تعالى: "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً" {الكهف: 29}.

نستنتج مما سبق أن ماء أهل الجنة غير ماء أهل النار لأن سؤالهم "أفيضوا علينا من الماء" في سورة " {الأعراف: 50} يقصد به ماء أهل الجنة. أما الرد الإلهي "يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه" في سورة {الكهف: 29} فيقصد به ماء أهل النار، وبالتالي نقول: إن درجة "ماء المهل" يوم القيامة تقع أسفل أو على مقربة من آخر درجة في الجنة، وهذه الدرجة من الجنة ليست الفردوس الأعلى، بل هي درجة دنيوية أو شبه أرضية، وقد يكون ماء المهل دنيوي لكل الخطائين بحسب درجاتهم والذين أرادوا تخليد أنفسهم كأحياء عطشى في الدنيا يبحثون عن ماء يشفيهم، لكن الله يقول في الآية: "بئس الشراب وساءت مرتفعاً" {الكهف: 29}. ولأننا سبق أن أشرنا إلى أن سقيا الماء هو أفضل الأعمال والصدقات إلا أن ذلك لا يعني أن كل صدقة ماء هو مثل ماء أصحاب الجنة، فقد يكون كماء المهل أو ماء يغلي لا ينفع المتصدقين من الناس، حيث ورد في سبب إبطال الصدقات آيتين: "قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم" {البقرة: 263} وقال أيضاً: "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى" {البقرة: 264}. ولأننا نتحدث عن موضوع الصدقات استوجب ذكر النوع الثاني المشابه لماء المهل، وهو نفس نوعه لكن وصفه مختلف وهو متصل بالصدقات والزكاة وصفة الشجع، فهو "ماء الحميم" لقوله تعالى: "كمن هو خالد في النار

وسُقُوا ماءً حميماً فَمَقَطَعْ أَمْعَائِهِمْ" {محمد: 15}. وفي آيات أخرى للذي لا يحض على طعام المسكين قال تعالى: "فليس له اليوم ههنا حميم (35) ولا طعام إلا من غسلين (36)". قيل: الحميم: هو الماء الحار الشديد الغليان¹³⁷. أما قوله تعالى: "فقطع أمعاءهم" أي من شدة الحرارة¹³⁸. نقول: هذا "الماء الحميم" هو مخصوص لمن اتبع شهواته في الأكل، أي شهوة الطعام، وهي أول فتنة في الجنة لآدم (عليه السلام)، وآخر فتنة في الأرض لذرية آدم (عليه السلام). كما أن هناك ارتباط بين الخلود في النار والسقاية من الماء الحميم بهدف تقطيع أمعاء الخالدين في النار، وهذا الارتباط يتعلق بما ورد في نفس الآية وفي الآية التي قبلها. أما في نفس الآية فقد ورد ذكر المتقين الذين يدخلون الجنة ويُسقون من أنواع مختلفة من الماء، وفي الآية التي قبلها ورد ذكر نوع من الأشخاص هم الذين يسقون من الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء، وهم الذين زُين لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم، لقوله تعالى: "أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم" {محمد: 14}. وسوف نشرح معنى الهوى واتباعه في الصفحات التالية عند ذكر كلمة "الهاوية". وللتوضيح فإن مقابل "ماء المُهل" و "ماء الحميم" لأصحاب النار، هناك "الماء الغدق" لأصحاب الجنة لقوله تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً" {الجن: 16}. {انظر شرح الآية في هذا الفصل، ص 80}. وهنا نسأل، ما هي علاقة الشهوة ومساس آدم (عليه السلام) وزوجته بشجرة الجنة التي أنزلتهما إلى الأرض بـ "ماء المُهل" المتعلق بالشراب، و "ماء الحميم" المتعلق بالطعام؟

¹³⁷ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج 26، ط 4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص 1374.

¹³⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج 26، ط 1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص 287.

علاقة شهوة الغذاء ب (ماء المهل) و (ماء الحميم)

نقول: إن الشهوة متعلقة بالغريزة، والغريزة متعلقة بالرغبة، والرغبة متعلقة بالقرار، والقرار متعلق بالوسوسة، والوسوسة من الشيطان، والشيطان مثل إبليس مخلوقان من نار لكنهما مختلفان، فالشيطان هو الذي وسوس لأدم (عليه السلام) وزوجته وهو الذي أخرجهما من الجنة، لكن الذي رفض السجود لأدم (عليه السلام) هو إبليس. أما الشيطان فأصله جن لكنه جن له أوصاف، لأن الجن على مراتب، فإذا ذكروا الجنى سالمًا قالوا: جنى. فإذا أرادوا أنه ممن سكن مع الناس قالوا: عامر. وإن كان ممن يعرض للصبيان فهم أرواح. فإن خبث أحدهم وتعرّم فهو شيطان. فإذا زاد على ذلك فهو مارد، قال الله تعالى: "وحفظاً من كل شيطان مارد" {الصافات: 7} فإن زاد على ذلك في القوة فهو عفريت، والجميع عفاريت، قال تعالى: "قال عفريت من الجن أنا أتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين" {النمل: 39} فإن طهر الجنى ونظف ونقى وصار خيراً كله فهو ملك، في قوله من تأول قوله تعالى: "كان من الجن ففسق عن أمر ربه" {الكهف: 50} على أن الجن في هذا الموضع الملائكة. وقال آخرون: كل مستجن فهو جنى، وجان، وجنين. وكذلك الولد قيل له جنين لكونه في البطن واستجنانه. وقالوا للميت الذي في القبر جنين¹³⁹. وأما الخابل والخبيل، فإنما ذلك اسم للجن الذين يخلون الناس بأعيانهم. قالوا: وإذا تعرضت الجنية وتلونت وعبثت فهي شيطانة، ثم غول. والغول في كلام العرب الداھية. ويقال: لقد غالته غول¹⁴⁰. نقول: إن الشيطان يختص بالوسوسة والاستدراج والإغواء والاستمالة والتحريض والعبث والقدح والتخريب والفتنة. وعموماً إن أصل

¹³⁹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج6، (مصر: شركة ومطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص190.

¹⁴⁰ المصدر السابق، ص195.

الإغواء أو الانجذاب متعلق بالنظر، ثم يتحوّل إلى النفس فيصير نحو الطمع والجشع، ثم يصير نزعة شهوية في الإنسان فيتحوّل إلى نهم. روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه سأل المفقود الذي استهوته الجن: ما كان طعامهم؟ قال: الفول. قال: فما كان شرابهم؟ قال الجدف¹⁴¹. وقيل إن الشيطان يعزز النزعة الشهوية عند الإنسان ويحارب نزعته الروحية، فمن الشياطين التي تحارب النزعات الروحية، شيطان مخصوص لحفظه القرآن. قيل في الحديث أن الشيطان قد تفرّد بحفظه القرآن يُنسيهم القرآن، ويُسمى خنزب، وهو صاحب عثمان بن أبي العاص¹⁴². عموماً، نلاحظ وجود آيتين في القرآن تربطان بين الشجرة (أي شهوة الغذاء) بالشياطين (أي الوسوسة) بالعذاب (أي الجحيم)، وذلك في قوله تعالى في سورة الصافات: "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (64) طلوعاً كأنه رؤوس الشياطين (66)". قيل في الشجرة صفتين: الأولى: إنه تخرج في أصل الجحيم، وقيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. والثانية: أن طلوعاً كأنه رؤوس الشياطين¹⁴³. قال القرطبي: "طلوعاً" أي: ثمرها؛ وسُمي طلوعاً لطلوعه "كأنه رؤوس الشياطين"، قيل: يعني الشياطين بأعيانهم، شبهها برؤوسهم لُفجهم، ورؤوس الشياطين متصوّر في النفوس وإن كان غير مرئي¹⁴⁴. على حين قال الرازي: إن الشياطين حيّات لها رءوس وأعراف، وهي من أقبح الحيّات، وبها يُضرب المثل في القبح، والعرب إذا أرادت منظرأ قبيحاً

¹⁴¹ المصدر السابق، ص210.

¹⁴² المصدر السابق، ص194.

¹⁴³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص142.

¹⁴⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنّة وأيّ الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص43.

قالت كأنه شيطان الحماطة، والحماطة شجرة معينة (هي التين) ولما ذكر الله تعالى هذه الشجرة وذكر صفتها، بيّن في الآية التالية من نفس السورة فقال: "فإنهم لأكلون منها فمائلون منها البطون" (66) 145، نقول: إن هذه الشجرة تختلف عن شجرة الجنة، فهي شجرة أرضية بامتياز وتسمى "شجرة الزقوم" كما ورد ذكرها في نفس السورة في الآية (62) حيث اعتبرت هذه الشجرة هي فتنة الأرض كما هنالك فتنة شجرة السماء. أما أصل الجحيم، ففيه ثلاثة وجوه: (الوجه الأول) أن يكون ذلك إشارة إلى الشجرة السماوية، أي شجرة الجنة التي فتنت آدم (عليه السلام) وزوجته، ووجه المقاربة في ذلك أن قوله تعالى: "تخرج" في إشارة للشجرة، ثم قوله تعالى في الآية التي تليها: "رؤوس الشياطين" دليل على أن الشجرة كانت مصدراً أو عنصراً للجذب بواسطة ظهور غواية الشيطان، فيكون أصل الجحيم هو بداية إنبات أو نمو الشجرة وبداية غواية الشيطان، والذي دفعهما، أي آدم (عليه السلام) وزوجته والشيطان إلى النزول إلى الأرض، فتحوّلت الجحيم من بداية نمو النبات التي رافقها شهوة وغواية في السماء إلى مصدر حقيقي لهذا الجحيم في الأرض. (الوجه الثاني) أن يكون متعلق بالمادة التي خلق منها الشيطان، كأن الله أراد القول إن الشيطان مخلوق من نار، والشجرة مصدر شهوة الغذاء، وإن كانت خضراء، مصيرها أن تتحول إلى حطب يوقد فيه النار، ثم تتحوّل إلى رماد. فتتساوى مادة الشيطان والمادة التي تنتهي إليها الشجرة، فيكون طبع الإنسان في اللهاث وراء شهوة الغذاء إنما هو لهاث وراء غواية نار الشيطان، وعلى هذا، فإن كل من يحذو وراء غواية الشيطان سيكون مصيره للحاق بالنار أو الذهاب إليها. (الوجه الثالث) أن يكون أصل الجحيم

145 الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص142.

هو الهاوية، وهي أعتى وأكثر درجات النار قعراً في الأرض، وهذا دليل على أرضية الشهوة وأرضية العقاب.

عموماً، لو بحثنا في كثير من الآيات لوجدنا علاقة جذرية بين الشهوة والمال والغنى بالشياطين ووسوساتهم، على سبيل المثال:

- قوله تعالى: "الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا" {البقرة: 275}.

- وقوله تعالى: "قل أذعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين" {الأنعام: 71}.

أما إبليس فهو نوع من الشياطين يختص بخطاب الكبرياء لأسباب تتعلق بالمادة التي خلق منها، حيث سنلاحظ أن غالبية الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر إبليس كانت تتعلق برفضه السجود لأدم (عليه السلام). ولذلك سوف نشرح علاقة المادة التي خلق منها إبليس بمادة آدم (عليه السلام) وعلاقة ذلك كله بالأرض وبالسجود. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص245}. أما الدرجة الثانية التي أضفتها إلى الدركات الأساسية فهي (الصواعق) وهي تكون داخل أي نوع من أنواع النيران، لقوله تعالى: "ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء" {الرعد: 13}. ذكر الفراهيدي: أن الصعاق: الشديد الصوت. والصاعقة: صيحة العذاب أو الوقع الشديد من صوت الرعد، يسقط معه قطعة من نار، يقال إنها من صوت الملك¹⁴⁶. كما ورد في المعجم المعاصر: صعق الناس: أي هلكوا. قال تعالى: "ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون" {الزمر: 68} وقيل صعق الشخص: أي

¹⁴⁶ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص397.

أصابه أمر عظيم، وغشي عليه، وذهب عقله من صوت يسمعه كالهدة الشديدة. قال تعالى: "فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون" {الطور: 45}. والصاعقة: جسم ناري مشتعل يسقط من السماء في رعد شديد وهو ناجم عن تفريغ كهربى بين سحابة مكهربة والأرض أو بين سحابتين مكهربتين، وهي نار من السماء، وعذاب مُهلك، وصيحة العذاب. قال تعالى: "فعلنوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون" {الذاريات: 44}. والصعقة: الصيحة التي يُغشى منها على من يسمعها أو يموت¹⁴⁷. أما الدرجة الثالثة التي أضفتها إلى الدرجات الأساسية فهي (إعصار من نار) كما ورد في قوله تعالى: "أبود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبير وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" {البقرة: 266}. قيل: الإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود¹⁴⁸. وقال الحسن: ريح فيها برد شديد. وقال الزجاج: الإعصار في اللغة: الريح الشديدة التي تهب من الأرض إلى السماء كالعمود، وهي التي يقال لها: الزوبعة. قال الجوهري: الزوبعة رئيس من رؤساء الجن، ومنه سُمي الإعصار زوبعة. ويقال: أم زوبعة، وهي ريح تثير الغبار، وترتفع إلى السماء، كأنه عمود. وقيل: الإعصار: ريح تثير سحاباً ذا رعد وبرق¹⁴⁹. نقول: إن الإعصار يمثل اللحظة الحاسمة للإنسان يوم القيامة، فالإنسان قد يعمل صالحاً لكن إعصاراً من نار قد يجعل كل شيء

¹⁴⁷ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، م3، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص1297.

¹⁴⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص226.

¹⁴⁹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص341.

يحترق ويتحول إلى رماد. بالتالي استوجب أن يكون الإعصار درجة من درجات العقاب المفاجئ أو العقاب الذي يكشف عن الباطل بعد ادعاء فعل الحق. ونقول: إن كل إنسان سواء كان مسلماً أو غير مسلم، مهما كثرت أعماله أو قلت سوف يعبر عن درجة من درجات النار سواء بالابتلاء أو المرض أو أي طريقة أخرى تناسب أعماله في الدنيا، وهذا العبور يسمى "الصراط المستقيم" لقوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم" {الفاحة: 6} كما ورد في القرآن حتمية العبور عن الصراط مع تراوح مدة العبور في قوله تعالى في سورة مريم: "وإن منكم إلا واردةا كان على ربك حتماً مقضياً (71) ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً (72)". قيل: الورد هو الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة، واحتجوا على أن الورد قد يُراد به القرب، لقوله تعالى: فأرسلوا واردهم {يوسف: 19} ومعلوم أن ذلك الوارد ما دخل الماء. قال تعالى: ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون {القصص: 23} ¹⁵⁰. وقال الزمخشري: إذا أريد الجنس كله، فمعنى الورد: دخولهم فيها وهي جامدة فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم ¹⁵¹. على حين كان رأي القرطبي أنه لا يبقى بُرٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ¹⁵². ونقول: إن معنى "واردها" يعني عابرها أو عابر عنها، فأما عابرها يدخل فيها، وأما العابر عنها فهو لا يدخل فيها، بل يعبر إلى غيرها وهي الجنة. نقول: إن هناك عبور

¹⁵⁰ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص98.

¹⁵¹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج16، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص644.

¹⁵² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنّة وأبي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص492.

دنيوي وعبور أخروي، أو عبور دنيوي وأخروي أو حساب دنيوي متأخر أو حساب أخروي متأخر أو حساب دنيوي وأخروي متأخر. بعض الناس تعبر إلى الفردوس الأعلى وهم أحياء فيكونون في حياتهم كالملائكة، ومنهم من يعبر إليها منذ اللحظة الأولى للوفاة، ومنهم من يذهب إلى درجات أدنى في الجنة، ومنهم من يذهب إلى النار فوراً أو يقتل بالنار وهو في الأرض، أو يقتل بالنار وهو في النار. أما بالنسبة للوقت فمنهم من يستغرق سنوات في النار أو شهور أو أيام أو ثوان حسب درجاتها، ومنهم من تلفحهم النار بسرعة، وهذا كله مرتبط بالرسالات السماوية التي أنزلها الله في الأرض، وآخرها الإسلام، وأهم ما فيه الأركان الخمسة، ثم نشاط وأعمال الإنسان المرتبطة بتطبيق أحكام الشريعة في الأرض وإحياء الدين وفهمه لشروط نهضة الأمة الإسلامية. بالتالي يبقى كل إنسان يتراوح ما بين نار السماء ونار الأرض، أو نار السماء والأرض وجنة السماء والأرض، أو جنة الجنان في السماء والأرض حتى تقوم الساعة أو يحدث الفناء فيثبت كل إنسان في مكانه. أما المكان فالذي يحدده بالإضافة إلى أعمال الإنسان، شهادة الأئمة والصالحين لقوله تعالى: "يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يُظلمون فتيلاً" {الإسراء: 71}. أو كما قال تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم" {البقرة: 143}. كما أن كل إنسان يستقر في مكانه الأبدي إما في الجنة أو النار عند قيام الساعة، والساعة تقوم عندما يصل الفساد الأخلاقي والمادي إلى ذروته، وتتعدم على إثر ذلك الحياة على سطح الأرض، وذلك من خلال استخدام الأسلحة التدميرية مثل السلاح النووي الذي يحتوي على مادة الديوتيريوم وأصلها الهيدروجين في أماكن يجعلها غير صالحة لإنبات البذور ولا عيش

الحيوانات فيها، وبالتالي عدم قدرة الإنسان على البقاء، وبهذا تكون نار الله في الأرض هي من صنع المادة التي خلقها الله عند نشأة الكون، لكنه لم يخلقها لغرض التدمير، لأن ذلك عكس إرادة الله في خلق الكون، وعكس فكرة الإحياء، وعكس رحمة الله بعباده، لكن ذلك يعيدنا إلى فتنة آدم (عليه السلام) الأولى في الجنة، والسبب الذي أنزلهما إلى الأرض بعد وسوسة الشيطان لهما، كما سنشرح هذه المسألة بالتفصيل في سورة {الأنعام: 99} {انظر الشرح في هذا الفصل، ص141} وكذلك يعيدنا إلى حقيقة الفناء المذكورة في قوله تعالى: "كل من عليها فان" {الرحمن: 26}، حيث نقول إن هذا الفناء لا يكون إلا من خلال فعل الإنسان وإفساده في الأرض، وأبرز فساد من خلال استخدام نظير الهيدروجين المسمى ديوتيريوم ورمزه الكيميائي D بدلاً من الهيدروجين العادي في صناعة السلاح النووي، إلى جانب تسخير سرعة الضوء في استخدام هذه الأسلحة النووية من خلال كثرة تسخين الإلكترونات التي يحفزها إلى مستوى الطاقة الموجودة فيه إلى مستوى طاقة أعلى منه من خلال عملية إثارته الإلكترونات ثم عودتها لمستواها الأصلي لتكون ضوء متكون من جسيمات (فوتونات). إن تكرار هذه العملية بشكل مفرط سوف يؤدي إلى اضطراب مادي، وليس أقله سقوط الإلكترون داخل النواة، حيث ينتج عن ذلك حدوث خلل في بنية النواة، وبالتالي يؤثر على ثباتية الذرة فتقنى وتتعدم من الوجود، وهذا غير ممكن كما ثبت بالتجربة، لكننا نقول إنه ممكن مع الزمن البعيد وعندنا حجة شرعية ومادية عملية سوف نشرحها عند ذكر أنواع الإلكترونات، والفرق بين الإلكترون الحر المغلق (محدود مسار الحركة)، والإلكترون الحر (المفتوح مسار الحركة)، وحالات سقوط الإلكترون في النواة. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص316}. إذا فهمنا موضوع العلاقة بين ما هو سماوي علوي (الجنة ودرجاتها) وأرضي دنوي (النار ودرجاتها) سوف ندرك مكانة ودور الإنسان ونشاطه في الحياة الدنيا، وما تركه من بعده في الحياة الدنيا

لأجل حياة الآخرة أو حياة الخلود. بالتالي نحن لا نوافق الشوكاني في قوله إن جميع درجات النار جميعها تسمى "الطبقة العليا" ¹⁵³ ولا نوافق قول الجاحظ بأن "النار سماوية علوية" ¹⁵⁴، بل أسميها "الطبقة السفلى" لأن النار سفلية، والجنة علوية، وسفلية النار ليس لأنها تقع أسفل درجات الجنة، بل لأن الحر يعتبر درجة من درجات العقاب الإلهي وهو دنيوي طبيعي، ولأن أكثر درجات النار قعرأ هي درجة ما دون أرضية وهي الهاوية، وتكون في حفرة عميقة في باطن الأرض فيها نيران كالبراكين وغيرها. نقول: إن النار كلما ارتفعت صارت أكثر خفة حتى تصير كالهواء الحار، وكلما دنت وأسفلت كلما صارت انصهارية ثورانية جامدة ثقيلة. قال الجاحظ: النار جسم صرف غير ممزوج، ومرسل غير مركب، ومُطلق القوى، غير محصور ولا مقصور، والنار فوق الأرض، والهواء فوق الماء، والنار فوق الهواء ¹⁵⁵. نقول: ليست كل النار فوق الأرض كما يقول الجاحظ، بل إن ما هو موجود تحت الأرض يعتبر أكثرها هوة وتسمى نار الهاوية. كما أن النار ليست فوق الهواء كما ذكر، بل هي أدنى من الهواء، والهواء يحمل سخونة النار ويتفاعل مع لهيبها. إن أفضل وأشمل ما قيل في علاقة الهوى بالهاوية هو عند الأصفهاني، حيث ذكر أن الهوى هو ميل النفس إلى الشهوة. ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل سُمي بذلك لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوى سقوط من علو إلى سُفل. وقد عَظَّم الله تعالى ذمَّ اتباع الهوى فقال تعالى: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه" {الجاثية: 23} وقال تعالى: "ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب"

¹⁵³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج5، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص339.

¹⁵⁴ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص94.

¹⁵⁵ المصدر السابق، ص94.

{ص: 26} وقال تعالى: "ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه" {الأعراف: 176} وقوله تعالى: "ولئن اتبعت أهواءهم" {البقرة: 120} فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر، ثم إن هوى كل واحد لا يتناهى، فإذا اتبع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة، وقال عز وجل: "ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون" {الجاثية: 18} وقال تعالى: "كالذي استهوته الشياطين" {الأنعام: 71} أي حملته على اتباع الهوى. وقال تعالى: "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا" {المائدة: 77} وقال تعالى: "قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت" {الأنعام: 56} وقال تعالى: "ولا تتبع أهواءهم وقل أمنت بما أنزل الله" {الشورى: 15} وقال تعالى: "ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله" {القصص: 50} والهوى ذهاب في انحدار، والهوى ذهاب في ارتفاع¹⁵⁶. نقول: إذا كان الهوى ذهاب في انحدار فهو يتعلق بالنار البركانية الموجودة في باطن الأرض، ويُسمى الدرك الأسفل لأنه ليس دنيوياً أو شبه دنيوي فحسب، بل أقل بكثير من أن يكون دنيوياً، فهو هوى أدنى من الحياة الدنيا في الأرض، وأعلى من الحياة العليا في الجنة، فهو في الأرض هوى مطلق زائد عن الحد الإنساني والأخلاقي، وفي الجنة يفوق هوى آدم (عليه السلام) في اتباعه لوسوسه الشيطان من خلال المساس بالشجرة التي أنزلته إلى الأرض. بالتالي تكون جملة الأصفهاني "الهوى في انحدار" تعبير عن خلود الإنسان في الهاوية وهذه لا نجاة منها أبداً، لأن الإنسان يتحول من خلالها إلى شيطان مارد في الأرض والسماء. إذا أدركنا ذلك، سوف نفهم أن "الهوى في ارتفاع" يقصد به الهوى (المرئي وغير المرئي)، فأما المرئي فهو الذي يتجسد في البشر ولغتهم وتصرفاتهم وأعمالهم على هيئة شياطين، وأما غير المرئي فهو الشياطين المخلوقة من النار والتي توسوس في صدور الناس. بالتالي

¹⁵⁶ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص712.

فإن هذا الهوى بنوعيه (المرئي وغير المرئي) يتراوح بين سطح الأرض وصولاً إلى أدنى وربما أوسط درجات الجنة، وبالتالي يدخل فيه كل درجات النار العشرة التي شرحناها، ويدخل فيه معنى كلمة "زحزح" في قوله تعالى: "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" {آل عمران: 185}. وإذا أردنا فهم العلاقة بين "الغرور والشياطين والنار"، لا بد من مراجعة شرحنا لمعنى التفاخر، ودلالة جملة "تفاخر بينكم" في قوله تعالى: "واعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مُصفرّاً ثم يكون حُطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" {الحديد: 20}. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص329}. نقول: لما ضرب الله مثلاً في الآية على اللعب والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد، وقال إن كل ما سبق هو مثل النبات الذي يعجب الكفار في طريقة نمّوه ثم وصوله إلى مرحلة الاصفرار ثم إلى الحطام، كان ذلك تعبيراً عن هشاشة الحياة الدنيا، وهي تأكيد على أن كل فعل بني آدم الذي سبق ذكره في بداية الآية هو متعلق أصلاً بفتنة آدم (عليه السلام) الأولى، وهي المساس بالشجرة في الجنة والتي أنزلته إلى الأرض، فتتابعت الفتن عليه وتكاثرت وزادت سوءاً كاللعب والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد. ولقد عبّر الله في آية أخرى عن مكنم الخطورة في العلاقة بين النفس البشرية وبين هذه شهوة الغذاء فقال تعالى: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون" {يس: 80}. هذه الآية تدلنا على أن فتنة الشجرة في الجنة، هي ذاتها فتنة الشجرة في الأرض، لأن بداية هذه الشجرة تكون خضراء مثمرة وهي غذاء للإنسان، ونهايتها عند الله هي تحوّلها إلى حطب صالح للإيقاد لأهداف متعددة، منها إنضاج الطعام أو التدفئة مثلاً، وكل ذلك لخدمة الإنسان، فمتى استسلم الإنسان لفكرة أن الشجر العلوي والديوي ليس الأصل

في دار الخلود الأبدي، صار ذلك حقاً وحقيقة مطلقة. عموماً إن النظرة الإنسانية للعلاقة مع الشجرة العلوية والأرضية تتعلق بطبائع البشر ومسلكياتهم في الحياة الدنيا. قال الجاحظ: ليس بين الأرض وبين الإنسان، ولا بين الإنسان والماء، ولا بين الهواء والإنسان، مثل قرابة ما بينه وبين النار. وقال: إنما قضيت لها بالقرابة، لأنني وجدت الإنسان يحيا ويعيش في حيث تحيا النار وتعيش، وتموت وتتلف حيث يموت الإنسان ويتلف¹⁵⁷. أننا ننكر هذا الوصف لبعض الأوائل الذين شبّهوا ما بين النار والإنسان، فجعل ذلك قرابة ومشاكلة، لأنهما لا يتشاركان في مادة الخلق، لكن ربما يكون بينهما استقطاب أو تجاذبية خلال عملية الإحياء للأرض لما يتطلبه ضرورة العيش، وهذا يُبنى على الشهوة. ومن ناحية أخرى فإن الذي ينظم علاقة الإنسان مع النار هو علاقته مع إتباع الهوى، فأما من اتبع هواه وشهوته كان أقرب إلى بيئة النار السفلية، وأما من اتبع سكينته كان أقرب إلى بيئة الحياة الدنيا، وأما من اتبع منطق عقله وعلمه كان أقرب إلى بيئة الفردوس الأعلى من الجنة. بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن الهوى، نقول: إن منه الهواء، والهواء ما بين الأرض والسماء، وقد حُمِلَ على ذلك قوله تعالى: "وأفئدتهم هواء" {إبراهيم: 43} إذ هي بمنزلة الهواء في الخلاء¹⁵⁸. قيل في معنى: "وأفئدتهم هواء" أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهشة، وجعلها نفس الهوى مبالغاً، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء، أي: لا أرى فيه ولا قوة. وقيل: المعنى إن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير¹⁵⁹. نقول: إن الدليل على أن القلوب خالية خاوية، هي أنها لا تعقل ولا تبصر، وعموماً هذا وصف يشمل كل الناس التي تميل إلى الأشياء الحية وغير

¹⁵⁷ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص109.

¹⁵⁸ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص712.

¹⁵⁹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص752.

الحية من دون وعي أو تفكير، أي تميل للشهوة أو للطيش، والشهوة والطيش كلاهما من سوء عمل الشيطان. قيل: إن الإنسان جوهر مركب من النفس والبدن، فالنفس الإنسانية أشرف الموجودة في العالم السفلي، وبدنه أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي. وتقرير هذه الفضيلة في النفس الإنسانية هي أن النفس الإنسانية قواها الأصلية ثلاث: وهي الاغتذاء والنمو والتوليد. أما النفس الحيوانية لها قوتان: الأولى: الحساسة، سواء كانت ظاهرة أو باطنة. والثانية: الحركة بالاختيار، فهذه القوى الخمسة، أي الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الإنسانية، ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي. وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه، وهو الذي يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح والأجسام كما هي، وهذه القوة لا نسبة لها في الشرف القدسية والأرواح المجردة الإلهية، فهذه القوة لا نسبة لها في الشرف والفضل إلى تلك القوى الخمسة النباتية والحيوانية. وقيل في تكريم الإنسان، روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: "كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم فإنه يأكل بيديه"¹⁶⁰. زيادة على ما سبق، نقول: إن أشرف مراتب الإنسان تكمن في روحه، والروح خمسة أنواع، كلها متكاملة أخلاقياً إلا ما يدخل عليها بفعل صنيع الإنسان، وهي: الأولى: روح حارة انفعالية بهيمية أقل من دنيوية تشدها الغرائز الشهوية ما دون الأرضية التي تقع أسفل الحيوانات وفي روث البهائم. الثانية: روح دنيوية متاعية مفتونة تقع فوق الأرض وتختص باللهات وراء الأطماع واللهو والزينة واللعب والشبهات والفتن. الثالثة: روح أخلاقية مرتفعة تسمو على الصغائر

¹⁶⁰ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص13.

والكبائر وتحتسب أفعالها وأقوالها عند الله. **الرابعة:** روح جمالية تأملية علوية سماوية تترفع عن الآثام، وتتعلق بالأخرة وتؤدي ما عليها من واجبات دنيوية لدرجة الكفاية والكمال غير المطلق. **الخامسة:** روح نبوية علمائية صادقة طاهرة فوق علوية لا يضاهاها أي روح ولا تنزل إلى أي دنيا أو سماء وهي روح ملائكية، وهي أقرب الأرواح إلى الله. **السؤال هنا، هل يوجد علاقة بين الهواء والماء؟**

نقول: نعم. قيل إن الهواء سريع الاستحالة إلى الماء، وكذلك الماء إلى الهواء، للمناسبة التي بينهما من الرطوبة والرقة وإنما هما غير سيّارين. كما أن الماء والهواء يتشابهان لسرعة قبولهما للحر والبرد، والطيب والنتن، والفساد والصلاح¹⁶¹. نقول إن الماء للثبات والهواء للطيش. كما أن الماء للإحياء والهواء للأخذ بالإحياء. والماء دائم لا ينقطع ودورة حياته لا تنقطع، والهواء منقطع ودورة حياته أقل.

نسأل هنا، لماذا نقول إن الهوى بنوعيه (المرئي وغير المرئي) يدخل في أدنى درجات الجنة وليس كل درجات الجنة؟

علاقة الهوى (المرئي وغير المرئي) بأدنى درجات الجنة

نقول أي هوى مرئي وغير مرئي يتعلق بوساوس الشياطين، والشياطين لا توجد في الفردوس الأعلى، ولا تحيط بعرش الرحمن لأن الذي يحيط بعرش الرحمن هم الملائكة الثمانية الذين يحملون عرشه كما سنوضح في شرحنا لسورة {الرحمن: 14} في الإجابة على سؤالين: هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟ وهل الملائكة مخلوقون من نار أم من حرارة الشمس؟ {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص290}. كما أن الهواء أخف من الماء في الحركة، والهواء سريع الحركة أكثر من الماء، فلا يكون الهواء في الجنة أكثر من الماء

¹⁶¹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص90.

إلا إذا كان هواءً ملائكياً (أي من مادة النيتروجين)، ولأن ماء الجنة غير ماء الأرض وغير ماء العذاب، فإن الشياطين ليس لها وجود في ماء الجنة في الفردوس الأعلى، والدليل على ذلك وجود خلود أبدي في الجنة وفق نص القرآن الذي عبر عن ذلك بكلمة "خالدين فيها" في كثير من الآيات والتي جاءت مع ذلك جملة "تجري من تحتها الأنهار" وهذا دليل على أن ماء الجنة يختلف عن أي ماء، فالذي يدخل الجنة ويخلد فيها أبداً، يكون تحته ماء علوي، وليس ماءً دنيوياً، أي أنه ليس كماء المهل، ولا يشوي الوجوه، وليس كالماء الثقيل الذي يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين والذي يُصنع منه السلاح النووي التدميري في الأرض، بل هو ماء فيه خفة النيتروجين ونسمات الأكسجين العلية. ومن الآيات التي وردت فيها كلمة "خالدين" في إشارة للأبدية المطلقة، و"الأنهار" في إشارة للماء العلوي الذي يقع أسفل عرش الرحمن ما يلي:

- قال تعالى: "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم" {التوبة: 100}.

- قال تعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظللاً ظليلاً" {النساء: 57}.

- قال تعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن صدق من الله قيبلاً" {النساء: 122}.

- قال تعالى: "لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار" {النساء: 13}.

- قال تعالى: "قل أوبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد" {آل عمران: 15}.

- قال تعالى: "أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين" {آل عمران: 136}.

- قال تعالى: "قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم" {المائدة: 119}.

- قال تعالى: "فأتابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين" {المائدة: 85}.

- قال تعالى: "وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم" {التوبة: 72}.

- قال تعالى: "أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم" {التوبة: 89}.

- قال تعالى: "وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام" {إبراهيم: 23}.

- قال تعالى: "جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى" {طه: 76}.

نقول: كل ما سبق يوضح لنا أن غياب الفواصل التي يعيشها الإنسان في حياته الدنيا من خلال مراوحته بين (الكفر والإيمان) أو (الزهد والجشع)، أو (الكرم والبخل)، أو (الفضيلة والرذيلة)، أو (العلم والجهل)، أو (الاعتكاف والسهر)، هي نفسها ذات الفواصل التي تتلاشى بين الجنة والنار في الحياة الآخرة والدليل على علاقة حب الدنيا وشهواتها أو ابتغاء الآخرة ونعيمها من جهة، مع الدرجات التي

يكون فيها المؤمن والكافر يوم القيامة من جهة أخرى قوله تعالى: "زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب" {البقرة: 212}.

الثاني: ماء إحياء الأرض (النباتات والحيوانات)

نقول: كل أنواع الماء الموجودة في الطبيعة مصدرها الأودية والأنهار، وكذلك المياه الجوفية ومياه البحار والبحيرات والمحيطات مصدرها الرواسب التي تنزل من الغلاف الغازي إلى سطح الأرض، وهذه الرواسب: المطر والتلج والبرد والندى. قيل: إن الماء أصله (ماه) فأبدلت الهاء همزة. ويجمع الماء على أمواه ومياه. والماء هو السائل اللطيف الشفاف. ومنه العذب الذي يكون منه الري عند تناوله، كماء السماء وماء الأنهار. ومنه الملح الذي لا يشرب كماء البحار

162.

أولاً: النباتات

الآية الأولى:

قال تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}.

كانت السماء لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السماوات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقها الله وفرج بينها. وقيل: "فتقناهما" بالمطر والنبات¹⁶³. وقال الشوكاني: يعني: أنهما

¹⁶² معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج6، (القاهرة: مجمع اللغة العربية،

1968)، ص69.

¹⁶³ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقوال في وجوه التأويل، ج17، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص677.

كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما¹⁶⁴. وهذا ما قاله ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة. وكذلك قال كعب: خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحاً توسطتها ففتحتها بها، وجعل السماوات سبعاً والأرضين سبعاً. وقول ثان قاله مجاهد والسدي وأبو صالح: كانت السماوات مؤتلفة طبقة واحدة، ففتحتها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة، ففتحتها فجعلها سبعاً¹⁶⁵. وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر، فأمطرت. وكانت هذه رتقاً لا تنبت، فأنبتت¹⁶⁶. وقال رتقاً ولم يقل رتقين لأنه مصدر، والتقدير: كانتا ذواتي رتق، ومعنى "ففتقناهما" أي: فصلنا بعضهما من بعض، فرفعنا السماء، وأبقينا الأرض مكانها¹⁶⁷. وذكر في نهاية الآية قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي". قال القرطبي: فيها ثلاث تأويلات:

أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة،¹⁶⁸ وذكره ابن كثير¹⁶⁹. الثاني: حفظ حياة كل شيء {حي} بالماء. الثالث: وجعلنا من ماء

¹⁶⁴ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص934.

¹⁶⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص195.

¹⁶⁶ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص339.

¹⁶⁷ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص934.

¹⁶⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص197.

¹⁶⁹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص339.

الصلب كل شيء حي؛ قاله قطرب¹⁷⁰. وقال الخوارزمي: معنى "وجعلنا" لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله: والله خلق كل دابة من ماء {النور: 45}¹⁷¹. وهذا ما ذكره الرازي¹⁷². وكذلك قال الشوكاني: أي: أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء فيشمل الحيوان والنبات، والمعنى: أن الماء سبب حياة كل شيء؛ وقيل: المراد بالماء هنا النطفة، وبه قال أكثر المفسرين¹⁷³. نقول: إن قوله تعالى: "جعلنا" أي خلقنا، فالماء كمادة هي من خلق الله، ويعجز الإنسان عن خلقها في الأرض. أما بالنسبة للمعنى فالخلق من ماء في الآية يشمل كل الكائنات الحية ومنها آدم (عليه السلام) والنباتات والحيوانات. بالنسبة لآدم (عليه السلام) فإننا سوف نشرح بالتفصيل كيفية تكونه من الماء والتراب/الطين والصلصال الفخار والحمأ المسنون، وذلك في سورة {الرحمن: 14} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص279} أما هنا لأننا نشرح علاقة الماء بإحياء النبات فنقول إن إحياءه يشترك فيه ذات المواد التي خلقت آدم (عليه السلام) وهي الماء والتراب/الطين والحرارة التي نتجت عن الرياح بفعل الطاقة الشمسية. على سبيل المثال: إذا وضعت بذرة قمح في الأرض الصالحة للزراعة وسقيتها بالماء تشربت البذرة بعض ذلك الماء فانتفخت وتنبهت وظائفها الحيوية بالحرارة الأرضية فأخذت في العمل لتكوين النبات. وبالنسبة

¹⁷⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص197.

¹⁷¹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج17، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص677.

¹⁷² الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج22، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص163.

¹⁷³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص934.

لمحتويات هذه البذرة، فإن بذرة القمح وكل بذرة من نوعها مكونة من جنين، أي خلية حية موجودة في باطنها ومن مادة دقيقة مؤلفة من مواد صالحة لتكوين الأجزاء النباتية ومواد صالحة لتوليد الحرارة، أي من مواد أزوتية ومواد أيديروكربونية. ومع هذه المواد الأيديروكربونية التي هي نشوية خميرة تسمى بالدياستاز وظيفتها إحالة النشا إلى مادة سكرية تقبل الذوبان ليتمكن أن يتغذى بها الجنين. وأما النشا على حالته العادية فلا يذوب كما هو معلوم فلا يصلح غذاء للنبات، فمتى وضعنا بذرة القمح في الشروط الموجبة للإنبات، أي في أرض صالحة، وسقيناها بالماء تيقظت وظيفتها تلك الخميرة فأحالت المادة النشوية إلى سكر ويتخلله ماء السقي فيذوب ويتشربه الجنين فتتولد فيه الحرارة من هذا التحلل والتركيب وتكون المواد الأزوتية قد ذابت أيضاً بماء السقي فيتشربها الجنين أيضاً فيزداد جسمه ويتضاعف ولا يزال يتغذى على هذا الأسلوب وينمو حتى ينفذ المخزون عنده من المادة النشوية (أي الأيديروكربونية) المولدة للحرارة ومن المادة الأزوتية المولدة للأنسجة وإذ ذلك يكون قد نما له جذير يتجه إلى الأسفل وسويق يتجه إلى الأعلى يكونان كفاين لأن يغذيا النبات من الأرض والهواء. فانظر إلى حكمة الله كيف أحاط الجنين وهو الخلية الأولى بحاجته من المواد المولدة للحرارة والأعضاء لعجزه عن تناولها من الأرض والهواء مباشرة وقدرها تقديراً بحيث تنفذ عندما يوجد له جذير وسويق قادران على اجتلاب الغذاء له من الطبيعة مباشرة. فمتى يتكون للنبات جذير وسويق، يعمد الجذر على امتصاص المواد الأرضية واصعادها إلى جميع أجزاء النبات لتغذيته بعد أن تستحيل إلى مواد صالحة بواسطة الحرارة ولا يدري إلا الله وحده كيف تستحيل هذه المواد الأرضية إلى أجزاء حية صالحة لأن تكون أجزاء النباتات الغضة، ولا كيف لا يأخذ

كل نبات إلا المواد الضرورية له دون سواها مع أن المواد كلها منبثة في التراب على السواء¹⁷⁴.

الآية الثانية:

قال تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" {البقرة: 164}.

هذه الآية قدم لها فخر الدين الرازي شرحاً طويلاً هاماً، لكننا سنذكر ما أشار إليه الرازي فيما يتعلق بالماء، ونزيد عليه ما لم يذكره الرازي وغيره من المفسرين. نقول: إن الآية مقسمة إلى أقسام، وهي أولاً: خلق السماوات والأرض. ثانياً: اختلاف الليل والنهار. ثالثاً: الفلك التي تجري في البحر. رابعاً: إنزال الماء من السماء لإحياء الأرض بعد موتها. خامساً: بث الدواب في الأرض بفعل الماء. سادساً: تصريف الرياح والسحاب في الأرض بعد نزول الماء. والأهم من كل ما سبق أن الخطاب القرآني جاء على ذكر كل هذه المسائل، ثم أكد في نهاية الآية بأن كل هذه المسائل هي "آيات لقوم يعقلون" أي أن الله جعل لكل آية من آياته منفردة كحدث لها زمان ومكان وقانون ومادة.. إلخ، ثم إنه جعل من الأهمية للقوم، أي البشر عموماً أن يعقلوا هذه الآيات، واستخدام العقل يعني التفكير والإبصار في ماهيتها. سوف نذكر تفاسير المفسرين الخاصة بكل ما يتعلق بالماء، ومنها الفلك والرياح والسحاب وأثره على الأرض. قال البيضاوي: "والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس" أي ينفعهم، أو بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه

¹⁷⁴ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج10، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص6.

والاطلاع على عجائبه، ولذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأنيت الفلّك لأنه بمعنى السفينة. من الأولى للابتداء، والثانية للبيان. والسماء يحتمل الفلك، والسحاب، وجهه العلو. "فأحيا به الأرض بعد موتها" بالنبات "وبث فيها من كل دابة" عطف على أنزل، كأنه استدل بنزول المطر وتكوين النبات به وبث الحيوانات في الأرض، أو على أحيا فإن الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحياة. والبث يعني النشر والتفريق¹⁷⁵. وقال القرطبي في شرح: "وما أنزل الله من السماء من ماء" يعني بها الأمطار التي بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق، وجعل منه المخزون عُدّة للانتفاع في غير وقت نزوله؛ كما قال تعالى: "فأسكنه في الأرض" {المؤمنون: 18}¹⁷⁶. وقيل: البث: النشر، والظاهر أن قوله: "بث" معطوف على قوله تعالى: "فأحيا" لأنهما أمران متسببان عن إنزال المطر. والمراد بتصريف الرياح: إرسالها عقيماً، وملقحة، وصرأً، ونصرأً، وهلاكاً، وحارة، وباردة، ولينة، وعاصفة، وقيل تصريفها: إرسالها جنوباً، وشمالاً ودبوراً، وصبأً، ونكبأً وهي التي تأتي بين مهبي ريحين، وقيل تصريفها: أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك، ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر. والسحاب سُمي سحاباً لانسحابه في الهواء، وسحبت ذيلي سحباً، وتسحب فلان على فلان. اجترأ. والمسخر: المذل، وسخره: بعثه من مكان إلى آخر، وقيل تسخيره: ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد، ولا علائق¹⁷⁷. سئل الزمخشري في شرح معنى "وبث فيها"

¹⁷⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج2، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص154.

¹⁷⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص497.

¹⁷⁷ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج2، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص107.

هل هي عطف على أنزل أم أحياء؟ وقال: الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة لأن قوله تعالى: "فأحيا به الأرض" عطف على "أنزل" فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها من كل دابة، ويجوز عطفه على "أحيا" على معنى فأحيا بالمطر الأرض، وبث فيها من كل دابة لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا¹⁷⁸. وقيل: معنى "وبث فيها من كل دابة" أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين" {هود: 6}¹⁷⁹. على حين قال الرازي: إن الدلالة على الصانع من وجوه (أحدها) أن تلك الأجسام، وما قام بها من صفات الرقة، والرطوبة، والعذوبة، ولا يقدر أحد على خلقها إلا الله تعالى، قال سبحانه: "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين" {الملك: 30} (وثانيها): أنه تعالى جعله سبباً لحياة الإنسان، ولأكثر منافعها، قال تعالى: أفرأيتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون {الواقعة: 68} وقال تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30} (وثالثها): أنه تعالى كما جعله سبباً لحياة الإنسان، جعله سبباً لرزقه، قال تعالى: "وفي السماء رزقكم وما توعدون" {الذاريات: 22}، (ورابعها): أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة، التي تسيل منها الأودية العظام تبقى معلقة في جو السماء وذلك من الآيات العظام (وخامسها): أن نزولها عند التضرع واحتياج الخلق إليه مقدار بمقدار النفع من الآيات العظام، قال تعالى حكاية عن نوح في سورة نوح:

¹⁷⁸ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج2، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص106.
¹⁷⁹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي النمشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج1، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص475.

فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً (10) يرسل السماء عليكم مدراراً (11)" (وسادسها): ما قال (فسقاه إلى بلد ميت) وقال تعالى: "وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" {الحج: 5} فإن قيل: أفنقولون: إن الماء ينزل من السماء على الحقيقة أو من السحاب، أو تجوزون ما قاله بعضهم من أن الشمس تؤثر في الأرض فيخرج منها أبخرة متصاعدة فإذا وصلت إلى الجو البارد بردت فتقلت فنزلت من فضاء المحيط إلى ضيق المركز، فاتصلت فتولدت من اتصال بعض تلك الذرات بالبعض قطرات هي قطرات المطر. قلنا: بل نقول إنه ينزل من السماء كما ذكره الله تعالى وهو الصادق في خبره، وإذا كان قادراً على إمساك الماء في السحاب، فأى بعد في أن يمسكه في السماء، فأما قول من يقول: إنه من بحار الأرض فهذا ممكن في نفسه، لكن القطع به لا يمكن إلا بعد القول بنفي الفاعل المختار، وقدم العالم، وذلك كفر، لأننا متى جوزنا الفاعل المختار القادر على خلق الجسم، فكيف يمكننا مع إمكان هذا القسم أن نقطع بما قالوه. أما قوله تعالى: "فأحيا به الأرض بعد موتها" فاعلم أن هذه الحياة من جهات، (أحدها): ظهور النبات الذي هو الكأ والعشب وما شاكلها، مما لولاه لما عاشت دواب الأرض (وثانيها): أنه لولاه لما حصلت الأقوات للعباد (وثالثها): أنه تعالى ينبت كل شيء بقدر الحاجة، لأنه تعالى ضمن أرزاق الحيوانات، بقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها"، (ورابعها): أنه يوجد فيه من الألوان والطعوم والروائح وما يصلح للملابس، لأن ذلك كله مما لا يقدر عليه إلا الله، (وخامسها): يحصل للأرض بسبب النبات حسن ونضرة ورواء ورونق فذلك هو الحياة. واعلم أن وصفه تعالى ذلك بالإحياء بعد الموت مجاز، لأن الحياة لا تصح إلا على من يدرك ويصح أن يعلم، وكذلك الموت، إلا أن الجسم إذا صار حياً حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء، والنشور والنماء، فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء، وهذا من فصيح الكلام الذي على

اختصاره يجمع المعاني الكثيرة. واعلم أن إحياء الأرض بعد موتها يدل على الصانع من وجوه: (أحدها): نفس الزرع لأن ذلك ليس في مقدور أحد على الحد الذي يخرج عليه، (وثانيها): اختلاف ألوانها على وجه لا يكاد يحد ويحصى (وثالثها): اختلاف طعوم ما يظهر على الزرع والشجر، (ورابعها): استمرار العادات بظهور ذلك في أوقاتها المخصوصة¹⁸⁰. نقول: إن الله بدأ الآية بحديثه عن خلق السماوات والأرض وهو الانفجار العظيم للكون، والذي نتج عنه وجود الأرض والشمس والقمر والنجوم وباقي الكواكب، وقد جعل الله الليل والنهار في الكون نتيجة تعاقب الشمس والقمر، ثم كان للبحر نصيب من الذكر من خلال الإشارة إلى كونه ماء فيه خيرات نافعة للإنسان، ثم تلا ذلك إنزاله للماء من السماء كنتيجة تابعة لخلق السماوات والأرض ودورة الليل والنهار وما في النهار من ظهور للشمس، ثم بث في الأرض الدواب، ثم صرف الرياح والسحاب بين السماء والأرض. بناءً على ما سبق، يكون الله قد جعل لكل خلق خلقه وذكره في الآية دوراً في خدمة الإنسان، فالليل جعله للسكون والراحة والنوم، وجعل النهار للمعيشة والعمل والسعي في منابها، على حين جعل البحر للإنسان كي يُجري فيه الفلك وينتفع من خيراته، ثم جعل إنزال المطر لإحياء الأرض بإنبات النبات ثم جعل لنزول الماء دوراً في بث الدواب في الأرض. نقول: إن الزمخشري عطف قوله تعالى: "وبث فيها" على قوله "أنزل الله من السماء" لكننا نقول إنها معطوفة على كلمتي "أنزل" و "أحيا" لماذا؟ لأن الإنزال للمطر وله دور في إحياء الأرض التي تلعب دوراً في إحياء الكائنات الحية ومنها النباتات والحيوانات، فكان الإنزال والإحياء لهما نفس العمل مع التتالي، أي الأول فالثاني، وهذا ما ورد فيه قوله تعالى: "والله خلق كل دابة من

¹⁸⁰ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص219، 220.

ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع" {النور: 45} وهذا ما سنشرحه في شرح سورة {آل عمران: 49} {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص513} رغم كل هذه النعم الواردة في الآية إلا أن الله جعل لها ميزان عدل عندما قال سبحانه وتعالى: "وأنزّلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنّا على ذهاب به لقادرون" {المؤمنون: 18}.

الآية الثالثة:

قال تعالى: "الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار" {إبراهيم: 32}.

قال الشوكاني: المراد بالسماء هنا جهة العلو، فإنه يدخل في ذلك الفلك عند من قال: إن ابتداء المطر منه. ويدخل فيه السحاب عند من قال: إن ابتداء المطر منها، وتدخّل فيه الأسباب التي تثير السحاب كالرياح. وتتكير الماء هنا للنوعية، أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو ماء المطر¹⁸¹. وقيل: لولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب. وقوله تعالى: "وأنزل من السماء ماء" فيه قولان: (الأول): أن الماء نزل من السحاب،¹⁸² وهذا ما قاله القرطبي¹⁸³. وسمي السحاب سماء اشتقاقاً من السمو، وهو الارتفاع.

¹⁸¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص748.
¹⁸² الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص129.

¹⁸³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السّنة وأيّ الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص144.

(والثاني): أنه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد، لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قمة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم مطراً عليهم، وإذا كان هذا أمراً مشاهداً بالبصر كان النزاع فيه باطلاً¹⁸⁴. نقول: إن غالبية الآيات التي ذكر فيها الماء سبقها ذكر السماوات والأرض، وتلاها ذكر إحياء الأرض والنبات والحيوان والإنسان، ما يدل على أن هذا الترابط هو من دقة إدارة الله لما خلقه. كما أنه استحال إنزال الماء قبل خلق السماوات والأرض، علماً بأن وجود الماء سابق على وجود السماوات والأرض.

الآية الرابعة:

قال تعالى: "وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون" {الأنعام: 99}.

قال الرازي: (المسألة الأولى): يقتضي نزول المطر من السماء، وعند هذا اختلف الناس، فقال أبو علي الجبائي في تفسيره: أنه تعالى ينزل الماء من السماء إلى السحاب، ومن السحاب إلى الأرض. قال لأن ظاهر النص يقتضي نزول المطر من السماء والعدول عن الظاهر إلى التأويل، إنما يحتاج إليه عند قيام الدليل على أن إجراء اللفظ على ظاهره غير ممكن، وفي هذا الموضع لم يقد دليل على امتناع نزول المطر من السماء، فوجب إجراء اللفظ على ظاهره. وأما قول من يقول: إن البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الأرض. ثم تصعد وترتفع إلى الهواء، فينعقد الغيم منها ويتقاطر، وذلك هو المطر، فقد احتج

¹⁸⁴ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص129.

الجبائي على فساده من وجوه: (الأول): أن البرد قد يوجد في وقت الحر، بل في صميم الصيف، ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جامد، وذلك يبطل قولهم. ولقائل أن يقول: إن القوم يجيبون عنه فيقولون: لا شك أن البخار أجزاء مائية وطبيعتها البرد، ففي وقت الصيف يستولي الحر على ظاهر السحاب، فيهرب البرد إلى باطنه، فيقوى البرد هناك بسبب الاجتماع، فيحدث البرد، وأما في وقت برد الهواء يستولي البرد على ظاهر السحاب، فلا يقوى البرد في باطنه، فلا جرم لا ينعقد جمداً بل ينزل ماء، هذا ما قالوه. ويمكن أن يجاب عنه بأن الطبقة العالية من الهواء باردة جداً، والهواء المحيط بالأرض أيضاً بارد جداً، فوجب أن يشتد البرد، وألا يحدث المطر في الشتاء اليتة، وحيث شاهدنا أنه قد يحدث فسد قولكم، والله أعلم. (المسألة الثانية): مما ذكره الجبائي أنه قال: إن البخارات إذا ارتفعت وتصاعدت تفرقت وإذا تفرقت لم يتولد منها قطرات الماء، بل البخار إنما يجتمع إذا اتصل بسقف متصل أملس كسقوف الحمامات المزججة. أما إذا لم يكن كذلك لم يسلم منه ماء كثير، فإذا تصاعدت البخارات في الهواء، وليس فوقها سطح أملس متصل به تلك البخارات، وجب ألا يحصل منها شيء من الماء. ولقائل أن يقول: القوم يجيبون عنه: بأن هذه البخارات إذا تصاعدت وتفرقت، فإذا وصلت عند صعودها وتفرقت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت، والبرد يوجب الثقل والنزول، فبسبب قوة ذلك البرد عادت من الصعود إلى النزول، والعالم كروي الشكل، فلما رجعت من الصعود إلى النزول، فقد رجعت من فضاء المحيط إلى ضيق المركز، فتلك الذرات بهذا السبب تلاصقت وتواصلت، فحصل من اتصال بعض تلك الذرات بعض قطرات الأمطار، (المسألة الثالثة): ما ذكره الجبائي قال: لو كان تولد المطر من صعود البخارات، فالبخارات دائمة الارتفاع من البحار، فوجب أن يدوم هناك نزول المطر، وحيث لم يكن الأمر كذلك، علمنا فساد قولهم. قال: ثبتت بهذه الوجوه، أنه ليس تولد المطر من بخار الأرض،

ثم قال: والقوم إنما احتاجوا إلى هذا القول، لأنهم اعتقدوا أن الأجسام قديمة، وإذا كانت قديمة امتنع دخول الزيادة والنقصان فيها، وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلا اتصاف تلك الذرات بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى، فلهذا السبب احتالوا في تكوين كل شيء عن مادة معينة، وأما المسلمون، فلما اعتقدوا أن الأجسام محدثة، وأن خالق العالم فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد، فعند هذا لا حاجة إلى استخراج هذه التكاليف، فثبت أن ظاهر القرآن يدل في هذه الآية على أن الماء إنما ينزل من السماء، ولا دليل على امتناع هذا الظاهر، فوجب القول بحمله على ظاهره، ومما يؤكد ما قلناه: أن جميع الآيات ناطقة بنزول المطر من السماء. قال تعالى: "وأنزّلنا من السماء من جبال فيها من برد" {النور: 43} فثبت أن الحق هو أنه تعالى ينزل المطر من السماء بمعنى أنه يخلق هذه الأجسام في السماء، ثم ينزلها إلى السحاب، ثم من السحاب إلى الأرض. ونقل الواحدي في البسيط عن ابن عباس: يريد بالماء ههنا المطر ولا ينزل نقطة من المطر إلا ومعها ملك، والفلاسفة يحملون ذلك الملك على الطبيعة الحالة في تلك الجسمية الموجبة لذلك النزول، فأما أن يكون معه ملك من ملائكة السماوات، فالقول به مشكلة والله أعلم¹⁸⁵، نقول: إنه لا حاجة لفهم كيفية سقوط المطر إذا فهمنا ثلاثة أمور: أولاً: التسليم بوجود الماء قبل خلق الكون، وبالتالي إمكانية تسييره وفق إرادة إلهية في الكون تماماً مثلما كانت الإرادة الإلهية نافذة في خلق الكون. ثانياً: إن الماء هو مادة وعنصرها هو ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، فإذا فهمنا المادة سوف نعرف كيف حالاتها في الطبيعة، والماء له حالة صلبة وسائلية وغازية، وإذا فهمنا ما سبق سوف نفهم حركته في الكون، وبالتالي نفهم عملية إدارته لإحياء الأرض والكائنات الحية

¹⁸⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص111، 112.

ومنها النباتات والحيوانات. بالنسبة للآية نلاحظ أن ذكر الماء جاء أولاً؛ لأنه يُبنى عليه كل شيء، ولذلك قال تعالى في الآية: "فأخرجنا به نبات كل شيء"، ما يعني أن لا شيء ينبت من دون الماء أو من دون إحدى مكوناته أو تفاعلاته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لأن هذا تضاد مع أصل المادة ودورها في الطبيعة، وبالتالي تضاد مع أصل إرادة الله في خلق المادة وتسخير دورها في الطبيعة لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {المؤمنون: 30}. قال الرازي: الذي لا نبات له لا يكون داخلاً فيه¹⁸⁶. لكننا نقول: كل شيء تم إخراجها من الأرض سواء كان نباتاً أو كائناً حياً وأبرزهم آدم (عليه السلام) يعتبر داخلاً فيه. أما قوله تعالى: "فأخرجنا" بصيغة الجمع، فيقصد به أن الإخراج يكون بواسطة الملائكة الموكله بالسحاب وإنزال المطر وإنبات الزروع بأمر الله، فيكون أصل الكلمة "فأخرج" أي الله وحده لا شريك له، وقد وردت كلمة "أخرج" بصيغة المفرد في موضع مشابه في قوله تعالى: "الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار" {إبراهيم: 32}. قال جماعة الطبائعيين وكذا الكعبي من المعتزلة إن بطبع الأرض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى: "لنحيي به بلدة ميتة"؛ فإن الباء في "به" تقضي أن للماء تأثيراً في ذلك¹⁸⁷. هنا يستوجب أن نسأل لماذا ذكر كلمة "فأخرجنا" في الآية مرتين؟

نقول: الأولى "فأخرجنا" بصيغة الماضي، ما يعني أن أصل كل نبات يعود إلى إنزال الماء، وهو ما ذكره الله في بداية الآية، وأصل إنزال الماء يعود إلى خلق السماوات والأرض، وأصل خلق السماوات

¹⁸⁶ المصدر السابق، ص113.

¹⁸⁷ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص91.

والأرض يعود إلى وجود الماء قبل خلق السماوات والأرض، والأصل أن الله استوى عرشه على الماء، فكان هو خالق الماء، وبالتالي هو خالق مادة الماء وعناصره، وإذا كان هو خالق المادة وعناصرها، فذلك يعني أنه لا يتساوى معها، فلا تتساوى قوة خالق مع قوة شيء خلقه، فوجب أن يكون الخالق أقوى وأقدر وأعظم مما خلقه. أما الثانية "فأخرجنا" فهي أيضاً بصيغة الماضي لكنها لا تعود على الماء، بل على أثر الماء، ولا تعود على النبات لأن إخراجها بفعل وجود المادة - وهي الماء والتربة المخلوقتان بفعل إلهي- قد تم إنجازها وشمل فيه كل شيء لأنه قال "فأخرجنا به نبات كل شيء"، وكل شيء هنا للإحاطة بالمجموع الكامل اللامتناهي، ولكنها -أي كلمة فأخرجنا الثانية- تعود على كل عامل على إنبات النبات، وهو في هذه الحالة الإنسان، وهذه المسألة تتطابق مع ما شرحناه سابقاً في سورة {فصلت: 39} حول القدرة على الإحياء والإخراج ما بين الله والإنسان، وذكرنا دليل ذلك قدرة عيسى وإبراهيم (عليهما السلام) على الإحياء. {انظر الشرح في هذا الفصل، ص97-101}. هذه المسألة تجعلنا نفهم كل ما عدده الله بعد قوله تعالى: "فأخرجنا" الثانية حيث ذكر ما في النبات من خضر ومنه ما هو حب متراكب ومنه النخل وما في طلعه من قنوان دانية، ثم الأعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابهه. قال ابن عباس: الحب المتراكب يريد به القمح والشعير والسلت والذرة والأرز¹⁸⁸. وقيل إنه تعالى قدّم ذكر الزرع على ذكر النخل، وهذا يدل على أن الزرع أفضل من النخل. وهذا البحث قد أفرد الجاحظ فيه تصنيفاً مطولاً¹⁸⁹. نقول: ليس هناك أفضلية بين الزرع والنخل من ناحية الفائدة أو النفع أو من ناحية الذكر في القرآن لأن النخل ورد ذكره مرات عديدة في مواضع تشير إلى أهميته كقوله تعالى: "أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب" {البقرة: 266}. وقد كان ثمر

¹⁸⁸ المصدر السابق، ص113.

¹⁸⁹ المصدر السابق، ص114.

النخيل طعاماً لمريم العذراء كما ذكر في قوله تعالى: "وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً" {مريم: 25} وغيرها من الآيات. مع ذلك وجه المقارنة هو من ناحية الأقدمية، حيث أن الزرع أقدم من النخل، والثمر أول الزرع، والزرع أول النباتات، والبذور أول الزرع، والتربة بيئة البذور، والماء أول حياة النبات، والضوء سابق على الماء في هذه العملية البنائية، ومنه تتم عملية البناء أو التمثيل الضوئي التي تقوم من خلالها النباتات بتحويل الطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية، وهذه العملية تنتج الأكسجين وسكر الجلوكوز، والأكسجين والهيدروجين (وهما عنصرا الماء)، ثم تمتصهما النباتات بمساعدة الطاقة الناتجة عن حرارة الشمس في الأرض وتفاعل حركة الرياح، وكنتيجة لهذه العملية، تُعيد النباتات تدوير المادة التي خلقها الله في الماء، وهي الأكسجين، فتطلق النباتات الأكسجين في الغلاف الجوي عبر الثغور، على حين تستخدم الهيدروجين لصنع طعامها، ولهذا السبب نجد أن الهيدروجين والأكسجين هما أكثر العناصر الموجودة في جسم الإنسان. هنا أشير إلى مسألة ذات أهمية تتعلق بالطبيعة، وأساس صراع الغذاء بين البشر، وهو أصلاً فتنة آدم (عليه السلام) التي نزل من خلالها إلى الأرض، وذكرت في القرآن لقوله تعالى: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (35) فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (36)". نلاحظ أن الله نهى آدم (عليه السلام) الاقتراب من الشجرة باعتبارها تمثيل لمصدر الغذاء، لكنه لم يمتثل للأمر الإلهي وأصر على الاقتراب منها فأصبح ظالماً، فيكون الظلم وقع على نفس آدم (عليه السلام) بسبب وسوسة الشيطان له، فهو لم يستمع لأمر الله في لغة النهي، واستمع لوسوسة الشيطان في نفسه وعلى إثر ذلك أصبح ظالماً فنزل إلى الأرض، ولهذا قال له الله في الخطاب القرآني: "ولكم في الأرض مستقر ومتاع

إلى حين". وزيادة على ذلك أورد الله آيات كثيرة تشير إلى الفساد الدنيوي بفعل الإنسان حيث قال تعالى: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" {الروم: 41}. هذه المسألة سوف نفهمها بطريقة مادية قرآنية كما أوجدها الله. نقول: إذا أدركنا أن الماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، أي أن نسبة الهيدروجين أكبر، وأن الشمس تتكون من عنصري الهيدروجين والهيليوم، وهما يمثلان 74.9% للهيدروجين و 23.8% للهيليوم من كتلة الشمس في الغلاف الضوئي، وإذا أدركنا أن الهيدروجين هو أبرز عناصر الغلاف الخارجي بالإضافة إلى النيتروجين والهيليوم، وإذا أدركنا أن الهيدروجين يستخدم كعنصر مادي أساسي في صنع طعام النباتات لنفسها كي تنمو، وإذا أدركنا أن الهيدروجين هو العنصر الأبرز والأكبر الموجود في جسم الإنسان، وإذا أدركنا كيف أن الله حَقَّرَ شهوة الجنس الناتجة عن الغذاء في قوله تعالى: "ألم نخلقكم من ماء مهين" {المرسلات: 20} وقد سبق أن شرحنا هذه الآية {انظر الشرح في هذا الفصل، ص74} وقلنا إن قوله تعالى: "مهين" هو تحقير وتذليل للمادة، أي مادتي الهيدروجين والأكسجين اللتين يتكون منهما الماء وهو أصل النطفة في الإنسان، وبالتالي هو تحقير أو تذليل للغذاء أو لأصل الشهوة في الإنسان، وقلنا إن الذي يجعل هذا التحقير والتذليل غير عادل هو الروح التي ينفخها الله في الإنسان عند لحظة خلقه. إذا أدركنا ما سبق سندرك أن آخر أداة للقتل توصل إليها الإنسان هي أداة إلهية مكونة من الماء الثقيل الذي يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين وهي السلاح النووي، وسبق أن شرحنا ذلك في قوله تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً" {الجن: 16} {انظر الشرح في هذا الفصل، ص80}. وقلنا في الشرح إن هذا النظير للهيدروجين يسمى ديوتيريوم ورمزه الكيميائي D بدلاً من الهيدروجين العادي، علماً بأن الماء العادي يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين. وتبلغ كتلة ذرة

الديوتيريوم حوالي ضعف كتلة ذرة الهيدروجين العادي. نقول: إذا أدركنا أن مادة الهيدروجين تدخل في كل ما سبق وهي متداخلة في خلق الماء -وهو أصل خلقها وأكبر نسبة فيه-، ثم الشمس، ثم الغلاف الجوي، ثم النبات، ثم النطفة، وبالتالي في الإنسان، فإننا سنفهم أن خالق هذه المادة وهو الله يقدر على إطفاء الشمس بالماء من خلال عملية "الفتق رتق" التي بدأ بها تكوين الكون لأن وجود الماء أسبق من وجود الشمس، وبهذه الطريقة نفهم يوم القيامة، وهو الذي عبر الله عنه في قوله تعالى: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين" {الأنبياء: 104}. أما يوم القيامة فإن كل الذين بخلوا بأموالهم التي جمعوها من ثروات وموارد الأرض عن الفقراء والمساكين والمحتاجين من المسلمين يقول الله لهم في آيتين قرآنيتين:

- قوله تعالى: "ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير" {آل عمران: 180}

- وقوله تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون" {الأعراف: 32}

نقول: إن شرح موضوع الهيدروجين مستوفى أيضاً في سورة {الجن: 16} {انظر الشرح في هذا الفصل، ص80} وفي سورة {الأنعام: 99} {انظر الشرح في هذا الفصل، ص141} وفي سورة {الإسراء: 61} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص245}.

الخلاصة هي أن دورة إحياء أو خلق النباتات في الطبيعة متطابقة ومأصولة تماماً مع أصالة خلق الدواب حيث كان الماء بداية لأول خلق هذه الكائنات لقوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على

أربع" {النور: 45}. هكذا يكون الأصل هو الماء في إحياء كل الكائنات الحية وهذا سوف نشرحه في سورة {آل عمران: 49} {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص513}. إذا فهمنا كل ما سبق، استوجب أن نسأل سؤالين كما يلي:

الأول: كيف يكون حساب الذين آمنوا يوم القيامة؟

الثاني: هل يمكن أن يصير الإنسان المؤمن ملاكاً في الجنة أم أنه يحمل صفات الملائكة فقط؟

حساب الذين آمنوا يوم القيامة

إجابة على السؤال الأول: نقول: إن الله ذكر في الآية التي نشرحها {الأنعام: 99} كلمتين وهما "جنات" و "مؤمنون" فأراد أن يبين أن هناك من الجنات ما هو موجود في الدنيا ومن الجنات ما هو موجود في الآخرة، فهناك من يتمتع بجنات الدنيا ويحرمها عن غيره وهناك من ينتظر جنات الآخرة، وكأن الذي يتمتع بجنات الدنيا لن يكون له وافر الحظ من جنات الآخرة. أما قوله تعالى: "آيات لقوم يؤمنون"، فمن هذه الآيات مسألة العطاء والحرمان في الدنيا والآخرة، بالتالي هذه المسألة تشير إلى خلود المؤمنين في جنات الله وفي القرآن شواهد كثيرة دالة على ذلك، وأبرزها ما جاء في سورة ق لقوله تعالى: "وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (31) هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ (32) من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (33) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (34) لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد (35)". بالتالي فإن حساب الذين آمنوا هو حساب موقوت، وميقاته أنه مؤجل وتأجيله دال على ضرورات، ودليل ضروراته هو في أصل قيمته، وقيمه أن هذا الحساب لا يُعد ولا يُحصى.

الإنسان المؤمن ملاكاً في الجنة، أم يحمل صفات الملائكة

إجابة على السؤال الثاني: نقول: عندما كان آدم (عليه السلام) في الجنة، لم يكن مخلوقاً من نفس المادة التي خلق منها في الأرض قبل المساس بالشجرة التي أنزلته إلى الأرض، لأن الله خلقه من مادة الأرض من تراب/طين، وماء، وحرارة الشمس، بعد خلق السماوات والأرض، ونزوله إلى الأرض. بالتالي لم يسقط جسد آدم (عليه السلام) من السماء على هيئة بشر رغم أن ذلك ممكن بالنسبة للقدرة الإلهية، لكنه غير واقعي وغير منطقي لأن الله جعل آدم (عليه السلام) على هيئة حالة الإغواء والوسوسة التي أنزلته من الجنة إلي الأرض لقوله تعالى: "فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْك لا يبلى" {طه: 120} فجعل الله مادة آدم (عليه السلام) التي خلق منها مثل مادة طعامه من الشجرة التي نزل بسببها إلى الأرض وقد أوجدها الله له في الأرض، أي أن هناك من هم من بني آدم (عليهم السلام) في الجنة من يحملوا صفات الملائكة إلى أن عصى أحدهم الله فأنزله إلى الأرض وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى: "قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" {الأعراف: 24} أو قوله تعالى: "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" {البقرة: 36}. وكذلك في الآخرة بعد قيام الإنسان للحساب يوم القيامة، فإن كل من يدخل الجنة سوف يحمل من صفات الملائكة. كما أن الدليل على أن الإنسان في أعلى مراتب الجنة يكون ملائكياً أنه لا يكون له ذرية أو نسل والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل. ومن جملة العلاقة بين الروح والملائكة والإنسان في الجنة قوله تعالى: "يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً" {النبأ: 38} وقد ذكر القرطبي ثمانية

أقوال في الروح والملائكة¹⁹⁰. لكننا نقول: إن الإنسان المؤمن الذي تقوم له الروح والملائكة ويؤذن له بقول الصواب تكون قد تساوت روحه الأصلية وصفاته الملائكية مع صفات وطباع الملائكة الذين قاموا له. هذا التساوي يؤهل الإنسان المؤمن للعيش ساكناً في الجنة خالداً فيها أبداً. أما البشر الذين لهم طباع شيطانية أو زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة فهؤلاء هم من صنف قوم آدم (عليه السلام) الذين وسوس لهم الشيطان فنزلوا إلى الأرض، وإذا استطاع الشيطان أن يوسوس لهؤلاء في الجنة وأن يرسلهم إلى الأرض أول مرة، فهو قادر على إعادتهم مرة أخرى وهذا ما ذكره في القرآن لقوله تعالى: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين {الأنبياء: 104}. وقوله تعالى: "أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم" {يس: 81} وقد سبق هذه الآية وتبعها آيات أخرى حول أول الخلق ونهايته والرجوع إلى الله، ولكننا ذكرنا هاتين الآيتين لإثبات أن القيامة ليست هي النهاية وأن الله بقادر على أن يخلق مثل السماوات والأرض، وأن الخلود في الجنة يكون للإنسان الذي يحمل صفات ملائكية؛ لأن هذا الصنف من البشر أطاعوا الله في الأرض وفق شريعته المذكورة في القرآن، وكذلك فعلت الملائكة التي نفذت أوامر الله منذ خلق الكون والسماوات والأرض، فالإنسان المؤمن والملائكة يتساوون في الطاعة والعبودية المطلقة.

بالتالي لا يكون الأنبياء أو البشر عموماً من جنس الملائكة في الجنة، ولكن من صفاتهم ومادة خلقهم، إلا أن الملائكة تحف رسل وأنبياء الله من جهة وعباده الله المؤمنين الصادقين الأتقياء الذين لديهم صفات النبوة. كما نشير بأن المادة التي تجمع بين خلق آدم (عليه

¹⁹⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص30.

السلام) والملائكة هي الرياح كما سوف نشرح في سورة {الرحمن: 14} وذلك خلال إجابتي على سؤال هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟ والإجابة تتضمن تفاصيل عن الملائكة وكذلك وصفهم في القرآن بأنهم "عباد مكرمون" أو أي أنهم "عباد الله" {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص324}، بالإضافة إلى ما ذكر حول ذات المسألة في شرح معنى سورة {الرعد: 38} {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص377} وشرح معنى "وسراجاً منيراً" في سورة {الأحزاب: 46} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص323}.

الآية الخامسة:

قال تعالى: "وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً" {الفرقان: 48}.

قال الزمخشري: "طهوراً" بليغاً في طهارته وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره، فإن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً ويعضده قوله تعالى: "وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به" وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء، والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة¹⁹¹. وكذلك روي عن أبي حنيفة أنه قال: الطهور هو الطاهر، واستدل لذلك بقوله تعالى: وسقاهم ربهم شراباً طهوراً {الإنسان: 21}¹⁹²، وقال العلماء: وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خسائس الصفات، كالغل والحسد، فإذا شربوا هذا الشراب، يطهرهم الله من رخص الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة، فجأوا الله بقلب سليم، ودخلوا الجنة بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: سلام عليكم طبتم

¹⁹¹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقويل في وجوه التأويل، ج19، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص748.

¹⁹² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج19، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1044.

فادخلوها خالدين {الزمر: 73} ¹⁹³. ومن المعلوم أن المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة، على اختلاف ألوانها وأرياحها، حتى يخالطها غيرها. والمخالط للماء على ثلاثة أضرب: ضرب يوافق في صفتيه جميعاً {وهي: الطهارة، والتطهير}، فإذا خالطه فغيره لم يسلبه وصفاً منهما، لموافقته لهما، وهو التراب. والضرب الثاني: يوافق في إحدى صفتيه، وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيره؛ سلبه ما خالفه فيه، وهو التطهير، كماء الورد وسائر الطاهرات. والضرب الثالث: يخالفه في الصفتين جميعاً، فإذا خالطه فغيره؛ سلبه الصفتين جميعاً؛ لمخالفته له فيهما، وهو النجس ¹⁹⁴. نقول: إن قوله تعالى: "وأزلنا من السماء" عطف على قوله تعالى: "أرسل الرياح بُشراً"، وبذلك صار نزول الماء الطهور باعتباره نتيجة للبشرى أو فكان هو البشرى التي جاءت بها الرياح، فتكون البشرى للرياح ولنزول الماء الطهور.

الآية السادسة:

قال تعالى: "ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون" {العنكبوت: 63}.

قال البيضاوي: هو اعتراف بأنه تعالى الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ¹⁹⁵. نقول: إن الإجابة على السؤال داخل الآية فيه اعتراف صريح متبوع بالشكر وهو دليل على أن كل من أقر بأن الله

¹⁹³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج15، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص423.

¹⁹⁴ المصدر السابق، ص425.

¹⁹⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج21، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص42.

هو الذي نزل من السماء ماء موصوف بالعقلانية، وأما أكثر الذين لم يعترفوا بذلك هم لا يعقلون كما وصفتهم الآية.

الآية السابعة:

قال تعالى: "والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون" {النحل: 65}.

لقد تكرر ذكر نزول الماء من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها في كثير من الآيات، كما في الآية السابقة. نقول: المعنى أنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصير ذلك الماء سبباً لحياة الأرض، والمراد بحياة الأرض نبات الزرع والشجر والنور والثمر بعد أن كان لا يثمر، وينفع بعد أن كان لا ينفع¹⁹⁶.

الآية الثامنة:

قال تعالى: "ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون" {البقرة: 74}.

نقول: إن الآية فيها تشبيه ومقارنة، فالمقارنة بين نوع من البشر موصوفين بقسوة القلب والحجارة، أي بين ما هو مادي روعي مع ما هو مادي فقط. أما التشبيه فهو بين قسوة القلوب وقسوة الحجارة أو شدة قسوتها، ما يعني أن الله شَبَّه القلب الذي يحيا به جسد الإنسان النابض حياً بالروح، بالمادة التي تتكون منها الحجارة. كما أن الله عندما وصف القسوة بدقة متناهية قال إن من الحجارة -وهي مكونة من المادة- ما يخرج منها الماء -وهو مكون من المادة أيضاً- لكن

¹⁹⁶ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج20، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص65.

الفرق بين المادتين أن العناصر المكونة للحجارة هي الأكسجين والسيليكون، والكربون، والكالسيوم، وغيرها، على حين العناصر المكونة للماء هي ذرتي الهيدروجين والأكسجين، وهما اللتان جعلتا كل شيء حي في الطبيعة ومنها آدم (عليه السلام) وذريته والنباتات والحيوانات، أخذين بعين الاعتبار أن الأرض في مرحلة ما خضعت لحدث الأكسدة العظيم (Great Oxidation Event) "جي أو إي" (GOE)، حيث تطورت ميكروبات المحيطات لإنتاج الأكسجين عبر عملية التمثيل الضوئي. إذا كان الأكسجين يجعل الإنسان على قيد الحياة وبالتالي يجعل فيه الروح، فلماذا شبه الله قسوة قلب الإنسان بالحجارة التي تتكون من عنصر الأكسجين الذي يجعل الإنسان حياً وفيه روح؟

الشبه بين قسوة قلب الإنسان والحجارة المكونة من عنصر الأكسجين

نقول: إن التشبيه في الآية على نوعين، الأول: "كالحجارة" والثاني: "أو أشد قسوة". أما التشبيه الأول فهو تشبيه حيوي، لأن الأكسجين من العناصر المادية المكونة لكل من الحجارة والماء، فهو يعتبر المادة الأساسية لبقاء كافة الكائنات الحية على قيد الحياة، فجعل أجساد البشر القاسية قلوبهم تتنفس الأكسجين، أي أنها في حالة مادية، ولكن على قيد الحياة، وفي هذه الحالة تكون الروح موجودة في جسد الإنسان الموصوف بقسوة القلب لكنها روح معطوبة وغير حيوية، وفي هذه الحالة تكون شبه ميتة. أما التشبيه الثاني فهو تشبيه مادي بحت، فالأشد قسوة من الحجارة هو الصخور البركانية الناتجة عن الحمم البركانية وهي الأعلى سعراً مقارنة مع الصخور الأخرى، مثل الصخور الرسوبية، والصخور المتحولة، وتعتبر الصخور البركانية الأكثر جودة بين الصخور مثل الجرانيت والبازلت، والديوريت، لكن

الصخور البركانية تشتمل على تركيبات معدنية وفيها عناصر مشعة مثل الثوريوم واليورانيوم، وأتربة مثل التنتالوم والنيوبيوم والتيتانيوم. إذا أدركنا هذه المسألة سنفهم أن هذا النوع الأشد من الحجارة ليس فيه عنصر الأكسجين أو الهيدروجين، وبالتالي لا يتضمن أي عناصر مادية إحيائية للإنسان ككائن حي على الأقل. وأكثر من ذلك، لأن عناصر الصخور البركانية أصلها من نار، وتكون درجة حرارة النار مرتفعة جداً، بحيث تكفي لعملية صهر المعادن الموجودة في باطن الأرض، بالتالي تكون الصخور البركانية على شكل صهير ذائب ثم ترتفع وتخرج نحو سطح الأرض، حيث تتحول الصخور البركانية إلى صخور نارية، وتتنخفض درجة حرارتها لكي تصبح جاهزة للاستخدام، مع العلم أن الصخور البركانية لا تنشأ على سطح الأرض لأنه يكون بارداً، وسوف نشرح سبب عدم ظهور النار على سطح الأرض، أي لماذا لا توجد بطبيعتها على التراب/الطين والماء إلا في المناطق التي تنفجر بها البراكين، وعلاقة ذلك بموضوع سجود الإنسان على الأرض خلال الصلاة، ولماذا رفض إبليس السجود لأدم (عليه السلام)، وذلك في شرح سورة {الإسراء: 61}. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص245}. ولما قلنا إن الصخور البركانية مكونة من نار درجة حرارتها مرتفعة، فإن النار هي مادة خلق إبليس/الشیطان. ولهذا السبب يكون الإنسان الموصوف قلبه بالأشد قسوة كأنه شیطان مخلوق من نار، وأنه ميت بلا روح. وقيل: الحجارة التي نراها، وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور¹⁹⁷. فلما جعل الله تفجر الأنهار من الحجارة وتشققها لخروج الماء وهبوط بعض الحجارة من السماء من خشية الله، فإنه أراد بكل ذلك أن يجعل للإنسان صورة عن أصل المادة التي خلقه

¹⁹⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص497.

منها، وهي الماء، والمصدر الذي خرجت منه، فكأنه يقول إني خلقتك من الماء الذي يخرج من الحجارة المادية الصماء الذي بعضها ناري بينما أنت لا يلين قلبك القاسي. جاء في تفاسير المفسرين للآية قول القرطبي أن "الصلابة والشدة واليبس" هي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. قال أبو العالية وقتادة وغيرهما: المراد: قلوب جميع بني إسرائيل. وقال ابن عباس: المراد قلوب ورثة القليل. روى الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: "لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي". وفي مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله: أربعة من الشقاء: جُمود العين، وقساء القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا"¹⁹⁸. وقيل إن الآية فيها تعليل للتفضيل، والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفع، فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء وتتفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به. وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفع عن أمره تعالى. والتفجر التفتح بسعة وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد¹⁹⁹. وقال الخوارزمي: المعنى: أن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً²⁰⁰. وفي معنى التفجر، قالت الحكماء إن الأنهار إنما تتولد عن أبخرة تجتمع في باطن الأرض فإن كان ظاهر الأرض رخواً انشقت تلك الأبخرة وانفصلت، وإن كان ظاهر الأرض صلباً حجرياً اجتمعت تلك الأبخرة ولا يزال يتصل تواليها بسوابقها حتى تكثر كثرة عظيمة فيعرض حينئذ من كثرتها وتواتر مدها أن تنشق الأرض وتسيل تلك المياه أودية وأنهاراً. أما في قوله تعالى: "وإن منها لما يشقق فيخرج

¹⁹⁸ المصدر السابق، ص204، 205.

¹⁹⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج1، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص112.

²⁰⁰ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقوال في وجوه التأويل، ج1، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص83.

منه الماء"؛ أي من الحجارة لما يصدع فيخرج منه الماء فيكون عيناً لا نهراً جارياً أي أن الحجارة قد تندى بالماء الكثير وبالماء القليل، وفي ذلك دليل تفاوت الرطوبة فيها وأنها قد تكثر في حال حتى يخرج منها ما يجري منه الأنهار وقد تنقل، وهؤلاء قلوبهم في نهاية الصلابة لا تندي بقبول شيء من المواعظ ولا تنشرح لذلك ولا تتوجه إلى الاهتداء²⁰¹. وقيل في معنى يشقق؛ أصله: يتشقق، أدغمت التاء في الشين. وهذه عبارة عن العيون التي لم تعظم حتى تكون أنهاراً، أو عن الحجارة التي تتشقق وإن لم يجر ماء منفسح. وقرأ ابن مُصَرِّف: "يشقق" بالنون، وقرأ "لَمَّا يتفجر"، "لَمَّا يتشقق": بتشديد "لَمَّا" في الموضوعين. وهي قراءة غير متجهة. قال قتادة: عَدَرَ الحجارة ولم يعذر شَقِيَّ بني آدم. و"ما" في قوله تعالى: "لما يتفجر" في موضع نصب، لأنها اسم "إن" واللام للتأكيد. وقوله تعالى: "وإن منها لما يهبط من خشية الله" يقول: إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج الماء منها وترديها. قال مجاهد: ما تردى حجر من رأس جبل، ولا تفجر نهر من حجر، ولا خَرَجَ منه ماء إلا من خشية الله، نزل بذلك القرآن الكريم²⁰².

الآية التاسعة:

قال تعالى: "وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون" {الأعراف: 57}.

²⁰¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج3، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص139.

²⁰² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السّنة وأبي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص207.

نقول: إن الجزء الأول من الآية تكرر في آية سابقة شرحناها وهي قوله تعالى: "وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته" {الفرقان: 48} مع وجود فارق وحيد وهو استخدام كلمة "أرسل" في الماضي و "يرسل" في الحاضر، والأخيرة دليل على الاستمرارية في إرسال الرياح أو نقول دليل على دورية إرسالها لأن السحاب هي التي تنزل الماء، والماء أصل وليس فرعاً وهو سابق على وجود الرياح، وكذلك على وجود الكائنات الحية، وكذلك سوف يكون هو الأصل في إعادة إخراج الموتى من الأرض وإحيائهم. قال البيضاوي: "سحاباً ثقالاً" أي بالماء. وقوله تعالى: "سقناه" أي السحاب. وقوله تعالى: "لبلد ميت" أي لأجله، أو لإحيائه، أو لسقيه. وقوله تعالى: "فأنزلنا به الماء" أي بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح. وقوله تعالى: "من كل الثمرات" أي من كل أنواعها. وقوله تعالى: "كذلك نخرج الموتى" الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت، أي كما نحياه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحيتها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس.²⁰³ على حين قال الزمخشري: "نخرج الموتى لعلمكم تذكرون"، أي: فيؤديكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه²⁰⁴. وقال الشوكاني: أي: مثل ذلك الإخراج، وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبول يوم حشرهم²⁰⁵.

الآية العاشرة:

²⁰³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج8، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص549.

²⁰⁴ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج25، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص985.

²⁰⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج8، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص480.

قال تعالى: "إذ يغشيكم النعاس أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام" {الأنفال: 11}.

نقول: إن الماء في الآية هو ماء المطر. أما معنى قوله تعالى "يطهركم به" قيل: من الحدث والجنابة²⁰⁶. وقال الرازي: أي حصول الطهارة الشرعية²⁰⁷. أما قوله تعالى: "ويذهب عنكم رجز الشيطان" يعني الجنابة لأنها من تخيله، أو وسوسته وتخوفه إياهم من العطش²⁰⁸. وهكذا قال الشوكاني: "رجز الشيطان" أي: وسوسته²⁰⁹. على حين قال الرازي: يعني إزالة جوهر المني عن أعضائهم فإنه شيء مستخبث، ثم تقول: حمله على إزالة أثر الاحتلام أولى من حمله على إزالة الوسوسة؛ وذلك لأن تأثير الماء في إزالة العين عن العضو تأثير حقيقي. أما تأثيره في إزالة الوسوسة عن القلب فتأثير مجازي وحمل اللفظ على الحقيقة أولى من حمله على المجاز²¹⁰.
نقول: إن ارتباط الماء بالطهارة وذهاب رجز الشيطان عن الإنسان كله متعلق بالتطهر من النجاسة بهدف الإبقاء على النظافة ويكون ذلك بالغسل، ثم بهدف التطهر للصلاة ويكون ذلك بالوضوء. كما أن ذكر رجز الشيطان وعلاقة الماء بذهاب هذا الشيطان عن الإنسان في هذه الآية متعلق بما ذكرناه سابقاً عن الخشوع في سورة {فصلت: 39}

²⁰⁶ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج9، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص10.
²⁰⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص138.

²⁰⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج9، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص10.
²⁰⁹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج9، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص528.
²¹⁰ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص138.

{انظر الشرح في هذا الفصل، ص97-101} وما سنذكره عن موضوع السجود في سورة {الإسراء: 61} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص245}.

الآية الحادية عشرة:

قال تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" {يونس: 24}.

قيل إن معنى الآية التشبيه والتمثيل، أي: صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء، أي: مثل ماء، فالكاف في موضع رفع ²¹¹، نقول: إن الماء هو الأصل الذي يُبنى عليه اختلاط نبات الأرض، وأكل الناس منه، وكذلك أكل الأنعام منه. وإن هذا الماء الذي يجعل الأرض حية عامرة بإذن الله، يمكن أن يجعلها الله حصيداً مستأصلاً أو هالكاً أو غير قابل للإنبات بأمره، وبالتالي يكون الماء أداة من أدوات العقاب الإلهي.

الآية الثانية عشرة:

قال تعالى: "وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل وصنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" {الرعء: 4}.

²¹¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج10، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص477.

نقول: إن السقيا بماء واحد تثبتت لمسألة واحدة وهي أن الماء هو ذاته لا يتغير ولا يُستبدل ولا تتغير عناصره، وهو ذاته المادة التي أوجدها الله منذ خلق الخليقة ويسقى به النبات ويشرب منه الإنسان والحيوان.

الآية الثالثة عشرة:

قال تعالى: "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال" {الرع: 17}.

نقول: إن نزول الماء من السماء معلوم، وأن يسيل فيصبح ماءً في الوادي فهذا أيضاً مفهوم، لكن الذي يستوجب تعليقه هو كيف احتل السيل زبداً رابياً، أو زبد مثله مما يوقدون عليه في النار؟ أو ما الفرق بين الزبد الأول والثاني؟ ولماذا يذهب الزبد جفاءً؟

قال القرطبي: ضرب تعالى مثلين للحق والباطل؛ فشبّه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنّات الأودية، وتدفعه الرياح، فذلك الكفر تُمَحَق آثاره. ومثل الحق بالجواهر التي تذاب ليُتخذ منها ما ينفع الناس، فيعلوها الزبد والخَبث، فأما ما ينفع الناس فيبقى، وأما الخَبثُ فيذهب²¹²، على حين قال الرازي: من حق الزبد الذي يحتمله الماء فيطفو ويربو عليه أن يتبدد في الأطراف ويبطل، سواء كان ذلك الزبد ما يجري مجرى الغليان من البياض، أو ما يحفظ بالماء من الأجسام الخفيفة، ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر إلا عند

²¹² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص48.

اشتداد جري الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار²¹³، نقول: إن الزبد الأول يصبح زبداً كنتيجة للسيل، أي من فعل الحركة التي تثيرها الرياح، وهذا يحدث في أمواج مياه البحار والمحيطات أو أي سيول مثل الوديان عندما تمتزج الجزيئات الصغيرة من بقايا الكائنات الحية المائية بأنواعها التي تحتوي على دهون ومواد عضوية، مثل بقايا الأسماك، وقشورها، والطحالب وأجزاء من المرجان التي تتفاعل مع الأملاح الموجودة في البحر وغيرها من الملوثات العالقة في الماء، وتتكون رغوة بيضاء سميكة تطفو على سطح المياه وتسمى الزبد، أي أن الزبد يتكون من مواد عضوية مذابة مع الأملاح الموجودة في الماء. يبدأ الزبد بالاختفاء تدريجياً عندما تقوم الأملاح بإذابة جميع المواد العضوية (الدهون وغيرها) من بقايا الكائنات الحية والطحالب العالقة في الماء. وزيادة على ذلك، من المعروف أن "المحلول المائي للبحار البدائية كان يحتوي على خليط معقد للغاية من الأملاح المعدنية والطين اللازب والأحماض ومزيج ضخم من الكربون والغروانيات الطينية"²¹⁴. أما الزبد الثاني في قوله تعالى: "ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله"؛ فهو زبد النار الذي يخرج عندما يتم سباكة عناصر المعادن مثل الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد وغيرها، فتقوم درجات الحرارة المرتفعة بصهر المعادن وإخراج الشوائب الموجودة فيها على شكل طبقة تطفو على سطح المعدن بعد فصلها عن الجوهر الذي يُنتفع به، على حين تُسمى هذه الطبقة زبد المعادن الذي يُرمى ويذهب جفاءً لأنه لا يُنتفع به، وهنا سؤالين:

السؤال الأول: ما علاقة المواد الناتجة عن الزبد الأول والثاني بالحق والباطل؟

²¹³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص36.

²¹⁴ الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عبد العليم خضر، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص26.

السؤال الثاني: وما الذي يبقى في الأرض؟

علاقة المواد الناتجة عن الزبد الأول والثاني بالحق والباطل

إجابة السؤال الأول:

نقول: إن كل الجزيئات والمواد العضوية المذابة التي تكون منها الزبد الأول المذكور في الآية كانت الأصل الذي نتجت عنه كافة الكائنات الحية في أول الحياة بعد نشأة الكرة الأرضية، وينتج عن هذه العملية تفاعل المعادن الموجودة في البحر مع بقايا المواد العضوية (الدهون) الناتجة عن موت الكائنات البحرية، فتتفاعل هذه المعادن مع الدهون للتخلص منها فتشكل رغوة بيضاء أو ما تسمى بالزبد. أما الدهون فهي ناتجة عن كائن حي سابق ميت، لأن الكائنات الحية الدقيقة تتغذى على الجثث من خلال أكل بقايا الكائنات الحية الميتة من خلال عملية تحلل الدهون، علماً بأن الدهون توجد في جسم الإنسان، ومنها الدهن المشبع، وإن أي زيادة غير طبيعية في نسبة الأحماض الدهنية تسبب السمنة. كما أن تراكمها في أجسام الكائنات الحية يحولها إلى كوليسترول، والأحماض الدهنية تنقسم إلى أحماض مشبعة وغير مشبعة. والأحماض الدهنية تتكون من الكربون والأكسجين والهيدروجين، ومن هذين العنصرين (أي ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسجين) يتكون الماء، ومنه تتكون الخلية الأولى التي خلق منها آدم (عليه السلام) وكافة البشر، علماً بأن هناك نوعان من الخلايا خلية نباتية وخلية حيوانية في كافة الكائنات الحية، ويوجد في هذه الخلايا طبقة من الليبيدات المفسفرة، وتسمى فوسفوليبيد أو دهن فوسفوري (Phospholipid) والتي تتكون من مجموعة من الأحماض الدهنية. نقول: إن أصل هذه الدهون هو الطعام المتحلل من الجثث، والجثث كانت تتغذى على النباتات والحيوانات التي يوجد بها خلايا، والخلايا أصلها من العناصر المكونة لجزيء الماء وهما ذرتي الهيدروجين

وذرة الأكسجين. عموماً، سوف نشرح موضوع الدهون التي وجدوها في الأحافير في الحيوانات الأديكارية، وعلاقتها بالكوليسترول، وعلاقة الدهون بالخلية، ونجيب عن سؤال عما إذا كانت هذه الدهون في الأحافير التي هي بقايا كائنات حية موجودة قبل آدم (عليه السلام) أم لا، وذلك في شرحنا لسورة {آل عمران: 49} {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص513}. نقول: إن الشوائب وبقايا الكائنات الحية التي تحتوي على دهون ومواد عضوية وكذلك أي زيادات غير طبيعية في نسبة الأحماض الدهنية جميعها تعتبر الباطل المادي غير الإحيائي الذي يتسبب بإعطاب الحق غير المادي، وبالتالي هلاك الإنسان. نسأل هنا ثلاثة أسئلة:

- السؤال الأول: إذا كان آدم (عليه السلام) أصله مخلوق من شهوة الغذاء التي لم تعصمه في الجنة وأنزلته إلى الأرض، ثم لحقتها شهوة المال والجنس، فلماذا قال الله في الآية: "وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض"، وما الذي جعله يمكث في الأرض (في الماضي)؟
- السؤال الثاني: ما الذي سيجعله يمكث في الأرض (في المستقبل)؟
- السؤال الثالث: لماذا سيمكث في الأرض (السبب)؟

إجابة على السؤال الأول: وما الذي جعله يمكث في الأرض (في الماضي)؟

نقول: إن هذه الآية دنيوية، أي أنها تتعلق بمصائر العباد الذين يعيشون في الأرض أو يعودون إليها أو يخلدون فيها، لكنها ليست آية متعلقة بحياة الخلود الأبدي في الفردوس الأعلى. كما أن الذي يمكث في الأرض هو خيرات الطبيعة التي أوجدها الله في الكون بعد خلق السموات والأرض، وسخرها لآدم (عليه السلام)، وهذا هو الحق الذي أعطاه الله لآدم (عليه السلام). أما الباطل فهو فساد البشر من ذرية آدم (عليه السلام) في الأرض.

أما إجابة على سؤال الثاني: ما الذي سيجعله يمكث في الأرض (في المستقبل)؟

نقول: هو الإحياء والإخراج الذي يقوم به الإنسان في الأرض، وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى: "ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير" {فصلت: 39} حيث أُجبت عن سؤال: هل الإنسان قادر على الإحياء والإخراج علماً بأن هذا فعل إلهي بامتياز؟ {انظر الشرح في هذا الفصل، ص101}. بالتالي فإن الإحياء والاخراج من الأرض هو الحق، وما دون ذلك، أي الإفساد في الأرض هو الباطل.

أما إجابة على سؤال الثالث: لماذا سيمكث في الأرض (السبب)؟
نقول: لأن من إرادة الله أنه سوف يجعل هذه الخيرات دائمة أبدية في كل مرة يُعيد فيها خلقه إلى الأرض، وكل مرة يعيد فيها خلقه إلى الأرض يكون بسبب وسوسة شياطين الإنس والجن، وبرهان ذلك قوله تعالى: "يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين" {الأنبياء: 104}. نقول: إن العودة لا تكون إلا لمن يستمع لوساوس شياطين الإنس والجن ومن يتبعون الشهوات الغذائية في الجنة، وبالتحديد شهوة الغذاء التي عبّر عنها القرآن بالمساس من الشجرة، والتي جعلت الله يثبت لخلقها بأنه واسع الكرم في إيجاد كافة خيراته في الكون فأعاد خلقه إلى الأرض. وبالتالي فإن نعمة الله وإيجادها أو توفيرها وتقديرها في الأرض هي الحق، وعبث الإنسان بها وتدميرها وحرقتها هو الباطل، لأن القرآن يرى الكون يقوم بالحق، وعلى الحق، والخلق ليس عبثاً. قال تعالى: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون (المؤمنون: 115)، فالكون له بداية، كما أن له نهاية، ووفق برنامج مرسوم. قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا (ص:27). قال تعالى: وما خلقنا

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الحجر: 85) ²¹⁵. مما سبق نستنتج أن الزبد الرابي الناتج عن السيل، وهذا الناتج عن سيلان الأودية، وهذا الناتج عن نزول المطر من السماء، يدل على أن قيمة هذا الزبد ليست أعلى من قيمة الماء، لأنه الأصل الذي خُلق منه الإنسان، فلما قال تعالى في الآية: "أنزل من السماء ماء"، أفاد ذلك أن الزبد هو الطارئ على الماء باعتبار أن ماء السماء هو الأصل، وهو الحق الذي ورد ذكره في الآية، ولما قال احتتمل السيل زبداً كنتيجة لسيلان الأودية كان ذلك هو الفرع، والفرع هو الباطل الذي ورد ذكره في الآية. أما بالنسبة للزبد الثاني المقصود في قوله تعالى: "ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله" فهو الزبد الذي ينتج عن انصهار المعادن، وهذه العملية تسمى عملية تعدين المعادن، والمعادن لها وزن وعدد ذري، ورمز كيميائي، وكثافة، وحالة فيزيائية، ودرجة انصهار خاصة بكل معدن. فالذي ينتج عن هذه العملية هو تفاعل المعادن مع بعضها البعض، ومع درجة الانصهار تبدأ المعادن بالتخلص من الشوائب المتحددة مع العناصر المعدنية، ومن أبرز هذه الشوائب عنصر الكربون، والأكسجين، والسيليكون التي تعتبر من مكونات القشرة الأرضية، فالعناصر المعدنية -مثل الذهب والفضة والحديد- تكون مدفونة في باطن الأرض (القشرة الأرضية) فتتفاعل مع هذه الشوائب، أي الكربون والأكسجين والسيليكون بشكل تلقائي فتكون خامات معدنية غير نقية، فعندما يجدها الإنسان يقوم بعملية تعدين المعادن لإزالة هذه الشوائب والحصول على خام المعدن الأصلي، بالتالي يكون تشكل العناصر المعدنية -مثل الذهب والفضة والحديد- في حالتها الصلبة بعد طرد الزبد هو الأصل وهو الحق، وهذا ما جاء ذكره في القرآن من خلال اعتبار الحلي المصنوعة من الفضة، مثل الماء في الجنة، أي أنهما يكونان الخلاصة

²¹⁵ خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ج 1، ط 1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص 33.

التي ليس فيها زبد أو مخلفات لقوله تعالى: "عليهم ثياب سُندس واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً" {الإنسان: 21}. نسأل هنا: لماذا يوجد عنصر الأكسجين مع الشوائب التي يتم التخلص منها من المعادن، رغم أن الأكسجين من مكونات الماء الأصلية، وهو الأصل في إحياء الأرض وخلق الكائنات الحية بما فيها آدم (عليه السلام)؟

علاقة عنصر الأكسجين بشوائب المعادن

نقول: إن وجود الأكسجين في الشوائب يكون نسبياً، ولا يفوق نسبة وجود الأكسجين في الماء، لأن نسبة أكسجين الماء النقي على سطح الأرض وفي باطنها أعلى بكثير من نسبة الأكسجين الناتج عن الشوائب، وذلك لأن نسبة الماء في الأرض أكثر من نسبة المعادن الخام الأصلية. هذا الأمر يفسر لنا مسألة هامة، وهي أن أساور الذهب والفضة والخلي التي يلبسها أهل الجنة لا تفوق درجة وجود الماء والأنهار، ولأن الماء أصل، وهو سابق على المعادن، فتكون المعادن الأصلية الخام حالة دنيوية تتعلق بجنة أرضية لمن دخل الجنة، ويكون الماء لكل نبي أو عالم تقي صادق ارتفع مقامه في الجنة لقوله تعالى حول أنواع الماء في الجنة: "مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم" {محمد: 15}. نلاحظ في الآية أنه ذكر الماء قبل كل شيء، أي قبل بقية السوائل وهي "أنهار من لبن" و "أنهار من خمر" و "أنهار من عسل"، علماً بأن الماء هو الجوهر القابل لجميع القوى. فبضرب من القوى والقبول يصير دُهنًا، وبضرب آخر يصير خلاً، وبضرب آخر يصير دماً، وبضرب آخر يصير لبناً. وهذه الأمور كلها إنما اختلفت

بالقوى العارضة فيها. فالجوهر المنقلب في جميع الأجرام السيّالة،
إنما هو الماء²¹⁶.

إجابة السؤال الثاني: وما الذي يبقى في الأرض؟

نقول: إن الفرق بين زبد البحر وزبد المعادن، هو أن زبد البحر يعتبر عملية طبيعية تقوم بها البيئة لتجديد المياه. أما زبد المعادن فهو عملية صناعية يقوم بها البشر في المصانع لتنقية المعادن والحصول على معادن نقية. بالتالي فإن الذي يبقى في الأرض وينفع الناس هو الماء الطبيعي الأصلي الذي خلقه الله وأنزله من السماء وأحيا به الأرض والكائنات الحية كلها بما فيها البشر والنباتات والحيوانات، فيكون وجود هذا الماء في الأرض ضروري بهدف إحيائها سواء كان ماءً عذباً أو مالحاً، وهو يمكث في الأرض بفضل الله وقدرته كي ينفعهم في معيشتهم، وينتهي وجود الماء في الأرض بانتهاء الحياة على سطح الأرض، وذلك من خلال تدميرها كلياً وإنهاء إمكانية العيش فيها للبشر وكافة الكائنات الحية. وقد سبق أن شرحنا هذه المسألة في موضوع ماء إحياء الإنسان في قوله تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً" {الجن: 16}. {انظر شرح الآية في هذا الفصل، ص80} وقلنا إن الماء يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين يسمى ديوتيريوم ورمزه الكيميائي D بدلاً من الهيدروجين العادي، وتبلغ كتلة ذرة الديوتيريوم حوالي ضعف كتلة ذرة الهيدروجين العادي، وهذا قد يكون سبباً لفناء الحياة على سطح الأرض لأن من خواص الماء الثقيل الذي يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين "ديوتيريوم" أنه لا تنبت فيه البذور ولا تعيش فيه الحيوانات. بالتالي فإن بقاء الإنسان في الأرض يحتم عليه عدم استخدام ما هو باطل والاستعانة بما يمكث في الأرض وهو الماء لأنه

²¹⁶ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص89.

ينفع الناس، ويعتبر ذلك سراً من أسرار إقامة العدل النسبي في الأرض.

الآية الخامسة عشرة:

قال تعالى: "وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين" {الحجر: 22}.

قال الشوكاني: "فأسقيناكموه" أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم²¹⁷. قال الرازي في تفسير قوله تعالى: "إلا عندنا خزائنه" إشارة إلى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى. وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له، ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء، إلا أنه تعالى وإن كانت مقدراته غير متناهية إلا أن الذي يخرجها منها إلى الوجود يجب أن يكون متناهياً لأن دخول ما لا نهاية له في الوجود محال²¹⁸. على حين قال الزمخشري: أي فجعلناه لكم سقياً. وقوله تعالى: "وما أنتم له بخازنين" نفى عنهم ما أثبتته لنفسه في قوله تعالى: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه" كأنه قال: نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها وما أنتم عليه بقادرين، دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم، وقوله تعالى: "ونحن الوارثون" أي: الباقون بعد هلاك الخلق كله²¹⁹. قيل: إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون {مريم: 40} فملك كل شيء لله تعالى، ولكن الله ملك عباده أملاكاً، فإذا ماتوا، انقطعت دعاوى، فكان

²¹⁷ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج14، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص759.

²¹⁸ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص178.

²¹⁹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج14، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص560.

الله وارثاً من هذا الوجه²²⁰. نقول: إن الماء هو من بين العناصر التي لا يمكن حفظها مع بقائها كما هي لمدة طويلة كالمعادن والخشب وغيرها لأن الشمس والرياح والتراب إذا دخلت على الماء تتفاعل معه وتغيره، فالشمس تجففه والرياح تحركه والتراب يمتصه أو يحتفظ به.

الآية السادسة عشرة:

قال تعالى: " هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون " {النحل: 10}.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: "لكم منه شراب" يفيد الحصر لأن معناه منه لا من غيره. وإذا ثبت ذلك فنقول: لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الأرض من جملة ماء المطر يسكن هناك، والدليل عليه قوله تعالى في سورة المؤمنين (وأزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض" ولا يمتنع أيضاً في غير العذب وهو البحر أن يكون من جملة ماء المطر²²¹. وقيل: إن الماء النازل من السماء قسمان: قسم يشربه الناس، ومن جملته ماء الآبار والعيون، فإنه من المطر لقوله تعالى: فسلكه ينابيع الأرض {الزمر: 21} وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشي. قال الزجاج: كل ما ينبت من الأرض فهو شجر²²².

الآية السابعة عشرة:

²²⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص200.

²²¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتبه بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص238.

²²² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج14، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص775.

قال تعالى: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا" {الكهف: 45}.

قال البيضاوي: واذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها أو صفتها الغربية²²³. على حين قال القرطبي: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر²²⁴.

الآية الثامنة عشرة:

قال تعالى: "الذي جعل لكم مهذاً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى" {طه: 53}.

في هذه الآية سوف نشرح ثلاثة أمور متصلة بالماء قبل وبعد نزوله من السماء. أما قبل نزوله فقد وردت الكلمات التالية المذكورة في الآية "مهذاً" و "سلك" و "سبلاً" وبعد نزوله في الآية ورد جملة "فأخرجنا به أزواجاً". قال الشوكاني: المهاد: أي ذات مهد، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش. قال تعالى: ألم نجعل الأرض مهاداً {النبأ: 6} ومعنى الهاد: الفرش فالمهاد جمع المهدي، أي: جعل لكم كل موضع منها مهذاً لكل واحد منكم، وكلمة سلك في قوله تعالى: "وسلك لكم فيها سبلاً" هو إدخال الشيء في الشيء". والمعنى: أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلها لكم. وفي الآية الأخرى "الذي جعل لكم الأرض مهاداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون {الزخرف: 10}

²²³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص341.

²²⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأبي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص288.

225، المراد من كون الأرض مهداً أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالتعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع²²⁶. قال النحاس: والجمع أولى لأن "مهداً مصدر، وليس هذا موضع مصدر إلا على حذف، أي: ذات مهد. ومن قرأ: "مهداً" جاز أن يكون مصدراً، كالفرش، أي: مهد لكم الأرض مهداً، وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: ذات مهد. ومن قرأ: "مهداً"؛ جاز أن يكون مفرداً، كالفراش، وجاز أن يكون جمع "مهد" استعمل استعمال الأسماء فكسر. ومعنى "مهداً" أي: فراشاً وقراراً تستقرون عليها²²⁷. نقول "مهداً" يعني بساطاً أو إحياءً للأرض لأنه قال في سورة الذاريات: "والسما بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون (47) والأرض فرشناها فنعم الماهدون (48)" فيكون الفرش هو خلق الأرض مثل بناء السماء الذي هو خلق أيضاً، لقوله تعالى: "الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء" {البقرة: 22}، ثم بعد ذلك تمهيد الأرض عبر إحياءها بالماء والنبات لقوله تعالى "فنعم الماهدون" أي لآدم (عليه السلام). وقوله تعالى: "وسلك لكم فيها سبلاً" قال صاحب الكشاف "سلك" من قوله تعالى: "ما سلككم في سقر" {المدثر: 42} وقوله تعالى: "كذلك سلكناه في قلوب المجرمين" {الشعراء: 200} أي جعل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري²²⁸. وقيل في

225 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج16، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص912.
226 الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج22، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص68.

227 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص78، 79.
228 الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج22، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص68.

معنى "سُبلاً" أي: جعل لكم فيها سُبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها²²⁹. وقال القرطبي: أي: طرفاً. نظيره: "والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سُبلاً فجاجاً" {نوح: 19-20} وقوله تعالى: "فأخرجنا به" أي: بالحرث والمعالجة؛ لأن الماء المنزل سبب خروج النبات. ومعنى "أزواجاً": ضرورياً وأشباهاً، أي: أصنافاً من النبات المختلفة الأزواج والألوان. قال الأخفش: التقدير أزواجاً شتى من نبات²³⁰. قال تعالى: "وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها" {فاطر: 27} وقوله تعالى: "أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة" {النمل: 60}²³¹. نقول: إن للمهاد قدر، وللمسلك مسار دنيوي وديني، وللسبيل طريق. كما أن الله جعل إخراج الأزواج للنبات تماماً مثل إخراج آدم وحواء (عليهما السلام) ثم جعل نسلهما من ذكر وأنثى، فكانت صفتي الذكورة والأنوثة أصل الخلق في كل المخلوقات والكائنات الحية ومنها النباتات والحيوانات.

الآية التاسعة عشرة:

قال تعالى: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر

²²⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج16، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص393.

²³⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص79.

²³¹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج16، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص658.

لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" {الحج: 5}.

هذه الآية سيتم شرحها لاحقاً في موضوع كلمة (التراب) لاحقاً لأن كل ما ذكر بعدها تابع لها فوجب أن يكون الشرح وافياً. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص204}.

الآية عشرون:

قال تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير" {الحج: 63}.

قيل في تفسير قوله تعالى: "ألم تر" إن الاستفهام للتقرير، والفاء للتعطف على أنزل، وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه²³². وقال الرازي: المراد هو الرؤية الحقيقية، قالوا لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الأرض مرئي²³³.

الآية واحد وعشرون:

قال تعالى: "وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون" {المؤمنون: 18}.

قيل في معنى قوله تعالى: "بقدر" يعني يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة في الزرع والغرس والشرب، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم²³⁴. وقيل: بتقديره يكثر نفعه ويقل

²³² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص972.

²³³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص62.

²³⁴ المصدر السابق، ص89.

ضرره، أو بمقدار ما علمناه من صلاحهم²³⁵. أما قوله تعالى: "فأسكناه في الأرض" قيل: معناه جعلناه ثابتاً في الأرض²³⁶. وقيل: مستقراً²³⁷. أما قوله تعالى: "وإنا على ذهاب به لقادرون" أي كما قدرنا على إنزاله فكذلك نقدر على رفعه وإزالته، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله تعالى: "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين"²³⁸. وقال البيضاوي: أي: على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطه²³⁹. نقول إن الآية بالنسبة للماء فيها "مقدار" و "إسكان" و "ذهاب" فأما المقدار فهو في علم الغيب عند الله، فلا أحد يمكنه معرفة كمية قطرات الماء النازلة من السماء في الكرة الأرضية، حيث إن كل النسب تقديرية ومنفصلة ومختلفة في كل مكان عن آخر. أما "الإسكان" فهو دليل رسوخه في الأرض. أما "الذهاب" فهو متعلق بالقدرة والقرار الإلهي، وهذا مرتبط بفناء الحياة على وجه الكرة الأرضية.

الآية اثنان وعشرون:

قال تعالى: "أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون" {النمل: 60}.

²³⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج18، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص465.

²³⁶ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص89، 90.

²³⁷ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج18، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص465.

²³⁸ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص90.

²³⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج18، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص465.

قيل في معنى قوله تعالى: "خلق السماوات والأرض" أي: التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع²⁴⁰. أما قوله تعالى: "وأنزل من السماء ماء" أي: نوعاً من الماء، وهو المطر²⁴¹. ومعنى قوله تعالى: "فأنبتنا" هو تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته والإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله في الآية: "ما كان لكم أن تنبتوا شجرها"²⁴². نقول: إن في الآية كلمات مفصلية تشير إلى الإرادة والقدرة على الفعل الإلهي وهي "أمن" و "أنزل" و "فأنبتنا". أما كلمتي "أمن وأنزل" فهما بصيغة المفرد وتدلان على وحدانية الله وقدرته وإثبات عدم اشتراكه في فعل خلق السماوات والأرض مع أحد. أما قوله تعالى: "فأنبتنا" فهي قد تشير إلى أوامره التي يلقيها إلى ملائكته لإحياء الأرض ومنها إنبات النبات بقدرته، أي بفعل أوامره، لكن الأرجح أن نقول إن الكلمة تابعة لما سبقها، أي لقوله تعالى "أمن وأنزل"، وبالتالي يكون مصدر الإنبات في قوله تعالى "فأنبتنا" هي لله فقط. وزيادة على دليل الأفراد في مسؤولية الخلق جاء بعدها في نهاية الآية قوله تعالى: "ما كان لكم أن تنبتوا شجرها" وهذا نفي عن إمكانية الإنبات للجميع في قوله تعالى: "لكم"، وكذلك السؤال الاستنكاري في قوله تعالى: "ألله مع الله"

الآية ثلاثة وعشرون:

²⁴⁰ المصدر السابق، ص571.

²⁴¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج20، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1085.

²⁴² أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم

الأقوال في وجوه التأويل، ج20، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص787.

قال تعالى: "ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" {الروم: 24}.

نقول: إن البرق والماء وإحياء الأرض كلها من آيات الله. كما قدم السماء على الأرض قدام ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والإحياء. كما أن في إنزال المطر وإنبات الشجر منافع، كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة، وذلك لأن البرق إذا لاح، فالذي لا يكون تحت كأن يخاف الابتلال فيستعد له، والذي له صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوى مجاري الماء. قالت الفلاسفة: السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء والماء. فالهواء ألطف منه والماء أكثف فإذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار، مثل مساس جسم جسماً آخر بعنف، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فإن قال الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان، فيقولون لكن حركة يد الإنسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار، فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله²⁴³. وقيل في معنى: "خوفاً" أي من الصاعقة للمسافر. "وطمعاً" أي: في الغيث للمقيم²⁴⁴. قال الشوكاني: أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس²⁴⁵. لقد شرحنا الفرق بين الإحياء والإخراج في سورة {فصلت: 39} {انظر الشرح في هذا الفصل، ص101}.

²⁴³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص114، 115.

²⁴⁴ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج21، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص50.

²⁴⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1131.

الآية أربعة وعشرون:

قال تعالى: "أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون" {السجدة: 27}. نقول: إن معنى قوله تعالى: "نسوق الماء" يعني نجرىها ما ينبغي أن تصل إليه. أما الأرض التي جزر نباتها، أي: قطع إما لعدم الماء، وإما لأنه رعى وأزيل ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جزر²⁴⁶. وقيل: هي أرض اليمن، وقيل: أرض عدن. وقال الضحاك: هي الأرض العطشى. وقال الفراء. هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي: هي الأرض التي لا تنبت شيئاً. قال المبرد: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام، وقيل: هي مشتقة من قولهم رجل جروز: إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله²⁴⁷. أما قوله تعالى: "تأكل منه أنعامهم وأنفسهم" يعني أن الإنسان هو أسمى الكائنات فتكون بقية الكائنات الحية في خدمته ومنها النباتات والحيوانات. لذلك قُدمت الأنعام على الإنسان. قال الرازي: إن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان، والزرع غذاء للدواب وهو لا بد منه. وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان، فكأن الحيوان يأكل الزرع، ثم الإنسان يأكل من الحيوان²⁴⁸.

الآية خمسة وعشرون:

²⁴⁶ أبو الفاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج21، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص846.

²⁴⁷ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1154.

²⁴⁸ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص188.

قال تعالى: " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود" {فاطر: 27}.

قال الرازي: إنزال الماء أقرب إلى النفع، والمنفعة فيه أظهر، فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالاته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً²⁴⁹. وقيل: "ألوانها" يعني: أجناسها وأصنافها على أن كلاً منها ذو أصناف مختلفة، أو هيئاتها من الصفرة والخضرة ونحوهما²⁵⁰.

الآية ستة وعشرون:

قال تعالى: " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب" {الزمر: 21}.

قال الشوكاني: ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: "فسلكه ينابيع في الأرض"²⁵¹. وقوله تعالى: "فسلكه" يعني فأدخله ونظمه²⁵². نقول: إن بداية هذه الآية مشابهة لما قبلها لكنه مرة قال "فأخرجنا به ثمرات" ومرة قال: "فسلكه في ينابيع الأرض".

الآية سبعة وعشرون:

قال تعالى: "ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد" {ق: 9}.

²⁴⁹ المصدر السابق، ص26.

²⁵⁰ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج22، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص120.

²⁵¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1281.

²⁵² أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج23، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص938.

قال الشوكاني: "ماءً مباركاً" يعني كثير البركة ²⁵³. وقيل: كثير المنافع ²⁵⁴. نقول: إن أصل خلقه وطهارته هي التي تجعله "مباركاً" ومن ذلك قوله تعالى: "وأنزلنا من السماء ماء طهوراً" {الفرقان: 48}.

الآية ثمانية وعشرون:

قال تعالى: "ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر" {القمر: 11}. قيل في معنى: "ففتحننا" هو بيان أن الله انتصر منهم وانتقم بماء لا من خلال جند أنزلهم كما قال تعالى: "وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين، إن كانت إلا صيحة واحدة" وهو بيان لكمال القدرة ²⁵⁵. أما قوله تعالى: "منهمر" يعني منصب، وهو مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصباها ²⁵⁶.

الآية تسعة وعشرون:

قال تعالى: "وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر" {القمر: 12}.

قيل في معنى قوله تعالى: "وفجرنا الأرض عيوناً" أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة، والأصل فجرنا عيون الأرض. قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها، فتفجرت بالعيون

²⁵³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج26، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1397.

²⁵⁴ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج26، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1043.

²⁵⁵ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص38.

²⁵⁶ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج27، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص346.

257. قال الزمخشري: "فالتقى الماء" يعني: مياه السماء والأرض. أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي²⁵⁸. نقول: في الآية إشارة إلى الأمر الإلهي "قد قدر" وأنه نافذ على الحال الذي أراده بدليل وقوع تفجير الأرض بعيون الماء.

الآية ثلاثون:

قال تعالى: "قال تعالى في سورة عبس: فلينظر الإنسان إلى طعامه (24) أنا صببنا الماء صبا (25) ثم شققنا الأرض شقاً (26)".

قوله تعالى: "فلينظر الإنسان إلى طعامه" أي: ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الآخروية؟ قال مجاهد: معناه، فلينظر الإنسان إلى طعامه، أي: إلى مدخله، ومخرجه، ثم بين ذلك سبحانه وتعالى فقال: "إنا صببنا الماء صبا"²⁵⁹. وقيل: "صببنا" المراد منه الغيث والأمطار²⁶⁰. وقال البيضاوي: هو استئناف مبين لكيفية إحداث الطعام²⁶¹. نقول إن النظر يختص بأن مسألة وجود الطعام (وأصله من عملية الزراعة والنباتات) غير ممكن من دون وجود الماء.

257 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1428.

258 أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج27، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1066.

259 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج30، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1587.

260 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص84.

261 ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج30، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص500.

ثانياً: الحيوانات

الآية الأولى:

قال تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {النور: 45}.

سوف نشرح هذه الآية بالتفصيل في سورة {آل عمران: 49} وذلك في موضوع التمكين الإلهي للرسول عيسى (عليه السلام) أن يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيراً بإذنه. {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص513}

الآية الثانية:

قال تعالى: "خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم" {القمان: 10}.

قال البيضاوي: "وبث فيها من كل دابة" أي من كل صنف كثير المنفعة. وكأنه استدل بذلك على عزته التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهدّ به قاعدة التوحيد وقررها بقوله تعالى: "هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه" ²⁶².

الآية الثالثة:

قال تعالى في سورة النازعات: "والأرض بعد ذلك دحاها (30) أخرج منها ماءها ومرعاها (31)".

²⁶² المصدر السابق، ص61.

نقول: "دحاها" يعني بسطها. وقيل: الدحو: يعني البسط²⁶³. قوله تعالى: "أخرج منها" أي: أخرج من الأرض. وقوله تعالى: "ماءها" أي: العيون المتفجرة بالماء²⁶⁴.

الثالث: ماء الخالق (السموات السبع والجنة)

الآية الأولى:

قال تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" {هود: 7}.

سنورد مسألتين ذكرهما القرطبي والرازي لأننا نخالف رأيهما. قال القرطبي في معنى قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" أن الله بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماوات {.....} ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء²⁶⁵. وكذلك قال الرازي: إن العرش هو أعظم المخلوقات وقد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه. وهنا ورد سؤال: هل يصح ما يروى أنه قيل يا رسول الله، أين كان ربنا قبل خلق السماوات والأرض؟ فقال كان في عماء فوقه هواء وتحت هواء. والجواب: أن هذه الرواية ضعيفة، والأولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله "كان الله وما كان معه شيء، ثم كان عرشه

²⁶³ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج2، ط1، (بيروت:

دار الكتب العلمية، 2003)، ص12.

²⁶⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص61.

²⁶⁵ المصدر السابق، ص75.

على الماء" ²⁶⁶. وهذه الرواية أوردها ابن كثير في تفسيره، ونقلها الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن عمه أبي رزين - واسمه لقيط بن عامر بن المنفق العقبلي قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: "كان في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك" ²⁶⁷. نقول: إن معنى قوله تعالى: "كان عرشه" أي "استوى عرشه"، لأن الكينونة تعني الوجود، والوجود سابق على الاستواء، لأن الاستواء حدث بعد وقوع فعل، وهو خلق السماوات والأرض في ستة أيام. بالتالي فإن الذين قالوا إن الله كان في عماء فوقه هواء وتحته هواء في الإجابة على سؤال أين كان ربنا قبل خلق السماوات والأرض، نرد عليهم بالقول إن ذلك كان محاولة للإجابة عن سؤال "الوجود الإلهي" قبل خلق الكون وقبل خلق المادة، وقبل أن يكون عرشه على الماء. عموماً، سوف نجيب بشكل تفصيلي دقيق عن سؤال هل الله مخلوق من المادة؟ وذلك في شرحنا لقوله تعالى: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار" {الرحمن: 14} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص 279} لكن في سياق هذه الآية سنشرح الفرق والعلاقة بين قوله تعالى: "كان عرشه" و "استوى عرشه"، من خلال الإجابة على عدد من الأسئلة:

- السؤال الأول: ما هي أزمان الخلق (السماوات والأرض والكون والكائنات الحية)، وأزمان الاستواء؟
- السؤال الثاني: كيف كانت حالة الله قبل الاستواء وبعده؟
- السؤال الثالث: ما معنى الاستواء أصلاً؟

²⁶⁶ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 17، ط 1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص 195.

²⁶⁷ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي دمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج 4، ط 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص 307.

أزمان الخلق، وأزمان الاستواء

في الإجابة عن السؤال الأول: ما هي أزمان الخلق (السموات والأرض والكون والكائنات الحية)، وأزمان الاستواء؟
نقول في هذه الآية ثلاثة أنواع من الزمن، وهي كما يلي:
الزمن الأول: زمن الكينونة (الوجود).
الزمن الثاني: زمن الخلق (لغة الأمر الإلهي "كن فيكون" وأفعال الجند "الملائكة").
الزمن الثالث: زمن الاستواء (ويشتمل على الولاية والرقابة والتدبير والخبرة والأعلمية والشفاعة).

سأقدم شرحاً دلاليّاً مختصراً لهذه الأزمان والتباين فيما بينهما:
الزمن الأول: زمن الكينونة (الوجود) على العرش، وهو زمن قبل خلق السموات والأرض والكائنات الحية، وقبل الاستواء، وأسميه (زمن السكون) حيث لم يكن شيء إلا الله، ولم يكن معه فناء، لأن الفناء يكون لشيء موجود، وإن الله لم يكن معه أي موجود حتى يفني قبل وجوده. فمثلاً إن للنجوم والكواكب وكل المتحركات في مجرة درب التبانة أعمار وهي تموت كموت الإنسان، أي أن الفناء بالنسبة للإله ليس فناءً للكائنات الحية فحسب بل فناء يتعلق بالمادة، والمادة تفنى مثل الخلق. وكذلك جسد الإنسان يفنى وتبقى روحه التي يعيدها الله إلى الأرض فإما يخلدها في النار وإما في الجنة، وهكذا يظل يعيدها حتى يُخلدها إما في النار وإما في الجنة بحسب أعمالها، والمادة تفنى لكنها تحيا، وتعيد إنشاء الكون بأمر من الله كلما التهبت نار شياطين الجن والإنس في الجنة، لكن الله وحده هو الذي لا يفنى ولا يتساوى مع الفناء، وتبقى في جنة الفردوس عنده كل الأرواح الخالدة، وهي أرواح الأنبياء والعلماء والشهداء والطاهرين والصادقين والزاهدين.

وعموماً نذكر خمسة عناصر لتجلية مفهوم الفناء عند العرفاء ونعقب عليها:

أولاً: إن الفناء لا يعني الانعدام الوجودي للعبد، بل بالعكس هو حقيقة وجودية متعالية.

ثانياً: إن الفناء يعني انعدام الجهة البشرية في الإنسان، ولذلك قد يعبرون عنه بـ "فناء البشرية وبقاء الألوهية".

ثالثاً: إن الفناء يعني ذوبان العارف في الجهة الإلهية، واتصافه بصفاته سبحانه وتعالى؛ لأنه صار مجرد مرآة ينعكس فيها الله سبحانه وتعالى، بأسمائه وصفاته، وهذا معنى بقاء الألوهية.

رابعاً: إن الفناء هو هجران الصفات المذمومة والكثرات نحو الصفات المحمودة والوحدة، فالوحدة عنصر مهم جداً في فهم العرفاء للعالم بأجمعه.

خامساً: إن الفناء عند العرفاء ولادة جديدة، يعود الإنسان فيها إلى الله مركز الوجود، ويرجع إلى الأصل الذي جاء منه، ويعيش في الآخرة²⁶⁸. نخالف ما جاء في هذه التجليات الخمسة ونقترح تعديلها، كما يلي: أولاً: إن العبد هو إشارة للنوع، أي (بني آدم) ينعدم وجودياً بشكل مادي (أي يبلى جسده) ويبقى خالداً وجودياً بشكل روحي، أي تتعلق روحه في الفناء وتخلد فيه..

ثانياً: إن فناء البشرية لا يعني تحولها إلى بقاء ألوهي لأن ذلك شرك مع الله، بل إن الفناء البشري حتمي تحت مظلة البقاء الإلهي وبرهان ذلك قوله تعالى: كل من عليها فان {الرحمن: 26}.

ثالثاً: لا يذوب العارف في الجهة الإلهية لأن ذلك يعتبر تشبيهاً لإمكانية التصاق روح الإنسان بالخالق، وهذا غير ممكن وفق التوصيفات الإلهية في القرآن التي تقيد بإمكانية النظر إلى الله والشكوى إلى الله والتقرب إلى الله، فلا تكون روح الإنسان ممكنة الذوبان في الخالق

²⁶⁸ حيدر حب الله، منخل إلى الوحي وبشرية اللفظ القرآني، (بيروت: دار روافد، 2021)، ص71.

لأن روح الإنسان مهما بلغت من الكمال إلا أنها تظل روحاً مخلوقة وليست خالقة، وعابدة وليست معبودة، ولذلك لا يتصف العارف بصفات الله لأن وصف نفسه في قوله تعالى: ليس كمثله شيء {الشورى: 11} بالتالي فإن الإنسان لا يكون مرآة ينعكس فيها الله لأن ذلك يعتبر تشبيهاً بين كائنين مخلوقين من نوع وجنس وصفة واحدة وهذا غير منطقي أو متحقق في الواقع وهو منفي في الشريعة والأوامر الإلهية (القرآن) وفق أسماء وصفات الله. رغم ذلك نقول إن الذوبان الموصوف هو ذوبان الروح في الفردوس الأعلى وهي طبقات الفناء الخالدة عند عرش الرحمن (الله) ويتحقق الفناء لنوع من الروح (وهي روح النبي الصادق (النبوية الصادقة) أو العالم القانع (العالمة القانعة) أو العابد الزاهد (العابدة الزاهدة) أو الحافظ لكتاب الله الراشد (الحافظة الراشدة) ويكون فناءً سرمدياً.

رابعاً: إن الفناء يفوق هجران الصفات المذمومة لأن هجرها يكون أولياً، أي عند لحظة خلق روح الإنسان في رحم أمه، ولا يتحقق الفناء إلا لمن صاحبته الصفات المحمودة الوحيدة في حياته الدنيا منذ الصغر أو بشكل مكثف في الكبير، والعزلة فيها خصوصية لأنها تربى على الفناء.

خامساً: إن الله أصل الوجود وليس مركز الوجود، لأن المركز محدود والله غير محدود وأما الأصل فهو منطلق في الوجود، فبعض بني آدم يرجع إلى أصل الوجود وبعضهم يرجع إلى مركز الوجود، فأصل الوجود علوي، ومركز الوجود دنيوي، والأصل فيه الفناء، والمركز فيه البقاء، وهناك فرق بين الفناء والبقاء، فالفناء متحقق للأنبياء والعلماء (وهم ورثة الأنبياء) ومن اتصفوا بصفات اليقين والتقوى والزهد والعبادة في القرآن، وينطبق على ذلك كل آيات الخلود في الفردوس الأعلى التي ذكرتها سابقاً {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص126} وأما البقاء فهو متحقق لعموم بني آدم، ويكون البقاء علوي ودنيوي، وينطبق عليه قوله تعالى: يوم نظوي السماء كطي السجل

للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين {الأنبياء: 104}.

الزمن الثاني: زمن الخلق (لغة الأمر الإلهي "كن فيكون" وأفعال الجند "الملائكة") وهو ما قبل الاستواء على العرش، "أي الستة أيام" التي خلقت فيها السماوات والأرض، لأن الله كان في حالة فاعلية أو عدم استواء، والملائكة مخلوقون من غاز النيتروجين، وهي المادة التي خلقت قبل مادة خلق الماء (الهيدروجين والأكسجين)، ومادة الملائكة (النيتروجين) هي مادة أرواح الأنبياء والعلماء وحفظة القرآن والأتقياء والصادقين الزاهدين في الدنيا والآخرة.

الزمن الثالث: زمن الاستواء (الولاية والرقابة والتدبير والخبرة والأعلمية والرحمة والشفاعة) وهو زمن الإنجاز لكل ما هو تحت العرش، أي بعد خلق السماوات والأرض، وهذا زمن العودة إلى السكون بعد إتمام عملية الخلق. في شرحنا لهذه الأزمان نقول: إن الزمن الأول "زمن الكينونة" سابق على "زمن الاستواء" وداخل فيه. إذا نظرنا للآية، فقد ذكر فيها كلمة "خلق" في الإشارة إلى خلق السماوات والأرض. أما زمن الاستواء فيُستدل عليه من خلال ما ذكر في الآية وهي كلمة "كان" في الإشارة إلى مكان عرشه، علماً بأن الكلمتين "خلق" و"كان" هما فعلين ماضيين، وهذا يدل على أن الزمن الذي خلق الله فيه السماوات والأرض، كان عرشه على الماء، أي أنه لم يتدنَّ إلى الأسفل ولم يتغير مكانه وقت عملية الخلق، ولم يتساو مع كل شيء خلقه، وبالتالي فإن ثبوتية المكان هي مؤشر على مطلق قدرته وألوهيته. وإذا قلنا بأن كلمة "كان" بمعنى "رجع" أو "عاد" فسوف يصير المعنى كالتالي: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ورجع عرشه على الماء"؛ وهذا غير منطقي لأن عرشه ثابت ولم يتحرك في أي مكان أو أي اتجاه سوى وجوده فوق الماء، والعرش لا يعني الله أو وجود الله في داخل العرش، بل هو المكان الذي يوجد الله فوقه. وإذا أدركنا أن المصدر من "كان" هو "كونك"

واسم الفاعل من الفعل "كان" هو "كائناً"²⁶⁹، بالتالي يكون معنى جملة "كان عرشه" في الآية، أي "كونه موجوداً كائناً في عرشه"، وبذلك تعتبر كلمة "كان" في الآية توكيداً لزمن الكينونة (الوجود) فوق العرش، وليس زمن الاستواء (الذي يشتمل على الولاية والرقابة والتدبير والخبرة والأعلمية والرحمة والشفاعة). ونلاحظ مسألة جلية في الآية تتحدث عن "زمن خلق السماوات والأرض" من دون حساب "زمن خلق الكون"، لأن السماوات والأرض شيء، والكون في الفضاء الخارجي شيء آخر، وهو في حالة اتساع لقوله تعالى: "والسماوات بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون" {الذاريات: 47}. لقد استخدم تعبير "السماوات" في وصف الفضاء الخارجي، لأن السماء الحقيقية التي تقع فوق سطح الأرض هي سماوات ثابتة، بما في ذلك الغلاف الجوي، فكان المقصود بكلمة "السماوات" في الآية الاتساع أو التمدد الذي يبدأ من السماوات كنقطة بداية وينطلق إلى الفضاء الخارجي إلى ما لا نهاية. وقد ورد لفظ "السماوات" بنفس المعنى في قوله تعالى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماوات فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم {البقرة: 29}. كما أننا لاحظنا أن الله تعالى قال: "استوى إلى السماوات"، في حين أنه قال في ست آيات "استوى على العرش"، علماً بأن مكان الله هو على العرش أو فوق العرش، وليس السماوات. السؤال هنا: لماذا جعل الله الاستواء إلى "السماوات" علماً بأنه فوق العرش وأن الاستواء يجب أن يكون هناك وليس في السماوات؟

²⁶⁹ عريزة فوال بابستي، المعجم المفصل في النحو العربي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص817.

معنى الاستواء إلى السماء مقابل الاستواء إلى العرش

نقول: إن الله استخدم السماء في هذا الموضع للإشارة إلى وجود ملائكته في السماء، وبالتحديد في الغلاف الجوي الذي يتكون من النيتروجين التي هي مادة خلق الملائكة، وأسمي هذا الاستواء "استواء التوكيل" بلغة الأمر، أي أن الله أوكّل ملائكته بالاستواء في السماء، ثم استوى هو فوق العرش، وقد تحقق الاستواء بعد خلق السماوات والأرض، ونقول إنه استواء توكيل لأن الملائكة ومادتها (النيتروجين) موجودة في جنات الفردوس وأسفل عرش الرحمن (الله) وصولاً إلى الغلاف الجوي وحتى الأرض التي فيها ملائكة ومنهم عتيد ورفيق. عموماً سنشرح كيفية وقوع خلق السماوات والأرض ومكان وجود الملائكة بالنسبة للعرش وعلاقتهم به، والمادة التي خلقوا منها، وعلاقتهم بالماء الموجود أسفل عرش الرحمن، وعلاقة مادتهم (النيتروجين) تحت عرش الرحمن (الله)، بمادة الماء (ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسجين) الموجودة أسفل عرش الرحمن وأسفل الملائكة، وعلاقة ذلك بالأوامر التي ألقاها الله إلى حملة عرشه الثمانية من الملائكة لخلق السماوات والأرض وكيفية استقرار النيتروجين في السماء نتيجة وقوع خلق السماوات والأرض. سوف نشرح كل ذلك في الإجابة على سؤالين:

السؤال الأول: هل خلقت الملائكة قبل خلق الماء أسفل عرش الرحمن (الله) أم بعده؟

السؤال الثاني: ما علاقة الهيدروجين بـ (النيتروجين والأكسجين) اللذان يدخلان في خلق الملائكة؟ أو بمعنى آخر، هل يدخل الهيدروجين في خلق الملائكة؟ {انظر الإجابة على السؤالين في الفصل الثالث، ص301}.

استكمالاً للشرح، نقول: بالنسبة للاتساع المقصود في الآية فهو للفضاء الخارجي للكون، وهذا حقيقي ومثبت علمياً، ولكن الاتساع الموصوف

في قوله تعالى: "وإننا لموسعون" {الذاريات: 47} هو اتساع يصل مداه إلى الماء الذي استوى عليه عرش الله، ما يعني أن الاتساع له نهاية، ونهايته أبدية مطلقة ويوجد فيها ماء بحكم قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7}، لكن لن يستطيع أحد الوصول إلى هذا الماء، علماً بأن الماء موجود في الطبيعة، لكن العلم لم يثبت وجود ماء حقيقي في نهاية اتساع الكون لكن هذه المسألة حقيقة ثابتة في القرآن، وإننا أول من يقول بوجود هذا الماء في نهاية الكون من خلال وجود عناصره وهما (الهيدروجين والأكسجين)، التي نتج عنها انفجار الماء، وهذه حقيقة ثابتة لا شك فيها، وهي ثابتة بالنظر القرآني. وإن تصادم عناصر الماء حدث نتيجة طاقة، وهذه الطاقة (هي طاقة أو حرارة بالمعنى العلمي لكنها بالمعنى الديني نار الشياطين التي أمرت آدم (عليه السلام) المساس بالشجرة في جنات الفردوس) علماً بأن الطاقة التي نتجت عن تصادم ذرات الماء، ومنها الهيدروجين والأكسجين كانت متولدة من تفاعل إلكترون مع إلكترون آخر، والتي نتج عنها أشعة غاما التي تقدر طاقتها بمليون إلكترون، ما يعني أن الإلكترونات أصل في التفاعلات الكيميائية. وهذه الأشعة نتجت بعدما كان الكون في حالة فناء، وعندما كان الفناء حقيقة موجودة إلى أن سقط الإلكترون في النواة، وهذا السقوط يحدث في حالتين {انظر شرح الحالتين في الفصل الثالث، ص316}. أما أشعة غاما فهي التي نتج عنها الضوء، وهي أشعة تنتشر بسرعة مساوية لسرعة الضوء، فهي موجات كهرومغناطيسية وتعتبر من أخطر الإشعاعات الكهرومغناطيسية. والطاقة التي أنتجت الضوء هي متولدة عن عودة الإلكترون إلى مستوى الطاقة الأصلي في الغلاف الذري الإلكتروني. وعموماً تعتبر الشمس والتفاعلات النووية مصدر لأشعة غاما، وهذا دليل على أن أشعة غاما التي نتجت عن الانفجار العظيم (فتق الرتق) هي أكبر بكثير من أشعة غاما الموجودة في الكون. كما نلاحظ في هذه الآية أن الله يقدم توصيفاً للعلاقة والمسافة الزمنية مع الماء، فيقول

إنني خلقت الماء، ومن قبل الماء خلقت عناصره، وبالتالي فإنني خلقت مادته، ثم جعلت عرشي فوق الماء المتكون من المادة، فكان عرشي فوق الماء وفوق المادة، وفوق الملائكة وفوق مادة خلقهم وهي (النيتروجين)، وهذا يدل على أن خلق المادة أو عناصر الماء، وتكوين الماء هو خلق إلهي بامتياز، وبالتالي فإن أي خلق ما عدا ذلك يعتبر من خلق الله، وذلك يشمل الكون وما قبله وما بعده من خلق للكائنات الحية في الأرض التي هي جزء بسيط من الكون بما فيه من موجودات كالمجرات والكواكب والنجوم. إذا فهمنا كل ما سبق، سوف ندرك بأن الملائكة كانت مخلوقة قبل خلق الماء وذلك لأنها اضطلعت بمسؤولية أخذ الأوامر من الله لتنفيذ عملية اتحاد ذرات الهيدروجين والأكسجين اللتان تسببتا بالانفجار العظيم (فتق الرتق). في الإجابة على السؤال الثاني: كيف كانت حالة الله قبل الاستواء وبعده؟

حالة الله قبل الاستواء وبعده

نقول: إن حالته قبل الاستواء وبعد الاستواء لها مدخل واحد عبّر عنه في آية واحدة وهي قوله تعالى: "الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم" {النور: 35}. هذه الآية شرحتها في كتابي "الجلي النقي في معرفة الوحي" وبالتحديد معنى النور في الآية. {انظر الشرح في الكتاب، الفصل الخامس، ص303}. نقول: إن حالة الله قبل الاستواء وبعده هي ذات الشيء لأن الله لا يتغير ولا يتبدل وهو ثابت راسخ لا يمكن وصفه بالأزلي لأنه خارج سياق وصف القدم أو البعد أو اللانهاية. هذه الآية هي مفتاح الجنة، والجنة تقع بعد النور، فمن وصل هذا النور أو حصل على

مفتاح هذا النور، دخل الجنة، لكنه لن يُحصن من بعض الشياطين التي فيها وقد دخلوها من باب الإغواء والفتنة والادعاءات الكاذبة بالصلاح في الدنيا والآخرة، بالتالي لا يحصن فيها إلا من رحم الله من الأنبياء والعلماء والصادقين والأتقياء والزاهدين. فالجنة بابها يبدأ من هذه الآية ونقول إن التعبير الذي استخدمه الله في الآية "النور" هو النور الذي يبدأ دخول الإنسان منه إلى الجنة. لكن بالنسبة لحالة بعد الاستواء نقول إن لها خصوصية لأنها تحققت بعد خلق المادة، وأولها مادة الملائكة (وهي النيتروجين) وهذا اسميه الخلق الأول للمادة والكائنات الروحية، ثم خلق بعدها مادة الماء (وهي ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسجين) وهذا اسميه الخلق الثاني، ثم خلق بعدها السماوات والأرض، وهذا اسميه الخلق الثالث، ثم خلق بعدها الكائنات الحية، وهذا اسميه الخلق الرابع. حتى نفهم ما بعد الاستواء، يجب معرفة حالة الاستواء ذاتها ودرجتها من خلال إدراك الأبعاد الحركية، أي الكمية القياسية للمسافة (السرعة والزمن) لكل عملية خلق أو تسوية للخلق؛ لأن خلق الكون في ستة أيام يدل على انحصار قانون المسافة في عملية الخلق خلال ستة أيام، ما يعني أن أي حسابات فلكية، أو جغرافية، أو معادلات، أو نظريات داخل تخصصات علوم الأرض، مثل علم الفلك، وعلوم الغلاف الجوي، والحيوفيزياء (علم فيزياء الأرض) يجب أن تخضع لزمن "الست أيام" وتنطبق معها، كي يثبت صحتها، وإن أي معادلة أو نظرية تعتمد على حسابات الزمن فيما يتعلق بعلوم الفلك ولا تأخذ هذا القياس الزمني الإلهي (ستة أيام) بعين الاعتبار فإننا نقول بالشك في مصداقيتها ودقتها. وهذا يعني أن ما تقوله الفيزياء النظرية حول عمر الكون يجب أن يخضع لزمن "الأيام الستة"، ويدخل في مرحلة بعد الاستواء آيتين عن تبديل الخلق وتتعلقان بالخلق الرابع (أي خلق الكائنات الحية) وهما:

- قوله تعالى: "إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً" {النساء: 133}.

- وقوله تعالى: "ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد" {إبراهيم: 19}.

نقول: إن تبديل الخلق لا يكون إلا في حالات لا يعلمها إلا الله، لكنه جعل ذلك من خصوصيته حيث عبّر عن ذلك بالمشيئة والقدرة، وفي الآية الثانية عبّر عنه بالحق على اعتبار أن كل ما هو دون الحقوق أو حصول الإنسان على الحقوق في الحياة الدنيا يعتبر خارج عن السياق الشرعي الذي خلقت لأجله الكائنات الحية. وهنا نسأل كيف يمكن حساب كل ما تم ذكره وفق حساب الأيام الستة؟ نقول إن العرش هو المكان الذي يوجد الله فوقه، لكن ليس فوقه مباشرة لأن التقديرات سوف تكون من أسفل إلى أعلى، وبالتالي يستوجب تقدير الحساب وفق الثنائيات التالية:

بين (الأرض والسما) التي خلقها الله سرعة وزمن، وبين (غلاف الأرض الجوي والفضاء الخارجي) سرعة وزمن، وكذلك بين (الفضاء الخارجي واتساع الكون) الذي عبّر عنه قوله تعالى: "والسما بنيناها بأيد وإنا لموسعون" {الذاريات: 47} سرعة وزمن، (وسنشرح في السطور التالية معنى السماء والاتساع؛ لأنها لا تعنى السماء التي فوقنا). وأيضاً بين (اتساع الكون ومكان وجود الماء) سرعة وزمن، وبين (مكان وجود الماء ومكان وجود العرش) سرعة وزمن، وبين (مكان وجود العرش والوجود الإلهي) سرعة وزمن، لكن المسافة والزمن بين وجود العرش والوجود الإلهي مطلقتان ولا تنتهيان وهما أبديتان. في الإجابة عن السؤال الثالث: ما معنى الاستواء أصلاً؟

معنى الاستواء

نقول: إن كلمة "استوى على العرش" وردت في خمس آيات وجميعها جاءت موصولة بذكر خلق السماوات والأرض، ما يعني أن

هذا الاستواء يقع في الزمن الثاني، وهو زمن الخلق (لغة الأمر الإلهي "كن فيكون" وأفعال الجند "الملائكة") وهو سابق على زمن الوجود الإلهي، وزمن الخلق هو زمن ما قبل الاستواء على العرش، "أي الستة أيام". في حين أن جملة "كان عرشه" في سورة {هود: 7}، أي "كونه كائناً في عرشه"، اعتبرناها توكيداً لزمن الكينونة (الوجود) فوق العرش، وثمة فرق بين زمن الخلق وزمن الكينونة.

عموماً سأورد الآيات الخمس التي ذكرت فيها جملة "استوى على العرش" كما يلي:

- قوله تعالى: "الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون" {السجدة: 4}.

- قوله تعالى: "الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل من به خبيراً" {الفرقان: 59}.

- قوله تعالى: "الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون" {الرعد: 2}.

- قوله تعالى: "إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنك ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون" {يونس: 3}.

- قوله تعالى: "إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغطي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين" {الأعراف: 54}.

لاحظنا أن (الولاية، والرقابة، والتدبير، والخبرة، والأعلمية، والرحمة، والشفاعة) هي الوظائف والصفات التي جاءت بعد قوله تعالى: "استوى على الماء" في كل الآيات، وهذه الصفات تعتبر داخلة

في الأزمنة الثلاثة: زمن الاستواء، وزمن الخلق (لغة الأمر الإلهي "كن فيكون" وأفعال الجند "الملائكة")، وزمن الكينونة (الوجود)، وليس فقط في زمن الاستواء وحده. وهنا نسأل: ما هي المواد أو العناصر التي خلقها الله قبل استواءه على العرش؟

المواد التي خلقها الله قبل استوائه على العرش

إن الله خلق ثلاثة أمور قبل أن يستوي على العرش، وهي خلق عناصر الماء (المادة)، ثم خلق الماء (التفاعل) ثم خلق العرش (مكانه ما دون المادة والتفاعل). لأن العرش هو المكان الذي استوى عليه الخالق، ولأن الله خارج الزمان والمكان، فلا يكون العرش مخلوقاً في زمان أو مكان وإنما العرش توصيف مجازي لوجود خالق، ولكن ليس لوجود مكان محدد له، فنحن ننكر أن يكون الله -وبالتالي عرشه أو مكانه- موصوفاً في زمن أو وفق حسابات الحجم والكتلة والكثافة، وسوف نشرح علاقة الملائكة بحمل عرش الرحمن وحجم هذا العرش في سورة {الرحمن: 14} في إجابتي على سؤال هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟ وسؤال آخر حول مادة الخالق؟ أو إذا كان الله مخلوق من المادة أو الطاقة؟ {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص290-306}. كما سبق أن شرحنا معنى وجود العرش فوق الماء ومكانة الماء من النار، ودرجات الماء العلوية فوق السماوية من درجات النار الأرضية الدنيوية، وذلك في سورة {الأعراف: 50} {انظر الشرح في هذا الفصل، ص107}.

الآية الثانية:

قال تعالى: في سورة الواقعة: "أفأريتم الماء الذي تشربون (68) أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (69)".

قال البيضاوي في معنى قوله تعالى "أفرأيتم الماء الذي تشربون" أي العذب الصالح للشرب²⁷⁰. وقيل: لتحياوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم²⁷¹. نقول: هو الماء الذي يجعل الإنسان حياً في الدنيا ومصداق ذلك قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}.

دلالة قوله تعالى: "فمن يأتيكم بماء معين"؟

الآية الثالثة:

قال تعالى: "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين" {الملك: 30}.

ذكر غالبية المفسرين في معنى: "إن أصبح ماؤكم غوراً" أي: غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء²⁷². نقول: في هذه الآية تحدي إلهي علمي يفوق فكرة التعبير الديني القرآني عن أهمية الماء وأنه نعمة من الله. وفي هذا التحدي تحذير إلهي من حالة نضوب الماء من الكرة الأرضية، حيث ورد هذا التحدي في جملة الاستفهام "فمن يأتيكم بماء معين؟" فلماذا أورد الله الاستفهام؟ وماذا يريد من وراء ذلك؟

من الحقائق المدركة عن الماء أنه موجود على سطح الأرض منذ الأزل. كما أن وجوده مستمر وفق دورة حياة الماء في الطبيعة. ويعلم الجميع أن الصيغة الكيميائية لجزيء الماء هو H₂O ، ويتكون هذا الجزيء من اتحاد أو تفاعل غاز الهيدروجين مع غاز الأكسجين. ومن

²⁷⁰ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج27، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص366.

²⁷¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج20، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص214.

²⁷² المصدر السابق، ص133.

المعروف أن الماء عديم اللون وعديم الرائحة وعديم الطعم. ومن المعروف أن الماء المصنَّع في زجاجات والمعرض للبيع في محلات الشراء كله ماء مُعالج، وهو "غير مصنَّع"، وثمة فرق، أي أنه في الأصل مياه بحر أو مياه عادمة.. إلخ. هذا النوع من الماء المُعالج تختلف فيه نسب الأملاح والمواد المعقمة وفق صفات الماء الذي يحتاجه الجسم، وهذا يتراوح بين شركة وأخرى. وهنا نسجل ملاحظة، وهو أن أي زيادة أو نقصان في نسبة الأملاح أو عندما يشعر الجسم بأن الماء فيه خلل فإن مركز استقبال الإنسان في الدماغ يعطي إشعار حول الماء الذي نشربه، ويحدث ذلك فقط للإنسان، أما الحيوانات فليس فيها خاصية الاستشعار حول طبيعة الماء. بالتالي فإن الإنسان مخلوق وله نواقل عصبية، وحواس تذوق وشم حتى يكون لديه رد فعل على كل شيء شربه أو أكله. ولهذا السبب أشرت إلى تكريم الإنسان من الله وفق النص القرآني لقوله تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً" {الإسراء: 70}. هذا التكريم جعل الله معه محرمات، فلا يتناول الإنسان المسلم الدم والميتة ولحم الخنزير كما ورد في القرآن. عندما نقول بأن الماء "غير مصنَّع" فهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع تصنيع الماء، لأن مزج أو اتحاد جزيء هيدروجين مع جزيء أكسجين ينتج عنه الماء، ولكن ينتج عنه أيضاً طاقة كبيرة مصاحبة للتفاعل الكيميائي (اتحاد الجزيئين)، وهذا التفاعل الكيميائي ينتج عنه انفجار شديد. علماً بأن الطاقة الناتجة عن التفاعل بين جزيء الأكسجين والهيدروجين عند تحضير الماء غير قياسية، أي من الصعب تجميعها في مكان مغلق، وينتج انفجار شديد عند إجراء تجربة صناعة الماء. ذلك يعني أن الطاقة المصاحبة للتفاعل (تحضير الماء) لا يمكن التحكم فيها عند إجراء التجربة. بالتالي فإن قوله تعالى: "فمن يأتيكم بماء معين" يعني أنه لا يمكن لأي إنسان على سطح الأرض أن يصنع الماء.

الآية الرابعة:

قال تعالى: "أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً"
{الكهف: 41}

قيل: الغور: هو الغائر. والمعنى: أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له²⁷³. وعموماً، هذه الآية تتسق مع الآية السابقة.

²⁷³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص861.

الفصل الثالث

مركزية (التراب والطين والصلصال الفخار والحمأ
المسنون) في نشأة وديمومة الكائنات الحية (آدم
والنباتات والحيوانات)

التراب هو عبارة عن حبيبات ومادة جافة، أما الطين فهو مكوّن من عنصرين هما الماء والتراب، ثم بعد ذلك يصبح شديد اللزوجة مع زيادة الماء عليه وهو في هذه الحالة يكون صلصالاً. وفي العلاقة بين الماء والتراب/الطين قيل: إن المادة البعيدة هي التراب، وأقرب منه الطين، وأقرب منه الحمأ المسنون، وأقرب منه الصلصال، فنبت أنه لا منافاة بين الكل²⁷⁴. كما قيل إن الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب، فإن التراب لا ينبت إلا بالماء، ففي النبات الذي هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء، فإن جعل التراب أصلاً والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك، وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلائن فالأمر كذلك، فإن قال قائل الله تعالى يعلم كل شيء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال "من الماء بشراً" وإن كان الماء فكيف قال "خلقكم من تراب" وإن كانا هما أصليين فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة {...} وهي أن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولاً، وجعلهما أصليين لمن هو أكمل منهما، بل للذي هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان، فإن كونهما أصليين ليس أمراً ذاتياً لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب، وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره، فإن شاء جعل هذا أصلاً وإن شاء جعل ذلك أصلاً، وإن شاء جعلهما أصليين²⁷⁵. إنه تعالى ذكر في كيفية خلق آدم (عليه السلام) وجوهاً كثيرة (أحدها) أنه مخلوق من التراب كما في هذه الآية (والثاني) أنه مخلوق من الماء، قال تعالى: "هو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً" {الفرقان: 54}.

²⁷⁴ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص228.

²⁷⁵ المصدر السابق، ص110.

(والتالث) أنه مخلوق من الطين لقوله تعالى في سورة السجدة: "الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين (7) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (8)". (والرابع) أنه مخلوق من سلالة من طين قال تعالى في سورة المؤمنون: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" (12) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (13)". (والخامس) أنه مخلوق من طين لازب لقوله تعالى: "إنا خلقناكم من طين لازب" {الصافات: 11}. (والسادس) إنه مخلوق من صلصال لقوله تعالى: "إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون" {الحجر: 28} ²⁷⁶. قيل إنه خلق آدم (عليه السلام) من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة، والغضب، والحرص، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب وإنما خلقه من الماء ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء، ثم إنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف فيصير طيناً وهو قوله تعالى: "إني خالق بشراً من طين" {ص: 71} ثم إنه قال: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12} والسلالة بمعنى المفعولة لأنها هي التي تسل من أطف أجزاء الطين، ثم إنه أثبت من الصفات ثلاثة أنواع: (أحدها) أنه من صلصال، والصلصال: اليابس الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي يسمع من داخله صوت. (الثاني) الحمأ وهو الذي استقر في الماء مدة، وتغير لونه إلى السواد. (والتالث) تغير رائحته لقوله تعالى: "فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه" {البقرة: 259} أي لم يتغير ²⁷⁷. نقول: إن العلاقة بين التراب والطين والصلصال والحمأ هي علاقة استمرارية قائمة على تتابعية حركة الدفء ثم الحرارة ثم الوفرة. إنها علاقة هشة في أولها وحادة في

²⁷⁶ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص83.

²⁷⁷ المصدر السابق، ص83.

آخرها، وإن الطقس وعنصر الماء هو الذي يتحكم في هشاشة أو حدة هذه العلاقة.

الآيات التي ورد فيها كلمات "تراب - تراباً - ترائب"

أولاً: كلمة "تراب"

مراحل عمر الإنسان، من بداية الخلق وحتى البعث

الآية الأولى: قال تعالى: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" {الحج: 5}.

في الآية مسائل على الترتيب الطبيعي والبيولوجي الحيوي الذي جاءت به كما يلي:

أولاً: نقول: إن الخطاب في هذه الآية موجه للناس جميعاً، أي جميع خلق الله في قوله تعالى "يا أيها الناس"، وذلك دلالة على المساواة في اشتغال الخطاب على كافة أنواع الناس وألوانهم وأعراقهم، ويشتمل الخطاب على الجنسين الذكر والأنثى، وذلك لمسؤولية الذكر عن إنتاج النطفة في رحم المرأة، وكذلك مسؤولية المرأة عن استقبال النطفة واحتضان كافة مراحل تكوين الجنين، بالإضافة إلى أهم مرحلة وهي مرحلة اتخاذ القرار الإلهي في عملية إحياء الجنين من عدمه وفق مسألة الأعلمية عن الروح التي هي بأمر الله، وذلك وفق ما عبرت

عنه الآية مرتين في قوله تعالى أولاً: "مضغة مخلقة وغير مخلقة" وقوله تعالى ثانياً: "ونقر في الأرحام ما نشاء".

ثانياً: قوله تعالى: "إن كنتم في ريب من البعث".

إذا كان الريب لكل الناس وليس لواحد منهم، بل للمجموع لأنه قال "كنتم" في إشارة للناس جميعاً، أي "إن كنتم أيها الناس في ريب من البعث"، وأيضاً في إشارة إلى كثرة وتعدد الشك على لسان وفي تفكير كل الناس، وفي ذلك دليل على علو سقف التحدي الإلهي فيما سيطره لاحقاً من براهين مثبتة رداً على كل الريب وأي ريب في موضوع البعث قل أو كثر. قال الشوكاني: والمعنى: إن كنتم في شك من الإعادة فانظروا في مبدأ خلقكم، أي خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ويرتفع الشك وتدحض الشبهة الباطلة²⁷⁸. والتقدير "إن كنتم في ريب من البعث" فإننا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم، فإن القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزاً عن الإعادة²⁷⁹. وأورد الدلالة على صحة إثبات البعث مرة أخرى بعد الموت في قوله تعالى في سورة يس: "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (78) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (79)". وقوله تعالى: "فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة" {الإسراء: 51}. وأوضح الرازي: فكأنه سبحانه وتعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث، فتذكروا في خلقكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانياً²⁸⁰.

²⁷⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

²⁷⁹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج9، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص23.

²⁸⁰ المصدر السابق، ص9، 10.

ثالثاً: قوله تعالى: "فإننا خلقناكم من تراب".

قال البيضاوي يعني: بخلق آدم منه، أو الأغذية التي يتكون منها المنى²⁸¹، وقال الشوكاني: ضمن خلق أبيكم آدم²⁸²، وقال ابن كثير: هو الذي خلق منه آدم، أي التراب²⁸³، وكذلك قال القرطبي: أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر، يعني آدم (عليه السلام) "من تراب"²⁸⁴. على حين قال الرازي: إن خلقة الإنسان من المنى ودم الطمث، وهما إنما يتولدان من الأغذية، والأغذية إما حيوان أو نبات، وغذاء الحيوان ينتهي قطعاً للتسلسل إلى النبات، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء²⁸⁵. نقول: إن الإشارة إلى "البعث" الذي يكون في نهاية الحياة وقيام القيامة وربطه بالتراب الذي هو المادة الأصلية التي خلق منها الإنسان فيه دليل على مركزية حقيقة وصورة الإنسان بالمعيار الإلهي، وفي ذلك إشارة إلى طريقة وحقيقة وأصل المادة الأولى التي خلق منها. أي أنه لم يكن ثمة ما يدعو للغموض أو التستر على كيفية الخلق ومادته، بل هو إعلان إلهي صريح عن تلك الدورة الحياتية للإنسان منذ لحظة خلقه كما أشير إليها في بقية الآية، وفي ذلك دعوة إلى ضرورة التأمل في أصالة إنتاج الله لخلقه. إن السلسلة التي أوردها الرازي صحيحة لأن كل حركة الإنسان اليومية واللحظية وكل ما يفرزه الجسم وما

²⁸¹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

²⁸² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

²⁸³ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

²⁸⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة

والنشر، 2006)، ص313.

²⁸⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر

بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،

ص8.

يجعله حيويًا نشيطاً، بل وحتى الدورة الدموية، كلها تقوم على طبيعة النظام الغذائي الذي يتبعه الإنسان في يومه، ولأن غذاء الحيوانات يكون على النباتات أو ما تسلسل عنها، ولأن مصدر وبيئة النبات الأولى هي الأرض والتربة والماء، فإن الإنسان بالتالي يرجع أصل نشاطه وحيويته وحركته بل بقائه على قيد الحياة إلى المصدر الأساسي أو البيئة التي أنتجت فيها النباتات وهي تربة الأرض، والعنصر المساعد على النمو وهو الماء، وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}. أي أن مصدر الإحياء للنبات هو ذاته مصدر الإحياء للإنسان، وهو ذاته مصدر إحياء التربة عند تحوّلها من التراب إلى الطين ومن ثم إلى الصلصال. كما أن قوله تعالى: "فإننا خلقناكم من تراب" هي إجابة مباشرة وصريحة على قوله تعالى في بداية الآية: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث". والمقصود بالبعث هو بعث الإنسان ليوم الحساب عند الله. قال ابن منظور: معنى البعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإرسال كقوله تعالى: "ثم بعثنا من بعدهم موسى"، والبعث إثارة شيء بارك أو قاعد. والبعث أيضاً: الإحياء من الله للموتى. ومن أسمائه عزوجل: الباعث، وهو الذي يبعث الخلق أي يحييهم بعد موتهم يوم القيامة²⁸⁶. نقول: إذا كان البعث يتضمن معنى الإرسال والإثارة فإن الحركة مشمولة في المعنى، ولأنها كذلك فهي مشمولة في معنى البعث، فيصير البعث معناه الحركة وهو معنى يُضاف إلى سلسلة المعاني المجازية. نقول الحركة لأن التراب بفعل الماء والحركة يتحوّل إلى طين، ومن ثم يتحول إلى صلصال، ومنه تُنتج مادة الإنسان الأولى وتشكيله البدني. ومن الآيات التي ذكرت في موضوع البعث بعد الممات قوله تعالى: "ثم بعثناكم من بعد موتكم

²⁸⁶ محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م 1، ج 3، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص 307.

لعلكم تشكرون" {البقرة: 56}. وقوله تعالى: "ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت" {هود: 7}. وقوله تعالى: "فأماته الله مائة عام ثم بعثه" {البقرة: 259}. وقيل في معنى البعث: الإيقاظ والنهوض من العدم. وجاء في القرآن: "فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" {البقرة: 213}. بهذا المعنى في الآية الأخيرة يؤكد لنا أن البعث له معنى الأمر الإلهي في الحياة الدنيا مصحوباً بالصلاحية المطلقة غير المقيدة²⁸⁷.

رابعاً: قوله تعالى: "ثم من نطفة".

نقول: هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى "خلقناكم من تراب" وهذا دال على أن نطفة آدم (عليه السلام) هي مثل سائر بقية النطف لدى كل البشر؛ لأن نطفته نشأت بشكل طبيعي نتيجة طبيعة الطعام الذي تناوله آدم (عليه السلام)، فكانت نطفته ناتجة عن النظام الغذائي الذي اتبعه وبيئته هي من الأرض وأصله من التراب ونموه بواسطة الماء، أي أن الماء أصل وليس فرعاً في عملية الإحياء للنبات، وبالتالي أصل في إحياء الإنسان. قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: "ثم من نطفة" أي من مني، وسُمي نطفة لقلته، والنطفة: القليل من الماء، وقد يقع على الكثير منه. والنطفة: القطرة²⁸⁸، وقال ابن كثير: أي: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين"²⁸⁹. وقال الرازي: كأنه سبحانه يقول: "أنا الذي قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفاً"²⁹⁰. نقول: إن إشارة

²⁸⁷ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، م1، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص222.

²⁸⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

²⁸⁹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

²⁹⁰ الإمام محمد الرّازي فخر التّئين ابن العلامة ضياء التّئين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص9.

ابن كثير إلى السلالة وإشارة الرازي إلى أن الله قلب التراب اليابس إلى ماء لطيف كلاهما صحيح، لكن المعنى الأصح أو الأدق، هو أن الله جعل المني من صلب الرجل مكون من بيئة مادتين وهما التراب والماء، فكان التأسيس للمني هو النتيجة الحيوية البيولوجية التي نشأت عند اختلاط مادتي التربة والماء وقت خلق آدم (عليه السلام) وهذا أصل نشأة النوع الأدمي، أي أن الإنسان يحمل في جسده المني الذي هو أصل ناتج عن اختلاط التربة والماء في خلق الإنسان الأول، أي مني آدم (عليه السلام)، والمني هو النتيجة التي أدت إلى بقاء وتكاثر الجنس البشري، والمني هو مثل الوحدات البنائية الأخرى التي يتكون منها جسم الإنسان وأهمها الخلية التي يمكن أن ينتج عنها عملية التلقيح باعتبار أن الخلية أسبق من النطفة، بل إن خصية الرجل تحتوي في الأصل على عدد من أنواع الخلايا غير المنوية وهي (ايدغ، سيرتولي، النخاعي، والخلايا الظهارية). وتشبه النطفة ذات الست عشرة خلية "ثمرة التوت"، حيث تطفو "داخل الرحم" وتمتص السوائل وتتحول إلى شكل حويصلي بعد أربعة أيام من التلقيح²⁹¹. ويتم تكوين الإنسان من بويضة يبلغ قطرها جزءاً من 125 جزءاً من البوصة²⁹². إن عملية امتصاص النطفة للسوائل هي الصورة الطبيعية لامتصاص النباتات للمياه كي تنمو، وإن الماء هنا عامل مشترك لأنه في الأصل عامل أساسي في خلق آدم (عليه السلام) من التراب بعد تحوُّله إلى طين وصلصال. تطفو البذرة في تجويف الرحم لمدة يومين، ثم تستقر، ثم تبدأ "البذرة" في الفور والانبثاق في الرحم، ويانغراس "البذرة" وغورها في الرحم تلتهم الأوعية الدموية، وتحاط ببركة من دم الأم، وتستمر عملية الانغراس من "اليوم السادس إلى

²⁹¹ الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عبد العليم خضر، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر

والتوزيع، 1983)، ص9.

²⁹² تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليحي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة:

المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص95.

السادس عشر " 293. لقد شبه القرآن انغراس النطفة في الرحم بانغراس البذرة في التربة، وذلك في قوله تعالى: "نساءكم حرث لكم"، أي شبه وضع نطفة الرجل في رحم المرأة بغيرس البذرة في حفرة الأرض، فجعل رحم المرأة هو المكان المحفور الذي تغرس فيه البذرة، ثم يُرش عليها الماء كي تبدأ في النمو.

خامساً: قوله تعالى: "ثم من علقه".

أي بعد النطفة، "وبين مرحلة النطفة والعلقة، فترة زمنية، لهذا السبب يستخدم القرآن الكريم حرف العطف "ثم" الذي يفيد الترتيب والتراخي" 294. قال الشوكاني: العلقه: هي الدم الجامد، والعلق: الدم العبيط، أي: الطري أو المتجمد؛ وقيل: الشديد الحمرة والمراد: الدم الجامد المتكون من المنى 295. وكذلك قال البيضاوي: هي قطعة من الدم جامدة 296. وهو ما قاله القرطبي أيضاً 297. على حين قال ابن كثير: إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقه حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً 298.

293 الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عبد العليم خضر، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص9.

294 المصدر السابق، ص10.

295 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

296 ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

297 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص313.

298 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

سادساً: قوله تعالى: "ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة".

قال البيضاوي: المضغة قطعة من اللحم²⁹⁹. وقال تعالى في الآية 14 من سورة المؤمنون: "فخلقنا العلقة مضغة" والآية تقرر أن الله خلق من "العلقة" شكلاً كالمضغة، والجنين في الأيام من "22-24" يظهر في شكل "علقة" ويتحول ابتداء من اليوم 26 - 28 إلى مضغة (مخلقة وغير مخلقة" ويشبه الجنين في الأسبوع الرابع القطعة الممضوغة، بعضها تتبين أجزاءه "مخلقة" وبعضها لا تتبين أجزاءه "غير مخلقة"³⁰⁰. هذا يعني أن النفخ في الروح يكون للمضغة وهذا مؤكد، لكن غير المؤكد هو الزمن الذي ينفخ فيه الروح في المضغة. قال ابن كثير: فإذا مضى عليها أربعون يوماً، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عز وجل، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين³⁰¹. على حين قال القرطبي: هذه الأطوار -يقصد النطفة والعلقة والمضغة- أربعة أشهر. قال ابن عباس: وفي العشر بعد الأشهر الأربعة يُنفخ فيه الروح. فذلك عدة المتوفى عنها زوجها، أربعة أشهر وعشر³⁰². ولم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً، وذلك تمام أربعة أشهر ودخلوه في الخامس. وقيل: إنه الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر، وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر

²⁹⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

³⁰⁰ الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عبد العليم خضر، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص10.

³⁰¹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

³⁰² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص313.

حمل³⁰³. أما قوله تعالى: "مخلقة وغير مخلقة" يعني مسوّاة لا نقص فيها ولا عيب وغير مسوّاة، أو تامة وساقطة، أو مصوّرة وغير مصوّرة³⁰⁴. وقال الأكثر: ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام، وما سقط كان غير مخلقة، أي: غير حي بإكمال خلقة بالروح. قال الفراء: مخلقة تام الخلق، وغير مخلقة: السقط³⁰⁵. وقال الأعرابي: "المخلقة" قد بدأ خلقها، "وغير المخلقة" لم تصوّر بعد. وقال ابن زيد: "المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير المخلقة: التي لم يُخلق فيها شيء"³⁰⁶. وقال القفال: التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلوق لتتابع الخلق عليه، قالوا فما تم فهو المخلوق وما لم يتم فهو غير المخلوق، لأنه لم يتوارد عليه التخليقات³⁰⁷. في هذه المرحلة نستحضر قوله تعالى: "يخلفكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث" {الزمر: 6}. قال الشوكاني: هذه الظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهذا ما قاله مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك. قال سعيد بن جبیر: ظلمة المشيمة، وظلمة الرّحم، وظلمة الليل. وقال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرّحم³⁰⁸. وقيل: الظلمات

³⁰³ المصدر السابق، ص316.

³⁰⁴ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

³⁰⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

³⁰⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص317.

³⁰⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتبه بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص9.

³⁰⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1275.

الثلاث هي: غشاء السلي أو الأمنيون (Amnion)، وغشاء الكوريون (Chorion) أو الغشاء المشيمي، والغشاء الساقط (Decidua) ³⁰⁹.

سابعاً: قوله تعالى: "ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى".
قال الرازي: "نقر في الأرحام" ذلك دلالة على أن فيه ما لا يقره في الرحم وهو السقط ³¹⁰، أي الجنين الذي يسقط من الرحم لأسباب متعددة. وقال الشوكاني في تفسيره: هو وقت الولادة، وقال "ما نشاء" ولم يقل "من نشاء"؛ لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح ³¹¹. نقول: إن الجنين في بطن أمه يكون فيه روح بعد أربعة أشهر وعشرة أيام لأن المضغة تكون مخلقة، وإذا كانت مخلقة فذلك يعني أن فيها روح، بالتالي فإن استخدام "ما" وليس "من" في قوله تعالى: "ونقر في الأرحام ما نشاء" تعود إلى المضغة غير المخلقة في الأشهر الأربعة الأولى ولا يرجع إلى الحمل كله كما قال الشوكاني لأن الحمل ليس كله جماد بل أقل من النصف إذا كان الحمل موعده تسعة أشهر. ومع ذلك نقول: إن هذا يؤكد أن كل مرحلة هي خلق، فالتكوين للمضغة خلق، ونفخ الروح خلق آخر، وهذا يتسق مع رؤيتنا القائلة بتعدد أنواع الخلق ضمن خلق الإنسان، فلا يكون الإنسان خلقاً واحداً، بل عدة أنواع من الخلق، وذلك بسبب طبيعة التكوين الإنسي وتعدد مهام الأعضاء وأبرزها العقل، وهذا يتسق مع قوله تعالى: "هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم" {آل عمران: 6} . أما قوله تعالى: "إلى أجل مسمى" فذلك يعني الجنين

³⁰⁹ الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عبد العليم خضر، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص7.

³¹⁰ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص9.

³¹¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

في حالة نفخ الروح فيه بعد أربعة أشهر في بطن أمه، وكلمة "مسمى" تشير إلى قصر أو طول مدة الحمل، وهو بحسب البيضاوي: "أدناه بعد ستة أشهر وأقصاه أربع سنين" ³¹².

ثامناً: قوله تعالى: "ثم نخرجكم طفلاً".

قال الشوكاني: أي نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً، أي: أطفالاً، وإنما أفردته إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد. قال الزجاج: طفلاً في معنى أطفالاً، ودل عليه ذكر الجماعة يعني: في نخرجكم، والعرب كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة ³¹³، وقال البيضاوي: "طفلاً" حالاً أجريت على تأويل كل واحد ³¹⁴، نقول: إنه لم يحدد الجنس ذكراً أو أنثى، بل هو أشار إلى المرتبة التصنيفية وهو النوع، وذلك تمهيداً لنوع الإنسان العاقل. وكذلك أفرد "طفلاً" إرادة للنوع وليس للجنس. كما أن قوله تعالى: "نخرجكم" بصيغة الجمع هو إشارة للنوع "أي الإنسان العاقل" وفقاً للمرتبة التصنيفية. والنوع (Species) أعلى من الجنس (Genus) ومن الفصيلة (Family) ومن الرتبة (Order) ومن الطائفة (Class) ومن الشعبة (Phylum) ومن المملكة (Kingdom) ومن النطاق (Domain). لذلك قال ابن كثير: أي: نخرجكم ضعيفاً في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله ³¹⁵، هذا يعني أن الإنسان قد يولد غير معافى أو به علة في بدنه أو جنسه، ولكن ذلك لا يضر نوعه لأن الله هو الذي اختار نوعه كإنسان،

³¹² ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

³¹³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

³¹⁴ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

³¹⁵ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي النمشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

لكن هناك عوامل أخرى تتحكم في موضوع الاعتلال في البدن والجنس، وهذه مسألة بيولوجية كيميائية ولها علاقة بالنظام الغذائي، والعوامل البيئية والمرضية والوراثية، وهي ناتجة غالباً عن فساد الإنسان في الأرض.

تاسعاً: قوله تعالى: "ثم لتبلغوا أشدكم".

قال البيضاوي: أي: كمالكم في القوة والعقل³¹⁶. وقال ابن كثير: أي يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر.³¹⁷ على حين قال الشوكاني: هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له، كأنه قيل: نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا الأشد، وقيل: إن "ثم" زائدة، والتقدير: لتبلغوا؛ وقيل: إنه معطوف على نبيّن، والأشد هو كمال العقل وكمال القوة والتميز، قيل: وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين³¹⁸، في حين قال الرازي: "سهل في تربيتكم وأغذيتكم أموراً لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الأحوال التي بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الأشد³¹⁹، إن قول الرازي إن الله سهل في أغذيتكم أموراً لتبلغوا أشدكم هي وصف أقل مما منح الله للإنسان في حياته كي يبلغ أشده، لماذا نقول أقل؟ ليس لأنه لولا الغذاء لما بقي الإنسان، بل لأن الإنسان يعيش في الأرض ويعمر فيها من خلال ما تنتجه له المادة الأولى التي خلق منها، أي ما ينتجه التراب/الطين من الأرض. أي أن أصالة مادة خلق الإنسان هي من أصالة المادة الأولى

³¹⁶ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

³¹⁷ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي النمشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص396.

³¹⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

³¹⁹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص10.

وهي التراب الذي يجعله يحيا في الأرض، وذلك يعني أن كل تحوّل بين خلق وآخر أو مرور الإنسان في مراحل خلقه المتباينة يعتمد اعتماداً كلياً على ما تنتجه مادته الأولى التي خلق منها، وهذا يعني أن خلق الإنسان يعود إلى أصالة الطبيعة التي توجهه نحو البقاء، وهذا كله بأمر الله وبحكمته في بداية خلقه لأدم (عليه السلام).

عاشراً: قوله تعالى: "ومنكم من يتوفى".

قال البيضاوي: عند بلوغ الأشد أو قبله ³²⁰، وكذلك قال الشوكاني ³²¹. علي حين قال ابن كثير: أي في حال شبابه وقواه ³²². وقال الرازي: في حال قوته وكماله ³²³. نقول: إن الوفاة المقصودة هنا محدودة بين زمنين وهو بداية بلوغ الأشد وقبل الهرم. والوفاة التي ليس فيها تجاوز إلى مرحلة الهرم هي دليل على الاتساق التام بين بداية الخلق ونهايته. أي أن الإنسان كما تبدأ حياته من التراب/الطين، أيضاً تنتهي بانتهاء جودته الحيوية التي أنتجتها مادة التراب/الطين. فالإنسان يبدأ من الأرض ويعود إليها وفق ما تمنحه من إنتاج يؤثر بالضرورة على بنيته الجسمانية والعقلية بطريقة مباشرة وغير مباشرة، وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير {الروم: 54}. قيل: من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيناً وطفلاً مولوداً ورضيعاً ومفطوماً، فهذه أحوال

³²⁰ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

³²¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

³²² عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص396.

³²³ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص10.

غاية الضعف، وقوله تعالى: "ثم جعل من بعد ضعف قوة" إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله³²⁴.

أحد عشر: قوله تعالى: "ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً".

قال البيضاوي: "ومنكم من يرد إلى أرذل العمر" وهو الهرم والخرف³²⁵. على حين الشوكاني: أي: أخسه وأدونه³²⁶. ومثله تماماً قال القرطبي³²⁷. على حين قال ابن كثير: الشيخوخة وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر³²⁸. أما قوله تعالى: "لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً" أي ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم، فينسى ما عمله وينكر ما عرفه³²⁹. وهذا ما ذكره الرازي تماماً³³⁰. على حين قال الشوكاني: "أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها، لا علم له ولا

³²⁴ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص137.

³²⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

³²⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

³²⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص323.

³²⁸ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص396.

³²⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

³³⁰ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص10.

فهم" ³³¹. وفي ذات السياق قال تعالى: "ومن نعمره ننكسه في الخلق" {يس: 68}. قيل: إن طول العمر يصير الشباب هرمًا، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً، وهذا هو الغالب ³³².

اثني عشر: قوله تعالى: "وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج".

قال ابن كثير: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهي القحلة التي لا نبت فيها ولا شيء ³³³. وقال الشوكاني: هذه حجة أخرى على البعث، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات، والهامدة اليابسة التي لا تنبت شيئاً، قال ابن قتيبة: أي ميتة يابسة كالنار إذا أطفئت. وقيل: هي التي ذهب عنها الندى؛ وقيل: هالكة. وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدي: ميتة ³³⁴. وكذلك قال ابن جريج: يابسة لا تنبت شيئاً. وقال الهروي: "هامدة: أي: جافة ذات تراب. ويقال: همد شجر الأرض: إذا بلى وذهب. وهمودُ الأرض: ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود، ولم يصبها مطر ³³⁵. وقال الشوكاني: المراد بالماء: المطر، ومعنى اهتزت: تحركت، والاهتزاز شدة الحركة، يقال: هزرت الشيء فاهتز، أي: حركته فتحرك، والمعنى: تحركت

³³¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

³³² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص480.

³³³ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص398.

³³⁴ المصدر السابق، ص398.

³³⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص323، 324.

بالنبات، لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقية، فسامه اهتزازاً مجازاً³³⁶. وهذا ما قاله القرطبي³³⁷. ومعنى ربت: ارتفعت، وقيل انتفخت، والمعنى واحد وأصله الزيادة. وقوله "أنبئت" أي أخرجت. وقوله "من كل زوج بهيج" أي: من كل صنف حسن ولون مستحسن³³⁸. على حين قال الرازي: "من كل نوع من أنواع النبات"³³⁹. نقول: من كل شعبة وفقاً للمراتب التصنيفية، وليس من كل نوع، ولكنها تصح في هذا الموضع أن نقول من كل نوع كما ذكر الرازي لأن هناك إشارة تضمينية لعلاقة خلق الإنسان من المادة الأولى وهي التربة التي هي نفس بيئة إحياء النبات، فنقول أنبتت للنبات في مقام خلقت للنوع الأدمي أو للإنسان. يستحق أن نسأل هنا: لماذا ذكر الله الأرض كمثال في الآية مع ذكر تسلسل خلق الإنسان منذ لحظة خلقه من تراب، أي آدم (عليه السلام) وحتى وفاته وبعثه من جديد؟ بمعنى آخر هل للأرض علاقة بدورة خلق الإنسان؟

نقول: نعم، يصف الله الأرض قبل عملية إحيائها بأنها هامدة، وكأنه يقارن بين الأرض قبل إحيائها والإنسان قبل خلقه، أي عندما يكون عدماً، ولا شيء يذكر. ثم إن الله يشير إلى عملية إحياء الأرض من خلال الماء في قوله "أنزلنا عليها الماء"، والماء هنا بالنسبة للأرض هو بمثابة مادة الخلق للتربة، مثلما هي التربة/الطين مادة الخلق للإنسان. وإن قوله "اهتزت" هو بمثابة نفخ الروح في التربة، مثلما

³³⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

³³⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص324.

³³⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

³³⁹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص10.

ينفخ الله الروح في الإنسان عندما يكون مضغعة في رحم أمه. وقوله "وربت" أي تفاعلت. قال القرطبي في هذا السياق: لما وصف الأرض بالإنبات دل على أن قوله "اهتزت وربت" يرجع إلى الأرض لا إلى النبات³⁴⁰. نقول: على وجه الدقة إنه يرجع إلى التربة. بمعنى آخر، أراد الله أن يقول إن هذه أهم صورة من صور البعث، وهي التي اشتركت فيها الأرض، من خلال التربة/الطين في بداية خلق الإنسان، والآن في عملية إحيائه في حالة البعث، وذلك من خلال عنصر وحيد دخل على التربة وهو عنصر الماء في قوله تعالى "فإذا أنزلنا عليها الماء" أي على الأرض، وفيها التربة التي تتحول مع نزول الماء إلى طين ومن ثم إلى صلصال، وذلك مدعاة لإحياء النبات مثلما هو مدعاة لإعادة إحياء الخلق. وهناك آيات دالة على هذه العملية الإحيائية للإنسان من جديد والتي فيها تصوير طبيعي كتصوير إنتاج النبات من الأرض وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى من سورة نوح: "والله أنبتكم من الأرض نباتاً (17) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً (18)". كما سوف نشرحها بالتفصيل {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص478} وكذلك قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" {يس: 36} كما سوف نشرحها بالتفصيل {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص475} عموماً تشير كافة الآيات المذكورة إلى أن مادة التراب على وجه الخصوص ستبقى كما هي في لحظة البعث يوم القيامة لأن التراب هو العنصر الذي سوف يساعد على إعادة إحياء الإنسان من جديد.

الآية الثانية: قال تعالى: " هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً

³⁴⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص325.

ومنكم من يتوفى من قبل وتبلغوا أجلاً مُسمى ولعلمكم تعقلون" {غافر: 67}.

قال ابن كثير: أي: "هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها"³⁴¹، وقال الشوكاني في تفسير قوله "هو الذي خلقكم من تراب" أي: خلق أباكم الأول، وهو: آدم، وخلقه من تراب يستلزم خلق ذريته منه³⁴²، على حين قال الرازي: "المراد آدم، وعندي لا حاجة إليه لأن كل إنسان فهو مخلوق من المنى ومن دم الطمث، والمنى مخلوق من الدم، فالإنسان مخلوق من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحال في تكون ذلك الحيوان كالحال في تكون الإنسان، فالأغذية بأسرها منتهية إلى النبات والنبات إنما يكون من التراب والماء، فثبت أن كل إنسان فهو متكون من التراب، ثم إن ذلك التراب يصير نطفة ثم علقه ومراتب كثيرة إلى أن يفصل من بطن الأم"³⁴³. نقول: إن الرازي أحسن الفكرة لكنه لم يحسن ترتيب بعضها، فأدم (عليه السلام) مخلوق من التراب، أما الإنسان عموماً فهو مخلوق من النطفة. والحال في تكون الحيوان ليس كالحال في تكون الإنسان، لأن تكوّن الحيوان جسماني فقط لكن تكون الإنسان عقلي أولاً ثم جسماني؛ لأن غياب تكون العقل يعني غياب تكون الجسد، وهنا أتحدث عن المسؤولية بوصفها أولاً للعقل في الإنسان وهو من أهم مراكز الاستشعار في الإنسان. ثم إن التراب لا يصير نطفة ثم علقه كما ذكر الرازي، بل يصير التراب نطفة عبر اختلاطه

³⁴¹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص157.
³⁴² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1306.
³⁴³ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج27، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص86.

بالماء، وذلك لم يحدث إلا لآدم (عليه السلام)، أي أن مادة خلقه من التراب تمت بعد تحول التراب إلى طين ثم صلصال نتيجة اختلاطه بالماء، وبالتالي فإن كل نطف البشرية أصلها من آدم أولاً، وأصل الأصل من الماء ثانياً، ثم من التراب. كما أن اشتراك عنصر الماء في خلق آدم (عليه السلام) هو الذي يفسر لزوجة المني ووجود شبهه بينه وبين الماء لكن على شكل أكثر كثافة من الماء، وذلك لأسباب بيولوجية حيوية تفاعلية في جسد الإنسان تتعلق بالغذاء. وبذلك فإن كل مني يعود إلى آدم (عليه السلام)، وإن كل ما نسل من آدم هم ذريته، وإن ذرية كل البشر أصلها من نطفة آدم (عليه السلام)، وهذا ما يستوجب القول إن آدم (عليه السلام) كان معافى وسوي في بدنه وقلقه، وسليم الخلق والخلفة. وبالعودة إلى الآية فقد رتب الله فيها عمر الإنسان على ثلاث مراتب (أولها): كونه طفلاً، وثانيها: أن يبلغ أشده، وثالثها: الشيخوخة، وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل، وذلك لأن الإنسان في أول عمره يكون فيه التزايد والنشوء والنماء وهو المسمى بالطفولية (والمرتبة الثانية): أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف، وهذه المرتبة هي المراد من قوله (لتبلغوا أشدكم). (والمرتبة الثالثة): أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص، وهذه المرتبة هي المراد من قوله (ثم لتكونوا شيوخاً)³⁴⁴.

الآية الثالثة: قال تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}.
سوف نشرح هذه الآية في موضوع خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص504}.

³⁴⁴ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج27، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص86.

الآية الرابعة: قال تعالى: "قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً" {الكهف: 37}. قال الرازي في تفسير قوله "أكفرت" هذا يدل على أن الشاك في حصول البعث كافر³⁴⁵. وقال الشوكاني في تفسير قوله: "خلقك من تراب" أي: "جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه، وهو أصلك، وأصل البشر"³⁴⁶. وقال البيضاوي: "لأنه أصل مادتك أو مادة أصلك"³⁴⁷. وقوله تعالى: ثم من نطفة" فقد سبق شرح ذلك. أما قوله تعالى: "ثم سواك رجلاً"، أي: "جعلك معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء، ذكراً"³⁴⁸. نقول: إن "رجلاً" هي إشارة للجنس الذكر، بعدما تقدم ذكر التراب والنطفة وكلاهما لآدم (عليه السلام)، وهذا يدل على أن قوله "رجلاً" يعني من نسل آدم (عليه السلام).

الآية الخامسة: قال تعالى: "والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يُعمر من معمر ولا يُنقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير" {فاطر: 11}.

قال الشوكاني: أي خلقكم ابتداءً في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. وقال قتادة: يعني: آدم، والتقدير على هذا: خلق أباكم الأول، وأصلكم

³⁴⁵ المصدر السابق، ص127.

³⁴⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص860.

³⁴⁷ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص339.

³⁴⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص277.

الذي ترجعون إليه من تراب³⁴⁹. وقال ابن كثير: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين"³⁵⁰، أي أنه يشير إلى ما سيأتي بعد الخلق من تراب، وهو النطفة، ثم التزاوج، ثم الوضع، أي الإنجاب، ثم الكبر. "ثم من نطفة" أخرجها من ظهر آبائكم "ثم جعلكم أزواجاً" أي: "زوج بعضكم ببعض، فالذكر زوج الأنثى، أو جعلكم أصنافاً ذكراً وإناثاً"³⁵¹. قال القرطبي: "فيتزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله"³⁵². "وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه"، أي: لا يكون حمل، ولا وضع إلا والله عالم به، فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره "وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب"، أي: ما يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب: أي: في اللوح المحفوظ³⁵³.

الآية السادسة: قال تعالى: "ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" {الروم: 20}.

نقول: إن هذه الآية سبقها وتلاها آيات تشير إلى مجمل صنائع الله بصفته خالقاً وذلك في خلقه للإنسان، ففي الآية السابقة قال: "يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون (19)". وقال في الآيات التالية: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في

³⁴⁹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1207.

³⁵⁰ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص538.

³⁵¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1207.

³⁵² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص360.

³⁵³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1207.

ذلك لآيات لقوم يتفكرون (21) ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (22)".

سوف نلاحظ أن الله كرر كلمة "آياته" عدة مرات في الآيات السابقة، وهو ما يدل على أن موضوع خلق الإنسان ليس فيه آية واحدة، وإنما عدة آيات، وهو إشارة إلى تعدد القدرات والعظمة الإلهية، فالآية الواحدة تعبر عن أصالة كل خلق، وكل مرحلة في الخلق، وقوله تعالى: "ومن آياته" يعني خبره وهي واحدة من خصوصية قدراته وأفعاله التي لا يشاركه فيها أحد ولا يستطيع القيام بها أحد. قال القرطبي: "من آياته" أي: من علامات ربوبيته ووحدانيته أن خلقكم من تراب" ³⁵⁴. وقال ابن كثير: "أي دالة على عظمته، وكمال قدرته" ³⁵⁵. أما قوله تعالى: "خلقكم من تراب" فقال الشوكاني: أي: "خلق أباكم آدم من تراب، وخلقكم في ضمن خلقه، لأن الفرع مستمد من الأصل، ومأخوذ منه" ³⁵⁶. أما الرازي فقال أي خلق آدم من تراب وخلقنا منه، ولكن الرازي يسأل كيف قال "خلقكم من تراب"؟ ويجيب من وجهين: (أحدهما) ما قيل إن المراد من قوله (خلقكم) أنه خلق أصلكم (والثاني) أن نقول: إن كل بشر مخلوق من التراب، أما آدم فظاهر، وأما نحن فلأننا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذي هو بالقوة بعض من الأعضاء، والغذاء إما من لحوم الحيوانات والبانها وأسمانها، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات، لكن النبات من التراب، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة إلا بالتراب وينضم إليها أجزاء مائية ليصير

³⁵⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص411.

³⁵⁵ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص308.

³⁵⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1130.

ذلك النبات بحيث يغذو" ³⁵⁷. أما قوله تعالى: "ثم إذا أنتم بشر تنتشرون"، يعني ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قوام معاشكم، فلم يكن ليخلقكم عبثاً، ومن قدرَ على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح ³⁵⁸. قال الشوكاني: "إذا" هي الفجائية: أي: ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض، وإذا الفجائية، وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت ههنا بعد "ثم" بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان كما حكاه الله في مواضع: من كونه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظماً مكسواً لحماً فاجأ البشرية، والانتشار، ومعنى تنتشرون: تتصرفون فيما هو قوام معاشكم ³⁵⁹. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وغندر، قالوا: حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى قال: قال رسول الله: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك". ورواه أبو داود والترمذي من طرق، عن عوف الأعرابي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح ³⁶⁰. نقول: إن الله عندما تحدث عن الخلق من التراب، فهو أشار ضمناً إلى كمال قدرته على خلق النوع وتمييزه وهو في حال الآية "الإنسان العاقل" لأنه قال في الآية "أنتم بشر" في وصفه لهذا النوع وانتشاره، أي البشر، وهو النوع الوحيد الذي لم يفنى من

³⁵⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص109، 110.

³⁵⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السّنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج16، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص412.

³⁵⁹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1130.

³⁶⁰ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص309.

جنس البشريانيات. وأما قوله تعالى: "ثم إذا" فإن "ثم" حرف عطف يقتضي تأخر ما بعده عما قبله إما تأخيراً بالذات أو بالمرتبة أو بالوضع³⁶¹. نقول: في حال الآية فإنه تأخير بالمرتبة التي تشير إلى النوع. كما أننا سوف نلاحظ أن هناك كلمات مشتقة من حرف العطف "ثم" مثل كلمة "ثمامة" يقال ثمامة شجر إذا قمت برعايتها، مثل قولك شجرت³⁶². إذا كان الأمر هكذا، فإن الأصل اللغوي لحرف "ثم" مرتبط بشكل وثيق بالكلمات التي تشير إلى أشياء في الطبيعة ومنها رعاية النبات، وبالتالي فهو حرف مرتبط بما ذُكر عن استمرارية الخلق في مرحلته الثانية بعد التكوين الأول من التراب، فيعود حرف "ثم" على قوله تعالى: "أنتم بشر". وبالتالي لما قال تعالى "ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" فذلك يعني "إذا كان أصلكم الأول عند خلقكم -آدم وحده- يعود إلى مادة الخلق الأولى وهي التراب، فإن أصلكم الثاني -البشر- بعد إتمام خلقكم يعود إلى الطبيعة أو تفاعلكم مع الطبيعة، باعتبار أن انتشاركم جاء كنتيجة تفاعل، والتفاعل هنا له خصوصية تتعلق بتناول الإنسان غذاءه من نباتات الأرض، وهذا التناول أو التغذية من نباتات الأرض تمت الإشارة إليه في حرف العطف "ثم" وما بعده، أي "إذا" كأنها تعبير عن بداية سلسلة الكفاح الإنساني من أجل البقاء. من الآيات التي وردت في القرآن مشابهة للخلق من تراب ثم الانتشار كبشر في الأرض قوله تعالى في سورة السجدة: "وبدأ خلق الإنسان من طين (7) ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين (8)".

ثانياً: كلمة "تراباً"

³⁶¹ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج 1، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص 105.

³⁶² المصدر السابق، ص 105.

الآية الأولى: قال تعالى: "وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً
أنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في
أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" {الرعد: 5}.

قيل: المعنى: أي: إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع
إقرارهم بأنني خالق السماوات والأرض والثمار المختلفة من الأرض
الواحدة؛ فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء
363. وقال الزجاج: "أي هذا موضوع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث،
وقد بين لهم من خلق السماوات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل
في القدرة" 364. يقول الله لرسوله محمد، "وإن تعجب" من تكذيب
هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه
ودلالاته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به
من أنه ابتداء خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم
بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً، وقد اعترفوا
وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: "أنذا كنا
تراباً أننا لفي خلق جديد"، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات
والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق، فالإعادة سهلة عليه
365. نقول: إن قوله تعالى: "إذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد" هو حال
الكفار وهم يتعجبون من البعث، أي بعد أن تصبح أجسادهم تراباً. كما
أن إنكارهم للخلق الجديد عند البعث أو يوم القيامة، هو بمثابة إنكار

363 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه
من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة
والنشر، 2006)، ص14.

364 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية
من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص721.

365 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي النمشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق
سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص432.

للخلق الأول. يقول الشوكاني: العامل في "إذا" هو البعث أو الإعادة للحياة، والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد" ³⁶⁶.

الآية الثانية: قال تعالى: "أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون" {المؤمنون: 35}.

قال القرطبي: أي: "مبعوثون من قبوركم. والمعنى: أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم. وذهب الفراء والجزمي وأبو العباس المبرد إلى أن "أن" في قوله "أنكم" الثانية مكررة للتوكيد. و "أن" الثانية في موضع رفع بفعل مضمر، كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يحدث القتال" ³⁶⁷. نقول: إن قوله تعالى في الآية: "إذا متم" هو تقدير بأن الموت حق وهو واقع لا محالة لقوله تعالى: "كل من عليها فان" {الرحمن: 26} وقوله تعالى أيضاً: "كل نفس ذائقة الموت" {الأنبياء: 35} {آل عمران: 135}. أما قوله تعالى في الآية: "وكنتم تراباً وعظاماً" هو توكيد بأن الإنسان يصبح تراباً وعظاماً بعد موته، فأما التراب؛ لأنه المادة الأصل التي خلق منها آدم (عليه السلام)، حيث يتحلل جسد الإنسان وتتحلل معه جميع العناصر الكيميائية المكونة لجسمه بعد موته، وهي نفسها العناصر الكيميائية التي تكون موجودة في التراب كنتيجة طبيعية لمكونات التراب الذي يتكون من مجموعة متنوعة من الأملاح، ومن العناصر الكيميائية المشتركة الموجودة في جسد الإنسان والتراب معاً، مثل الأكسجين، والهيدروجين، والحديد، والكربون، والفسفور، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، علماً بأن نسب العناصر الكيميائية في جسد الإنسان الطبيعي السليم ثابتة أو تكون نسبية لدى الإنسان المعتل. أما العناصر الكيميائية في التراب

³⁶⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص721.

³⁶⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأبي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص39.

فهي مختلفة حسب نوع وطبيعة التربة. كما نقول: إن قوله تعالى: "كنتم تراباً" يشتمل على عملية تحوّل جسد الإنسان إلى تراب، وذلك لا يتم بشكل سريع، بل عبر عملية تحلل يبدأ من خلالها جسد الإنسان بفقدان السوائل، حيث تخرج من جسده تماماً كما كانت السوائل هي أول ما ساعد على خلق آدم (عليه السلام) بسبب نزول ماء المطر على التربة وإحياءها لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبيا: 30} بالتالي يرجع كل إنسان إلى مادته التي خلق منها آدم (عليه السلام) كأول الخلق. أما العظام، فهي الجهاز الهيكلي الوحيد الصلب في الكائنات الحية. ويتكون الجهاز الهيكلي من مجموعة من العظام التي تتكون من عناصر كيميائية، مثل الكالسيوم والفسفور وجزيئات الماء. علماً بأن عناصر الكالسيوم والفسفور هي عبارة عن أملاح صلبة تحتاج إلى مدة طويلة كي تتحلل من العظام وتستقر في التربة، ونلاحظ أن أملاح الكالسيوم والفسفور أيضاً موجودة في التربة، فعند تحللها من الإنسان تعود إلى موطنها الأصلي، وهذا يؤكد على أن الإنسان خلق من التراب، وعند موته يعود إلى التراب، ومنها عظامه. أما جزيء الماء، الذي يكون موجوداً في العظام، فهو يتكون من ذرتي الهيدروجين وذرة أكسجين، وهو يتحلل من العظام إلى ذراته الأصلية في التربة، علماً بأن هاتين الذرتين وهما الهيدروجين والأكسجين عنصران موجودان في التربة. بالتالي فإن الله عندما يجمع عظام الإنسان أو يحيي عظامه وهي رميم بعد موته، يكون ذلك من خلال الماء الذي يستعيد الخلية الأولى التي خلق منها كل إنسان، وهذا ما عبّر عنه القرآن في آيتين دالتين على قدرة الله على إحياء العظام وجمعها كما يلي:

- قوله تعالى في سورة القيامة: "أيحسب الإنسان أن نجمع عظامه (3) بلى قادرين على أن نسوي بنانه (4)".

- وقوله تعالى: "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم (78) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (79)".

قال الشوكاني في تفسير قوله "وكنتم تراباً وعظاماً": أي: كان بعض أجزاءكم تراباً، وبعضها عظاماً نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها. وقوله تعالى: "أنكم مخرجون" أي: "من قبوركم أحياء كما كنتم"³⁶⁸. وقال البيضاوي: "أنكم مخرجون" مبتدأ خبره الظرف المقدم، أو فاعل للفعل المقدر جواباً للشرط والجملة خبر الأول³⁶⁹. نقول: إن الإخراج هنا فيه فاعلية والفعل فيه خلق، أي أن الإخراج هنا يعني الخلق الآخر، أو الخلق بعد الموت، أو الإحياء أو البعث، وكله جائز. قال البيضاوي: "المُرَاد بالإخراج الإخراج من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة"³⁷⁰. المهم أن الإخراج جاء فيه آيات أخرى في وصف نمو النبات، وذلك في قوله تعالى: "الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون" {البقرة: 22}. قال البيضاوي: قوله "وأنزل" عطف على "جَعَلَ"، وخروج الثمار بقدرة الله تعالى ومشينته، ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنظفة للحيوان. كما أنه أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار³⁷¹. نقول: إن "الجعل للأرض" هو خلق لها، ودليل ورود كلمة "الإخراج" مع النبات يدل على الإحياء للأرض والنبات وكذلك لأدم (عليه السلام)، وهو إشارة إلى اشتراك الكائنين الإنسي والنباتي في نفس مادة وجذر عملية

³⁶⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج18، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص983.

³⁶⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج18، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص469.

³⁷⁰ المصدر السابق، ص573.

³⁷¹ المصدر السابق، ص62.

الإحياء وهي التراب والماء. وعموماً، تعتبر هذه القصة هي قصة هود (عليه السلام) في قوله ابن عباس رضي الله عنهما، واحتج المفسرون بقوله تعالى: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة" {الأعراف: 69} وقد جاءت قصة هود عقيب قصة نوح في سورة الأعراف وفي سورة هود والشعراء³⁷².

الآية الثالثة: قال تعالى: "قالوا إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون" {المؤمنون: 82}.

نقول: إن هذه الآية مشابهة للآية السابقة وهما من نفس السورة مع اختلاف في صيغة الخطاب كقوله "متم" و "متنا" والمفردات كقوله في الآية السابقة "مخرجون" في إشارة إلى البعث أو الإحياء من جديد بعد الممات، وقوله في هذه الآية "لمبعوثون" وهما يحملان نفس الدلالة في الإشارة إلى الإحياء بعد الموت لكن مع اختلاف طفيف في المعنى من ناحية أن الإخراج يكون لإفهام طريقة التكوين عند البعث ومادته أي من الأرض والتراب، وأما البعث فيكون أعم وأشمل، أي للعملية كلها. بالتالي تفيد الآية أنه عند موت البشر ودفنهم في التراب وتحلل أجسادهم وانحلال عظامهم من لحومهم أنهم مبعوثون من قبورهم أحياء كخلق جديد يشبه هينتهم قبل الممات. لقد شرحنا موضوع العظام في الآية السابقة {المؤمنون: 35}.

الآية الرابعة: قال تعالى: "وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وآبأؤنا أننا لمخرجون" {النمل: 67}.

³⁷² الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص98.

قال القرطبي: "الذين كفروا" يعني مشركي مكة³⁷³. نقول: إنهم هم الذين أنكروا البعث. يقول تعالى مخبراً عنهم: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظماً ورفاتاً وتراباً³⁷⁴، قال الشوكاني: "إنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث"³⁷⁵. قال الرازي: "اعلم أنه سبحانه لما تكلم في حال المبدأ تكلم بعده في حال المعاد، وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة، أو في كمال العلم. فإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات، وعالمًا بكل المعلومات، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها. وإذا ثبت إمكان ذلك، ثبت صحة القول بالحشر"³⁷⁶، نقول: إن المفسرين لم يأتوا على أسباب ذكر الآباء في الآية لقوله تعالى: "أإذا كنا تراباً وأبوانا" فلماذا قال أبوانا؟ قيلت في إشارة إلى آبائهم الذين سبقوهم إلى الموت، والذين أصبحوا تراباً وهذا في حد ذاته اعترافاً من المشركين بأن آباءهم أصبحوا تراباً، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن هذا يعني عدم إنكارهم للموت، وإن عدم إنكار الموت يعني الاعتراف ضمناً بتفوق قدرة الخالق على الخلق وما فيه من إحياء وإماتة. ونقول: إن قوله "أبوانا" فيها إشارة إلى الذرية السابقة، وقد تشمل آباءهم على معنى القريب والبعيد، أي الآباء الحقيقيون للمشركين في صلة قرابتهم، والآباء التشريفيون. لقد تعدد ذكر الآباء

³⁷³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص200.

³⁷⁴ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص132.

³⁷⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج20، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1087.

³⁷⁶ الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،

ص213.

في القرآن، فوردت بصيغة الآباء وكذلك بصيغة "الآباء الأولون" أو "الآباء الأقدمون" أو "الأولين والآخرين". فقوله تعالى في القرآن "أبيه" أو "أبويه" أو "أبواه" هي للآباء المباشرين، وهم بالنسبة للأبناء تربطهم بهم علاقة بيولوجية أبوية تتضمن مسؤوليات قانونية واجتماعية. من جانب آخر، انظر هذه الآية لقوله تعالى: "أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون" {الأعراف: 173}. نلاحظ في هذه الآية إشارة إلى الآباء بدون ذكر كلمة "الأولون أو الأقدمون"، لكن هناك إشارة إلى الذرية، ما يعني أن الآباء هنا تتعلق بالتسلسل البيولوجي، وقد سبق أن شرحنا هذه الآية. {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص389} على حين قال في سورة الواقعة: "قل إن الأولين والآخرين (49) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم (50)". قال القرطبي: "الأولين" من آبائكم "والآخرين" منكم "المجموعون إلى ميقات يوم معلوم" يريد يوم القيامة. ومعنى الكلام القسم، ودخول اللام في قوله تعالى: "المجموعون" هو دليل القسم في المعنى، أي: إنكم لمجموعون قسماً حقاً³⁷⁷. سوف نذكر الآيات التي ورد فيها "الآباء الأولين" وبالتحديد تلك التي لها صلة بموضوع الخلق أو البعث، والتي عادة ما تكون مسبوقة أو متبوعة بآيات تتناول مسألة الخلق أو البعث. تكررت الآباء الأولين مرات كثيرة في القرآن لقوله تعالى: "لا إله إلا هو يحيي الأولين مرات كثيرة في القرآن لقوله تعالى: "لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين" {الدخان: 8}. وقوله تعالى في سورة الواقعة: "وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون (47) أو أبائنا الأولون (48) قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم (49)". ونفس الآية تكررت في سورة الصافات لقوله تعالى: "إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا

³⁷⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج20، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص203.

لمبعوثون (16) أو أبأونا الأولون (17)". كما ورد الخطاب على لسان قوم نوح (عليه السلام) في قوله تعالى: "فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين" {المؤمنون: 42}. نلاحظ في الآية ذكر كلمة "بشر" فيها إشارة للنوع الإنسي، والتي لها علاقة في وصف الذرية من الآباء الأولين. قيل: إن بعث آبائهم الأولين أبعده؛ لتقدم موتهم³⁷⁸. يعني إذا كنا تراباً بعد موتنا والآباء حالهم فوق حال العظام الرفات فكيف يمكن البعث؟ نقول: إن الله تعالى أجابهم ورد عليهم في الجواب في كل مبالغة أخرى فقال تعالى: "قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم" {الواقعة: 49} فقوله "قل" إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور، وذلك أن في الرسالة أسرار لا تقال إلا للأبرار³⁷⁹. نقول: إن كلمة "أبأونا" في كل الآيات تشير إلى النسل، وكلمة "الأولون" تشير إلى كل الذرية منذ خلق آدم (عليه السلام). أما قوله "لمخرجون" فقد سبق شرح معنى الإخراج وعلاقته بالإحياء في سورة {فصلت: 39}. {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص101}.

الآية الخامسة: قال تعالى: "أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون" {الصفافات: 16}.

هذه الآية مماثلة للآية {المؤمنون: 82} التي سبق شرحها في هذا الفصل. قال الشوكاني: "الاستفهام في الآية للإنكار، أي: أنبعث إذا

³⁷⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1447.

³⁷⁹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص173.

متنا" 380. وكذلك قال القرطبي وزاد عليه: "هو سخرية منهم تجاه مسألة البعث" 381.

الآية السادسة: قال تعالى: "أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون" {الصفات: 53}.

وهذه الآية أيضاً مماثلة للآية السابقة من نفس السورة {الصفات: 16} وكذلك للآية {المؤمنون: 82} مع استثناء وحيد وهو قوله تعالى في نهاية الآية "لمدينون". قال القرطبي: "أي مجزيون محاسبون بعد الموت" 382. وكذلك قال مجاهد والسدي: لمحاسبون. وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا 383. وقال الشوكاني: "محاسبون بها بعد أن صرنا تراباً، وعظاماً، وقيل: معنى مدينون: مسوسون، يقال دانه: إذا ساسه" 384. كما أن هذه الآية تُفهم في سياق فهم الآيات التي قبلها، أي قوله تعالى: "قال قائل منهم إني كان لي قرين"، قال مجاهد: يعني شيطاناً. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا 385. وقال سعيد بن جبير: "قرينه شريكه، وقيل: أراد بالقرين الشيطان الذي

380 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج 23، ط 4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص 1236.

381 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج 18، ط 1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص 21.

382 المصدر السابق، ص 37.

383 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج 7، ط 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص 15.

384 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج 23، ط 4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص 1241.

385 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج 7، ط 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص 15.

يقارنه، وأنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث" ³⁸⁶. وكذلك قوله تعالى: "يقول أئنك لمن المصدقين" أي: أئنك تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد ³⁸⁷.

الآية السابعة: قال تعالى: "إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد" {ق: 3}.

نلاحظ أن جملة "إذا متنا وكنا تراباً" تكررت ثلاث مرّات في الآيات السابقة وهي {المؤمنون: 82} و {الصافات: 16} و {الصافات: 53}، وسوف تتكرر في سورة {الواقعة: 47} التالية، وهي تحمل نفس المعنى. أما قوله تعالى: "رجع بعيد" في نهاية الآية فقال البيضاوي: "أي بعيد عن الوهم أو العادة أو الإيمان. وقيل: الرجوع بمعنى المرجوع" ³⁸⁸. وقال الشوكاني: أي: بعيد عن العقول، أو الأفهام، أو العادة، أو الإيمان" ³⁸⁹. أما ابن كثير فقال: "أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه" ³⁹⁰. على حين قال الرازي: يحتمل أن يكون المراد الرجوع المتعدي، ويدل على ذلك قوله تعالى: "إن إلى ربك الرجعي" {العلق: 8}. وقوله تعالى:

³⁸⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، 23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1241.

³⁸⁷ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص15.

³⁸⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج26، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص312.

³⁸⁹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج26، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1397.

³⁹⁰ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

"يقولون أننا لمردودون في الحافرة" {النازعات: 10} ³⁹¹. من المهم أن نذكر الآية التي تليها في نفس السورة لما لها من صلة بالآية محل الشرح، وهي قوله تعالى: "قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ (4)". قال الشوكاني: أي: ما تأكل من أجسادهم، فلا يضل عنا شيء من ذلك، ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث، ولا يستبعد منه، وقال السدي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم، ومن يبقى؛ لأن من مات دفن، فكأن الأرض تنقص من الأموات ³⁹². وقال ابن كثير: أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، ونعلم ذلك، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ³⁹³، إن ذكر كلمة الأرض في قوله تعالى: "ما تنقص الأرض منهم" هو في الحقيقة إشارة إلى التراب، أي "ما ينقصه التراب من جسد الإنسان"، وهو تثبيت لحقيقة فاعلية التراب في خلق الإنسان وتحلل جسده بعد الموت. وإن الإجابة الإلهية على اعتقادهم بعدم تحقق البعث أو إنكارهم له في قولهم "رجع بعيد" كانت إجابة دالة على عظمة القدرة وذلك في قوله تعالى: "قد علمنا ما تنقص الأرض"؛ لأن ذكر كلمة "علمنا" فيه إشارة إلى العلم الإلهي الذي لا يضاويه علم أخروي، وهو علم الخلق من تراب والتكوين والإنشاء وحتى تحلل الجثث وبعثها من جديد. كما أن قوله تعالى: "منهم" هو رد على استخدامهم صيغة الجمع في قولهم "متنا وكنا" وهو توكيد على أن البعث أو إحياء الخلق من التراب يكون للنوع البشري قاطبة تماماً على عكس بداية

³⁹¹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 28، ط 1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص 152.

³⁹² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج 26، ط 4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص 1397.

³⁹³ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي النمشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج 7، ط 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص 395.

الخلق التي كانت من تراب لآدم (عليه السلام) وحده. كما أن هذه آية من آيات الله الدالة على مطلق قدرته وعظمته وقوته التي تظهر يوم القيامة أو يوم الحساب الذي كان ينكره الكفار والمشركين منذ خلق آدم (عليه السلام)، أي أن الله يؤكد لهم ويؤكد بعثهم من خلال إحياء كل البشر من التراب وليس آدم (عليه السلام) فحسب، وذلك يعبر عن منتهى القوة وكمال القدرة البالغة. وهنا نسأل، كيف ولماذا يكون الخلق من تراب لكل البشر عند البعث؟ نقول: في الإجابة على سؤال "كيف" أن الله أجاب على ذلك في الآية بقوله "وعندنا كتاب حفيظ". قال القرطبي: أي: بعدتهم وأسمائهم، فهو فعيل بمعنى فاعل. وقيل: الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبتُ عليك هذا، أي: حفظته. وقيل: أي: وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بني آدم³⁹⁴. نقول: إن "الكتاب الحفيظ" يشتمل على ما تم حفظه في السماء، أي في اللوح المحفوظ، وعلى ما تم حفظه في الأرض بين الناس عن كل إنسان، أي الشهادات الدنيوية التي يُعتد بها في الآخرة لقوله تعالى: "لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" {البقرة: 143}، وأخيراً على ما تم حفظه في التراب، أي من تحللت كامل أعضائهم وعظامهم، ومن بقيت رفاتهم كالعظام، ومن المعروف أن الجماجم تقدم تاريخاً عن أصول وحيات وصفات البشر، فإذا كان علماء الآثار والطب الشرعي لديهم معارف وخبرات في تقدير معلومات وصفات البشر من خلال الجماجم فما هي حجم معرفتهم بالنسبة إلى الله، خالق هذه الجماجم؟ كما أن العظام تعتبر أصل في فهم علم البشر أو الإنسان، وعلم الأدلة الجنائية، وكذلك علم الآثار، أي أن لها دلالة تاريخية سابقة ولاحقة في الاستدلال على طبائع وصفات وخواص البشر، وطالما أن للعظام خواص للاستدلالات التاريخية، فذلك يندرج تحت قوله تعالى:

³⁹⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص429.

"وعندنا كتاب حفيظ" {ق: 4}، أي أنه إشارة دقيقة للسجل التاريخي المحفوظ عن الإنسان بكافة الطرق. إن العظام لها دور بارز في علم الوراثة من خلال منح صيغ لتتبع معلومات جينية مستخلصة من شظايا الأحماض النووية في قدماء البشر. "بإمكاننا أن نتتبع تاريخنا داخل جيناتنا، عن طريق الحمض النووي (DNA). وإن سجل ماضيها هذا لا يقبع في صخور العالم، وإنما يقبع في كل خلية داخل أجسادنا"³⁹⁵، هناك ما يُسميه عالم الحفريات والأحياء التطوري نيل شوبين الخلطة recipe وهي مسجلة في حمضنا النووي، الذي يبني أجسادنا من بويضة واحدة. عندما يقوم حيوان منوي بتلقيح بويضة، لا تحتوي تلك البويضة على يد صغيرة مثلاً. بل تبني تلك اليد وفقاً لمعلومات موجودة في تلك الخلية الوحيدة. إن هذا يقودنا إلى مشكلة حتمية. لقد قارنا عظام أيدينا بعظام زعنفة سمكة. ماذا سيحصل لو قمنا بمقارنة الخلطة الجينية، التي تبني أيدينا بتلك التي تبني زعنفة السمكة؟³⁹⁶ للتجارب على الحمض النووي قدرات هائلة على كشف الأسماك فينا³⁹⁷. يطرح عالم الحفريات والأحياء التطوري نيل شوبين تجارب الاختبار كنوع من استكشاف الحيز بين ما هو بشري أو حيواني فقاري، ونقصد الكائنات الحية المائية، أي الأسماك التي تنقسم إلى فئات عظمية ومخاطية وعضروفية وغير ذلك. هنا لا بد من الانتباه إلى الثابت والمتغير في كل ما يخص الأحماض النووية والتغيرات التي يمكن أن تطرأ عليها من خلال إضافة كيماويات على تلك الأحماض. نقصد بالثابت، وجود حمض نووي طبيعي في جسد الإنسان وآخر طبيعي في جسد الكائنات الحية الأخرى، وهذه

³⁹⁵ نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1،

(أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص44.

³⁹⁶ المصدر السابق، ص68.

³⁹⁷ المصدر السابق، ص68.

الأحماض الطبيعية تعتبر أحماضاً أصيلة وغير قابلة للابتكار. أما إجراء تغييرات عليها فهذا يجعلها متغيرة، والمتغير يعتبر صناعياً، وكل صناعي لا يتعلق بالوجود، وهو قابل للفناء بسرعة أكثر من الثوابت الخلقية. فكل حمض مركب الهوية الجينية هو حمض مؤقت، وكل حمض بسيط الهوية الجينية هو حمض مستمر، ولا نقول إنه دائم لأن الديمومة في الخلق والفناء البشري مسألة إلهية أنطولوجية. إن جسمنا مكون من مئات الأنواع المختلفة من الخلايا. وهذا التنوع الخليوي يعطي لأنسجتنا وأعضائنا أشكالها ووظائفها المميزة لها. وكما يبدو فإن الخلايا، التي تكون عظامنا، وأعصابنا، وأمعاننا وما إلى ذلك لها أشكال وسلوكيات متباينة تماماً. وعلى الرغم من هذه الاختلافات، فإن هناك تشابهاً عميقاً بين جميع الخلايا داخل أجسامنا التي تحتوي جميعاً الحمض النووي ذاته. وإذا كان الحمض النووي يحتوي على المعلومات اللازمة؛ لبناء أجسامنا، وأنسجتنا، وأعضائنا، فكيف يكون لخلايا متباينة كخلايا العضلات، والأعصاب، والعظام أن تحتوي على الحمض النووي ذاته؟ إن الإجابة تكمن في معرفتنا أي أجزاء الحمض النووي (الجينات) تعمل في كل خلية. إن خلية الجلد مثلاً، تختلف عن الخلية العصبية؛ لأن هناك جينات مختلفة نشطة في كل منهما. عندما ينشط جين ما، فهو يقوم بصنع بروتين يمكن أن يؤثر على شكل الخلية وكيفية سلوكها؛ لذلك فإن فهم ما يجعل الخلية في العين تختلف عن الخلية في عظام اليد يتطلب معرفة المزيد عن الآلية، التي تتحكم بنشاط الجينات في كل خلية ونسيج. تساعد هذه الآليات الجينية على تصنيعنا. عند الإخصاب نبدأ كخلية مفردة تحتوي على جميع الحمض النووي الضروري لبناء أجسامنا. ويكون مخطط بناء الجسم كله موجوداً ضمن هذه الخلية المجهرية. وللانقال من هذه الخلية العامة إلى إنسان كامل، يحتوي جسده على تريليونات الخلايا المتخصصة المنظمة بالشكل الصحيح تماماً، يجب تنشيط مجموعات كاملة من الجينات، وتشبيطها في المراحل المختلفة من تطورنا. جسمنا

عبارة عن تكوين من الجينات المنفردة، التي تعمل وتتوقف عن العمل داخل كل خلية خلال التطور. عندما نقارن مجموعة الجينات النشطة في تطور زعفة سمكة ما، بتلك النشطة في تطور يد الإنسان، يمكننا أن نضع تصوراً للاختلافات الجينية بين الزعانف والأطراف. وهذا النوع من المقارنة يعطينا آليات الجينات، التي تغيرت خلال نشأة الأطراف. ويمكننا دراسة ما تفعله هذه الجينات على الجنين، من خلال القيام بتجارب عبر التلاعب بالجينات؛ ليرى كيف تغيرت أجسامنا فعلاً كاستجابة لظروف أو مثبرات معينة³⁹⁸.

الآية الثامنة: قال تعالى: "وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون" {الواقع: 47}.

نلاحظ أن جملة "أإذا متنا وكنا تراباً أإنا لمبعوثون" تكررت مرتين في الآيات السابقة وهي {المؤمنون: 82} و {الصافات: 16} وهي تحمل نفس المعنى.

ثالثاً: كلمة "الترائب"

قوله تعالى في سورة الطارق: "فلينظر الإنسان مم خلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من بين الصلب والترائب (7)". قال ابن كثير: ترائب المرأة: صدرها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مسعر: سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس: قال: هذه الترائب ووضع يده على صدره. وقال الضحاك وعطية، عن ابن عباس: تريبة المرأة موضع القلادة. وكذا قال عكرمة، وسعيد ابن جبير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الترائب: بين ثدييها. وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر. وعنه أيضاً:

³⁹⁸ نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص69، 70، 71.

الترائب أسفل من التراقي. وقال سفيان الثوري: فوق الثديين. وعن سعيد بن جبير: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل. وعن الضحاك: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين. وقال الليث بن سعد عن معمر بن أبي حبيبة المدني، قال: هو عصارة القلب، من هناك يكون الولد. وعن قتادة: يخرج من بين صلبه ونحره³⁹⁹. إذ افترضنا أن الترائب يعني الصدر أو موضعه كما جاء في غالبية التفسير، فلماذا ذكر كلمة "ترائب" دون غيرها من المفردات في إشارة إلى صدر المرأة، وقد كان بإمكانه أن يشير إلى هذا الموضع بكلمة "صدر"؟ نقول: إن ترائب هي من الأصل اللغوي "ترب" وهو الأصل اللغوي الذي اشتقت منه كلمة تراب وتربة⁴⁰⁰. ولأن هناك ارتباط وثيق لغوياً فأيضاً هنا ارتباط وثيق في المعنى. نعتبر ذلك إشارة إلى منبع الحليب في صدر المرأة باعتباره المكان الذي يفرز الحليب بمكونات غذائية غير موجودة في أي حليب مصنع، فالثدي يعتبر مصدر خلقي رباني لصناعة هذا الغذاء بدون تدخل بشري. كما أن صدر المرأة مسؤول عن إفراز هرمونات الأمومة والعاطفة، والحليب يتكون من النظام الغذائي الذي تتناوله المرأة، والغذاء الذي تتناوله المرأة أصله من النبات أو الحيوان، والحيوان يتغذى على النبات، والنبات أصل تكوينه من التراب والماء. فيكون ذلك تعبيراً عن أن الطفل ينشأ من ماءين تكوّن نتيجة نظام غذائي، فالماء الأول هو لحظة جماع الرجل مع المرأة، والسائل الثاني هو الذي يتحوّل إلى حليب في صدر المرأة بفعل النظام الغذائي، وهكذا فإن الذرية تنشأ ويعود أصل تكوينها لما ينتج من التراب والطبيعة، وبالتحديد للنباتات أو بالمجمل للنظام الغذائي النباتي والحيواني. ونلاحظ هنا أنه عندما تكون نسبة

399 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص375.

400 محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويغى الإفريقي،

لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م1، ج5، (القاهرة: دار

المعارف، 1998)، ص423.

هرمون الحليب أعلى من 20 ٪ في المرأة فهذا يعيق حدوث الحمل والإخصاب عند المرأة، فارتفاع هرمون الحليب يعطي لجسم المرأة مؤثر على انخفاض الهرمونات الجنسية فيعيق حدوث عملية الإخصاب، لكن عندما تكون نسبة هرمون الحليب منخفضة، أو في النسبة المعتدلة أو النسبة الطبيعية، وهي 20 ٪ أو أقل فيكون الجسم طبيعي وقادر على إنجاز عملية الإخصاب والحمل؛ لأن نسبة الهرمونات الجنسية تكون ممتازة. ونقول إنه يوجد هرمونين في رحم المرأة وهما البروجيستيرون والأستروجين وهما المسؤولان عن آلية عمل المبايض من حيث إطلاق البويضة الشهرية وتهينة جدار الرحم لحدوث عملية الحمل، وإعادة الرحم إلى وضعه الطبيعي بعد انتهاء الدورة الشهرية أو خروج الجنين في مرحلة الولادة. ثمة علاقة بين إفراز هرمون الحليب في صدر المرأة مع آلية عمل هرموني البروجيستيرون والأستروجين في رحم المرأة، فإذا كانت نسبة هرمون الحليب نسبة طبيعية، يعمل هرموني البروجيستيرون والأستروجين بشكل طبيعي. أما إذا حدث خلل في نسبة هرمون الحليب الطبيعية فهذا يؤدي إلى حدوث خلل في آلية عمل الهرمونات، فتعيق نزول الدورة الشهرية في موعدها وتعيق حدوث عملية الإخصاب.

الآيات التي ورد فيها كلمات "طيناً - طين - الطين"

الطين والطان: هو الوحل المعروف، وقد يُسمى طيناً بعد زوال مائيته، طين لازب، أي لزق صلب، والطينة: الخلفة والجبلية. طانة الله يطينه طيناً على كذا: جبله عليه. والذي ورد منه في القرآن هو الطين مُعرفاً ومُنكراً لا غير⁴⁰¹ فيما يلي:

⁴⁰¹ معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج4، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص163.

ورد في القرآن ثلاث كلمات من الاشتقاق اللغوي (ط ي ن)، وهي (طيناً – طين – الطين). سأقوم بذكر وشرح كل الآيات التي ذكرت فيها هذا الكلمات في مواضعها في القرآن.

أولاً: كلمة (طيناً)

دلالة رفض سجود إبليس لآدم عليه السلام

الآية الأولى: قال تعالى: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً" {الإسراء: 61}.

قال الرازي: إنه تعالى حكى في هذه الآية عن إبليس نوعاً واحداً من العمل ونوعين من القول، أما العمل فهو أنه لم يسجد لآدم وهو المراد من قوله "فسجدوا إلا إبليس"، وأما النوعان من القول؟ (فالنوع الأول): قوله تعالى: "أسجد لمن خلقت طيناً" وهذا استفهام بمعنى الإنكار معناه أن أصلي أشرف من أصله فوجب أن أكون أنا أشرف منه، والأشرف يقبح في العقول أمره بخدمة الأدنى. (والنوع الثاني من كلامه) قوله تعالى في الآية التالية: "أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ" ⁴⁰² وقال البيضاوي: لمن خلقت من طين فنصب بنزع الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول، أي خلقت وهو طين، أو منه، أي أسجد له وأصله طين. وفيه على الوجوه الثلاثة إيحاءً بعلّة الإنكار ⁴⁰³. نقول: هذه الآية مرتبطة بما بعدها، وهو قوله تعالى: "قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلاً" {الإسراء: 62} أما كيفية الارتباط بين الآيتين فهو يتعلق

⁴⁰² الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص4.

⁴⁰³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص309.

بالتكريم في نوع ومادة الخلق، لأنه ربط نوع ومادة الخلق -وهي الطين- بالإشارة إلى التكريم، أي تكريم الإنسان بخلقه من طين على إبليس الذي خلق من مارج من نار. إن الطلب الإلهي من إبليس السجود لأدم (عليه السلام) حدث بعد خلق آدم (عليه السلام)، وهذا يدل على أن إبليس والملائكة خُلقت قبل آدم (عليه السلام)، وأن موضوع السجود هو في غاية الأهمية لتشريع الصلاة، وهذا ما ذكر في قوله تعالى: "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (11)". وقد حكى إبليس في الآية التالية عن التفضيل بينه وبين آدم (عليه السلام) بلغة الجواب لما طلب الله منه السجود لأدم (عليه السلام) فقال كما ورد في الآية: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" {الأعراف: 12}. إن السجود أربعة أنواع وهي سجود السهو، والتلاوة، والشكر⁴⁰⁴، فإذا أراد الله للملائكة أن تسجد لأدم (عليه السلام)، فهو بذلك أراد أن يوضع النور -وهو مادة خلق الملائكة- على موضع التراب -وهو مادة خلق الإنسان- وقد كان ذلك ممكناً لأن الملائكة سجدت لأدم (عليه السلام) وهو سجود شكر وتشريف، وليس أي نوع آخر من أنواع السجود المذكورة، ولما كان إبليس رافضاً للسجود لأدم (عليه السلام)، فإنه بذلك أعلن تعنته ورفضه أن توضع النار -وهي مادة خلق إبليس- على موضع التراب -وهي مادة خلق آدم (عليه السلام)، بالإضافة إلى الماء- لأن هاتين المادتين ستطفئان نار إبليس، وهذا ما يفسر أهمية استخدام الوضوء للصلاة باعتبارها أحد المواد الكيميائية التي تطفئ نار إبليس، وكذلك أهمية السجود في الصلاة ذاتها لدى المسلمين، أي أن الإنسان الذي يسجد لله يكون خالياً من إبليس أو تحدث لإبليس عنده عملية انطفاء

⁴⁰⁴ أبو حامد الغزالي، الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي، ج1، (مطبعة الآداب والمؤيد،

نتيجة قيام جسده المتكون من التراب والماء بالسجود على الأرض التي هي تراب وفيها ماء. وعموماً إن أي نوع من أنواع السجود المرتبط بالعبادة هو حتماً خالي من إبليس أو هكذا يجب أن يكون، لأن السجود هو الفعل أو الأداء أو الحركة الوحيدة التي تعتبر على تقاطع تام مع إبليس، وبالتالي في تقاطع مع مادة خلقه -وهي النار-، ولأن مادة خلق إبليس فيها تقاطع مع الإرادة والفكرة الإلهية الأولى والأخيرة عن خلق آدم (عليه السلام) والمادة التي خلق منها. كما سنلاحظ أن بعض الكائنات والأجسام والأجرام السماوية تسجد لله وهما النجم والشجر لقوله تعالى: "والنجم والشجر يسجدان" {الرحمن: 6}. قيل: النجم ههنا فيه وجهان (أحدهما): النبات الذي لا ساق له (والثاني): نجم السماء والأول أظهر⁴⁰⁵. نقول: إننا نخالف قول الرازي، فالنجم ليس هو النبات الذي لا ساق له؛ لأن كلمة "الشجر" في الآية تدل على أصلها، وأصل الشجر من النبات القديم الذي نشأ عن الكائنات وحيدة الخلية كالأوليات والطحالب والفطريات بعد خلق الكون، بالتالي فإن الشجر تعتبر فرعاً من الأصل وهي تحمل كل معاني النبات باعتبار أن النبات كائن حي واحد له تفصيلاته السابقة وهي البذرة وما دونها وكذلك الشجر وأنواعه، مثلما هو الحيوان كائن حي واحد له تفصيلاته والأصل الذي نشأ عنه وهو الزواحف وتأكيد ذلك قوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {النور: 45}، وكذلك الإنسان واحد وله ذرية من ألوان وأشكال وشعوب وقبائل مختلفة لقوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عن الله أتقاكم إن الله عليم خبير" {الحجرات: 13}. نقول: إن معنى النجم في

⁴⁰⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص90.

هذه الآية يجوز أن يطلق على نوع من الوحي، وهو من الملائكة، والملائكة سجدت لآدم (عليه السلام) لقوله تعالى: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فجدوا" {البقرة: 34}، وزيادة على ذلك فقد ذكرت كلمة النجم في أول سورة النجم لقوله تعالى: "والنجم إذا هوى (1)"، والنجم هنا هو الوحي انطلاقاً من فهمنا لسورة النجم. لقد شرحنا معنى النجم شرحاً مستفيضاً في كتاب الجلي النقي في معرفة الوحي. {انظر الشرح في الفصل الخامس تحت عنوان "وصف قرآني لعملية نزول الوحي" سورة النجم النموذج الأمثل"، ص286}. ملخص ما ذكرته في الكتاب أن سورة النجم بدأت بالقسم في قوله تعالى: "والنجم"، لكن المقصود ليس النجم الذي في السماء، بل هو الوحي، إذ يمكن أن يقسم الله بما هو أقوى من النجم في الكون الذي أنشأه. إن المقصود بالنجم هو الوحي، وقد أقسم الله به؛ لأنه الموكل بأمر إلهي لنقل الرسالة السماوية، وكان الله أراد القسم بواحد من رسله، بالتالي هو قسم بكلامه الذي هو قائله وهو القرآن. وعموماً اختلف العلماء في تفسير النجم، لكننا قلنا إنه الوحي. أما هذه الآية من سورة الرحمن فهي تؤكد أن المذكور هو الوحي أيضاً؛ لأن السجود لا يمكن أن يقوم به النجم الساطع في السماء الذي هو حار، ويحتوي على عنصري الهيدروجين والهيليوم. بمعنى آخر، لا يمكن أن توضع مادة خلق النجوم على موضع التراب، وهي مادة خلق آدم (عليه السلام)، لكن يمكن أن توضع مادة خلق الملائكة، (وهي النور- والوحي يعتبر ملاكاً) على مادة خلق آدم (وهي التراب/الطين). وعموماً سنلاحظ أن أحد العناصر المكونة للنجوم وهو الهيدروجين موجود في الوقود الأحفوري والكتلة الحيوية والماء، والماء سابق على وجود الوقود الأحفوري والكتلة الحيوية. كما أن الهيدروجين هو أكبر نسبة في مكونات النجوم والشمس والماء، وإن وجود الماء سابق على وجود الشمس والنجوم والكون. بالتالي فإن الماء سابق على كل ما ذكر، ولذلك يُعتقد أن الهيدروجين وأكسجين الماء هما العنصران الأساسيان

في نشأة الكون. يوجد رمز جزيء الماء H_2O في حالات المادة الثلاثة الحالة السائلة، والحالة الصلبة، والحالة الغازية، فعند تسخين الماء يتبخر ويتحول من الحالة السائلة إلى الحالة الغازية وعند ارتفاعه على سطح بارد يتكاثف ليعود مرة أخرى للحالة السائلة. وعند تبريد الماء يتحول إلى الحالة الصلبة على شكل ثلج أو جليد وعند تسخينه سرعان ما يذوب ويعود للحالة السائلة الأصلية، بالتالي فإن رمز جزيء الأكسجين O_2 دائماً في الحالة الغازية، بينما رمز جزيء الهيدروجين H_2 دائماً في الحالة الغازية. يعتبر الهيدروجين أصغر ذرة في الذرات كلها، وإن العدد الكتلي للهيدروجين (1)، والعدد الذري للهيدروجين (1)، وتحتوي نواة ذرة الهيدروجين على بروتون واحد يحمل شحنة كهربائية موجبة، وتمتلك الذرة إلكترون واحد فقط شحنته الكهربائية سالبة. كما أنه لا توجد ذرة الهيدروجين بشكل منفرد، بل توجد على شكل جزيء الهيدروجين H_2 ، (يعني ذرة هيدروجين مرتبطة مع ذرة هيدروجين أخرى برابطة تشاركية أحادية) حيث إن ذرة الهيدروجين تفقد إلكترونها الوحيد لتكون أيون شحنته موجبة وتعتبر ذرة لا فلزية (لا توصل التيار الكهربائي)، ويوجد دائماً جزيء الهيدروجين في الحالة الغازية H_2 . عند اتحاد هيدروجين الغاز مع اتحاد جزيء الأكسجين في الحالة الغازية ينتج عنه جزيء الماء في الحالة السائلة الذي يتصف بصفة الجريان والسيولة، وهذا بشكل عام في الطبيعة، ولكن لا يمكن إتمام هذا التفاعل الكيميائي في المختبر، لأنه ينتج عنه طائلة هائلة تدميرية. عند تمرير الماء المتكوّن من اتحاد الذرتين عبر دولاب متحرك أو توربين سريان الماء ينتج عنه طاقة حركة، والتي يمكن تحويلها إلى الطاقة الكهربائية، وهكذا نحصل على الكهرباء من صفة جريان الماء. نقول: في القرآن آية دالة على علاقة السجود بالشيطان المخلوق من النار - والنار في موضع الآية هي الشمس- لقوله تعالى: "وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن

السبيل فهم لا يهتدون" {النمل: 24}. قيل: يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه، وقيل: كانوا مجوساً، وقيل: زنادقة⁴⁰⁶. يخالف الشوكاني في قوله إنهم "متجاوزين عبادة الله سبحانه"، لأن كلامه يفيد بأن الشمس أبعد من الله، وهي ليست كذلك، بل هي من صنع الله، وكذلك السماوات والأرض وكل ما في الفضاء الخارجي الذي لا نهاية له، هو من صنعه، ولا يجوز القول إنهم عبدوا ما هو أقل من الله في البعد الزمني والمكاني، لأن الله ليس أكثر، فالكثرة معدودة، والله ليس معدوداً. بالتالي وجب القول إنهم عبدوا أدنى شيء من صنع الله، فكانت عبادتهم باطلة. قال الرازي: الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه، وكل ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات⁴⁰⁷، كما نقول هم كفار عموماً وهذا وصفهم في القرآن بصرف النظر عن هويتهم الإثنية، فالقرآن لم يقدم الهوية العرقية على الدين، فكان النظر إلى عبادتهم للشمس من دون الله بفعل الشيطان الذي زين لهم أعمالهم بحسب ما أخبر به الهدد لسليمان (عليه السلام). وقال تعالى: "ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون" {فصلت: 37}. قال الشوكاني: "الشمس والقمر"؛ لأنها مخلوقان من مخلوقات الله، فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته⁴⁰⁸، وقال الرازي: "لا تسجدوا للشمس ولا للقمر" يعني أنهما عبدان دليلان على وجود الإله، والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم فهي لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات، فقال "لا تسجدوا للشمس ولا للقمر" لأنها عبدان مخلوقان "واسجدوا

⁴⁰⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج19، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1077.
⁴⁰⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص192.

⁴⁰⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1317.

الله" الخالق القادر الحكيم، والضمير في قوله "خلقهن" لليل والنهار والقمر؛ لأن حكم جماعة ما لا يعقل وحكم الأنثى أو الإناث، يقال للأقلام بريتها وبريتهن، ولما قال "ومن آياته" كن في معنى الإناث فقال "خلقهن" وإنما قال "إن كنتم إياه تعبدون"؛ لأن ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فهوا عن هذه الوسطة وأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق الأشياء، فإن قيل إذا كان لا بد في الصلاة من قبلة معينة، فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أولى، قلنا الشمس جوهر مشرق عظيم الرفة عالي الدرجة، فلو أذن الشرع في جعلها قبلة في الصلوات، فعند اعتياد السجود إلى جانب الشمس ربما غلب على الأوهام أن ذلك السجود للشمس لا لله، فلأجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود، بخلاف الحجر المعين فإنه ليس فيه ما يوهم الإلهية، فكان المقصود من القبلة حاصلاً والمحذور المذكور زائلاً فكان هذا أولى، واعلم أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن موضع السجود هو قوله "تعبدون" لأجل قوله تعالى "واسجدوا لله" متصل به، وعند أبي حنيفة هو قوله "وهم لا يسأمون" لأن الكلام إنما يتم عنده⁴⁰⁹. هذه المسألة تأخذنا إلى شرح علاقة مكونات الشمس، ومكونات التربة ومكونات الماء، وأي هذه المكونات توجد أكثر في جسم الإنسان، أو كيف تصير المكونات صاعدة وهابطة في جسم الإنسان، وذلك بهدف الاستدلال على علاقته بالشمس والتربة والماء. نقول: إن الشمس تتكون من عنصري الهيدروجين والهيليوم، ويمثلان 74.9% للهيدروجين و 23.8% للهيليوم من كتلة الشمس في الغلاف الضوئي بشكل تقريبي

⁴⁰⁹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج27، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص129، 130.

410. على حين تتكون التربة من خمس مكونات أساسية، وهذه المكونات كلها خارجية، أي أنها ليست من أصل التربة وتكوينها، بل هي داخلة عليها، وهي التي تحدث فيها المتغيرات، وهي: المادة العضوية، والكائنات الحية، الحبيبات المعدنية، وماء التربة، وهواء التربة. في حين أن الماء يتكون من الصيغة الكيميائية لجزيء الماء هو H_2O ، ويتكون هذا الجزيء من اتحاد أو تفاعل غاز الهيدروجين مع غاز الأكسجين. وإذا أقررنا بأن صنع النار من قبل الإنسان أو القيام بعملية الاحتراق على وجه الأرض هو ممكن، لكن تصنيع الماء من قبل الإنسان هو محال على وجه الأرض ولن يحدث كما شرحنا ذلك سابقاً {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص198} إن ذلك يعني أن الماء كان هو الأصل في مسألتين: أولاً: عملية وجود الكون، وثانياً: إحياء الخلق من خلال استعداد التربة لتقبل دخول عنصر الماء عليها لبدء عملية الإحياء للخلق، وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: *أولم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي {الأنبياء: 30}*. لقد سبق أن شرحنا هذه الآية {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص131} لكننا نقول: إن خصوصية الآية تتعلق بأمرين، أولاً: عملية فتق السماء والأرض، وثانياً: وجود الماء نتيجة عملية "فتق الرتق" وليس قبلها. أما قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" فنحن نشير هنا إلى الجعل باعتباره خلق، ما يعني أن "السماء والأرض والإنسان" لهم اتصال دائم بوجود الماء باعتباره أصل فيهما، وإن سبب وجود الماء مرتبط بالقدرة الإلهية على إيجاد الكون من العدم. بهذه الطريقة نستطيع أن نرى بوضوح السلسلة المتكاملة بين علاقة إبليس مع آدم (عليه السلام) في رفضه السجود له، وعلاقة السجود بالتراب والماء، ومن ثم علاقة الكون كله بانفجار الماء مع لحظة تكون الكرة الأرضية التي خُلق فيها آدم (عليه

السلام)، وعلاقة الخلق بإحيائه من التراب والماء، أي نفس المواد التي بدأ بها تكوّن الكون.

دلالة رفض إبليس أن توضع النار على موضع التراب

بالإضافة إلى ما سبق، نسأل ما هي دلالة رفض إبليس أن توضع النار -وهي مادة خلق إبليس- على موضع التراب -وهي مادة خلق آدم، بالإضافة إلى الماء-؟ بمعنى آخر، هل احتكاك المواد التي خلق منها -آدم والملائكة وإبليس- لها علاقة ببدء ونهاية الخلق؟

نقول: نعم، هي دائرة متكاملة متصلة بين الخلق وبين الشريعة التي أقرها الله تعالى، وقد قلنا إن مادتي التراب والماء يطفئان نار إبليس، ولكن هناك مسألتين أخريين:

المسألة الأولى: واحدة من أسباب تكريم آدم (عليه السلام) التي اعترف بها إبليس في قوله: "هذا الذي كَرَّمْت" في إشارته لآدم (عليه السلام) هو أنه خلق من طين وليس من نار؟ كيف ذلك؟ نقول: إن هذا الاعتراف من إبليس هو بمثابة نفي لوجود أو تضمين النار في عملية خلق آدم (عليه السلام). وبالتالي يستوجب القول إن تفاعل الماء مع الطين بعد تحوّلها إلى الصلصال الفخار في عملية خلق آدم (عليه السلام)، كان نتيجة دخول عامل الحرارة -النتيجة عن الحركة والاحتكاك والتفاعلات الكيميائية- بين مادتي الماء والتراب على جسد آدم (عليه السلام)، وليس النار مباشرة، ما يعني أن جسد آدم (عليه السلام) يتكون من مواد طبيعية تفاعلت كيميائياً مع بعضها عند خلقه. وعندما نشير إلى التفاعل فنحن نقصد أن ذلك يشمل الحركة والقوة والطاقة، وهو ذاته التفاعل الذي يحدث عند عملية الجماع بين الذكر والأنثى.

والمسألة الثانية: أن لسان حال إبليس في قوله تعالى: "لئن أخرجتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلاً"، فيه تر بص من إبليس وتهديد

وإعلان صريح عن الرغبة في الإفساد، والاستيلاء، والاحتواء، والاضلال، والاستئصال، والاعواء، وقيادة آدم (عليه السلام) وذريته إلى الهلاك، إقليلاً منهم وهم المعصومين⁴¹¹ أو الذين لا يقدر إبليس أن يقاوم شكيمتهم⁴¹². كما سبق وشرحنا معنى "قليلاً منهم" في سورة {الإسراء: 62}. {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص414} ذلك يعني أن آدم (عليه السلام) لم يكن محصناً من إبليس منذ لحظة خلقه؛ لأنه رفض السجود لآدم (عليه السلام)، وما يزال غير محصن منه في حياته، ولن يكون محصناً منه حتى يوم القيامة، وأي شيء لم يفعله إبليس سابقاً سيفعله لاحقاً لأنه عبر عن ذلك بقوله: "لأقعدن لهم على صراطك المستقيم" {الأعراف: 16}. وهذا يعني أن ذلك يشمل ذرية آدم (عليه السلام)، لأن قوله: "لأقعدن" هو إشارة إلى التربص لذرية آدم (عليه السلام)، أي كافة الخلق البشري.

احتراق الشياطين داخل نوع من أنواع بني آدم

السؤال الآخر: هل يحترق الإنسان إذا كان الشيطان داخله باعتبار أنه مخلوق من نار؟

نقول: الأصل أن الشياطين لا تسكن في جسد وعقل البشر الذين تجتمع فيهم صفات النبوة والعلم والإيمان والخلق والزهد والطهارة والصدق وغيرها من الصفات التي رسختها الشريعة الإسلامية، فالشياطين تحترق قبل الوصول إليهم فوراً وقبل زمن بعيد في الأرض وفي السماء وفي جنات الفردوس الأعلى. بالتالي فإن الأنبياء والعلماء والفقهاء والأتقياء والصادقين والزاهدين والعابدين، جميعهم لا

⁴¹¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص117.

⁴¹² ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص309.

يشعرون بنيران الشياطين. ونقول: إن هناك أنواع وأحجام من الشياطين وكلها مخلوقة من نار وليس في ذلك أي استثناء لأي إبليس أو شيطان من الإنس والجن، ولذلك فأنا ضد أي قول يمكن أن يرجح بأن الشياطين ليست مخلوقة من نار بحجة أنها لو خلقت من نار وكانت داخل الإنسان لاحترق الإنسان. نقول: إن الشيطان نار، ومخلوق من نار، وأي إنسان يشعر بحرارة الشيطان في الجسد أو العقل، أو الجسد والعقل معاً، وهذه الشياطين غالباً ما تسكن داخل الأرواح التي تتبع الشهوات الغذائية والذين لديهم انسجام تام مع أهوائهم، ولديهم شغف في اتباع المعاصي والإفساد في الأرض. هؤلاء الأشخاص تسكن الشياطين جوارحهم، وتتملكهم حتى تصبح شخصياتهم وهوياتهم شيطانية وتنتهي حياتهم على هذا الشكل الشيطاني، فيموت الواحد فيهم وطبعه من نار وفي داخله نار، فتحرقه طباعه وأهوائه، ولذلك قيل في القرآن: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً" {مريم: 59}. قال ابن زيد في معنى الغي: شراً أو ضلالاً أو خيبة أو هلاكاً وضلالاً في جهنم. والغني: وادٍ في جهنم أبعدا قعراً، وأشدّها حرّاً، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبت جهنم، فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بها جهنم⁴¹³. وقال الرازي: يقولون جزاء الغي، كقوله تعالى: "يلق آثاماً" أي مجازاة الآثام⁴¹⁴. نقول: إن الزيادة في الغي هو زيادة في الشيطنة الناتجة عن اتباع أهوائهم. بالتالي كلما زادت هذه الصفات السابقة غير الأخلاقية في الإنسان سوف تزيد حرارته وتتولد في روحه رغبة بالانتقام فتزداد حرارته ونيرانه أكثر وأكثر فيحرق نفسه،

⁴¹³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص477.

⁴¹⁴ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص263.

وتُحرق روحه التي لم يعمل على تهذيبها وتربيتها. وعموماً الدليل القرآني يفيد بأن النبي يمكن أن يكون له عدو من شياطين الإنس والجن، وهذا دليل على أن الشياطين يمكن أن تكون من نوع الإنس أو الجن وذلك في قوله تعالى: "وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون" {الأنعام: 112}. وملاحظة لغوية تتعلق بالنطقيات (الفونولوجيا) نقول إن "الغي" لها كلمة مشابهة من ناحية صوتية في اللغة الإنجليزية وهي (gay) ومعناها المثلية الجنسية أو الشذوذ، ومن ناحية التحليل اللساني فإن هذه الكلمة دليل على أقدمية وأصالة اللغة القرآنية في توصيف الشذوذ وعقاب الشاذين، وهو واد في جهنم، وهذا دليل على أن الثقافات غير الإسلامية التي فيها مجتمعات شاذة فهمت وأدركت من ناحية لغوية وقرآنية وأخلاقية كيف تعامل القرآن مع الشواذ تاريخياً وبالتحديد قوم النبي لوط الذي قلب الله قريتهم ورفعها عالياً وجعل عاليها سافلها. وهذا دليل على أن اللغة العربية أقدم من اللغة الإنجليزية ومن اللغات الجرمانية لأنها منحدرة من اللغة النبطية حيث أن أقدم نقش عربي، المُسمى (النمارة) مكتوب بالحروف النبطية، وهو كما يقول زكريا محمد: "يعرض لنا لمحة عن كيف كانت اللغة العربية قبل نزول القرآن بحوالي 300 سنة تقريباً {انظر الشرح في كتابي الجلي النقي في معرفة الوحي، الفصل الثاني، ص67}.

ثانياً: كلمة (طين)

الآية الأولى: قال تعالى: " هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون" {الأنعام: 2}.
 نقول: هذه الآية مرتبطة بما ذكر في الآية التي قبلها، والتي جاء فيها إشارة إلى "خلق السماوات والأرض" و "الظلمات والنور" فإذا

كان هذا الأمر ابتدائي في عظمة الخالق ودال على قدرته، فإن الأمر الثانوي أو المتفرع منه هو خلق الإنسان وعملية بعثه من جديد كان كذلك أكثر عظمة وقدرة، وهو ما تم ذكره في هذه الآية محل الشرح. قال الرازي: إن الله تعالى لما استدل بخلقه السماوات والأرض وتعاقب الظلمات والنور على وجود الصانع الحكيم أتبعه بالاستدلال بخلقه الإنسان، على إثبات هذا المطلوب فقال (هو الذي خلقكم من طين) والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم، وآدم كان مخلوقاً من طين. فهذا السبب قال تعالى: "هو الذي خلقكم من طين" وعندي فيه وجه آخر، وهو أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولدان من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من الطين⁴¹⁵.

الآية الثانية: قال تعالى: "قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" {الأعراف: 12}.

هذه الآية مرتبطة بما قبلها وهو قوله تعالى: "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (11)". نقول: إن قوله تعالى: "خلقناكم" ثم "صورناكم" مرتبط بالسجود وبمادة الخلق الذي خلق منها إبليس -وهي النار- ومادة الخلق الذي خلق منها آدم -وهي الطين- وقوله تعالى "خلقناكم" هي لآدم (عليه السلام) وذريته، وقوله تعالى "ثم صورناكم" يقصد به النوع الثالث من الخلق وهو الإنشاء/التصوير، ويقصد به التصوير في الأرحام لذرية آدم (عليه السلام). قال الشوكاني: "خلقناكم" يعني: آدم وقد ذكر بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر، وقوله تعالى: "ثم صورناكم"

⁴¹⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج12، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص161.

راجع إليه، ويدل عليه: "ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصوّر آدم (عليه السلام) ⁴¹⁶. على حين قال الرازي: "ولقد خلقناكم" أي خلقنا أبانكم آدم وصورناكم، أي صوّرنا آدم "ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" وهو قول الحسن ويوسف النحوي وهو المختار. يكون المراد من قوله تعالى: "خلقناكم" آدم "ثم صورناكم" أي صورنا نرية آدم (عليه السلام) في ظهره، وهذا قول مجاهد. وقيل: "صورناكم" إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلى قيام الساعة ⁴¹⁷. أما في موضوع السجود فقد سبق أن شرحنا هذه المسألة في الصفحات السابقة في سورة {الإسراء: 61}. {انظر الشرح في هذا الفصل، ص245}. وزيادة على ما سبق، قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد ⁴¹⁸. وقال البيضاوي: كأن إبليس قال: المانع أي خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به؟ فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً ⁴¹⁹. على حين قال الشوكاني: إن إبليس علّل ما ادعاه من الخيرية بقوله: "خلقتني من نار وخلقته من طين" اعتقاداً منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ⁴²⁰. أما قوله تعالى: "خلقتني من نار وخلقته من طين" ففيه نظر وثلاثة مسائل:

⁴¹⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج8، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص466.
⁴¹⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص33.

⁴¹⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنّة وأيّ الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص164.

⁴¹⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج8، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص536.

⁴²⁰ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج8، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص466.

قيل: إن إبليس رأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء. وقال الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق. فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة: أحدها: أن من جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم والحياء، والصبر. وذلك هو الداعي لآدم (عليه السلام) بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتناب والهداية. ومن جوهر النار الخفة والطيش، والحدة والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعة والشقاء؛ قاله القفال. الثاني: أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وأن في النار تراباً.

الثالث: أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه؛ وليس التراب سبباً للعذاب. الرابع: أن الطين مستغن عن النار، والنار محتاجة إلى المكان، ومكانها التراب. قلت: ويحتمل قولاً خامساً: وهو أن التراب مسجد وطهور؛ كما جاء في صحيح الحديث. والنار تخويف وعذاب؛ كما قال تعالى: "ذلك يخوف الله به عباده" {الزمر: 16} ⁴²¹. وقال الرازي: النار أفضل من الطين والمخلوق من الأفضل أفضل، فوجب كون إبليس خيراً من آدم. أما بيان أن النار أفضل من الطين، فلأن النار مشرف علوي لطيف خفيف حار مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات، وأيضاً فالنار قوية التأثير والفعل، والأرض ليس لها إلا القبول والانفعال. والفعل أشرف من الانفعال، وأيضاً فالنار مناسبة للحرارة الغريزية وهي مادة الحياة، وأما الأرضية والبرد

⁴²¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص165.

واليبس فهما مناسبان للموت. والحياة أشرف من الموت، وأيضاً فنضج الثمار متعلق بالحرارة، وأيضاً فسن النمو من النبات لما كان وقت كمال الحرارة كان غاية كمال الحيوان حاصلًا في هذين الوقتين، وأما وقت الشيخوخة، فهو وقت البرد واليبس المناسب للأرضية⁴²². قال ابن كثير: الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبيت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله: "خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم" هكذا رواه مسلم⁴²³. بهذه الآراء يتبين سبب رفض إبليس السجود لآدم (عليه السلام) انطلاقًا من تضاد المواد التي خلق منها إبليس وآدم (عليه السلام) وهما النار والتراب، علمًا بأن عنصر الماء عندما يدخل على النار يطفئها، وعندما يدخل على الأرض يحييها فينمي ويُزهر النبات.

الآية الثالثة: قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12}.

اختلف أهل التفسير في الإنسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل: المراد منه آدم (عليه السلام)، فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين. ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذي هو ولد آدم، والإنسان شامل لآدم (عليه السلام) ولولده، وقال آخرون: الإنسان

⁴²² الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص35، 36.

⁴²³ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص392.

ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم (عليه السلام) ⁴²⁴. وقيل المراد بالإنسان: الجنس لأنهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم؛ وقيل: المراد به آدم ⁴²⁵. نقول: إن المقصود بالإنسان آدم (عليه السلام) وذريته، لأنه قصد بالإنسان نوع آدم (عليه السلام) وقت خلقه وفق المراتب التصنيفية، وذلك يتضمن نوع ذريته، فقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان" أي خلقنا نوعه البشري، وهو ما أشار إليه بعدها بقوله تعالى: "من سلالة"، وقد شرحنا كلمة "سلالة" سابقاً {انظر الشرح في الفصل الأول، ص51} بالتالي فالآية تشير إلى ارتباط نوع الإنسان بالمادة التي خلق منها، وما نتج عن هذه المادة للنوع الإنساني من بشر بعد آدم (عليه السلام) وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" {الروم: 20}.

الآية الرابعة: قال تعالى: "الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين" {السجدة: 7}.

قيل: المراد آدم (عليه السلام) فإنه خلق من طين، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والأدمي أصله مني والمنى أصله غذاء، والأغذية إما حيوانية، وإما نباتية، والحيوانية بالأخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين ⁴²⁶. نقول: لما تمت الإشارة إلى الإنسان والمادة التي خلق منها وهي الطين، فإنه

⁴²⁴ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج85، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص23.

⁴²⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج18، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص97.

⁴²⁶ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص174.

جمع في كلمة الإنسان آدم (عليه السلام) ونسله وكل السلالة البشرية. والطين يكون إشارة إلى أصل الخلق وليس إلى أصل عملية التناسل إلا من ناحية الغذاء أو عملية إنتاجه ووجوده في الطبيعة، ومن ناحية الماء ووجوده في الطبيعة. ونقول إنه ورد في الآية كلمة "أحسن" وسوف نشرح كلمة "حسناً" في قوله تعالى: "وأنتها نباتاً حسناً" في إشارة إلى مريم (عليها السلام)، وتشبيه نموها بصفة نمو النبات {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص465} وإن تكرار كلمة "أحسن" هنا في إشارته إلى كل شيء خلقه الله، يعني أن ذلك يشمل كل الكائنات الحية بكافة أنواعها بما فيها النباتات والحيوان والإنسان، وهي الكائنات الموصوفة بتعدد الخلايا، على عكس الفيروسات والبكتيريا التي تعتبر وحيدة الخلية. أما قوله تعالى: "وبدأ" في إشارته إلى خلق الإنسان كأول مخلوق خلقه، فإن ذلك يدل على أن النبات والحيوان مسخران لخدمة الإنسان، وكذلك الكون الذي أنشأه الله قبل خلق الكائنات الحية، فجعل الله الكون والكائنات الحية كلاهما في خدمة الإنسان لقوله تعالى: "وسخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" {الجاثية: 13}. ولما ذكر كل شيء أحسن خلقه ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: "وبدأ خلق الإنسان من طين" فهو أشار إلى النوع وهو "الإنسان" وإلى المادة وهي "الطين"، ولكن خلق الإنسان لم يكن أول شيء خلقه الله لأنه خلق قبله السماوات والأرض وما فيهن. قال الخوارزمي: حسنة لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم {الزيتون: 4} ⁴²⁷. وقال القرطبي: "معنى

⁴²⁷ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج21، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص842.

"أحسن" أفهم وأعلم. وقال أيضاً: أي: أتقن وأحكم⁴²⁸. نقول: إن هذه المعاني تجوز على كل المخلوقات.

الآية الخامسة: قال تعالى: "فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب" {الصفات: 11}.

قال البيضاوي: "فاستفتهم" أي فاستخبرهم، والضمير لبني آدم⁴²⁹. وقال القرطبي: أي: سلهم، يعني أهل مكة؛ مأخوذ من استفتاء المفتي⁴³⁰. في حين قال ابن كثير: فسئل هؤلاء منكري البعث⁴³¹. أما "الطين اللازب" فقال الشوكاني: هو اللزج الجيد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: اللازب، والحمأ، والطين واحد: كان أوله تراباً، ثم صار حمأ منتناً، ثم صار طيناً لازباً، فخلق الله منه آدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: اللازب الذي يلصق بعضه إلى بعض⁴³². وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد⁴³³. وقال الخوارزمي: فُرى لازب ولاتب والمعنى⁴³⁴.

⁴²⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص14.

⁴²⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص144.

⁴³⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص16.

⁴³¹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص7.

⁴³² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1237.

⁴³³ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص7، 8.

⁴³⁴ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم

الأقوال في وجوه التأويل، ج23، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص903.

أما قوله تعالى: "أهم أشد خلقاً أم من خلقنا" فقال مجاهد: أي: من خلقنا من السماوات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية⁴³⁵. وقال البيضاوي: "من" في الآية لتغليب العقلاء ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك⁴³⁶. أما الطين اللازب فهي مادتهم الأصلية الحاصلة من ضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي⁴³⁷. وقيل: اللازب الثابت الشديد الثبوت⁴³⁸. والأزب: الشدة والصلابة⁴³⁹. واللزوب: القحط. واللزبة: الشدة. ولزب: لصق وصلب. وقال الفراء: اللازب واللاتب واللاصق جميعها واحد⁴⁴⁰. نقول: إن اللازب مرحلة يصل إليها الطين يكون خلالها في حالة استواء تام لخلق آدم (عليه السلام). بمعنى آخر هو لحظة تشبع التراب من الماء وتحوله إلى طين مع وجود لزوج في ناتجة عن كثرة تشبعه بالماء. كما أن المقارنة بين خلقهم والشدة في خلق آدم (عليه السلام) في قوله تعالى: "أهم أشد خلقاً أم من خلقنا" هو دليل على أن المقارنة هي في نوعية مادة الخلق، ثم قوله تعالى: "إنا خلقناهم من طين لازب" هو دليل على امتياز مادة الخلق باعتبارها طين، ولكنه أيضاً لازب، أي موصوف بالشدة، وهذه خاصية مكثفة من خواصه.

⁴³⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص16.

⁴³⁶ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص144.

⁴³⁷ المصدر السابق، ص144.

⁴³⁸ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص579.

⁴³⁹ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هندواوي، ج4، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص81.

⁴⁴⁰ محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشانلي، م5، ج44، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص4025، 4026.

الآية السادسة: قال تعالى: "إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين" {ص: 71}.

فإذا قيل: كيف صح أن يقول لهم "إني خالق بشراً" وهم لم يعرفوا ما البشر ولا عهدوا بهم من قبل؟

قلت: إن قوله تعالى "خالق" أي عازم على خلقهم ولم تكن تعني إني كنت قد خلقتهم. ولذلك قال الشوكاني: أي: خالق فيما سيأتي من الزمن⁴⁴¹. ولذلك قال في الآية التالية: "فإذا سويته" و "إذا" ترُ الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه؛ أي: خلقتة⁴⁴². وقوله تعالى: "بشراً" أي: جسماً من جنس البشر مأخوذ من مباشرته للأرض، أو من كونه بادي البشرة⁴⁴³. قال الرازي: البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية، فلما قال "إني خالق بشراً من طين" فأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات، إنما أخلقه من الطين⁴⁴⁴. نقول: إن إشارته إلى نوع الخلق بقوله تعالى: "بشراً" فهذا يعتبر تحديد وتوجيه للنوع ضمن المرتبة التصنيفية للمخلوقات والكائنات الحية التي خلقها الله، والبشر هنا يشمل آدم (عليه السلام) وكافة ذريته إلى يومنا هذا. ولما قال الرازي إن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية، فهذا يعني أن المادة التي خلق منها الإنسان وهي التراب/الطين تجمع ما بين كل تلك الصفات التي هي صفات لكائنات

⁴⁴¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، 23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1271.

⁴⁴² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص238.

⁴⁴³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، 23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1271.

⁴⁴⁴ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص228.

أخرى ومنها الملائكة، ما يعني أن الله وضع أو جمع في مادة خلق آدم (عليه السلام) وذريته المادة التي خلقت منها الملائكة -وهي الرياح- ولا نقول إن البشر جامع للقوة الشيطانية لأن مادة الشياطين -هي النار- وذلك يتناقض مع حقيقة ما توصلنا إليه بأن النار ليست داخلية في مواد خلق الإنسان وإنما الحرارة المتولدة والناجمة عن خلط الماء بالطين، وهذا ما شرحناه سابقاً في سورة {الإسراء: 61} {انظر الشرح في هذا الفصل، ص242}.

الآية السابعة: قال تعالى: "قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" {ص: 76}.

الخطاب في الآية على لسان إبليس في محاجته لطبيعة المادة التي خلق منها مقارنة مع آدم (عليه السلام). إن قوله تعالى: "أنا خير منه" هو إبداء للمانع كما قال البيضاوي⁴⁴⁵. وقد علل ما ادعاه من كونه خيراً منه بقوله تعالى: "خلقتني من نار وخلقته من طين"، وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعي الخادم، وإن استغنى عنها طردت، وأيضاً فالطين يستولي على النار، فيطفئها، وأيضاً فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض، وعلى كل حال، فقد شرف آدم بشرف، وكرم بكرامة لا يوازيها شيء من شرف العناصر، وذلك أن الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه⁴⁴⁶. ومما قاله الرازي بالتفصيل وهو بديع ومحكم: النار أفضل من الطين ويبدل عليه وجوه: (الأول): أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعداها عنه فوجب كون النار

⁴⁴⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص179.

⁴⁴⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1271.

أفضل من الأرض. (الثاني): أن النار خليفة الشمس والقمر في إضاءة هذا العالم عند غيبتها والشمس والقمر أشرف من الأرض، فخليفتها في الإضاءة أفضل من الأرض. (الثالث): أن الكيفية الفاعلة الأصلية، إما الحرارة أو البرودة، والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت. (الرابع): الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة. (الخامس): النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة. (السادس): النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض، ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح. (السابع): النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط. (الثامن): أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذي يبدأ من نقطة الاستواء الشمالي، ثم إن الحمل على طبيعة النار، وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح، وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي. (التاسع): أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غيرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية، ومثاله أيضاً من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر (العاشر): أن القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادي عشر): أن أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار في صورته وطبيعته وأثره (الثاني عشر): أن النضج والهضم والحياة لا تتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات (الثالث عشر): أن أقوى العناصر الأربعة في قوة الفعل هو النار وأكملها في قوة الانفعال هو الأرض، والفعل فضل من الانفعال فالنار أفضل من الأرض. أما

القائلون بنفضيل الأرض على النار فذكروا أيضاً وجوهاً (الأول): أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار حائنة تفسد كل ما أسلمته إليها (الثاني): أن الحس البصري أتى على النار فليستمع ما يقوله الحس اللمسي (الثالث): أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفئ النار، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة⁴⁴⁷. نقول: إن هذا الخطاب هو خطاب الخيرية، والخيرية فوق الأفضلية لأنها تقوم على جهد أكبر من الأفضلية، فالخيرية إصلاحية، أي فيها إصلاح، وأما الأفضلية فإن فيها جهوزية للخيرية أو استعداد للقيام بالخير، رغم تضمنها للكيدية، ولذلك فإن الخيرية تسبق الأفضلية بشكل عملي، وإن اختيار إبليس للخيرية وليس للأفضلية دليل على إمعانه في الكيدية.

الآية الثامنة: قال تعالى: "نُرسل عليهم حجارة من طين" {الذاريات: 33}.

هذه الآية متعلقة بما قبلها، أي قوله تعالى: "قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين" والمقصود هنا قوم لوط⁴⁴⁸. ومن المعروف أن فاحشة قوم لوط هي ممارسة الجنس بين الرجال. ولما قال تعالى: "نُرسل عليهم حجارة من طين" قصد أن يكون ذلك عقاباً لهم. قيل: "حجارة من طين" هي السجيل⁴⁴⁹. قيل: هي الحجارة التي نراها، وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور. وإنما قال: "من طين" ليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البرد؛ حكاة القشيري

447 الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص232.

448 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1407.

449 أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج27، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص324.

450. قال الرازي: لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة، وسبب ذلك هو أن الإعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التي لا عمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد، ويتفق وصول ذلك إلى هواء ندى، فيصير طيناً رطباً، والرطب إذا نزل وتفرق استدار، بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللألئ الكبار، ثم في النزول إذا اتفق أن تضر به النيران التي في الجو، جعلته حجارة كالآجر المطبوخ، فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه 451. نقول: هذه الآية الوحيدة من بين كل الآيات في القرآن التي لم يرتبط فيها الطين بآدم (عليه السلام) كمادة للخلق، ولكن ورد ذكرها في مسألة خاصة، وفي موضوع فيه إشارة إلهية دالة على أصالة النوع البشري وضرورة تأصيل نوع آدم (عليه السلام) وذريته، والأهم تثبيت علاقة آدم (عليه السلام) بحواء وذريتهما، ومادة الخلق التي خلق منها الاثنين. السؤال هنا، لماذا جعل الله هذه الفاحشة محرمة رغم أنها تحدث بين جنسين مخلوقين من نفس المادة؟ بمعنى آخر، لماذا حرمت الفاحشة رغم عدم وجود عنصر النار في جسد أي من الرجلين؟ نقول: هناك أربعة مسائل، أبرزها المسألة الرابعة لأنها تعتبر تلخيصاً وجواباً إلهياً:

أولاً: لما خلق آدم (عليه السلام) كان وحيداً ولم يخلق معه رجل آخر، فكان أصل الخلق واحداً تماماً كما هو نوع الخلق واحد، وإن الواحد اشتق منه جنس آخر ليس مثله، وهو حواء، لكنه من نفس

450 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص497.

451 الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص217.

النوع، ومن نفس المادة. ما يعني أن اجتماع مادتين من نفس الجنس مع بعضهما مخالف لأصالة بدء الخلق، لكن اجتماع مادتين من نفس النوع ممكن، ولذلك وردت الإشارة إلى اسم آدم (عليه السلام) في القرآن كثير من المرّات.

ثانياً: إن خلق إبليس من مادة النار، ورفضه السجود لآدم (عليه السلام)، يعني وجود تضاد بين مسألتين وهما: نوع الخلق، أي إبليس وآدم (عليه السلام)، ومادة الخلق، أي النار والطين، وهذا التضاد كاف لوقوع الفاحشة من ناحية دخول عنصر حار على عنصر بارد، ويحدث ذلك من خلال الانفعالات بكافة أنواعها.

ثالثاً: إن نطفة الرجل - أي المني - الذي ينتجه الرجل هو في الأصل من الغذاء، والغذاء إما نباتي أو حيواني، والحيواني يتغذى على النبات، وبالتالي فإن الغذاء أصله من النبات، والنبات أصله من الأرض، والأرض فيها تراب وماء، والماء هو الذي يساعد على إنبات النبات، وهو الذي تتكون منه النطفة، فلا يصح أن توضع النطفة المسؤولة عن إنتاج الجنس الآخر في موضع تخريج الغذاء - أي فتحة الشرج - لأن الأصل أن تؤخذ النطفة من أصلها وهو الماء في التراب، ولا تعود إلى مدخل الفضلات التي ينتجها الإنسان، بالتالي فلا يحقق الإنسان بهذا ديمومة وجوده على الأرض واستمرارية ذرية آدم (عليه السلام). ولأن لكل شيء بداية ونهاية، فإن الحقيقة الراسخة تقول بفناء الإنسان وأن له بداية ونهاية، فإن كانت البداية من خلق آدم (عليه السلام) من خلية ثم ذريته من النطفة فإن نهاية البشرية تكون من خلال اتباع فاحشة اللواط.

رابعاً: تكمن الإجابة الإلهية في آيتين وهما قوله تعالى: "قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (32) لنرسل عليهم حجارة من طين (33)"

وهو بهاتين الآيتين عيّن ثلاثة أمور، الأول إشارته إلى كلمة الإرسال في قوله تعالى "أرسلنا" و "النرسل" وكلمة "حجارة" وكلمة "طين". وقد شرحنا معنى "حجارة" و "طين" ولكن لماذا استخدم كلمة "أرسلنا" و "النرسل"؟ نقول: الذين تم إرسالهم هم قوم لوط، وقد أرسلوا إلى قوم وصفوا بالإجرام، فقيل "إلى قوم مجرمين" أي هؤلاء الذين يفعلون فاحشة اللواط، فلماذا وُصفوا بالمجرمين واعتبرت فاحشة اللواط جريمة؟ نقول؛ لأنها اعتداء على "النوع" البشري أولاً، واعتداء على "الجنس" البشري ثانياً. كما أن اعتبارها بمثابة جريمة أو تحت تصنيف عملية الإجرام فهذا يعني أنها من أكبر الكبائر، وهي من الجرائم الموبقة والسبع المهلكة.

ثالثاً: كلمة (الطين)

الآية الأولى: قال تعالى: "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جنتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهينة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" {آل عمران: 49}.

هذه الآية الهامة سوف نشرحها في موضوع خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص513}

الآية الثانية: قال تعالى: "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهدي وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهينة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تُخرج الموتى بإذني وإذ كفتُ بني

إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا
سحر مُبين" {المائدة: 110}.

هذه الآية مشابهة في شرح أهم تفاصيلها لسورة {آل عمران: 49} السابقة التي سنشرحها مع الإشارة فيها إلى الخلق ومادة خلق الطير وهي الطين، ومعنى الإذن من الله، والنفخ في الطير لإحيائها. {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص513}.

الآية الثالثة: قال تعالى: "وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم
من إله فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع
إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين" {القصص: 38}.

إن ذكر مادة الطين في هذه الآية ليس له علاقة بالخلق، ولذلك لن
نشرح الآية، ولكن استوجب ذكرها حرصاً على الإشارة لكافة الآيات
التي ورد فيها كلمة "الطين".

ثالثاً: الصلصال الفخار

قيل: الصلصال هي حكاية صوت، قالوا: صل الحديد والحلى: إذا
توهمت في صوته حكاية صل فإن توهمت ترجيعاً قلت صلصل،
فالصلصلة صوتٌ مضاعف أشد من الصليل وكل يابس يُصلصل.
والصلصال: كل ما جف من طين، قبل أن تُصبيه النار، ويصير فخاراً
وخزفاً فهو طين يابس يُصلصل من ييبسه⁴⁵².

الآيات التي ورد فيها جملة "صلصال من حمٍ مسنون"

⁴⁵² معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج4، (القاهرة: مجمع اللغة العربية،
1968)، ص87.

الآية الأولى: قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون" {الحجر: 26}.

نقول: إن كلمة "الإنسان" في الآية هي إشارة إلى آدم (عليه السلام). أما الصلصال، فقال البيضاوي: هو الطين اليابس الذي يصلصل⁴⁵³. وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مداً فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، وقيل: هو تضعيف صل إذا أنتن، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون: المصور من سنة الوجه، وقيل: المصبوب المفرغ⁴⁵⁴. قيل: المراد بقوله "الإنسان" هو آدم لأنه أصل هذا النوع، والصلصال إذا حرّك، فإذا طبخ في النار فهو فخار، وهذا قول أكثر المفسرين. والحمأ: الطين الأسود المتغير. أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. قال ابن السكيت: تقول منه حمأت البئر حمأً بالتسكين: إذا نزعت حمأتها، وحمئت حمأً بالتحريك: كثرت حمأتها، وأحميتها إحماء: ألقيت فيها الحمأة. والمسنون قال الفراء: هو المتغير، وأصله من سننت الحجر على الحجر: إذا حككته، وما يخرج بين الحجرين يقال له: السنانة والسنين. أي: محكوك، ويقال: أسن الماء إذا تغير، ومنه قوله تعالى: "لم يتسنه" {البقرة: 259} وقوله تعالى: "ماء غير آسن" {محمد: 15} وكلا الاشتقاقين يدل على التغير. قال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه: إذا صببته، والسن الصب. وقال سيبويه: المسنون المصوّر، مأخوذ من سنة الوجه، وهي صورته. وقال الأخفش: المسنون المنصوب القائم، ومن قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول. والحاصل على هذه الأقوال إن التراب لما بلّ صار طيناً، فلما أنتن صار حمأً مسنوناً، فلما يئس صار

⁴⁵³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج14، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص238.

⁴⁵⁴ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج14، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص560.

صلصالاً. فأصل الصلصال: هو الحمأ المسنون⁴⁵⁵. وقال القرطبي: الصلصال: أي الطين اليابس؛ عن ابن عباس وغيره. والصلصال: الطين الحر خُلط بالرمل، فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طُبَخ بالنار، فهو الفخار؛ عن أبي عبيدة. وطين صلال ومصلال، أي: يصوت إذا نقرته، كما يصوت {الفخار} الجديد. فكان أول تراباً، أي: مُتفرق الأجزاء، ثم بُلَّ فصار طيناً، ثم تُرِكَ حتى أنتن، فصار حمأً مسنوناً، أي: متغيراً، ثم يبس فصار صلصالاً؛ على قول الجمهور. والحمأ: الطين الأسود، وكذلك الحمأة، بالتسكين، تقول منه: حمأت البئر حمأً؛ بالتسكين: إذا نزعت حمأتها. وحمئت البئر حمأً؛ بالتحريك: كثرت حمأتها. وأحمأتها إحماءً: ألقيت فيها الحمأة؛ عن ابن السكيت. وقال أبو عبيدة: الحمأة، بسكون الميم، مثل الكمأة. والمسنون: المتغير. قال ابن عباس: هو التراب الميتل المنتن، فجعل صلصالاً كالفخار. ومثله قول مجاهد وقتادة، قالوا: المنتن: المتغير؛ من قولهم: قد أسن الماء: إذا تغير، ومنه: "يتسنه"، و "ماء غير أسن". وقال الفراء: هو المتغير، وأصله من قولهم: سننت الحجر على الحجر: إذا حككته به، وما يخرج من الحجرين من الحجرين يقال له: السنانة والسنين، ومنه المسن. وقال أبو عبيدة: المسنون: المصبوب. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: المسنون: الرطب. وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لا يكون مصبوباً إلا وهو رطب. وقال الأخفش: المسنون: المنسوب القائم، من قولهم: وجه مسنون: إذا كان فيه طول. وقد قيل: إن الصلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدوي⁴⁵⁶. قيل المسنون: الأملس. أي: أملس صقيل. ولهذا روى عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن

⁴⁵⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص761.

⁴⁵⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 203، 204، 205، 206.

ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب⁴⁵⁷. قال الرازي: الأقرب أنه تعالى خلقه أولاً من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار. وفي الصلصال قولان: قيل الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مدأ فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة. قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) من طين فسوره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به، ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح. وحقيقة الكلام أنه تعالى خلق آدم من طين على صورة الإنسان فجف فكانت الريح إذا مرّت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالاً. أما الحمأ فقال الليث، الحمأة بوزن فعلة، والجمع الحمأ وهو الطين الأسود المنتن، وقال أبو عبيدة والأكثر من حمأة بوزن كمأة وقوله تعالى "مسنون" فيه أقوال: الأول: قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله "مسنون" أي متغير، قال أبو الهيثم يقال سن الماء فهو مسنون أي تغير، والدليل عليه قوله تعالى "لم يتسنه" أي لم يتغير. والثاني: المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر يسن عليه. الرابع: قال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، والسن والصب يقال سن الماء على وجهه سنناً. الخامس: قال سيبويه: المسنون المصور على صورة ومثال، من سنة الوجه وهي صورته، السادس: روي عن ابن عباس أنه قال: المسنون الطين الرطب، وهذا يعود إلى قول أبي عبيدة، لأنه إذا كان رطباً يسيل وينبسط على الأرض، فيكون مسنوناً

⁴⁵⁷ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص533.

بمعنى أنه مصبوب⁴⁵⁸. نقول: إن الحمأ هي المادة التي تكون فيها أعلى درجات الحرارة التي وصل إليها جسد آدم (عليه السلام) قبل نفخ الروح فيه، وهذه المادة كانت صلصالاً من قبل، والصلصال كان طيناً، والطين كان تراباً. والدليل على حشد قوة الحرارة هو الآيتين السابقتين واللاحقة لهذه الآية، فالآية السابقة تقول "وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم (25) والآية اللاحقة تقول "والجان خلقناه من قبل من نار السموم (27) والآيتين تدلان على أن الله استخدم القوة في الحشر وفي خلق الجان من نار السموم، وكذلك استخدم القوم في جعل التراب حمأ مسنون، وسنه دليل على فركه، والفرك يدل على دخول عنصر الحرارة على نوع التراب المسمى الحمأ فجعله أسوداً أو مادة تشبه خلق الإنسان الأول وهو آدم (عليه السلام)، ولذلك نقول إن جسمه لم يكن أبيضاً مطلقاً.

الخلق (مادة وفعل إلهيين) والخلق (اسم الله) والأخلاق (علم)

الآية الثانية: قال تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون" {الحجر: 28}.

نقول: هذه الآية ذكر فيها قوله تعالى: "من صلصال من حمأ مسنون" وهي جملة مشابهة للآية السابقة وقد سبق شرح المعنى. أما الفرق بين الآيتين هو أنه قال في الآية السابقة "ولقد خلقنا الإنسان"، أما في هذه الآية فقال "إني خالق بشراً". فلماذا قال "خلقنا" بالجمع في الآية السابقة وقال "خالق" بصيغة المفرد في هذه الآية؟ ولماذا قال "الإنسان" في الآية السابقة وقال "بشراً" في هذه الآية؟

⁴⁵⁸ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص183، 184.

للإجابة على السؤال الأول يجب أن نستوضح المسألة بشكل تأصيلي، فنقول باعتبار أن كلمة خلق هي جذر لغوي، فمنها اشتق اسم من أسماء الله تعالى وهو "الخالق" لقوله تعالى: "إن ربك هو الخالق العليم" {الحجر: 86} ومنها "الخلق" وهي شاملة لكل ما خلقه الله تعالى، ومنها "الأخلاق" التي صارت علماً يسمى "علم الأخلاق". نقول: إذا كان الخلاق اسم من أسماء الله تعالى، والخلق والأخلاق مرتبطة بهذا الجذر اللغوي، فإن ذلك يعني أن أصل مادة الخلق -وهي الطين- تدل على أن الأصل في هذه المادة وإيجابها بأن تكون مادة خلق آدم (عليه السلام) هو انسجامها مع الأخلاق المفترضة لآدم (عليه السلام) وذريته. قيل إن الخلق أصله التقدير المستقيم ويُستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء⁴⁵⁹. وذكر الله الخلق بالتسلسل مع كل شيء خلقه وقدره في هذه الحياة الدنيا، فأولاً ذكر خلق السماوات والأرض في قوله تعالى: "خلق السماوات والأرض" {الأنعام: 1} ثم خلقه كل ما في الأرض كما ورد في قوله تعالى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً {البقرة: 29}. ثم خلقه لآدم (عليه السلام) كما في قوله تعالى: "خلقكم من نفس واحدة" {النساء: 1} وكذلك خلق ذرية آدم (عليه السلام) من نطفة كما ورد في قوله تعالى: "خلق الإنسان من نطفة" {النحل: 4}. وكذلك حديثه عن خلق سلالة بني آدم (عليه السلام)، وهو النوع الإنسي كما ورد في قوله تعالى: "خلق الإنسان من سلالة" {المؤمنون: 12} وخلق الجن كما ورد في قوله تعالى: "خلق الجان من نار" {الرحمن: 15} وحديثه عن قوته وقدرته في قوله تعالى: "أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون" {النحل: 17}. وأما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال كالنبي عيسى (عليه السلام) حيث قال

⁴⁵⁹ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج 1، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص 209.

تعالى: وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني {المائدة: 110} 460. وكذلك توضيح أهمية صورة خلقه وإبداعه لهذا الخلق في قوله تعالى: "لا تبديل لخلق الله" {الروم: 30} فإشارة إلى ما قدره وقضاه وقيل: معنى قوله تعالى "لا تبديل لخلق الله" أي هو نهى أي لا تغيروا خلقة الله. والخلق يُقال في معنى المخلوق والخلق والخلق في الأصل واحد كالشرب والشرب، لكن خص الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. قال تعالى: "وإنك لعلی خلق عظیم" {القلم: 4} وقرئ: إن هذا إلا خلق الأولين {الشعراء: 137} والخلق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه، قال تعالى: "وما له في الآخرة من خلاق" {البقرة: 102} 461. وكذلك تثبيته لقدرته على إنشاء قوم آخرين كما ورد في قوله تعالى: "إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد" {إبراهيم: 19}. وقوله تعالى: "إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد" {الرعد: 5}. بالتالي لما ذكر تعالى في الآية كلمة "خلقنا" فهو كان يشير إلى هذه الأشياء، وأنه خلقها بإلقاء الأوامر إلى ملائكته، فيعني ذلك أن الملائكة خلقت بأوامر الله. أما قوله تعالى: "خالق" في إشارة إلى البشر كنوع إنسي ضمن سلسلة المراتب التصنيفية، فذلك يشير إلى وحدانيته وقدرته المطلقة على إحياء هذا النوع البشري وتسخير الطبيعة وكل ما في الأرض له. وللإجابة على السؤال الثاني، نقول: إن ذكر كلمة "الإنسان" فيها إشارة إلى آدم (عليه السلام). أما ذكر كلمة "بشراً" فهي إشارة إلى النوع الإنسي وفق المرتبة التصنيفية، وهي ذرية آدم (عليه السلام) حتى يومنا هذا. إذا كان ثمة علاقة بين "الخالق" باعتباره مسؤولاً عن الخلق، و "الخلق" باعتباره اسم لما أتقن خلقه أو أبدع فعله، و "الخلق" باعتباره نتيجة لفعل أو حدث الاتقان، و "علم الأخلاق" باعتباره نتاج فعل بني آدم (عليه السلام) في تفكره وتأمله للهيئة

460 المصدر السابق، ص209.

461 المصدر السابق، ص210.

والصورة التي خلقه الله عليها. هذه المسألة تجعل قواعد الأخلاق المرتبطة بالخالق والخلق والخلق "أي المسؤولية عن الخلق وحدث اتقانه ونتيجته" وكلها قواعد أخلاقية علوية (عليا) وهي تقوم على قرار الإحياء، وهو إلهي بامتياز. أما قواعد الأخلاق المرتبطة بعلم الأخلاق "أي المسؤولية عن إنتاج منظومات وتصورات وتوصيفات عن أصول الحركة والأفعال الإنسانية" كلها قواعد أخلاقية دنيوية (سفلية). ولذلك لا أتفق مع داروين حول توصيفه للقواعد الأخلاقية بأنها عليا وسفلى بناءً على الغرائز الاجتماعية والمصالح الخاصة بالآخرين والتضحية بالذات⁴⁶².

الآية الثالثة: قال تعالى: "قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون" {الحجر: 33}.

نقول: هذه الآية تكرر فيها جملة "صلصال من حمأ مسنون" التي ورد ذكرها في الآيتين السابقتين وقد تقدم شرحهما.

الآيات التي ورد فيها جملة "صلصال كالفخار"

الآية الرابعة: قال تعالى: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار" {الرحمن: 14}.

نقول: هذه الآية الوحيدة التي ورد فيها كلمة "فخّار" في القرآن. قيل إن الإنسان خلق من التراب، كما ورد أنه خلق من الطين ومن حمأ، ومن ماء مهين إلى غير ذلك. أما قوله من تراب تارة، ومن ماء مهين تارة أخرى، فذلك باعتبار شخصين، آدم خلق من الصلصال ومن حمأ وأولاده خلقوا من ماء مهين، ولولا خلق آدم لما خلق أولاده

⁴⁶² تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليحي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص302.

463. أما قوله كالفخار، ومن صلصال، ومن حمأ مسنون فهذه كلها ترتيبات لتحولات المواد التي خلق منها آدم (عليه السلام). نقول: إن الصلصال هو مادة مخلوطة بمزيد من الماء وهو درجة من تراب الأرض الذي تحول من الطين إلى الصلصال. أما "الفخار والحمأ المسنون" فهما توصيف لطبيعة مادة الصلصال التي تكون لينة، بينما الفخار والحمأ المسنون هما أقصى درجة يصل إليها الصلصال. فلو أدركنا إضافة الكاف في قوله تعالى: "كالفخار" لعرفنا أن الكاف هنا للتشبيه⁴⁶⁴. قال الرازي: الكاف موضوعة رفع من وجهين (أحدهما) أن يكون صفة لقوله (لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر) (والآخر) أن يكون خبراً بعد خبر قاله الزجاج⁴⁶⁵. ولكن لماذا تشبيهاً وليس توكيداً؟

نقول: إن التوكيد يكون مع الأشياء المطلقة النزاهة مثل وصف الله عزوجل في قوله تعالى: "ليس كمثله شيء" {الشورى: 11}، أي أن الله حقيقة، وكما يقول ابن سينا "إن ما لا نهاية له يقال على الحقيقة"⁴⁶⁶، ولذلك فإن الله لا نهاية له. إن الذي يسأل عن الله كأنما يسأل عن لون الهواء أو رؤية الصوت بالعين المجردة، ومع ذلك نقول: إن الله لا يمكن أن يتساوى مع أي شيء خلقه في الطبيعة، فإذا كان الله هو خالق كل شيء، فهو لا يتساوى مع أي شيء، فعلى سبيل المثال، لَمَّا

⁴⁶³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص98.

⁴⁶⁴ عزيزة فوال بابستي، المعجم المفصل في النحو العربي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص834.

⁴⁶⁵ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص234.

⁴⁶⁶ أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، تحقيق سعيد زايد، الشفاء، الطبيعيات، السماع الطبيعي (قم المقدسة: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1984)، ص209.

قال الله تعالى في القرآن: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" {الذاريات:47} فهذا يعني أن الفضاء ليس له آخر، والله لا يتساوى مع الآخر، بالتالي لا يتساوى مع كل ما هو أدنى أو أقل من ذلك، أي لا يتساوى مع أي شيء متسع في الفضاء، علماً بأن الكون في حالة ديناميكية وليس استاتيكية، أي أن الوجود الذي تنتمي إليه في حالة حركة وتطور وتمدد وانتفاخ وليس في حالة ركود وتماسك وثبات⁴⁶⁷. إن عالماً إذاً قد تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة، ويشير حجم التمدد ومعدل سرعته الحاليين إلى أن الكون بدأ منذ ما يتراوح بين 12-20 مليار سنة وفي جزء من السكستليون من الثانية (واحد مقسوم على عشرة قوة 26)، وفي البداية كانت كل المادة الموجودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثيراً من الحيز الذي يشغله بروتون واحد، وكانت الكثافة في تلك المرحلة تهول الخيال، تصور أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها، وكل المادة والطاقة في الكون كانت جميعها محتواه في حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئاً، وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أي تمدد في المكان على الإطلاق، وكانت تلك اللحظة لحظة بداية المكان والزمان والمادة، وما ينبغي لنا إلا أن نتصور أن الانفجار أحدث تمدداً في المادة في مكان قائم بالفعل، فالانفجار العظيم هو نفسه تمدد المكان، وهذا يمكن أن نتفعله ولكن لا يمكن أن يتصوره الخيال⁴⁶⁸. وعموماً إن الوصف القرآني يتنافى تماماً مع الثابت الكوسمولوجي الذي تراجع عنه أينشتاين بعدما قاده إليه معادلاته، ليفرمل بذلك زخم المعادلات، وليقع بهذا الخطأ المصيري، كما اعترف هو بأنه أشنع ما فعله في كل حياته العلمية، حيث ثبت بأن الكون يتوسع⁴⁶⁹. بالتالي صح استواء

⁴⁶⁷ خالص جليبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ج1، ط1، (الرياض: مكتبة

العبيكان، 2010)، ص72.

⁴⁶⁸ المصدر السابق، ص7.

⁴⁶⁹ المصدر السابق، ص7.

الله على العرش، وهذه مسألة يطول شرحها لأهميتها. ولذلك نقول: إن الله حاضر بقوة في الكون من خلال آياته المادية والمعنوية في الإنسان وفي الطبيعة معاً، بل إن الطبيعة وأولها الكون أسبق من وجود الإنسان والنباتات، وقد كان التراب والهواء والماء أول ما وُجد في الكون، ولذلك قال تعالى: وجعلنا من الماء كل شيء حي {الأنبياء: 30} أي باستخدام هذه المواد وهي التراب والهواء والماء. أما الفخار فهو ليس مطلق النزاهة لأن هناك مواد وعناصر في الطبيعة دخلت على جسد آدم (عليه السلام)، ولنا في هذه المسألة حجة، ولكننا سنذكر ما ذكره المفسرون قبلنا. قال أبو عبيدة، إن الصلصال إذا جف ثم طبخ بالنار فهو الفخار⁴⁷⁰. على حين قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) من طين فسوره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً {.....} يعني جف فكانت الريح إذا مرّت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالاً⁴⁷¹. نقول: إن حديث أبو عبيدة عن النار كعنصر حرارة طبخ به آدم (عليه السلام)، لا ينسجم مع تفسير الرازي وغالبية المفسرين بقولهم إن الله خلق آدم (عليه السلام) من طين فسوره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف إلى أن نفخ فيه الروح. لماذا لا ينسجم؟ لأن أبو عبيدة ذكر النار، والنار غير الحرارة، والحرارة غير اللهب، واللهب غير الوهج، والوهج غير السخونة، والسخونة غير الدفء، والدفء غير الضياء. قال أبو إسحاق: النار اسم للحر والضياء. فإذا قالوا: أحرقت أو سخنت، فإنما الإحراق والتسخين لأحد هذين الجنسيتين المتداخلين،

⁴⁷⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفران، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 203.

⁴⁷¹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص183.

وهو الحر دون الضياء⁴⁷². نقول: كل ما سبق دخل في إنضاج آدم (عليه السلام) باستثناء النار واللهيب. أما الحرارة والسخونة والدفء فهي داخلة في إنضاج آدم (عليه السلام). بالتالي إذا قال المفسرون إن الريح إذا مرّت بآدم (عليه السلام) سُمع له صلصلة، فإنما هم يميزون بين طبخه بالنار والريح، ونحن نقول إنه لم يطبخ بالنار لأن عنصر النار ليس داخلاً كمادة في خلق آدم (عليه السلام)، لكننا نرجح مسألة واحدة كالتالي:

أن يكون آدم (عليه السلام) قد تشكل من الصلصال وبقي على الأرض مقابلاً للشمس حتى جف نتيجة سخونة حرارة الشمس ومرور الرياح عليه، وهذا يعني أن الرياح كانت شديدة بحيث أن احتكاك الرياح بحرارة أو سخونة انعكاس الشمس على الأرض نتج عنها هيئة آدم (عليه السلام) ثم نفخ الله فيه من روجه. لماذا نقول بهذا الرأي؟ لأن الرياح مصدرها للطاقة، وهذه الطاقة هي التي دخلت على جسد آدم (عليه السلام) فكونته وجعلته يابساً صلباً. كما أن الشمس تعتبر عاملاً رئيسياً في تكوّن الرياح عبر حركة الهواء، فعندما تسخن الشمس الغلاف الجوي بشكل متفاوت، فإن ذلك يؤدي إلى تمدد الهواء الدافئ وبالتالي انخفاض الضغط في تلك الأماكن مقارنة بالأماكن التي يكون فيها الهواء بارداً، والتي يكون فيها الضغط مرتفعاً، ونتيجة لذلك يتحرك الهواء من منطقة الضغط المرتفع إلى منطقة الضغط المنخفض، لتسبب حركة الهواء هذه تشكيل الرياح⁴⁷³. بالتالي فإن تكوين آدم (عليه السلام) لم يكن ممكناً من دون دخول الحرارة على حركة الهواء كي يتسبب ذلك بجفاف هيئته قبل نفخ الروح فيه. قال مثنى بن بشير في أثر الشمس والحركة والجو في الأبدان: "إن الحركة

⁴⁷² أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص6.

⁴⁷³ <https://geology.com/k> /بحث-عن-الرياح-وكيفية-تكونها

خير من الظل والسكون" ⁴⁷⁴. نقول: إنه يجوز أن يكون اسم الصلصال المذكور في كل الآيات القرآنية معبراً عن احتكاك الريح السريع بحرارة الشمس، ونعتقد بتماثل هذه الحركة عند عملية التزاوج أو التلاقح الجنسي بين أي ذكر وأنثى، أي أن الإنسان فيه طاقة كامنة، وهذه الطاقة ناتجة عن الأغذية النباتية التي يتناولها الإنسان أولاً والأغذية الحيوانية ثانياً، وإن طبيعة هذا التناول الغذائي هو الذي يشكل طاقة الإنسان، بالإضافة إلى طريقة إدارته لبنينته الجسدية، وهذه البنية هي التي ينتج عنها حركة الإنسان في حياته، وعلى وجه الخصوص فإن جزء من الحركة الناتجة عن عملية الجماع بين الذكر والأنثى تعمل على إنتاج طاقة والتي تولد بدورها الحرارة، ومنها جميعاً يتشكل المنى الذي يخرج من صلب الرجل. كما أن العنصرين الأساسيين اللذين دخلا على آدم (عليه السلام) قبل نفخ الروح فيه، هما حركة الرياح التي أنتجت سخونة أو حرارة الشمس الطبيعية، وإن الرياح هي التي عملت على إنضاج أو استواء جسد آدم (عليه السلام) بفعل مساعدة الماء لأنه كما يقول الجاحظ: في الأرض وفي الماء الذي قد لامس الأرض حراً كثيراً وتداخلاً متشابكاً؛ وليس فيهما ضياء ⁴⁷⁵. بالتالي لا نقول إن تسخين أو حرق جسده هو الذي أنتج بنية جسد آدم (عليه السلام)، وإن حرارة الشمس وحركة الرياح ثابتة بالنسبة لآدم (عليه السلام) باعتبار أنه من خلق الله وهو أول الأنبياء، ودليل ذلك من القرآن أن الله اصطفاه مع الأنبياء لقوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين" {آل عمران: 33} وكذلك جعله الله رسولاً مثل عيسى عليه السلام لأنه ساوى بين خلقه وخلق عيسى (عليه السلام) في قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}. نقول: إن

⁴⁷⁴ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص105.
⁴⁷⁵ المصدر السابق، ص7.

المساواة في مادة وطبيعة الخلق بحد ذاتها تعتبر إقراراً ملزماً بالمساواة في كثير من الخصائص ومنها رسالة آدم (عليه السلام) إلى العالمين، تماماً كرسالة الرسول عيسى (عليه السلام) إلى قومه. ونقول: إن الله هو الذي قدر موازين حركة الرياح وحرارة الشمس لآدم (عليه السلام) وقتها، أي عندما خلقه، ومع ذلك فإننا نقر بأن الطاقة وحركة الرياح والحرارة ليست ثابتة بالنسبة لنزيرة آدم (عليه السلام)، وذلك بسبب اختلاف طبيعة النظام الغذائي بين شخص وآخر واختلاف طاقة وحركة كل إنسان، وهذا ما يفسر وجود اختلاف في طبائع الخلق وألوانهم وأشكالهم وحركاتهم، فالحرارة المتولدة عن الحركة يكون الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة⁴⁷⁶. وهنا نقول: إن معرفة طباع وتصرفات آدم (عليه السلام) يكون من خلال معرفة درجة حرارة الشمس وحركة الرياح في الزمن الذي خلق فيه الكون لأن له تأثير على خلق آدم (عليه السلام). وهذا يعني أننا نفكر في عشرات المليارات من السنين التي تبعتها عهود كثيرة، ومنها العهد الجيولوجي الثالث الذي انقضى قبل قرابة 36 مليون سنة، أي ما يعادل 1,400,000 جيلاً من البشر⁴⁷⁷. بالتالي فإن آدم (عليه السلام) قديم كل هذا القدم. لماذا يهم معرفة هذه التفاصيل؟

نقول: لأن بداية الخلق كانت كاملة متكاملة، وذلك لقوله تعالى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم {الزيتون: 4}. وهذه الآية جواب القسم⁴⁷⁸ على قوله تعالى في بداية السورة: والتين والزيتون {الزيتون: 1}. إن ذكره كلمة "الإنسان" في الآية هو إشارة للنوع،

⁴⁷⁶ المصدر السابق، ص111، 112.

⁴⁷⁷ الإنسان نشوؤه وارتقائه، من نظرية داروين إلى مكتشفات العلوم الحديثة، جان شالين،

تعريب الصادق قسومة، ط1، (دمشق: بترا للنشر والتوزيع، 2005)، ص26.

⁴⁷⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 368.

أي البشر، وأول البشر آدم (عليه السلام)، فكانت الإشارة إلى آدم (عليه السلام) الإنسان وإلى صفات خلقه كيف أنها منزّهة عن الخطأ في التكوين، فهي مطلقة القوامة في هيئتها وحسنها وجمالها واستقامتها، وذلك لأن آدم (عليه السلام) نازل من الجنة مباشرة إلى الأرض، مع الحرص على أن المقصود بقولنا "نازل" أي مخلوق بهيئة وروح متجددة غير التي كان عليها في الجنة، لأن هيئة وروح آدم (عليه السلام) الذي في الجنة غير هيئة وروح آدم (عليه السلام) الذي في الأرض. قال أبو بكر بن طاهر: مزيناً بالعقل، مؤدياً للأمر، مهدياً بالتمييز، مديد القامة؛ يتناول مأكوله بيده. وقال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان؛ فإن الله خلقه حياً عالماً، قادراً مريداً متكماً، سميعاً بصيراً، مديراً حكيماً. وهذه صفات الرب سبحانه، وعنّها عبّر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: إن الله خلق آدم (عليه السلام) على صورته، يعني على صفاته التي تقدم ذكرها، وهذا ما ذكره الغزالي في كتابه مشكاة الأنوار⁴⁷⁹. وفي رواية: على صورة الرحمن⁴⁸⁰.

لا نقول بالرأي الوارد في تفسير القرطبي عن المساواة بين صفات الإنسان والرب، بل نعتبرها شرك مطلق، ونقول إنه رأي غير قرآني، بل هو متعلق بخلق عيسى (عليه السلام)؛ لأن الله لا يتساوى في صورته أو صفاته مع أي مخلوق، لأنه خالق، ولا يتساوى المخلوق مع الخالق، حيث ذكر القرآن في توصيف الخالق في قوله تعالى: "ليس كمثله شيء" {الشورى: 11}. والشيء يشمل الأفعال والصفات والهيئات وكل ما دون ذلك وأكثر، فإذا كان ليس كمثله شيء فهو ليس على صورة آدم (عليه السلام). أما كلمة "أحسن" في الآية فإنها تنسب إلى صفات وخصائص القوامة من المادة التي خلق منها آدم (عليه

⁴⁷⁹ الإمام أبي حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، (أميركا، مكتبة الكونغرس، 1998)، ص6.

⁴⁸⁰ المصدر السابق، 368، 369.

السلام) في زمن خلقه. قيل إن هذه الآية نزلت في مُنكري البعث⁴⁸¹. أما بالنسبة لذكر كلمتي "التين والزيتون" في بداية الآية فذلك متعلق بالغذاء ومنه الشهوة التي يدور كل الناس حولها. بالتالي فإن الإشارة إلى "النوع" أي الإنسان، وإلى "الصورة" وهي الحُسن والجمال، وإلى "القوامة" وهي أفضل تعديل، يُراد بذلك كله أن كل إنسان يخالف (نوعه وصورته وقوامته) فإنه يكون بذلك قد بالغ في شهوته الغذائية أو الجنسية أو انحرف عنهما أو تأثر هو أو نسله بهما، فتأثر نوعه وصورته وقوامته أو نوع وصورة وقوامة نسله. عموماً وردت إشارة في سورة الزيتون إلى "البلد" في الآية الثالثة، وقال بعض المفسرين إنها مكة⁴⁸²، وهذا رأي جائز لما لها من خصوصية دينية، لكن البلد لها معنى أوسع وأشمل ونقول إن المقصود به الأرض عموماً، أو أي أرض في محل الخطاب الموجه في الآية، لأن القرآن خطابه عمومي وعالمي. أما فيما يفسر علاقة الطبيعة -وبالتحديد الهواء والحرارة- في التأثير على الإنسان والبشر عموماً بعد توالي الحياة لذرية آدم (عليه السلام)، فإن أكثر من أوجز في الشرح والتدقيق في هذه العلاقة وصلتها بأخلاق البشر هو ابن خلدون، حيث كتب مقالتين له في مقدمته تحت عنوان "تأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم، وأثر الهواء في أخلاق البشر. سأتناول المقالة الثانية لأهمية دلالتها، إذ يقول فيها، قد رأينا من خلق السودان -على العموم- الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قُطر، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور، هي انتشار الروح الحيواني

⁴⁸¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 368.

⁴⁸² الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج32، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص10.

وتفشيته. وطبيعة الحزن بالعكس، وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء، والبخار، مخلخلة له، زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يُعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح، وتجيء طبيعة الفرح، وكذلك نجد المتعممين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها، واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار، واستولى الحر على أمزجتهم، وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرّاً، فتكون أكثر تفشياً، فتكون أسرع فرحاً وسروراً، وأكثر انبساطاً، ويجيء الطيش على أثر هذه، وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية، لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته، كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة، وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها، وفي هوائها؛ لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول، واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها، كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامة مآكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة. كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب، حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئاً من مدخره، وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كفيات الهواء. والله الخلاق العليم. وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان

وطيشهم وكثرة الطرب فيهم، وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي، أن ذلك لضعف أدمغتهم، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم، وهذا كلام لا محصل له، ولا برهان فيه، لقوله تعالى: "والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" {البقرة: 213} 483. نفهم مما ذكره ابن خلدون أن الروح الحيوانية وتفسيها والخفة والطيش في هذه الروح ذاتها كله له علاقة بالحرارة، ما يعني أن ذلك يتناقض مع حقيقة وأصل مادة الخلق، وهو التراب/الطين قبل أن تلمسه حرارة الشمس بفعل حركة الرياح. ما يعني أن كل إنسان تشتد حرارته خلال أفعاله وتسخن جوارحه فهو يكون أقرب إلى الطيش وإلى الفعل الحيواني. ولما ذكر ابن خلدون أن للأخلاق أثر من كيفيات الهواء، وأن الله هو الخلاق العليم، فنقول هذا صحيح لأن الرياح التي تحركت بفعل حرارة الشمس وعملت على إنضاج آدم قبل نفخ الروح فيه هي التي أتت أخلاقه، وهذا يدل على أن مادة التراب/الطين مضادة ومخالفة لكل ما هو أخلاقي ولكل أهواء النفس البشرية. وإذا فهمنا ذلك، ندرك أن حياة النباتات تنشأ في الأصل من بيئة أخلاقية، وهذا ما يفسر الضرورات التي تمت الإشارة إليها في القرآن بشأن أهمية الحفاظ على الأرض، وقد ذكرت آيات كثيرة بهذا الخصوص، ومنها قوله تعالى: "ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين" {القصص: 77}. وقوله تعالى: "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها" {الأعراف: 56}. وقوله تعالى: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" {الروم: 41}. إذا أدركنا ما سبق، فإننا بذلك نؤكد على العلاقة المترابطة بين أخلاق الإنسان والنباتات بمادة الخلق الأولى - وهي التراب/الطين، وعلاقة أخلاق الإنسان بضرورة اهتمامه بالأرض التي هي مصدر غذائه، وتجنب الإفساد فيها. إذا عرفنا كل

483 العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، حققه عبد الله الدرويش، مقدمة ابن خلدون، ج1، ط1، (دمشق: دار يعرب، 2004)، ص194، 195.

ما سبق عن علاقة الإنسان بالطاقة والرياح والحرارة وكيفية خلق آدم (عليه السلام)، استوجب أن نشير إلى طبيعة خلق الملائكة، فهم لم يخلقوا من طين أو نار، بل هم مخلوقون من الريح فقط، وهذا ما ذكره الرازي وهو ما روي في الأخبار أن الملائكة، خلقهم الله تعالى من الرياح والحجة العقلية على صحة ذلك أنهم لهذا السبب قدروا على الطيران على أسرع الوجوه، وقدروا على حمل عرش الرحمن، ولأن الرياح تقوم بحمل الأشياء. ولهذا السبب سماوا روحانيين، وجاء في رواية أخرى أنهم خلقوا من النور، ولهذا صفت وأخلصت لله تعالى والأولى أن يجمع بين القولين فنقول: أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهؤلاء هم سكان عالم السماوات⁴⁸⁴. **في هذا السياق، نسأل هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟**

جنس الملائكة إنسي أم غير إنسي

نقول إذا كان الإنسان مخلوق من التراب والماء والشمس أو الطاقة التي تحرك الرياح، فإن مادة واحدة من بين كل هذه المواد هي التي خلقت منها الملائكة وهي الرياح، والرياح لا تتكون إلا عن طريق حدوث حركة والتي تحتاج إلى طاقة، **فهل الملائكة مخلوقون من نار أو حرارة الشمس؟**

نقول لا، وفي الإجابة عدد من المسائل كما يلي:

المسألة الأولى: لقد خلق الملائكة لحمل عرش الرحمن لقوله تعالى: "والمَلَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" {الحاقة: 17} وقوله تعالى: "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين"

⁴⁸⁴ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص20، 21.

{الزمر: 75}. بالتالي فإن الملائكة بهذا التوصيف هم أقرب إلى الله، والنار ليست قريبة من الله أو عرشه. سوف نذكر ما ورد في كتب التفسير للآية الأولى {الحاقة: 17} ومن ثم سوف نعقب على تفاسير المفسرين لمسألتين وهما: أولاً: عدد الملائكة. وثانياً: وصف أشكالهم أو هيئاتهم. نقول بشكل مبدئي إننا نخالف ما ذكر حول المسألتين لدى الرازي والقرطبي وابن كثير، والثلاثة من أبرز مفسري القرآن، وذلك لعدم توافق آراءهم مع رأينا كما يلي آرائهم وتعقيبنا عليها. قال الرازي: الملك يُراد به ملكاً واحداً، بل أراد الجنس والجمع. والمراد بقوله تعالى: "فوقهم" أي فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء والمقصود التمييز بينهم وبين الملائكة الذين هم حملة العرش. قال مقاتل يعني أن الحملة يحملون العرش فوق رؤوسهم. ونقل الحسن رحمه الله أنه قال لا أدري ثمانية أشخاص أو ثمانية آلاف أو ثمانية صفوف أو ثمانية آلاف صف. واعلم أن حملة على ثمانية أشخاص أولى لوجوه (أحدها) ما روى عن رسول الله "هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية. وقيل: بعضهم - وفي رواية أخرى لكل ملك منهم أربعة أوجه⁴⁸⁵، على صورة الأسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر⁴⁸⁶. وقال العباس بن عبد المطلب: هم ثمانية أملاك في صورة الأوعال⁴⁸⁷،

⁴⁸⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج21، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص202.

⁴⁸⁶ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص108، 109.

⁴⁸⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج21، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص202.

وذكر الرازي أن ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً⁴⁸⁸. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: كتب إلى أحمد بن حفص بن عبد الله النيسابوري: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله: "أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش: بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمئة عام". وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، وقد رواه أبو داود في كتاب "السنة" من سننه: حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمئة عام"، وهذا لفظ أبي داود⁴⁸⁹. نقول: إن أعداد ومهمات الملائكة الموكلة إليهم ثابتة ومعروفة لأنهم لا يتناسلون، فهناك ملك للموت والملك الموكل بالنفخ في الصور، والملك الموكل بالسحاب والمطر وغيرهم كثير. وأما العرش فإن عدد حملته هم ثمانية فقط كما ورد في الآية، وإن الله لا يمنعه أو يعجزه أن يذكر أعدادهم، حيث قال تعالى في آيات مختلفة: "أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين" {الأنفال: 9} وقال تعالى: "يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين" {آل عمران: 124} وقال أيضاً: "يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين" {آل عمران: 125}. بالتالي فإن تعيينه ثمانية ملائكة لحمل العرش يعني أنهم ثمانية فقط، وذلك ينفي ما ذكره الحسن حول تقديره لأعداد مختلفة للملائكة في الآية. والأمر الآخر هو ما ذكر بشأن الصور التي تكون عليها الملائكة كالأسد والثور والنسر، وقول العباس بن عبد المطلب أنهم في صورة

488 الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص109.

489 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص212.

الأوعال، وحساب الرازي للزمن بين أظلاف وركب الملائكة بسبعين عام أو كما ورد في سنن أبي داود بسبعمائة عام بين شحمة أذنه و عنقه. نقول: إن هذا غير معقول وغير متصوّر، لأن صور الحيوانات أصغر بكثير من حجم الملائكة، ولأن الملائكة منها أرواح مخلوقة من الله ومنها أرواح نبوية علمانية زاهدة تقية صادقة خالدة ويصعب أن تتحول إلى أشكال أو صور لحيوانات مطلقاً، بينما قد يحدث ذلك لغير المسلمين الذين تندمج أرواحهم مع طباع الحيوانات فتتحول إلى أرواح وأشكال حيوانية لكنها لا ترقى أبداً إلى أرواح الملائكة. ولأننا سنأتي في السطور التالية على ذكر أن الله لا نهاية له، وأنه لا كتلة ولا حجم ولا كثافة له، وهو غير متخيّل أو متصوّر أو متوقّع أو محسوس أو ملموس، فإذا كانت الملائكة تحمل عرشاً فيه كل هذه الصفات غير المدركة بالعقل الواعي أو اللاواعي، فإن الملائكة الثمانية هم نوع أكبر وأوسع مما يتخيّله العقل مجرد صورة مطابقة لما هو دنيوي. وكذلك الحال مع حساب الزمن من خلال شكل وحجم الملائكة في قول الرازي "بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً" أو "سبعمائة عام" كما ذكر أبي داود في سننه، لأن هذا الحساب للزمن وشكل حملة العرش، يعني حساب زمن وشكل وحجم وكتلة وكثافة الله عزوجل، وهذا مستنكر لأنه غير جائز وغير معقول، لأن الله خارج الزمن أو حسابات الحجم والكتلة والكثافة. وعموماً إن حديث الأوعال مشهور وقد ورد ذكره في كتب أهل العلم، ومروي في أكثر الكتب المسندة، فقد أخرجه أحمد في "المسند" (206/1)، وأبو داود في "السنن" (4723)، والترمذي في "السنن" (3320) وابن ماجه (193)، والدارمي في "الرد على الجهمية" (50)، والبزار في مسنده (134/4)، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في "العرش" (66/1)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد (234/1)، والحاكم في المستدرک

(410/2) وغير ذلك من كتب السنة⁴⁹⁰. ونحن نميل إلى العلماء أو رواة الحديث الذين قالوا بضعف هذا الحديث لأسباب كثيرة، ومنهم المزي الذي ضعفه في "تهذيب الكمال" (391/10)، وقال الذهبي في "العلو" (60/1)، ومن المتأخرين أيضاً العلامة الألباني في "السلسلة الضعيفة" (1247). بالنسبة لنا، نقول: إن هذه الآية تدل على أن الملائكة مخلوقون قبل خلق الكون والسموات والأرض، وبالتالي هم ليسوا مخلوقين من حرارة الشمس أو من النار، بل مخلوقون من الريح، فإذا قلنا بأن وجود الريح يدل على وجود حرارة سابقة قامت بتحريكه بهدف خلق الملائكة، فذلك يدل على أن هذه الحرارة أو الطاقة هي أمر من أوامر الله، وذلك الأمر هو الذي به خلقت الملائكة وخلقت السموات والأرض والجن والإنس، وإذا كانت الطاقة بأمر الله، فهذا يعني أن الله ليس مخلوقاً من الحرارة أو الطاقة، بل هي أمر من أوامره، وبالتالي فإن خلق الملائكة كان بسبب إنتاج الله للمادة ومن ثم طاقة هائلة وجدت عند خلق الكون، وهذه الطاقة هي التي تولدت عنها الرياح وخلقت منها الملائكة، ما يعني أن خلق الله متعدد فهو خالق كل شيء وهو القادر على إنتاج خلق آخر لقوله تعالى: "ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد" {إبراهيم: 19}.

المسألة الثانية: نقول: إذا كانت الملائكة من جنس بشري فإن البشر أو خلق الله أو عباد الله على الأرض ليس بإمكانهم حمل عرش الرحمن، وإن حمل عرش الرحمن هو من وظائف الملائكة باعتبار أن لهم خصائص محددة، وإن خلقهم من مادة الرياح والنور يجعلهم

⁴⁹⁰ <https://islamqa.info/ar/answers/88746/%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%88%D8%B9%D8%A7%D9%84-%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%B6%D8%B9%D9%8A%D9%81>

قادرين على الاضطلاع بهذه المهمة بحسب ما أراد الله لهم هذه الوظيفة في بداية الخلق وفي الدنيا والآخرة، وبالتالي هذا ينزع صفة الإنسية عن الملائكة، فهم ليسوا بشراً.

المسألة الثالثة: إن الخلق الإنسي أو البشر كلهم مأمورون من الله بواسطة القرآن الذي ينص على الأوامر والنواهي ويدل على التشريعات والعقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات وغيرها، في حين أن الملائكة مأمورون من الله مباشرة فقط، وهم مفظورون على الطاعة، وقد نزههم الله عن ارتكاب المعاصي.

المسألة الرابعة: إن أشكال وهيئات وصفات البشر تختلف عن أشكال وهيئات وصفات الملائكة، وقد أشرت إلى صفات وأشكال الملائكة في كتابي "الجلي النقي في معرفة الوحي" {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص322}. فالملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينعحون، وبالتالي إذا كانوا لا يأكلون ولا يشربون فإنهم لا يتبرزون، وإذا كانوا لا ينعحون فإن ذلك يدل على أن أعدادهم معروفة والمهمات الموكلة إليهم ثابتة منذ لحظة خلقهم، لكننا نقول إن الملائكة يتناكحون في الدنيا والآخرة وينامون ودليل ذلك قوله تعالى: "كذلك وزوجناهم بحور عين" {الدخان: 54}. وهذا يعني أن الأرواح النبوية العلمانية الصادقة الزاهدة النقية تصبح أرواحاً ملائكية وتتناكح وتنام لكن نومهم يكون رائقاً وشفافاً. وإذا كانت مادة خلقهم من عناصر الرياح الناتجة عن حركة الهواء الذي يتكون من مزيج من الغازات أهمها النيتروجين والأكسجين، والهواء لا لون ولا طعم ولا رائحة له، فإن الملائكة كذلك لا لون لهم ولا طعم ولا رائحة لهم، لكن لهم أشكال وصفات، وبالتالي هم ليسوا بشراً أو من نوع آدمي. عندما نقول خلقهم من الرياح فإنني أقصد العناصر المادية المكونة للرياح وأهمها النيتروجين والأكسجين، وهي تؤكد أن حركتهم مرتبطة بحركة الرياح السريعة

والبطيئة في إتمام الأوامر الإلهية. هناك آيات قرآنية تدل على سرعة حركة الجن والعفاريت وهي ثابتة في الشريعة الإلهية- لكن ذلك ليس له صلة بالملائكة- ولكننا سنذكر الآيات للتعرف على سرعة الحركة وذلك في قوله تعالى: "قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم" {النمل: 40}. وقوله تعالى: "قال عفريت من الجن أنا أتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين" {النمل: 39}. نلاحظ أن قوله تعالى: "قبل أن يرتد إليك طرفك" أي بلمح البصر، وهي مماثلة لقوله تعالى: "قبل أن تقوم من مقامك" يعني وأنت تفكر، وقبل أن تقوم من مقامك. السؤال هنا: هل يمكن القول إن الملائكة مخلوقون من نفس المواد التي تتكون منها الرياح/الهواء، وهي الأكسجين والنيتروجين؟

خلق الملائكة من العناصر المكونة للرياح/الهواء (النيتروجين والأكسجين)

نقول: نعم، سنشرح هذه المسألة بالتفصيل لكننا نقول إن آدم (عليه السلام) مخلوق من مادة الطين، والمادة سابقة على وجود آدم (عليه السلام). بالتالي فإن الخلق بدأ من المادة، وباستخدام هذه المادة، ومنها التراب/الطين، أي أن المادة سابقة على وجود الإنسان. ومن أهم هذه المواد الماء، وهو سابق على خلق الكون والكائنات الحية، بما فيها آدم (عليه السلام). بالتالي يكون أصل الإنسان مخلوق من المادة، والمادة خلقها الله، ومع ذلك لا يصح القول إن آدم (عليه السلام) الإنسان مادي؛ لأنه إذا تساوى مع المادة سيكون عدماً، والإنسان ليس عدماً بل هو روح أو فيه روح، والروح أسبق من المادة لأنها بأمر الله وأمر الله نافذ وهو أسبق من المادة، ولذلك وجب أن يكون الإنسان غير مادي

بل روعي، فمتى انتهت مادته عادت روحه التي نفخها الله فيه إلى السماء، وبذلك تنتهي حياته الدنيوية المادية في الأرض، لكن بعض الناس لا تنتهي مادته لأن مادة الأرض سهلة الصنع لكن مادة السماء صعبة الخلق، وبالتالي لا تنتهي روحه، فإما إن تحشر روحه في الدنيا مع مادته، وإما أن تتراوح بين السماء والأرض، وإما أن تصعد روحه إلى السماء، لكنه يكون مثل آدم (عليه السلام) مؤهلاً تأهيلاً دنيوياً لوسوسة الشيطان في الجنة، ويكون أمام استحقاق الرجوع إلى الأرض مرة ثانية وفق قدرة وتقديرات وأوامر الله كما جاء في قوله تعالى: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين" {الأنبياء: 104} وهنا نرى كيف أن الآية جاءت على ذكر كلمة "وعداً" والوعد هنا إلهي، وفيه صدق مطلق مع استحالة وقوع الكذب، لأن الوعد الإلهي يعني أن فيه مطلق القدرة على تحقيقه. وقد عبر الله عن إعادة الخلق القديم تحقيقاً للوعد في قوله تعالى: "إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد" {ق: 3}، ونلاحظ هنا أن ثمة علاقة بين "الوعد" وبين "الرجع البعيد" وهذا دليل على قدرة الله على إحياء الموتى كما في قوله تعالى: "أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى" {القيامة: 40}. إن ذلك الرجوع لا يكون للأنبياء والعلماء لأن أرواحهم مخلدة في جنات الفردوس.

نقول: إذا فهمنا موضوع الماء الدنيوي والماء السماوي، وكذلك موضوع علاقة شهوة الغذاء من خلال المساس بالشجرة التي بدأها آدم (عليه السلام) واستمرت في الأرض وستبقى مستمرة إلى يوم القيامة الكبرى، فإننا سندرك أن الوعد الإلهي بإعادة الخلق يتعلق بإنزال كل الذين وسوس لهم الشيطان للمساس بالشجرة العلوية أو الأرضية، فكل من مسّ أو تعلق بشجرته السماوية نزل إلى الأرض، وكل من مسّ أو تعلق بشجرته الأرضية بقي في الأرض، وكل من مسّ أو تعلق بكلتا الشجرتين السماوية والأرضية نزل إلى الأرض وبقي فيها ومات على هذا الحال من شهوته للغذاء، فقبل لهؤلاء: "ذلك

رجع بعيداً" وهذا مرهون بعمل كل بني آدم (عليه السلام) في السماء والأرض، وكل شهوة للغذاء تعتبر مدخلاً لباقي الشهوات وأبرزها شهوة الجنس التي منها نسل آدم (عليه السلام). في هذا السياق، نقول إن الإنسان إذا عاش في الأرض أو عاد إليها بعد موته أو بعد أن أوجد الله خلقاً جديداً فيها، فإنما سوف يكون ذلك كله وفق حسابات الشهوة الغذائية الدنيوية الأرضية. وخلال هذه المسيرة ما بين الأرض والسماء والإحياء والقيامة والعودة سيظل الصراع قائماً بين نوعين، وهما الإنس والجن. لذلك قال الله تعالى: "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً" {الجن: 6}. قيل: المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً، لكن من شر الجن، مثل أن يقول الرجل، أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادي. وقيل: "فزادوهم رهقاً" يعني: إثمًا وجرأة وطغياناً وخطيئة وغياً وشرًا⁴⁹¹. نقول: إن هذا التحدي بين رجال الإنس والجن إنما هو تحدي متعلق بالصراع بين الخالدين في الجنة والخالدين في الأرض والخالدين في النار، أو بمعنى آخر، بالبعث الأول والبعث الآخر، ومساحة هذا الصراع بين الأرض والسماء، لقوله تعالى في الآيات التالية من نفس السورة: "وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً (7) وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً (8)". أما بالنسبة للملائكة، فهي مخلوقة من مادة الأكسجين والنيروجين بالدرجة الأولى، وهاتين المادتين موجودتين في الهواء وبالتحديد في غلاف الأرض الجوي، والمادتين خلقهما الله، ومع ذلك فإن الملائكة ليست كائنات مادية، لأنها إذا تساوت مع المادة فسوف تكون عدماً، والملائكة ليست عدماً، بل هي أمر من أوامر الله، وأمر الله نافذ وأسبق من المادة، فكما أن الإنسان روح، فإن الملائكة روح ونور، والروح

⁴⁹¹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص156.

موجودة قبل المادة وقبل خلق الكون لكن للملائكة طاقة مطلقة بسبب خلقها من مادة النيتروجين الذي يحتوي على طاقة هائلة ويُنتج منه المواد المتفجرة، وإن إنتاج النيتروجين السائل يتطلب كمية هائلة من الطاقة لإنتاجه، وهو مكوّن لجميع البروتينات، لكن وجوده في الملائكة لا يكون إلا على الشكل الذي أوجده الله وخلقها منه. إن النيتروجين فيه قدرة فاعلة لتشغيل وإدارة حركة أرواح الملائكة وجعل طاقتها هائلة وسريعة ومتحركة، وهذا ما يفسر قدراتها الهائلة على القيام بواجبات ذات قيمة وهامة مثل حمل عرش الرحمن والقيام بواجبات غير آدمية (بشرية) مثل الخلق (الإحياء) والإماتة والبعث وغير ذلك من المهام الموكلة من الله والتي يأمرها بتنفيذها. ندرك مما سبق ذكره، أن النيتروجين والأكسجين يدخلان في خلق الملائكة، وأن الأكسجين من أبرز المواد المعدنية التي تدخل في تركيب التربة/الطين وهي مادة خلق آدم (عليه السلام)، وأن تفاعل غاز الأكسجين والهيدروجين ينتج لنا الماء وهما من عناصر خلقه، وأن الأكسجين يدخل في مراحل نمو النباتات، وأن الأكسجين هو من أبرز العناصر الموجودة في سطح القمر، وأن الشمس تتكون من أبرز عنصرين وهما الهيدروجين والهيليوم، وأن أبرز غازات غلاف الأرض الجوي هما النيتروجين والأكسجين، وأن أبرز عناصر الغلاف الخارجي هما الهيدروجين والهيليوم، حيث أن الإشعاع الكهرومغناطيسي يستطيع النفاذ عبر الغازات الموجودة في الهواء الجوي. بالتالي فإن الاستنتاج يقوم على أن الأكسجين عامل مشترك في كل كائن أو خلق سماوي وأرضي، ومنه الملائكة والإنس والنباتات والحيوانات. كما أن النيتروجين عامل مشترك في خلق الملائكة، وهو موجود في غلاف الأرض الجوي، وهذا ما يفسر ظهور أو نزول الملائكة من السماء أو وجودها في هذه البيئة أو الحاضنة الأصلية للنيتروجين كحلقة وصل بين السماء والأرض، أي بين الله ورسله وكافة عبادته، ما يعني أن هناك انسجام تام بين مادة خلق الملائكة والغلاف الجوي الأرضي لإمكانية نزول

بعض الملائكة من خلاله إلى الأرض لتنفيذ أمر من أوامر الله، وهناك انسجام تام بين مكونات مادة الماء وهما الهيدروجين والأكسجين، مع النيتروجين. ومما يدل في القرآن على وجود الملائكة في السماء قوله تعالى: "وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى" {النجم: 26}، وقوله تعالى: "قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً" {الإسراء: 95}. أما الهيدروجين فهو عامل مشترك في خلق الماء، وكذلك هو من أبرز مكونات الشمس، وأيضاً هو من أبرز عناصر الغلاف الخارجي وليس الأرضي. وهنا يبرز سؤال أيهما يوجد فيه نسبة الهيدروجين أكثر، الماء أم الشمس أم الغلاف الخارجي؟

نسبة الهيدروجين في الماء، والشمس والغلاف الخارجي

ولقد وجد أن أبسط ذرة في الكون هي ذرة الهيدروجين، لأن النواة تحمل بروتوناً واحداً، والمدار الخارجي منه إلكترون واحد⁴⁹². نقول: إن نسبة الماء إلى نسبة الشمس غير متساوية، وبالتالي فإن نسبة هيدروجين الماء أكبر من نسبة هيدروجين الشمس، لأن نسبة أو وفرة الماء موجودة في الأرض وفي الغلاف الأرضي وفي الفضاء الخارجي وهذه حقيقة، والأهم أن الماء هو أساس خلق السموات والأرض، حيث أن الله خلق الكون من تفاعل الحرارة مع الماء الذي تولدت عنه طاقة هائلة، ومنها تكونت الشمس والكون وباقي الأجرام السماوية في الفضاء الخارجي، فالماء أعم وأشمل من الشمس ومن السموات والأرض ومن الكون كله، ولأن الله جعل من الماء كل شيء حي ولأن عرشه استوى على الماء كما ورد في الآيات القرآنية،

⁴⁹² خالص جليبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص94.

بالتالي كان هيدروجين الماء أولاً وأخيراً، ولأن الماء يحتوي على الأكسجين، فإن عنصري الهيدروجين والأكسجين هما الأساس الذي بنى عليه الله كل شيء خلقه، وهما مادتين من صناعة الخالق، وبالتالي هما مادتي الكون والخلق والكائنات الحية أجمعين. هنا يبرز سؤالان وهما:

- السؤال الأول: هل خلقت الملائكة قبل خلق الماء أسفل عرش الرحمن (الله) أم بعده؟
- السؤال الثاني: ما علاقة الهيدروجين بـ (النيتروجين والأكسجين) اللذان يدخلان في خلق الملائكة؟ أو بمعنى آخر، هل يدخل الهيدروجين في خلق الملائكة؟

خلق الملائكة قبل أم بعد خلق الماء أسفل عرش الرحمن (الله)

إجابة على السؤال الأول، نقول: إن الملائكة مخلوقة من مادة النيتروجين، ولذلك يُفترض أن تكون المادة ذاتها وجزئياتها مخلوقة قبل خلق الملائكة، علماً بأن الماء هو المادة الأبرز المذكورة في القرآن كأول مادة مخلوقة باعتبار أنها تقع أسفل عرش الرحمن مباشرة لقوله تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء" {هود: 7}. نقول إن النيتروجين ليس من العناصر المكونة للماء، لأن الماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وبالتالي فإن النيتروجين الذي خلقت منه الملائكة يفترض فيه احتمالان: الأول: أن يكون موجوداً أعلى من مادة الماء، أي يقع النيتروجين فوق الماء، وبالتالي هو موجود كمادة قبل خلق مادة الماء (ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسجين) أو أنه نتج عن مادة أخرى. والثاني: أن تكون الملائكة (ومادة النيتروجين) مخلوقة بالتزامن مع عملية خلق مادة الماء (ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين). والثالث: أن تكون الملائكة (مادة النيتروجين) مخلوقة بعد خلق الماء (ذرتي

هيدروجين وذرة أكسجين). نقول الاحتمال الأول هو الأكثر ترجيحاً ودقة لأن الملائكة مخلوقون من مادة (النيتروجين)، لكن العلم وعملية خلق المادة وخلق السماوات والأرض لم تثبت وجود النيتروجين قبل خلق مادة الماء المكونة من (ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين) لكننا نقول إنه موجود بصيغة النيتروجين أو أنه نتج عن مركب آخر غيره. أما الاحتمالين الثاني والثالث فهما جائزان من ناحية عملية كأثر فاعل للاحتتمال الأول، وبالتالي فهما تابعان للاحتتمال الأول، ويدفعاني إلى القول بوجود نوعين من الملائكة، أولهم (الاحتمال الثاني) أن يكون الملائكة مخلوقين بالتزامن مع خلق مادة الماء (ذرتي الهيدروجين والأكسجين) وهم ملائكة من نوع مخصوص ولهم قدرات فائقة وغير متخيلة. وبذلك فإن الملائكة وجدت في كل مكان قبل وبعد خلق السماوات والأرض، علماً بأن الإنسان عندما يحاسب يوم القيامة، فإن روحه هي التي تحاسب، والروح إما أن تسكن وتخلد في الجنة وإما أن تسكن في النار. بالتالي هذا نوع من الملائكة شداد ولهم قوة وعظمة وهم أقرب الخلق إلى الله وليس قبلهم ولا بعدهم أحد أعلم بالأوامر التي يليها الله إلى مخلوقاته. أما الملائكة المخلوقين بعد خلق الماء (الاحتمال الثالث) فيكون ذلك من خلال النيتروجين الموجود في غلاف الأرض الجوي وبالتحديد في طبقة التروبوسفير (Troposphere) بنسبة (78%) والأكسجين بنسبة (21%)، وهنا نقول: إن هذا النوع من الملائكة هم ملائكة الحياة الدنيوية وهم أقل مرتبة من ملائكة الحياة العلوية. والذي جعل الملائكة مخلوقين من النيتروجين هو نزولهم من أسفل عرش الرحمن بهدف تنفيذ الأوامر الإلهية في خلق السماوات والأرض، فالذي يجعل بينهم وبين ملائكة الحياة العلوية (عرش الرحمن) وصل دون انقطاع هو خلقهم الكون في ستة أيام من خلال نزولهم لإتمام هذه المهمة، وبالتالي فإننا نقول: إن خلق الملائكة حدث بالتزامن مع خلق الماء وهذا ما جعل مادة خلقهم هي النيتروجين، وليس عنصري الماء (الهيدروجين أو

الأكسجين)، أي أن النيتروجين انبثق أو وُجد كمادة في الكون عند لحظة الانفجار (فتق الرتق) لخلق السماوات والأرض لقوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}.

علاقة الهيدروجين بعنصري خلق الملائكة (النيتروجين والأكسجين)

إذا كان هناك علاقة بين عنصري الماء (الهيدروجين والأكسجين) مع النيتروجين، أو إذا ما كان النيتروجين نتج عن اتحاد عنصري الماء الذي يتولد عنه انفجار عند اتحادهما، فنقول نعم، لأن النيتروجين وجد في الكون نتيجة انفجار عنصري (الهيدروجين والأكسجين) ولكن ليس هناك أي دليل علمي مخبري أو تجربة تدل على إنتاج النيتروجين من مادة الماء (عنصري الهيدروجين والأكسجين)، وذلك غير ممكن؛ لأنه ربما يتطلب حدوث أو وقوع انفجار مشابه للانفجار الكوني العظيم، وهذا غير ممكن حدوثه مثلما هو غير ممكن صناعة الماء من خلال اتحاد ذرتي الهيدروجين مع ذرة أكسجين لأن ذلك سوف يسبب انفجاراً هائلاً يصعب التحكم فيه. نسأل هنا، كيف يمكن أن تكون مادة الملائكة هي النيتروجين مع العلم بأن هذه المادة (النيتروجين) نتجت عن انفجار كوني ناري هائل يدخل فيه عنصر النار والطاقة؟ بمعنى آخر، يفترض أن تكون الملائكة غير نارية أو مادتها ليست كمادة إبليس المخلوق من نار؟

علاقة مادة الملائكة (النيتروجين) بالطاقة الناتجة عن (فتق الرتق)

نقول: سوف نسمي عملية إنتاج النيتروجين (مادة الملائكة) الناتجة عن الانفجار الكوني الناري الهائل عملية (الهابط صاعد) وهذه العملية

تعتبر بمثابة رحلة الفاعلية أو تفعيل جهد الملائكة بعد وقوع الانفجار الكوني العظيم، لأن عرش الرحمن (الله) كان فوق الماء لقوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7}، وكانت هذه الملائكة تحمل هذا العرش أو تحيط به لقوله تعالى: "والمَلَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" {الحاقة: 17} وقوله تعالى: "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين" {الزمر: 75}. إذا فهمنا الوصف الإلهي لمكان عرشه بأنه "على الماء" وأن الملائكة "حافين من حول العرش" فسوف ندرك بأن موقع الملائكة يقع أعلى من الماء لأنهم موجودون حول العرش أو على حوافه، والعرش أعلى من الماء، ما يعني أن علاقة الملائكة مع الماء هي علاقة إحاطة بالماء، وهذا يفيد بالقول إنهما خلقا بالتزامن مع بعضهما البعض. بالتالي نستنتج أن وجود الملائكة أسبق من وجود مادة الماء المكونة من (ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسجين)، ما يعني أن مادة النيتروجين موجودة قبل وجود مادة الماء. كما أن الملائكة الأصليين والأساسيين الذين حملوا العرش، ولا يضاھيهم أحد في الكون كله عددهم ثمانية، وهؤلاء هم أشد وأعظم خلق الله، ولا يمكن لبشر أن يتجاوزهم أو يتمكن من حمل عرش الرحمن مثلهم. بشكل تفصيلي، عندما أعطى الله الأمر للملائكة بخلق السماوات والأرض، فإن الملائكة أخذوا الأمر إلى الماء لتنفيذ المهمة، فحدث اتحاد بين (ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسجين) ونتج عن هذا الاتحاد تفاعل حاد أدى إلى انفجار الكون، فلحقت الملائكة بالانفجار لتثبيت ميزان عناصر المادة في السماء والأرض، فكانت مادة خلق الملائكة وهي النيتروجين موجودة في كل مكان في السماوات والأرض ومستقرة في غلاف الأرض الجوي وكذلك الملائكة. بالتالي فإن عملية (الهابط صاعد) تعني أن الملائكة هم الهابطين بمكون مادتهم (وهي النيتروجين) والصاعدين الثابتين هم الملائكة الثمانية (حملة عرش الرحمن) الذين نفذوا مهمة خلق السماوات والأرض،

وهؤلاء هم أنفسهم الذين صعّدوا أو عادوا إلى عرش الرحمن (الله) لحمله، وعلى إثر الصعود ذكرت جملة "استوى على العرش" في إشارة إلى أن الله انتهى من المهمة، وقد كانت هذه المهمة ليست من خلال تنفيذ الله الخلق بنفسه، بل من خلال إعطاء الأمر للملائكة بتنفيذ أمر خلق السماوات والأرض. أما جملة "استوى إلى السماء" في قوله تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم" {البقرة: 29} فإن هذا الاستواء إلى السماء يختلف عن الاستواء عن العرش لكن الاثنين من خصوصية الله وحده، لأن الاستواء إلى السماء يقصد به استواء ملائكة الله إلى السماء، وهذه المسألة اسميتها "استواء التوكيل" بلغة الأمر أي أن الله أوكل ملائكته بالاستواء إلى السماء من أجل القيام بمهمات إلهية وتنفيذ أوامره في السماوات والأرض. وقد سبق أن شرحنا الفرق بين قوله تعالى: "استوى إلى السماء" {البقرة: 29} وقوله تعالى في خمس آيات: "استوى على العرش" {السجدة: 4}. {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص 196}. بالإضافة لما سبق، نقول إن هناك ملائكة أرضيين يسبحون في الطبيعة هؤلاء أدنى درجة من الملائكة العلويين، ولكنهم غير مخلوقين من النيتروجين، بل من الهيدروجين الذي هو مكون أساسي في مادة الماء، (مع الحرص على أن المادة الأساسية في خلق الملائكة هي النيتروجين) وهنا أشير إلى أن القرون الحديثة شهدت البشرية معرفة الهيدروجين الأخضر، الذي يتم إنتاجه من خلال استخدام تيار كهربائي (التحليل الكهربائي) لفصل الهيدروجين عن الأكسجين في الماء. والماء موجود أسفل عرش الرحمن (الله). كما أن الهيدروجين الأخضر لا ينبعث منه غازات ملوثة أثناء الاحتراق أو الإنتاج. هذه المسألة تقودني إلى تقسيم الملائكة إلى ثلاثة أقسام: أولاً: ملائكة علويين سماويين، مثل حملة العرش وجبريل. ثانياً: ملائكة أرضيين دنوبيين، ومنهم ملائكة الرعد والبرق والخسف. ثالثاً: ملائكة مرتبطتين بالحياة الطبيعية، ومنهم ملائكة التسبيح والاستغفار والمراقبة

مثل عتيد و رقيب. نقول هنا إن الملائكة الأرضيين الدنيويين وملائكة الحياة الطبيعية تتركب أرواحهم من الهيدروجين الأخضر، فلا تنبعث منهم غازات ولا يحترقون وتتماهى أرواحهم مع الطبيعة الخضراء دون أن يكونوا جزءاً من الطبيعة الحيوانية البهيمية، وهم بذلك يحققون أصالة المشروع الإلهي في سبب خلق الكون من خلال إحياء الأرض وعدم الإفساد فيها، لكن هذا الإحياء يعتبر تثبيتاً لقصة الشجرة التي مسّها آدم (عليه السلام)، ولذلك أسميهم ملائكة الهيدروجين الأخضر، ونقول إنهم ملائكة المهمات الإصلاحية والأخلاقية الدنيوية، فهم حراس الطبيعة. أما الملائكة العلويين وفوق علويين فإن أرواحهم تتركب من النيتروجين والأكسجين وهما أقوى وأرفع أنواع الملائكة.

هنا أ طرح أربعة أسئلة هامة كما يلي:

أولاً: ماذا عن مادة الخالق، أي هل الله مخلوق من المادة؟

ثانياً: ما هي علاقة الطاقة بالضوء أو بمعنى آخر، كيف تنتج

الطاقة الضوء وتتحكم به؟

ثالثاً: ما هي علاقة إنتاج الطاقة للضوء بالحركة؟

رابعاً: ما صلة هذه العلاقة بنشأة الكون وعلاقتها بالخالق؟

مادة الخالق (هل الله مخلوق من المادة؟)

نقول إننا ننكر إنكاراً تاماً ومطلقاً أن يكون الله مخلوقاً من المادة أو الطاقة التي تتضمن الحرارة أو أن يكون كتلة أو حجماً أو كثافة أو روحاً أو شيئاً محسوساً أو ملموساً؛ لأن المادة والطاقة من أوامره التي خلق منها الملائكة والسماوات والأرض والكائنات الحية بأنواعها (الجن والإنس)، وقلنا إن الحرارة التي تولد الطاقة هي بأمر الله، وبالتالي فإن الله لا يتساوى مع أمر من أوامره، أي لا يتساوى مع الطاقة التي أوجدها، وإذا كانت الطاقة بأمر الله، فهذا يعني أن الله ليس مخلوقاً من الحرارة أو الطاقة. وإذا قلنا إن الله ليس طاقة ولا مادة،

فهذا يعني أن الله هو الوحيد الذي يملك الحق المطلق بأمر خلق المادة والطاقة، وإدارتهما في الكون وهو القائل سبحانه وتعالى: "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين" {الأنعام: 59}. ويقول تعالى: "إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء" {آل عمران: 5}. بالتالي قبل نشأة الكون لم يكن هناك مكان ولا زمان ولا مادة ولا طاقة، ولكن على وجه الدقة نقول كان هناك خالق للمادة والطاقة وقادر على إيجادها في الكون. فخلق المادة والطاقة لم تأت من العدم، وعلى ذلك نقول إن الله ليس عدماً، لأن فوق ذلك كله نظام إلهي لا يحيط به العلم ولا يعرف عنه شيء سوى الله. وللزيادة على حجتنا، نقول: إن الله لا يتساوى مع الكون الذي خلقه حيث قال تعالى في القرآن: "والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون" {الذاريات: 47} أي أنه لا يتساوى مع الاتساع في الفضاء الخارجي الذي لا نهاية له، ما يعني أن الله لا نهاية له. كما أن عرشه استوى على الماء كما ورد في قوله تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء" {هود: 7} وبالتالي فإن الله لا يتساوى مع عنصر الماء الذي خلقه واستوى عليه، وإذا كان الماء قد خلق نتيجة اتحاد ذرتي أكسجين وهيدروجين وهما يولدان انفجاراً هائلاً عند اتحادهما لا يمكن التحكم به، فذلك يعني أن الله لا يتساوى مع مادة عناصر الماء، ولا مع القوة الهائلة الناتجة من الطاقة التي يولدها اتحاد الذرتين. ولأن الماء لا لون ولا طعم ولا رائحة له، فإن الله يكون أكبر بكثير من هذه الخصائص. بالتالي فإننا ننكر على من يقول إن الله طاقة أو يتساوى مع الطاقة، بل إنه ليس طاقة ولا حتى ماء، ما يعني أنه يرفع عنه صفة المادة، وبما أن المادة لها كتلة وحجم وكثافة، وأن الله لا يحمل صفات المادة، فإن الله ليس له كتلة وليس له حجم وليس له كثافة، بل هو أسمى من أن

يكون مادة وهو لا نهاية له، وهو الموصوف في قوله تعالى: "ليس كمثل شيء وهو السميع العليم" {الشورى: 11}.

علاقة الطاقة بالضوء (كيف تنتج الطاقة الضوء وتتحكم به؟)

نقول: هناك جانب شرعي علمي، وآخر علمي تقني. أما الشرعي العلمي، فإن هناك ثابت أصيل يتعلق بوجود الماء تحت عرش الله، كما أسلفنا، وأنه خلق من الماء كل شيء لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}. بالتالي نقول: إنه لا يوجد مادة أخرى أعلى من مادة الماء وذراتها (الهيدروجين والأكسجين)، ولا يوجد مادة أو شيء آخر فوق الماء سوى عرش الرحمن، وإن الطاقة التي أنتجت الضوء متولدة عن عودة الإلكترون إلى مستوى الطاقة الأصلي في الغلاف الذري الإلكتروني، وهي نفسها الطاقة التي نتجت عن تصادم ذرات الماء، وهما (ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين)، وهما اللذان أنتجا الانفجار الكوني. ونقول: إن اتحاد جزيء الهيدروجين مع جزيء الأكسجين في الحالة الغازية لا يمكن إتمام هذا التفاعل الكيميائي في المختبر، لأنه ينتج عنه طائلة هائلة تدميرية. بالتالي فإن هذا التفاعل حدث فقط عند خلق الكون، وكان ذلك من خلال حركة واتحاد ذرات جزيء الهيدروجين مع ذرات جزيء الأكسجين. وقتها كانت الموجات الكهرومغناطيسية Electromagnetic Waves تنتشر في الفراغ (الفضاء الخارجي) الذي يقع أسفل عرش الرحمن، أي موجات تسبح وسط ذرات هيدروجين وأكسجين، وكان الهيدروجين والأكسجين موجودان في الفضاء الخارجي، وإن اتحادهما نشأ من خلال عملية تفاعلها الحركي، وتزامناً مع تصادمهما نتجت سرعة الضوء التي كونت الكرة الأرضية. وكان ذلك نتيجة علاقة الطاقة بالمادة، ومن ذلك وصل أينشتاين إلى طرح نظرية النسبية الخاصة عام 1905م، والنسبية

العامّة عام 1916، وفيها وصل إلى توحيد الطاقة بالمادة، عبر المعادلة المشهورة (الطاقة = الكتلة المتحوّلة مضروبة في مربع سرعة الضوء التي تبلغ 200 ألف كيلومتر في الثانية الواحدة)⁴⁹³.

علاقة إنتاج الطاقة للضوء بالحركة

نقول: إن هناك شيئاً يسبق علاقة الطاقة بالمادة وهي علاقة الحركة (التفاعل) بالمادة الذي أنتج الطاقة، لأننا نقول إن الحركة (التفاعل) أسبق من الطاقة ومن سرعة الضوء، والسرعة مرتبطة بالحركة والتفاعل معاً، لكن الحركة سابقة على التفاعل، وهذا ما يفسر لنا كيف أن تمرير الماء المتكوّن من اتحاد الذرتين عبر دوّلاب متحرك أو توربين سريان الماء ينتج عنه طاقة حركة، والتي يمكن تحويلها إلى الطاقة الكهربائية، وهكذا نحصل على الكهرباء من صفة جريان الماء. فالأصل هو الحركة، ثم التفاعل، ثم الطاقة، ثم الضوء، ثم السرعة، ثم الحدث وهو الانفجار (فتق الرتق). وهذا كله حدث في أجزاء من الثانية، لكن وفق تقديرات إلهية منضبطة ودقيقة ومنظمة وليس فيها عشوائية، وهذا ما تم تأكيده لاحقاً في القرآن لقوله تعالى: والشمس والقمر بحسبان {الرحمن: 5} وقوله تعالى: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون {يس: 40}. بالإضافة إلى ما سبق، نقول: إن ثمة علاقة بين الخالق وبين المادة من ناحية ما هو موجود بينهما، وأهم ما يوجد بينهما هو العقل والمثل. في هذا السياق نقل مهتدي الأبيّض عن ملا صدرا الشيرازي في كتابه "الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة العقلية" ما ذكره عن علاقة الله بخلقه من خلال الأسفار الأربعة وهي: أولاً: من الخلق إلى الحق: بمعنى أن الإنسان عليه بالسفر من عالم المادة والكترة إلى معرفة الله،

⁴⁹³ خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ج 1، ط 1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص 75.

حيث إن المبدأ هو عالم المادة، والمنتهى هو الوحدة والفناء في ذات الله. والسفر هنا بمعنى سفر معنوي يأتي من خلال المعرفة والعبادة والسلوك⁴⁹⁴. نقول: إن الذي يجعل السفر من عالم المادة إلى عالم معرفة الله أمراً حقاً وأصيلاً وواجباً أخلاقياً هو إدراك أن أمر الفناء والإحياء بيده وأن كل سفر معنوي أخلاقي روحاني غير شهوي وغير قذر سوف ينتهي حتماً إلى حوض الله الروحي، وحوضه هي جنات الفردوس الأعلى التي يتحقق فيها كمال الإنسان في روحه وليس في بدنه، فيصبح غذاء روحه مزيداً من الأرواح المشابهة له. بناءً على ما سبق قسّمت هذه العوالم وفق تعريفات: **فالأول: عالم الربوبية:** وهو عالم واجب الوجود ويشتمل على جميع الحقائق والكماليات الوجودية على وجه أتم وأشرف، وينحو الوحدة والبساطة، وهذا العالم هو الله مصدر كل المخلوقات ومنها الإنسان. **والثاني: عالم العقل:** وهو عالم الصادر الأول وأول موجودات عالم الإمكان وأعلى مراتب الوجود الإسكاني وأقربها من الواجب تعالى، وهذا العقل مجرد عن المادة. **والثالث: عالم المثل:** وهو العالم الثاني بعد عالم العقل من الموجودات الممكنة، مجرد عن المادة لكنه مجرد من المادة، لأن هذا العالم هو الوسيط بين عالم العقل وعالم المادة. **والرابع: عالم المادة:** وهو عالمنا المحسوس، وهو أدنى العوالم الإمكانية وآخرها مرتبة ووجوداً، ويتميز عن عالم العقل والمثل وتعلقه بالمادة ذاتاً وفعلاً وأثراً، والمادة هي محض القوة والاستعداد⁴⁹⁵. وهناك عوالم أربعة أخرى حسب الفكر العرفاني أو الصوفي هي: اللاهوت، الجبروت، الملكوت، عالم المثل (ويضيف ابن عربي وآخرون إلى هذه العوالم عالم الحس أو الناسوت ويصبح بذلك خمسة عوالم)⁴⁹⁶. نوافق التقسيم الأول للعوالم

⁴⁹⁴ مهتدي الأبيض، اجتماعية التدين الشعبي، دراسة تأويلية للطقوس العاشورانية، ط1، (بيروت: الرافدين، 2017)، ص41.

⁴⁹⁵ المصدر السابق، ص38، 39.

⁴⁹⁶ جون كولون، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، العدد 1995، 99، ص58.

الأربعة (الربوبية والعقل والمُثل والمادة)، لكننا نقول إن هناك عالم آخر يضاف إليها، وهو "عالم الإحيائية"، وهذا عالم مخصوص ويشكل حالة متفردة في القرآن، وهو عالم له زمن وله خصائص تنسجم مع العوالم الأربعة وله صلة وثيقة بها، لكنه على وجه التحديد يقع فوق المادة أو بين المادة وعالم الربوبية، وبين عالم الربوبية والعقل، وبهذا العالم الإحيائي أوجدت الحياة وكل ما فيها من خلق السماوات والأرض وإحياء الكائنات الحية، وأهمها نوع بني آدم (عليه السلام) والنباتات والحيوانات، وهذا العالم له زمن تماماً مثل خلق الإنسان ومن ضمنه العقل، ونقول إن "العالم الإحيائي" يقع بين خلق الكون أو الانفجار العظيم (فتق الرتق) وخلق آدم (عليه السلام). أما "عالم المُثل" فإنه يتطابق أو يوازي عالماً آخر وهو "عالم القيم الأخلاقية" وهذا العالم تمثله الضوابط والأحكام الشرعية الموجودة في القرآن والسنة. أما بالنسبة "لعالم المادة" فإنه آخر العوالم من حيث المرتبة، لكنه أيضاً أول وآخر العوالم من حيث وجوده، لأنه أول عالم أوجده الله قبل خلق الكون والكائنات الحية، وآخر ما يفنى في الوجود بعد فناء الكون والإنسان.

نسأل هنا سؤالين كما يلي:

السؤال الأول: مما يتكون الغلاف الذري الإلكتروني؟ وما علاقته بالضوء؟

السؤال الثاني: لماذا نقول إن الضوء عبارة عن أمواج كهرومغناطيسية؟

مكونات الغلاف الذري الإلكتروني وعلاقته بالضوء

الغلاف الذري الإلكتروني يعرف بمستويات الطاقة وهو جزء من مكونات أو أجزاء الذرة، ويحيط حول النواة، وتدور فيه الإلكترونات التي تحمل الشحنة السالبة ودائماً عندما تكون الذرة متعادلة كهربائياً

تتساوى عدد الإلكترونات التي تدور في غلاف الطاقة الذري مع عدد البروتونات الموجبة الموجودة في النواة. ويمثل عدد الإلكترونات العدد الذري لكل ذرة. أما علاقة الغلاف الذري الإلكتروني بالضوء، فنقول إن بعض الإلكترونات الموجودة في الغلاف الذري الإلكتروني (مستويات الطاقة) يحدث لها عملية تحرر، أي تنتقل من الغلاف الذري الموجودة فيه إلى غلاف ذري آخر، سواء كان أكبر منها في الطاقة أو أقل منها في الطاقة لأن لكل غلاف ذري طاقة معينة تختلف عن الغلاف الآخر أو الأغلفة الأخرى. عند امتصاص الإلكترون لكمية معينة من الطاقة، يتأثر بفعل الحرارة (التسخين)، فهذا يحفز الإلكترون على أن يقفز إلى مستوى طاقة أو غلاف ذري أعلى منه بالطاقة، حيث لا يستطيع الإلكترون البقاء في نفس مستواه، وهذه العملية تسمى بعملية (إثارة الإلكترون). بقاء الإلكترون في مستوى طاقة أعلى من مستواه لا يدوم فيعود الإلكترون إلى مستواه الطبيعي (المستوى الأصلي الذي كان فيه) فينشأ عن عودة الإلكترون ضوء، والضوء يتكون من جسيمات، تسمى الفوتونات ويكون على شكل أمواج كهرومغناطيسية، وهذه الجسيمات (الفوتونات) والأمواج الكهرومغناطيسية تحمل كمية محددة من الطاقة، ما يعني أن كل عودة للضوء هي على شكل أمواج كهرومغناطيسية، فالضوء عبارة عن أمواج كهرومغناطيسية، (يعني تنتقل في الفراغ دون الحاجة إلى وسط مادي كي تنتقل فيه، كالوسط الغازي مثل الهواء الجوي، والوسط الصلب مثل الحديد أو المعادن، والوسط السائل مثل الماء، أو مثل وصول أشعة الشمس إلى الأرض رغم المسافة الكبيرة بين كوكب الأرض والشمس)، والضوء جسيم لا يصل إلى كوكب الأرض يحتاج إلى وسط مادي كي ينقله، أي الهواء أو الماء وكافة الأشياء الصلبة. والضوء له سرعة وتردد، وهي أقصى سرعة تستطيع أن تسافر بها كل أشكال الطاقة أو المادة في الفراغ، وهي تعادل 3×10^8 م/ث (متر في الثانية) أو 300000 كم في الثانية تقريباً أو حوالي

مليار كم في الساعة، وهو ثابت أساسي في الكون. أما الصوت فيعتبر أمواج ميكانيكية لا ينتقل في الفراغ، بل يحتاج إلى وسط مادي كي ينتقل فيه، فلا نستطيع سماع صوت شخص في دولة أخرى فتتصف صفات أمواج الصوت بأنها أمواج تتكون من جسيمات. ينشأ الضوء من اختلاف مقدار الطاقة بين أغلفة الطاقة الذرية وأيضاً لون الضوء يختلف حسب نوع الذرة، وهذا يعني أن كل ذرة لها لون تهيج مختلف عن الذرات الأخرى (والتهيج يعني أن إلكترون الذرة أثير نتيجة امتصاص طاقة فانقل إلى مستوى ذري أعلى من طاقة مستواه) أي أن الفوتونات تنشأ عن انتقال الإلكترونات بين مستويات الطاقة الأعلى إلى الأدنى داخل الذرة، علماً بأن الفوتون المنبعث عن تأثر الذرة بالحرارة يتحرك بمجرد انتقاله بسرعة 300 مليون متر في الثانية وسرعته ثابتة لا تتغير. بالتالي نستنتج بأن الطاقة التي أنتجت الضوء هي متولدة عن عودة الإلكترون إلى مستوى الطاقة الأصلي في الغلاف الذري الإلكتروني. كما أن الطاقة التي نتجت عن تصادم ذرات الماء، ومنها الهيدروجين والأكسجين كانت متولدة من تفاعل إلكترون مع إلكترون آخر. كما أن أشعة غاما تقدر طاقتها بمليون إلكترون، ما يعني أن الإلكترونات أصل في التفاعلات الكيميائية.

وهنا يبرز لدينا عدد من الأسئلة كما يلي:

- السؤال الأول: ما هي أنواع الإلكترونات؟
- السؤال الثاني: ما هو الفرق بين الإلكترون الحر المغلق (محدود) مسار الحركة، والإلكترون الحر المفتوح مسار الحركة؟
- السؤال الثالث: ما هي حالات سقوط الإلكترون؟ وهل يمكن أن يسبب الفناء؟

أنواع الإلكترونات

إذا أخذنا مثال على عنصر الهيدروجين، أول الذرات وجوداً وأبسط وأصغر الذرات، فهو يتكون من إلكترون واحد وبروتون واحد، وسوف نلاحظ أن غالبية مصادر الضوء، مثل الشمس والنجوم والقمر وغيرها تحتوي على هذا العنصر (الهيدروجين)، وبالتالي فإن مصادر الطاقة فيها بلايين الإلكترونات والبروتونات، وذلك يفسر دخول إلكترون عنصر الهيدروجين، وهو من ذرات جزيء الماء في ظروف حدوث الانفجار الكوني الذي نتج عنه خلق الكون، كيف ذلك؟ نقول: الثابت أن نواة الهيدروجين تحتوي داخلها بروتون واحد فقط، وهي تقع في قلب الذرة، ويدور حول نواة الهيدروجين إلكترون واحد في مستوى الطاقة الأول ولديه إمكانية للتنقل عبر مستويات الطاقة الأعلى عند امتصاص طاقة من الخارج تمكنه من الانتقال لهذه المستويات. إن وجود الإلكترون بشكل حر مجرد في الهواء الجوي أو على سطح الأرض (يعني خارج مكونات الذرة أو دون أن يكون من مكوناتها) سوف يكون سيل من الإلكترونات الحرة سالبة الشحنة التي سوف تتفاعل مع جسم الإنسان والحيوان وتؤدي به إلى حدوث صعقات أو صدمات كهربائية وسوف تؤدي إلى هلاكه أو هلاك الحياة على سطح الأرض. على سبيل المثال: الأسلاك الكهربائية تتكون من ذرات معادن يسري من خلالها الإلكترونات، فإذا لمس الإنسان سلكاً كهربائياً معزولاً فإنه لا يؤذيه، لكن إذا لامس الإنسان سلكاً كهربائياً مكشوفاً فسوف تنتقل الإلكترونات الحرة في هذا السلك إلى جسم الإنسان، وتصيبه بصدمة كهربائية تؤدي إلى وفاته أو حدوث اضطراب فيه. ولذلك فإن التيار الكهربائي يعتبر سيل من الإلكترونات الحرة التي تدور في مسار مغلق. وبالتالي فإن وجود الإلكترونات داخل مستويات الطاقة في الذرة أكثر أماناً من وجود الإلكترونات حرة بعيدة عن مسارات الطاقة.

الفرق بين الإلكترون (الحر المغلق) و (الحر المفتوح) مسار الحركة

سوف نفترض أنه قبل وجود الكون أو قبل خلقه (أو ما يسمى بالانفجار العظيم "الفتق رتق") كان هناك إلكترون حر واحد موجود، يعني من دون وجود إلكترونات أخرى تدفع أو تسبب سيلاً يؤدي إلى حدوث الانفجار لتشكيل الكون. هذا الإلكترون عبارة عن جسيم سالب الشحنة. وعموماً هذا الأمر يثبت لي افتراض علمي جديد مقترح وهو أن هناك إلكترون حر مغلق (محدود مسار الحركة)، وإلكترون حر (مفتوح مسار الحركة). بالنسبة للإلكترون الحر مغلق (محدود مسار الحركة)، فإنه يدور في مسار مغلق (بدايته هي نهايته). مثال: عندما يدور جسم كروي حول مركزه بزاوية مقدارها 360 درجة (يعني تكون نقطة بدايته هي نقطة نهايته). بالنسبة للإلكترون الحر (مفتوح مسار الحركة)، فتكون بداية الإلكترون معروفة، ولكن نهايته غير معروفة أو لا تكون بدايته أو نهايته معروفة. بالنسبة للنوع الأول من الإلكترون حر (مغلق مسار الحركة) يعتبر إلكترون منظم الحركة. أما النوع الثاني من الإلكترون الحر (مفتوح مسار الحركة) يعتبر إلكترون عشوائي الحركة. بالنسبة للإلكترون الحر مفتوح مسار الحركة فهو الإلكترون الذي يعتبر عشوائياً، فهو الذي أحدث التغييرات الكونية وخلق الكون (أو ما يعرف بالانفجار العظيم والتسمية القرآنية "فتق الرتق"). وعموماً، يظل الإلكترون سالب الشحنة سواء كان في مسار الإلكترون الحر مغلق مسار الحركة، أو مسار الإلكترون الحر مفتوح مسار الحركة. إن الإلكترون يمكن أن يسقط، وسقوطه يمكن أن يؤدي إلى تغيرات كارثية، ومنها إنتاج كميات كبيرة وهائلة من الطاقة.

حالات سقوط الإلكترون والتسبب بالفناء

يحدث سقوط الإلكترون في حالتين:

الحالة الأولى: عندما يكون الإلكترون الحر مفتوح مسار الحركة ويكون في هذه الحالة عشوائي الحركة، وهذه العشوائية تؤدي إلى احتمالية اصطدام هذا الإلكترون بجسيم، وهذا ممكن مع البوزيترون، وهو جسيم أولي لا يدخل في تكوين المادة، وهو على عكس الحركة العشوائية للإلكترون لا يوجد حراً طليقاً، بل يكون ثابتاً، ولذلك يعتبر نقيضاً أو مضاداً للإلكترون. عند اصطدام البوزيترون بالإلكترون فإنه يتم إبادة الإلكترون وجسيم البوزيترون، أي يتحولان إلى شعاعين من أشعة غاما.

الحالة الثانية: عندما يكون الإلكترون داخل الذرة، فإن مساره يكون معروفاً، فإذا سقط الإلكترون داخل النواة يحدث خلل وتقنى النواة، وبالتالي تقنى الذرة. وإن الذي يضبط العلاقة بين الإلكترونات والنواة هو سعة المدارات التي تختلف حسب قربها وبعدها عن النواة، فكلما كانت مستويات الطاقة قريبة من النواة كلما كان استيعابها من الإلكترونات أقل، وكلما كانت بعيدة عن النواة فإنها تستوعب إلكترونات أكثر. لأن مستويات الطاقة القريبة من النواة يكون حجمها أصغر وطاقتها أقل، مقارنة بمستويات الطاقة البعيدة عن النواة التي يكون حجمها أكبر وطاقتها أعلى. بمعنى آخر فإن مستويات الطاقة القريبة من النواة والتي يكون حجمها أصغر وطاقتها أقل يكون استيعابها من الإلكترونات أقل، على حين مستويات الطاقة البعيدة عن النواة التي يكون حجمها أكبر وطاقتها أعلى تستوعب إلكترونات أكثر. عموماً، إن سقوط الإلكترون داخل النواة وفناء الذرة يتنافى مع قانون ثباتية الذرة، حيث لا توجد احتمالية لسقوط الإلكترون داخل النواة. (وهذا ناتج عن اختبارات لاكتشاف مكونات الذرة أو الجسيمات المكونة للنواة وما يدور حولها، ومنها تجربة نقطة الزيت أو تجربة

روبرت ميليكان، وتجربة صفيحة الذهب ذر فوررد أو تجر به رقاقة الذهب أو تجربة جيجر ومارسيديان). علما بأن رتبة مستوى الطاقة الذي تدور فيه الإلكترونات حول النواة هي 1 وليس صفراً. هذا يعني أن الطاقة ليست موجودة في أي مادة على شكل أو رتبة صفر، وهذا يدل على أن المادة شيء، وأن الشيء له خالق، والشيء ورد ذكره في القرآن مع ذكر المادة لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" {الأنبياء: 30}. وهذا يدل على أن الخالق ليس شيئاً، بل هو أعلى من الشيء، وأن بيده "الجعل" لأنه قال في الآية "وجعلنا" والجعل خلق، ومادة الخلق هي الماء، والماء أصله مادة مكونة من ذرات، ولأن الله وصف كل كائن حي مادي أو غير مادي خلقه بـ "الشيء" فإن الله أعلى وأسمى من "الشيء"، وقد عبّر عن ذلك في قوله تعالى: "ليس كمثلته شيء وهو السميع العليم" {الشورى: 11}، أي لا يتساوى مع أي شيء متخيل في الهبولي أو في العقل. ولأن مستوى الطاقة واحد، ولا يوجد أي مادة على شكل أو رتبة صفر، فإن الله ليس أدنى من المادة، فلا يكون صفراً، لأن الصفر شيء، وليس أعلى من المادة فلا يكون اثنان، والاثنان شيء، والله لا ثاني ولا شريك له لقوله تعالى: "لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك" {الإسراء: 111} وتكررت نفس الجملة في سورة {الفرقان: 2}. كما أنه ليس واحداً لأن واحد مفتتح العدد، والله ليس عدداً، لأنه لا يُعد ولا يُحصى، ولو قلنا إن القرآن جاء على ذكر كلمة "واحد" في وصف الإله في كثير من الآيات كقوله تعالى: إلهكم إله واحد {الكهف: 110}. وكذلك قوله إنه "أحد" في قوله تعالى: "قل هو الله أحد" {الصمد: 1} نقول إن "واحد" أي ليس كمثلته شيء في التثنية، و "أحد" يعني أنه منقطع العدد، فأحد ليس له ثان. كما أن نفي المادة عن الله ينفي عنه ما دونها، والعدد ما دون المادة، فهو إما وصف أو كلمة، فإن كان وصفاً فإن الله غير موصوف، وإن كان العدد كلمة، فالكلمة نص، والنص قرآن، والقرآن ذكر بلسان الوحي، وإن الله لا يتساوى مع الوحي لأنه خالقه

وهو أعظم منه. بالتالي فإن الله لا يفتقر إلى المادة ولا إلى القدرة، وهو لا يتساوى مع الشيء، وخالق الشيء، فلا يكون محتاجاً إلى شيء، فكان لا بد من تمييز الإرادة والقدرة عن الخلق بكافة أنواعه. وقيل: إن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته، فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً، فهو في نفسه فرد أحد وإذا ثبتت الأحدية، وجب أن لا يكون متحيزاً لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره، وكل ما كان كذلك فهو منقسم، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهاد، ويجب أن لا يكون حالاً في شيء، لأنه مع محله لا يكون أحداً، ولا يكون أحداً، ولا يكون محلاً لشيء، لأنه مع حاله لا يكون أحداً، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً البتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً إذ لو فرض موجودان واجب الوجود لاشتراكا في الوجود ولتمايزا في التعيين وما به المشاركة غير ما به الممايزة فكل واحد منهما مركب، فثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً⁴⁹⁷. نقول: إن سقوط الإلكترون في الذرة ممكن في حالة واحدة فقط، وهي حالة مادية وأخلاقية، تتعلق بزيادة أعداد المفاعلات النووية من خلال اتخاذ قرار بشري يكون ناتج عن فساد مادي وأخلاقي في الكرة الأرضية بأن الفناء ممكن وهو مادي لكن ذلك صعب إلى حد بعيد وذلك لأسباب أخلاقية آدمية إنسانية ليس أقلها قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون"

⁴⁹⁷ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج32، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص180.

{البقرة: 30}، علماً بأن هذا الأمر يؤكد أن مسألة خلق الكون لم تحدث مصادفة. وهناك فرق بين شيئين: بين خلق الشيء، وترتيب الشيء أو تركيبه، حيث إن فكرة المصادفة لا يمكننا أن ندخلها البحث الأول؛ لأن خلق الوجود لا تحكمه قانون المصادفة بحال من الأحوال، وأما تركيب الأشياء فقد يبقى موضع بحث. كما أن حركة الشيء لا يمكن أن ترد إلى المصادفة⁴⁹⁸. بالتالي فإن حركة الأشياء وخلق الوجود لا تحكمها قوانين المصادفة لأنها قائمة على ميزان عدل إلهي شرعي، حيث يستحيل أن يكون ميزان خلق الكون ميزاناً عشوائياً أو غير منتظماً. رغم كل ما سبق شرحه إلا أننا لم نفهم الحيز أو العلاقة بين أول خلق للمادة أو ماهية المادة الأولى وتكوينها ووجودها في الكون مع وجود الخالق. السؤال هنا: ما هو أول عنصر مادي وجد وتسبب بخلق الكون (الخلق وفتق الرتق)؟

أول عنصر مادي وجد في الكون وتسبب بخلق الكون (فتق الرتق)

نقول: هناك جانب قرآني وآخر علمي مادي وكلاهما مترابطان. فالآية القرآنية التي نبني عليها حجتنا، وهي آية تأسيسية في فهم كل نظام المادة الأولى لخلق الكون، هي قوله تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" {هود: 7}. سبق أن شرحنا هذه الآية في موضوع الماء {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص183}. ما يهم في هذه الآية هو الجانب المادي المتعلق بتكوين الماء وعناصره، بالإضافة إلى المادة التي وجدت قبله -إن وجدت- مع إيضاح أول وأهم عنصر في نشأة الماء أو نشأة الكون أو نشأة الماء والكون معاً. ونسأل هنا:

⁴⁹⁸ خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ج1، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص61.

هل خُلِقَ الكون (الخلق وفتح الرتق) بالتزامن مع توقيت خلق الماء؟ أم أن الكون خلق من عناصر الماء ثم خُلِقَ الماء فاستوى عرش الرحمن عليه؟

تزامن خلق الكون (فتح الرتق) مع خلق الماء

نقول: إن الآية سابقة الذكر {هود: 7} لا توضح مكان وجود الله، أي لا تربط مكانياً بين وجود الله ووجود الماء، لأن الله لا مكان له بالمعنى البصري المتخيل، بل هي تضع قواعد واقعية منطقية للميثاق الشرعي الإلهي مع المادة باعتبار أن الله خالقها. وإذا قيل العرش مكان، قلنا العرش توصيف لحيز أو علاقة ما تقصل بين الخالق وكل ما خلقه، ومنه خلقه للماء الذي يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، والذرة مادة، ثم جاعل عرشه فوق الماء الذي خلقه. لقد شرحنا علاقة ذرات الماء ببعضها وعدم إمكانية خلق الماء في الأرض وذكرت أن مزج أو اتحاد جزيء هيدروجين مع جزيء أكسجين ينتج عنه الماء، ولكن ينتج عنه أيضاً طاقة كبيرة (انفجار شديد) مصاحب للتفاعل الكيميائي (اتحاد الجزيئين)، يصعب التحكم به، وذلك في شرحنا لسورة {الملك: 30} {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص198} بالتالي فإن العناصر المادية المكونة للماء موجودة قبل خلق الماء. بشكل عام رغم كل ما ذكر فإن الله لم يُشهد أي إنسان على خلق السموات والأرض وذلك في قوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً" {الكهف: 51}. السؤال هنا: لماذا نقول "الخلق وفتح الرتق" ولا نقول "الانفجار العظيم"؟

(الانفجار العظيم) أم (الخلق وفتح الرتق)

نقول إن "الانفجار العظيم" (Big Bang) نظرية صحيحة لا شك فيها لكن اسمها وتوصيفها غير راسخ أو مألوف، فهي ليست نظرية تماماً، بل هو أمر الله، وأمر الله ليس نظرية، بل حقيقة، والواقع الحقيقي لا يمكن أن يكون نظرية، بل أمر الله وقرآنه، والقرآن ليس نظرية بل كتاب سماوي ديني وعلمي يشتمل على كل شيء. كما أن النظرة العلمية للنظرية شديدة السطحية من خلال تسميتها بالانفجار، وكأنه انفجار أرضي، وأما وصفه بالعظيم فهو استخفاف بقدرة الخالق على خلق هذا النظام الكوني الدقيق الذي لا تستطيع قوة إنتاج جزء من نظامه، علماً بأن "هذه التسمية صاغها عالم الفلك الإنجليزي فريد هويل عام 1949، وقيل إنه أطلق الاسم على نحو ساخر في حوار إعلامي عبر بي بي سي". في حين أن فرضية النظرية قدمها الكاهن الكاثوليكي والعالم البلجيكي جورج لومتر عام 1927 وسماها من قبل "افتراض الذرة الأولى"⁴⁹⁹. وكذلك فإن التسمية الأولى لجورج لومتر ليست دقيقة لأن الافتراض الأولي لنشأة الكون ليس قائماً على الذرة، بل على العناصر الجسيمات الذرية وأهمها الإلكترونات. نقول: إن "الخلق" أسبق من "الانفجار" والانفجار نتيجة حتمية لخلق المادة، لأن خلقها كان قبل وقوع الانفجار، وبالتالي يسمى خلقاً متبوعاً بعملية "هندسة الكون"، ولا نقول انفجار عظيم لأن الانفجار يكون عشوائياً وليس له ضوابط، بل يكون له عواقب وخيمة. وأما قولي "هندسة الكون" فذلك لأن الله أبرز في القرآن آيات دالة على توازن هذه الهندسة في مسألة تعاقب الشمس والقمر على سبيل المثال لا الحصر كما في قوله تعالى: "والشمس والقمر بحسبان" {الرحمن: 5}. وقوله تعالى: "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" {يس: 40}. أما "فتق الرتق" فهو تعبير قرآني استخدم للإشارة إلى عملية الفصل بين السماوات والأرض. نقول: إن

⁴⁹⁹<http://www.pbs.org/wgbh/aso/databank/entries/dp27bi.html>

الفتق تعبير عن الفتح أولاً والانفراج ثانياً متبوعاً بالإحياء الإلهي للسموات والأرض من خلال إنزال المطر وإنبات النبات وغير ذلك. ورغم كل ما تقدم من إيضاح بشأن الكون وما توصل إليه العلم، إلا أن الحقيقة المطلقة والنهائية تظل في يد خالق هذا الكون، ويظل العلم البشري نسبي، لكن فيه دليل قاطع على كل تصنيفات المادة وفروعها وتفصيلها الدقيقة هي أقل بكثير من قوة الخالق "الله"، وعموماً إن الاستدلال أو إثبات كيفية حدوث الانفجار العظيم "الفتق رتق" تظل مسألة نسبية وغير مشهودة من البشر، ويصعب تقديرها بوحدها قياس ثابتة مطلقة، ودليل ذلك قوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً" {الكهف: 51}. وهذا يعني أن عدم شهادة الإنسان لخلق الكون هو بمثابة تأكيد على عدم وجود بشر سابقين ومنهم آدم (عليه السلام) شاهدين على كيفية حدوث خلق الكون إلا ما توفر من معلومات كلها مادية نسبية. كما أن آدم (عليه السلام) لم يشهد على نفسه كيف خلقه الله، ما يدل على أن الله ليس له شريك حتى في مجرد النظر أو مراقبة كيفية الخلق، وهذا يدل على مطلق وحدانية الله ومسؤوليته عن الخلق.

المسألة الخامسة: وصف الله تعالى الملائكة بالرسول، وجعل اصطفايتهم كاصطفاء الرسل من الناس في قوله تعالى: "الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير" {الحج: 75} قال الرازي: إن المذكور من الملائكة هم من كانوا رسلاً إلى بني آدم، وهم أكابر الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم⁵⁰⁰. نقول: إن هذه الآية تتعلق بالإلهيات، لأنها تنفي صفة الألوهية عن الملائكة وتجعل لهم مكانة الرسل في عملية التبليغ، فيكون من وظيفة الملائكة نقل الأوامر والتكليفات الإلهية إلى الرسل

⁵⁰⁰ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامه ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص70، 71.

والأنبياء، بينما يكون من وظيفة الناس الذين اصطفاهم الله كرسل نقل الأوامر والتكليفات الإلهية إلى كافة خلق الله في الأرض. كما أن المساواة في الاصطفاء بين الملائكة والناس "كجنس" نوراني للملائكة وترابي أو طيني للناس، وفي الاصطفاء في المسمى "كرسل" يدل على أن الرسل من الناس لهم خصائص وصفات مشتركة مع الملائكة، ولكن ليس في مادة الخلق، بل في الطباع، ومنها أنهم على صلة أكثر بالله سبحانه وتعالى بسبب اتصالهم بالوحي وقدرتهم على فهم ونقل الخطاب الإلهي، وأنهم أقل شهوة فيما يتعلق بالغذاء والعلاقة مع الجنس الآخر، أي علاقة الذكر مع الأنثى، إلا ما قد يسره الله لهم أو أرادهم، مثلما أراد للنبي عيسى (عليه السلام) أن يولد من بطن أمه بدون وجود أب، وكما أراد للنبي يحيى (عليه السلام) أن يولد من امرأة عاقر، وكما أراد للنبي محمد أن يتزوج عدد من النساء، أي أن الله أراد بأمره أن يجعل للناس عبرة من وراء مسألة إدارة شهوة النكاح لكل رسله وأنبيائه الذين اصطفاهم، ومنهم إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وموسى وداود. بالتالي، فإن الملائكة أكثر مقدرة وأعلى قدراً عند الله من الرسل، وبالتالي هم ليسوا بشراً أو من جنس بشري. وفي العلاقة بين الملائكة والرسل من ناحية طريقة التبليغ ورد قوله تعالى في سورة الأحزاب: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً (45) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (46)". قال القرطبي: "وسراجاً منيراً" استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه⁵⁰¹. لقد شرحنا هذه الآية في كتابي "الجلي النقي في معرفة الوحي" {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص321}. قلنا إن المقصود بقوله تعالى: "وسراجاً منيراً" هو "الوحي" لأن الإذن الإلهي ينزل معه التصريح القرآني محمولاً عبر الوحي، والوحي نور، وأما وصفه بالسراج المنير فهو ينسجم مع

⁵⁰¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص171.

الطريقة التي يدعو بها النبي الناس عبر الإجازة أو الرخصة بالتصريح بعد تلقي الوحي الذي هو سراج منير، فتكون الدعوة فيما بعد ناتجة عن أمر إلهي ينزل به الوحي إلى النبي محمد. والوحي يُرى من قبل النبي بأشكال تعدد وصفها بحسب ما روى لأصحابه عدة مرّات، وأهمها أنه جسم يتلأل له كثير من الأجنحة. في هذا السياق، يجب أن نوضح مسألة مهمة بخصوص ظهور الملك أو الوحي، وهو أن المقصود من الظهور، ليس الظهور كالبشر، بل التمثل في هيئة بشر، وربما يكون نوراً من الأنوار الإلهية، أو كما قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رأى رسول الله جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم" ⁵⁰². وفي رواية أخرى، قال أحمد أيضاً: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين، حدثني عاصم بن بهدلة، حدثني شقيق قال: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله: "أتاني جبريل، (عليه السلام)، في خضُر معلق به الدر" ⁵⁰³.

المسألة السادسة: لقد رسم الله حدوداً بينه وبين الملائكة لتوضيح وتوكيد ألوهيته المطلقة، وقدرته وإرادته النافذة على الملائكة، وهو نفي لعجزه، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنبياء: "وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون (26) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (27) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (28) ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين (29) أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففنتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (30)". سنشرح معنى قوله تعالى "عباد مكرمون"

⁵⁰² عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص446.
⁵⁰³ المصدر السابق، ص452.

ودلالة صفات الملائكة في الآيات، والموقف الإلهي من أي زعم للملائكة بأنهم آلهة. قال الشوكاني: هؤلاء القائلون "اتخذ الله ولداً" هم خزاعة، فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله؛ وقيل: هم اليهود، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولداً. وقد قالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصراني: المسيح ابن الله⁵⁰⁴. على حين قال الرازي: إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن أن يكون له ولداً لأن الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد، فلو كان الله ولداً شبيهه من بعض الوجوه. وقوله تعالى: "بل عباد مكرمون" أنه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد⁵⁰⁵. نقول: إن التنزيه الإلهي عن أن يكون له ولد هو بمثابة نفي لإمكانية مساواة الله بأي شيء، وفي هذا الموضع هو نفي للجنس عن الله، فهو كما ورد في قوله تعالى: "لم يلد ولم يولد" {الإخلاص: 3} وإن اعتبار الله للملائكة أنهم عباد مكرمون يعني أن العباد هنا لا يقصد بهم الجنس الإنسي لأن الله نفي في البداية صفة اشتراك أي جنس مع الله، بل يقصد بالعباد الإقامة على الشيء، ومنه العبودية، ويراد من ذلك الطاعة والتذلل للإله، بالتالي فإن الملائكة ليست من جنس بشري، وإن كلمة العباد لا تحمل إشارة إلى نوع الجنس، وهذه حجة إضافية على ما ذكرته سابقاً. نقول: إن هناك نقطة تحول بين العباد (بني آدم) المخلوقين من مادة التراب/الطين والماء، والملائكة (النورانيين) المخلوقين من مادة النيتروجين والأكسجين، وهذا التحول الذي يمكن أن يجعل العباد ملائكة هو تحول مادي، أي تتحول فيه روح بني آدم (عليه السلام) من مادة أرضية (التراب/الطين والماء) الذي خلق منها في الأرض بعد خلق الكون، إلى مادة علوية سماوية (أصل المادة التي

⁵⁰⁴ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص93.

⁵⁰⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج17، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص159.

خلقها الله قبل خلق الكون)، وهذا التحول المادي الحيوي يحدث من خلال تحول الإنسان من كائن حي خلقي إحيائي إلى كائن حي إحيائي روحي، أي تنتقل الروح من حالتها الأرضية إلى حالتها العلوية الأبدية، ولكن الذي يحدد مدى أرضيتها أو علويتها هو اهتداء تلك الروح إلى الصراط المستقيم في الحياة الدنيا، فالعالم الذي يرفعه الله درجات في الجنة بحسب الوعد القرآني، إنما هو يرفع روحه، ومثله أرواح الأنبياء والشهداء والزاهدين والصادقين والصالحين، هؤلاء جميعهم يمكن أن تصير أرواحهم أرواح ملائكية مجندة لله، تأتمر بأمره وتعمل وفق شريعته وتظل هكذا ترتفع وترتقي حتى تثبت إلى يوم الخلود الأبدى في جنات الفردوس الأعلى، ويحدث ذلك عند الفناء الأبدى. ونقول: إن الصفات في الآيات {27 - 29} هي صفات الملائكة، ولما قال تعالى في الآية (26) إنهم "عباد مكرمون" قصد بذلك الملائكة الذي أخلصوا في طاعة أوامر الله وشريعته. ونلاحظ أن الله نفى عنهم صفة الألوهية في نفس السورة لقوله تعالى: "ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين" {الأنبياء: 29} وهنا نسأل كيف يمكن أن يدخل الله الملائكة جهنم (وهي درجة من درجات النار) في حين أنهم مكرمون عند الله، وينزلون بالروح من أمر الله، ويدركون أسرار الإله في خلق الكون، وأسراره في خلق الكائنات الحية؟

هل تدخل الملائكة النار؟

نقول: إن الله لا يتورع أن يدخل الملائكة النار، لكن ليس أي نوع من الملائكة بل هم أدنى درجات الملائكة مرتبة عند الله، وهم الملائكة الدنيويون، وذلك تثبيت لقدرته على تعذيبهم ويدل على صفات ألوهيته وجبروته، وهو تأكيد على أن الملائكة مأمورون بأمره، وهم تحت طاعته وحافظين لأسراره، وأن أوامره نافذة ومن يتخلف عنها يعاقب

على ذلك، وأن أوامر الله للملائكة ليست تقديرية بل حتمية ومطلقة، وبالتالي فهي لا تحتمل التغيير من الملائكة أو الشك فيها من قبلهم، فكان تكريمهم من جهة أنهم مطيعون وملتزمون، لكننا نقول: إن العذاب ليس حتمياً أو مطلقاً إلا في حالة واحدة تم توضيحها في الآية وهي عند ادعاء الملائكة للألوهية، لأن ذلك شرك مطلق، وهذا لا يحدث إلا لأدنى نوع من الملائكة وليس أعلى درجة من درجات الملائكة التي يكون لديها إيمان شديد بوحداية الله، مثل الملائكة التي تحمل عرش الرحمن (الله)، لكن من حكمة وعدل الله أنه يُنزل أرواح هؤلاء الملائكة إلى درجة مخففة من العذاب، وأقلها أن يعيدهم إلى الأرض ويأمرهم بالعمل الصالح. نقول: إن هذه الآية نزلت بشكل مخصوص في كل الأشخاص المشركين غير الموحدين بالله، أي الذين أشركوا مع الله إلهاً غيره. على سبيل المثال: إذا تحوّل أحد هؤلاء المشركين للإسلام وقام بتأدية أركان وفرائض الإسلام على أكمل وجه، ولكنه لما مات وبُعث يوم القيامة كانت روحه في أدنى درجة من الملائكية ثم شعر للحظة أنه إله أو أن بإمكانه أن يصبح إلهاً، فهذا النوع يعتبر شركاً أعلى، وعلى إثره تعود روح هذا المشرك إلى الحياة الدنيا أو إلى جهنم، ولذلك جعل الله عقابه ثابتاً للملائكة وهو مثل عقاب البشر، وهذا المثل القرآني يعتبر الأهم في قدسية وتنزيه الله عن كل شيء خلقه، وهو أحد أهم وأبرز الأمثال في تثبيت ركن عقيدة الألوهية وهو أول ركن في الإسلام (لا إله إلا الله). والأهم أن الآيات {26-29} جاءت متبوعة بتوكيد أمر الله وقدرته على خلق السماوات والأرض وجعل الماء أساساً لكل الكائنات الحية. ومن الآيات القرآنية التي تؤكد ألوهية الله المطلقة والنهي عن اتخاذ الملائكة أرباباً من دون الله قوله تعالى: "ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون" {آل عمران: 80}. قال القرطبي: هذا

موجود في النصارى؛ يعظمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم
أرباباً⁵⁰⁶.

المسألة السابعة: لقد ذكرت أن الملائكة مخلوقة من مادة
الأكسجين والنيروجين وأن المادة خلقها الله، ومع ذلك فإن الملائكة
ليست كائنات مادية لأنها إذا تساوت مع المادة فسوف تكون عدماً،
والملائكة ليست عدماً، بل هي نور بأمر الله، وأمر الله نافذ وأسبق من
المادة، فكما أن الإنسان روح، فإن الملائكة روح أيضاً لكن مادة
خلقها هي التي تختلف. بالعودة إلى استكمال شرح الآية، لماذا كان
التشبيه بالفخار؟ ولماذا استخدمت كلمة فخار؟ وما علاقة كلمة فخار
من ناحية لغوية بالطبيعة والمادة التي خلق منها الإنسان؟

معنى (الفخار) وعلاقته (بالفخر) و (الصلصال الفخار)

لقد وجدنا في قواميس اللغة العربية أن استخدام العرب للكلمات
التي تنتمي إلى الجذر اللغوي لكلمة "فخر" مرتبط بالطبيعة والمادة
التي خلقت منها النفس البشرية. أولاً: يقال: استفخر، أي صار فخاراً.
والفخار: هو الطين المحروق⁵⁰⁷. ويقال: ناقة فخورة: أي غزيرة
تعطيك ما عندها من اللبن، ولا بقاء للبنها، بل يقال: هي العظيمة
الضرع وليس بما يظن من لبن⁵⁰⁸. وإذا أدركنا علاقة ما تنتجه الناقة
بطبيعة غذائها، وعلاقة غذائها بالنبات، وعلاقة النبات بالتراب،
وعلاقة التراب بالماء، وأن الله جعل كل شيء حي في الأرض من
خلال توفر مادتي الماء والتراب في الطبيعة، فسوف ندرك دلالة

⁵⁰⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه
من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة
والنشر، 2006)، 187.

⁵⁰⁷ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ط1، (القاهرة: عالم الكتب،

2008)، ص1679.

⁵⁰⁸ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج3، ط1، (بيروت:

دار الكتب العلمية، 2003)، ص306.

المعنى اللغوي في استخدامه عبر الإشارة إلى ما تنتجه الناقاة، وكأن القول على وجه حسن، إن ما تنتجه الناقاة أصله من الطبيعة وهو تعبير عن دورة حياة الإنسان. وهناك مسألة أخرى، وهي ورود كلمة "تفاخر" و "فخور" في آيتين قرآنيتين، وهما من الجذر اللغوي "فخر".

الآية الأولى: قوله تعالى: "واعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" {الحديد: 20}. قال ابن كثير: هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غصاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفذ بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير⁵⁰⁹. وقال القرطبي: "وتفاخر بينكم" أي: يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخلقة والقوة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء. وفي "صحيح مسلم" عن النبي قال: "إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد". وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "أربع في أمي من أمر الجاهلية: الفخر في الأحساب" وقوله تعالى: "تكاثر في الأموال والأولاد" لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالآباء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة. والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يُعجب الناظرين إليه، لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن. وقوله تعالى: "ثم يهيج" أي: يجف بعد خضرته "فتراه مصفراً" أي:

⁵⁰⁹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، 2ط، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص24.

متغيراً عما كان عليه من النضرة. وقوله تعالى: "ثم يكون حطاماً" أي: فتاتاً وتنبأً فيذهب بعد حسنه⁵¹⁰. قيل: التفاخر يعني المباهاة والافتخار بالحسب والنسب والجاه والمنصب، وهو استعراض قاصداً التبجح⁵¹¹. نقول: إن هذا التصرف "أي التفاخر" يتعارض مع طبيعة الإنسان الذي خلق من مادة الطين ليكون أكثر انطفاءً على عكس إبليس أكثر ناراً أو اشتعالاً وحدة بسبب طبيعة المادة التي خلق منها وهي نار السموم. ونرى أن استخدام كلمة التفاخر فيه دلالة على أن الإنسان في هذا الموضع يتجاوز مادة الطين في حالتها الترابية قبل أن تصبح صلصلاً بكل ما فيها من خصائص إلى التعبير عن نفسه مختالاً ومتفاخراً كما لو أن ذاته انفعلت ذات الانفعال الذي يحدث عند تحوّل الطين إلى صلصال، وذلك بفعل الحركة التي تنتج الحرارة، من تفاعل الموارد الطبيعية الثلاثة الأهم في الأرض وهي المتصلة بخلق الإنسان، وهي أساس بقائه حياً على الأرض، وهذه الموارد هي: "التراب والماء والهواء". إن ما ينتج عنهم من تفاعل يؤدي إلى الحرارة التي هي عنصر أساسي في إنتاج النبات أو خلق الإنسان. ولما استخدم في الآية كلمة "بينكم" في الإشارة إلى التفاخر كأنه أراد القول إن هذه الطباع الموجودة لدى كل البشر والتي أصلها من حركة وحرارة الموارد الطبيعية إنما هي منكرة وغير مقبولة في الشرع الإلهي. ما يعني أن كل ما تبع كلمة "تفاخر بينكم" في الآية هو مشمول في الطباع والأمور المنكرة وغير المقبولة، وهي التكاثر في الأموال والتكاثر في الأولاد، وعموماً كلاهما مرتبط بحياة آدم وذريته، فالأولاد مرتبطون بالذرية عبر التكاثر، والأموال مرتبطة بالموارد الطبيعية والنشاط الزراعي والحيواني الذي هو أصل الغذاء لكل

⁵¹⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج20، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 260، 261.

⁵¹¹ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص1679.

البشر. ونقول: إن في الآية وصف دقيق وهو قوله تعالى: "كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً" {الحديد: 20} أي كأن الله أرد أن يقول إن دورة حياة الإنسان في لعبه وزينته وتفاخره وتكاثر أمواله وأولاده إنما هو مثل المطر الذي يعتبر مسؤولاً عن دورة حياة النباتات في الطبيعة. بهذه الصورة الجمالية أراد الله أن يصور صنائع الإنسان في الدنيا بدورة حياة غذاءه في الطبيعة، والمطر أو الماء هو المادة الأصل في خلق آدم من تراب تماماً كما هي الأصل في إحياء الأرض والنباتات والحيوانات.

الآية الثانية: قوله تعالى: "ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور" {لقمان: 18}.

قال ابن كثير: "مختال" يعني معجب في نفسه، و "فخور": أي على غيره⁵¹². على حين قال الرازي: "المختال" يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر "والفخور" يعني من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه⁵¹³. نقول: إذا أدركنا المعنى فسوف نستشعر أن الفخر فعل ذاتي نفسي متعلق بالعقل الباطن أو العقل اللاواعي الذي يقود الإنسان نحو تصرفاته وأخلاقه، والفخور عندما يرى عظمة نفسه في عين نفسه، فإن ذلك يكون من طبعه أو طبع تربيته وتجاربه التراكمية في حياته التي قد تكون سلبية أو إيجابية، ولا يكون ذلك من طبع تكوينه الابتدائي الذي خلقه الله عليه، ما يعني أن الإنسان يولد على قاعدة أخلاقية. لكن الله يجزم في هذه الآية بأن التربية والتجارب التراكمية حتى وإن كانت سلبية أو إيجابية فإنها يجب ألا تخالف الأخلاق الشرعية ويجب ألا

⁵¹² عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص339.

⁵¹³ الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر

بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،

ص150.

تخالف كل ما ورد من توصيات ذكرت في نفس السورة التي وردت فيها الآية كقوله تعالى: "أقم الصلاة" و "أمر بالمعروف" و "انه عن المنكر" و "اصبر على ما أصابك" و "لا تصعر خدك للناس" و "لا تمش في الأرض مرحاً" و "إن الله لا يحب كل مختال فخور" و "اقصد في مشيك" و "اغضض من صوتك" "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير". ولمزيد من التوضيح والتأكيد على حجبتنا، فقد ورد قبل هذه الآيات ذكر لعلاقة الإنسان بوالديه وطريقة التعامل معهما، وهذا يدل على أن الإنسان ينشأ في حياته وتتكون صفاته من خلال تربية الأب والأم في البيت، ما يعني أن منبع أي نوع من الفخر الذي يمارسه الإنسان هو من خلال طريقة نشأته وتربية والديه له. إذا أدركنا كل ما سبق، فإننا سنجد هناك صلة وثيقة بين أمرين وهما:

أولاً: ارتباط اللغة العربية بالقرآن ارتباطاً وثيقاً من خلال الكلمات التي وردت في ثلاث آيات وهي "كالفخر" في سورة {الرحمن: 14} و "تفاخر" {الحديد: 20} و "فخور" في سورة {لقمان: 18} و **ثانياً:** ارتباط الطبيعة بالخلق ارتباطاً وثيقاً، لأن قوله تعالى: "صلصال كالفخر" فيها إشارة إلى مادة خلق الإنسان، وهي متصلة بقوله تعالى: "تفاخر بينكم" {الحديد: 20} في إشارة إلى التفاخر بالنفس وبالأنساب والتكاثر وزيادة النسل، وذلك متصل بقوله تعالى: "مختال فخور" {لقمان: 18} في إشارة إلى أهواء النفس البشرية والميل إلى استعراض عظمة وغرور النفس. إذا أدركنا ما ذكرناه بأن الملائكة جنس نوراني، وأن آدم (عليه السلام) أو البشر عموماً من جنس يتكون من ثلاثة عناصر (ترايبية/طينية) و (مائية) و (هوائية) "والهواء هنا المقصود به الرياح التي تحركها حرارة الشمس التي دفعت إلى تجفيف آدم (عليه السلام) وإنضاجه قبل نفخ الروح به"، وإذا أدركنا أن الحيوان المنوي يتكون من الماء الموجود قبل خلق الكون والذي يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وأنه يحتوي أيضاً على خلايا حيوانات وبلازما منوية، ويتكون من مواد غذائية

وهرمونات تفرزها الغدد الجنسية، وأن هذا كله ينعكس على تكون الجنين، وإذا أدركنا أيضاً أن هذا الماء له دورة فصلية، أي أنه ينزل في الشتاء مثلما هناك أجواء متباينة خلال العام كالصيف والربيع والخريف، فإن ذلك يؤثر على كافة الأغذية ومنها النباتات والخضروات والفواكه بأنواعها، وهذا ما يجعل في الطبيعة أغذية شتوية وأخرى صيفية، أو ربيعية أو خريفية، أي تنضج في أحد الفصول، ولهذا السبب يؤثر الطقس على أنواع الأغذية، وبالتالي على النظام الغذائي الذي بدوره يؤثر على الجنين.

إذا أدركنا كل ما سبق، سنفهم لماذا يقال إن للإنسان طباع هوائية أو مائية أو ترابية، ولربما من هذا التفسير اشتق علم التنجيم في العصور والحضارات التي سبقت الإسلام، بالاستناد إلى الفهم البشري لطباع الإنسان، ولما جاء الإسلام ونزل القرآن استطعنا فهم ذلك من خلال فهم دور المادة في خلق الكون والإنسان، والأهم أن القرآن أشار بوضوح إلى مسألة البروج أو ما هو خارجي متعلق بالإنسان حيث قال تعالى: "والسماوات البروج" {البروج: 1}. قال القرطبي في معنى البروج عدة أقوال: أحدها: ذات النجوم؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك. والثاني: القصور؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد أيضاً. قال عكرمة هي قصور في السماء. وقال مجاهد: البروج فيها الحرس. الثالث: ذات الخلق الحسن؛ قاله المنهال بن عمرو. الرابع: ذات المنازل؛ قال أبو عبيدة ويحيى بن سلام. وهي اثنا عشر برجاً، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر. يسير القمر في كل برج منها يومين وثلاث يوم، فلذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستمر ليلتين. وتسير الشمس في كل برج منها شهراً. وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب،

والقوس، والجدي، والدلو، والحوث⁵¹⁴. رغم أننا نقول إن هذه التسمية للأبراج هي تسمية بشرية وهي اختراع بشري ناتج عن فهم فلكي تجريبي، ولكن الفهم الأدق لمعنى أو دلالات وجود هذه الأبراج هو ما ذكرناه سابقاً من شرح مادي منطقي، بالإضافة إلى ضرورة الالتفات إلى أن المسألة ليست متعلقة بمنازل الكواكب والشمس والقمر بل بحركة ودورة الشمس والقمر، وما لهما من أثر على حياة البشر وحركتهم في الطبيعة وعلاقة الإنسان بالغذاء الحيواني والنباتي. كما أن الإنسان يختزن في جسده من حرارة الشمس في النهار ويبرد في الليل عندما يحل القمر في السماء، فيكون لذلك أثراً على طاقته وحركته في النكاح بهدف الإنجاب وهو ما ينعكس على الجنين سواء كانت نطفته قد غرست في الصيف أو الشتاء وفي النهار أو الليل ووفق نظام غذائي صحي أو غير صحي. وهذا كله لا يتعارض، بل ينسجم مع قوله تعالى: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير" {لقمان: 34}

⁵¹⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص179.

الفصل الرابع

الأسبقية القرآنية في الاستدلال على الوحدات
الأساسية البنائية للمادة (الذرة)

لم يرد أي ذكر لكلمة "الخلية" بشكل مباشر في القرآن، لكن القرآن جاء على ذكر الاشتقاق اللغوي (ذري) في عدد من الكلمات وهي (ذرة - ذرية - ذريتنا - ذريته - ذريتها - ذريتهم - ذريتهما - ذريتي - ذرياتنا - ذرياتهم) ⁵¹⁵. لكن ما علاقة الذرة بالخلية، وما علاقة ذلك بالمادة؟

علاقة الذرة بالخلية وعلاقتها بالمادة

الذرة هي أصغر جزء في المادة، سواء كانت من المادة أو من تشكيلات الحياة المعقدة، كذلك تعد الخلية حجر الأساس في بناء الكائن الحي بمجموعه العام ⁵¹⁶. قلنا إن المادة سابقة على وجود الإنسان، والتربة التي خُلِقَ منها الإنسان هي مادة، وإن أصل الإنسان مخلوق من المادة، والمادة خلقها الله، ولكننا مع ذلك أنكرنا أن يكون الإنسان مادياً لأنه إذا تساوى مع المادة فسوف يكون عدماً، والإنسان ليس عدماً، بل هو روح، والروح بأمر من الله، خلق منها آدم وعيسى (عليهما السلام). بالإضافة إلى ذلك نقول إن الذكر والأنثى مكونان من النطفة وقبلها الخلية، والخلية هي وحدة بناء الكائنات الحية، فالإنسان أصله من خلية، والنبات أصله من خلية والحيوان أصله من خلية، والخلية بدورها تتكون من مواد مختلفة. أما "الذرة" فهي وحدة بناء المادة. فإذا كانت كلمة "الذرية" التي تدل على نسل آدم (عليه السلام) هي من نفس الجذر اللغوي لكلمة "ذرة" التي هي وحدة بناء المادة، فهذا يدل على أن آدم (عليه السلام) وذريته مخلوقين من المادة، لكن الفارق الوحيد الذي يجعل الإنسان غير مادي هو الروح التي هي

⁵¹⁵ معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج2، (القاهرة: مجمع اللغة العربية،

1968)، ص246.

⁵¹⁶ خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان،

2010)، ص113.

أمر من الله. ورد في المعجم المعاصر: الذرة: هي أصغر جزء في عنصر ما، يصح أن يدخل في التفاعلات الكيميائية، والتي تؤلف الأجسام المركبة، وتتكون الذرة من نواة (تحتوي النيوترون والبروتون) ومن الإلكترون الذي يدور حول النواة⁵¹⁷. وقيل: الذر: النسل. والذرية: على وزن فعلية من الذر، وهم الصغار.

ومقدار الذرة يساوي وزن حبة من شعير. وقدّرها بعض العلماء والباحثين بثلاثة وعشرين جزءاً من مائة مليون جزء من الجرام، أي: (23,000,000) جراماً⁵¹⁸. وذكر أيضاً أن الذر: ما يرى في شعاع الشمس الداخلي في النافذة، والواحدة ذرّة. والذر: صغار النمل والهباء واحده ذرّة⁵²⁰. قال القرطبي: الذرة: هي النملة الحمراء، عن ابن عباس وغيره، وهي: أصغر النمل. وعنه أيضاً: رأس النملة. قال يزيد بن هارون: زعموا أن الذرة ليس لها وزن. وقيل: الذرة: هي الخردلة، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين (47)"⁵²¹. يُلاحظ هنا أن العدل ميزانه دقيق جداً حتى أنه يُحسب بوزن الذرّة أو حبة الخردل. نقول إن الموازين لها طاقة، فكل إنسان يحاسب على البذل في الجهد الذي يقوم به ونوعه. ذُكر في معجم الوسيط: تدرى: أي استتر بالشيء. يقال: تدرى فلان

⁵¹⁷ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب،

2008)، ص807.

⁵¹⁸ علي جمعة محمد، المكييل والأوزان الشرعية، ط2، (القاهرة: القس للإعلان والنشر،

2001)، ص26.

⁵¹⁹ معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج2، (القاهرة: مجمع اللغة العربية،

1968)، ص246.

⁵²⁰ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج4، ط3، (بيروت: دار المعرفة،

1971)، ص123.

⁵²¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه

من السنة وأبي الفرغان، تحقيق عبد الله التركي، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة

والنشر، 2006)، ص321، 322.

بالحائط وغيره من البرد والريح. ويقال: تدرى بفلان: احتمى به وصار في كنفه. والذرى: اسم لما ذرته الريح⁵²². ما يعني أن التذرية عملية فيها انقباض وانبساط، أو انكماش وتمدد. بالنسبة للآيات التالية، سوف نلاحظ أن كلمة "ذرة" ذُكرت ست مرات، وجاءت معها مفردة توضيحية وهي كلمة "مثقال" لوصف وزن الذرة. قيل: إن المثقال هو ما يوزن به. ومثقال الشيء: ميزانه، أي وزنه، وجمعه مثاقيل⁵²³. وقال الفراهيدي: المثقال: وزن معلوم قدره⁵²⁴.

الآيات التي ورد فيها كلمة "ذرة"

الآية الأولى: قال تعالى: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً" {النساء: 40}.

ذكر القرطبي في تفسيره: معنى قوله: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة"، أي: لا يبخسهم ولا ينفصمهم من ثواب عملهم وزن ذرة، بل يجازيهم بها ويثيبهم عليها. والمراد من الكلام: أن الله تعالى لا يظلم، كما قال تعالى في سورة يونس: "إن الله لا يظلم الناس شيئاً (44)"⁵²⁵. وذكر الزمخشري في تفسيره: "لو نقص الله من الأجر أو زاد في العقاب لكان ظلماً، وأنه لا يفعله لاستحالتة في الحكمة لا لاستحالتة في القدرة"⁵²⁶. نقول: إذا كان الثواب والعقاب يخضع لحكمة الله لا لقدرته، فإن

⁵²² مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، (القاهرة: 2004)، ص312.

⁵²³ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج2، ط3، (بيروت: دار المعرفة،

1971)، ص758.

⁵²⁴ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج1، ط1، (بيروت:

دار الكتب العلمية، 2003)، ص204.

⁵²⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه

من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة

والنشر، 2006)، ص321.

⁵²⁶ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقوال في وجوه التأويل، ج5، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص237.

طاقة الإنسان في الدنيا وعطاءه في العبادات والمعاملات اليومية تُقاس بميزان الذرة ويُفترض أن تتسق مع حكمة الله. قالت المعتزلة: دلت هذه الآية على أنه تعالى ليس خالقاً لأعمال العباد، لأن من جملة تلك الأعمال ظلم بعضهم بعضاً، فلو كان موجد ذلك الظلم هو الله تعالى لكان الظالم هو الله، والآية دالة على كونه تعالى منزهاً عن الظلم". كما قالت المعتزلة أيضاً: "الآية تدل على أنه قادر على الظلم لأنه تمدح بتركه، ومن تمدح بترك فعل قبيح لم يصح منه ذلك التمدح، إلا إذا كان هو قادراً عليه، ألا ترى أن الزمن لا يصح منه أن يتمدح بأنه لا يذهب في الليلي إلى السرقة" ⁵²⁷. قال تعالى مُخبراً عن لقمان أنه قال: "يا بُني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير" ⁵²⁸. تشير الآية بصراحة إلى دقة الحساب (من عقاب وثواب) عند الله بما يشمل كل شيء يجمعه من الأرض بما فيها حبات الخردل التي في الصخر، رغم ما في الصخر من ثقل وقوة. السؤال هنا من وحي الآية، كيف وجدت حبة الخردل في صخرة وفي السموات والأرض؟ وما وجه التشابه الذي يجمع بين وجودها في الصخرة وفي السموات والأرض؟

أصل حبة الخردل في الصخرة، وفي السموات والأرض

نقول: يوجد نبات على شكل زهرة اسمه نبات زهرة الخردل، وتحتوي بذور هذه الزهرة على زيت عطري حاد الرائحة، حيث إنه يعتبر مادة مهيجة يهيج الأغشية المخاطية ويدفع في إدماع العيون.

⁵²⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج10، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص105.

⁵²⁸ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص304.

تتكون (بذور) زيت زهرة الخردل من محتوى معدني بنسبة 20٪ (وهو ذرات الفسفور) ويتكون من فيتامين A (ريتينول) 3٪ وفيتامين E (توكوفيرول) 92٪ والدهون والأحماض الدهنية المشبعة والماء. وبشكل عام يتكون زيت الخردل من ذرات (الكربون والهيدروجين والأكسجين والفسفور) بنسب كيميائية محددة.

وزن الخردل إلى وزن الذرة

ضرب المثل في حبة الخردل لأنها من بين أصغر البذور حجماً. أما بالنسبة لذكر حبة الخردل داخل الصخرة، فتتكون حبة الخردل من نسب كبيرة من ذرات (الكربون والهيدروجين والأكسجين)، وهي الذرات ذاتها التي تدخل في تركيب الصخور. بالتالي نستنتج أن وجه التشابه بين الذرات المكونة لبذور الخردل (زيت حبة الخردل) والذرات المكونة للصخور هو تشابه في ثلاث ذرات (الكربون والهيدروجين والأكسجين)، ولهذا السبب ذكر في الآية وجود حبة الخردل في الصخرة؛ لأنها تتشابه في التركيب الكيميائي مع مكونات الصخور. ولذلك عندما قال في الآية "يأتي بها الله" يعني أن الله قادر على أن يأتي بأصول مركبات حبة الخردل، وهي ذرات (الكربون والهيدروجين والأكسجين)، وهذه الذرات وبالتحديد (الهيدروجين والأكسجين) هما أصل الصيغة الكيميائية لجزيء الماء (H_2O)، والماء أول مادة إحيائية خلقها الله قبل خلق الكون، وخلق عناصرها الكيميائية قبل خلقها. في هذا السياق يذكر أن عالم الحفريات والأحياء التطوري الأميركي نيل شوبين اشترك مع جيني كلاك (Jenny Clack) من جامعة كامبردج في اكتشاف برمائيات من الصخور في جرين لاند (Greenland) عمرها يقارب 365 مليون سنة⁵²⁹. هذا

⁵²⁹ نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص19، 20.

الاكتشاف ومكانه (الصخور) يدلنا على أن حياة الكائنات الحية أينما وجدت في أي مكان أو زمان في التاريخ منذ نشأة الكون، فإنها تعيدنا إلى المادة الأولى وهي الماء، أول مادة إحيائية خلقها الله قبل خلق الكون، وبالتالي إلى عناصر أو ذرات الماء وهما ذرتين هيدروجين وذرة أكسجين، وهما أصل موجود في غالبية الاكتشافات.

الآية الثانية: قال تعالى: "وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين" {يونس: 61}.

قال الطبري: "ذلك خبر عن أنه لا يخفى عليه جل جلاله أصغر الأشياء وإن خف في الوزن كل الخفة، ومقادير ذلك ومبلغه، ولا أكبرها وإن عظم وثقل وزنه، وكم مبلغ ذلك. يقول تعالى ذكره لخلقه: فليكن عملكم، أيها الناس، فيما يُرضي ربكم عنكم، فإننا شهود لأعمالكم، لا يخفى شيء منها، ونحن مُحصوها ومجازوكم بها"⁵³⁰. يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه، أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأن لحظة، وأنه يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله تعالى: "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين" {الأنعام: 59}، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون" {الأنعام:

⁵³⁰ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص223.

{38}. وقال تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين" {هود: 6} ⁵³¹. قال الرازي: "أصل العزوب من البعد. يقال: كلاء عازب إذا كان بعيد المطلب، وعزب الرجل بإبله إذا أرسلها إلى موضع بعيد من المنزل، والرجل سمى عزباً لبعده عن الأهل، وعزب الشيء عن علمي إذا بعد. فإذا قيل: لم قدم ذكر الأرض ههنا على ذكر السماء مع أنه تعالى قال في سورة سبأ (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض)؟"

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض إلا أنه تعالى لم ينكر في هذه الآية شهادته على أحوال أهل الأرض وأعمالهم، ثم وصل بذلك قوله لا يعزب عنه، ناسب أن تقدم الأرض على السماء في هذا الموضع. كما قال بعض المحققين "إن العزوب عبارة عن مطلق البعد" وإذا ثبت هذا فنقول: الأشياء المخلوقة على قسمين: قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسماوات والأرض، وقسم آخر أوجده الله بواسطة القسم الأول، مثل: الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني قد يتباعد في سلسلة العلية والعلوية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله تعالى: "وما يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين"، أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين. وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه، ومتى كان الأمر كذلك فقد كان عالماً بها محيطاً بأحوالها، والغرض منه الرد على من يقول: إنه تعالى غير عالم بالجزئيات، وهو المراد من قوله "إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون". وقالوا إن كلمة "إلا" في قوله "إلا في كتاب مبين" استثناء منقطعاً لكن بمعنى هو في كتاب مبين، وذكر أبو علي

⁵³¹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي النمشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص277.

الجرجاني صاحب النظم عنه جواباً آخر فقال: قوله "وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر" ههنا تم الكلام وانقطع، ثم وقع الابتداء بكلام آخر، وهو قوله "إلا في كتاب مبين" أي وهو أيضاً في كتاب مبين. قال: والعرب تضع "إلا" موضع "و" والنسق "كثيراً على معنى الابتداء، كقوله تعالى "لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم" يعني ومن ظلم. وقوله "لنلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا" يعني والذين ظلموا، وهذا الوجه في غاية التعسف". وأجاب صاحب الكشف: بوجه رابع: فقال: الاشكال إنما جاء إذا عطفنا قوله "ولا أصغر من ذلك ولا أكبر" على قوله تعالى: "من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء" إما بحسب الظاهر أو بحسب المحل، لكننا لا نقول ذلك، بل نقول: الوجه في القراءة بالنصب في قوله "ولا أصغر من ذلك" الحمل على نفي الجنس. وفي القراءة بالرفع الحمل على الابتداء، وخبره قوله "في كتاب مبين" وهذا الوجه اختيار الزجاج⁵³². وقال الصابوني في تفسيره: "أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجل في اللوح المحفوظ"⁵³³. نقول: هذه الآية تدل على المراقبة وذلك في قوله "شهوداً" حيث ألحق الله معه ملائكته الذين يراقبون له كل إنسان خلقه، وكذلك تدل الآية على القدرة أو إبراز قدرة الله تعالى في معرفته وإحاطته بكل شيء. إن الشهادة والقدرة مرتبطتان بميزان ذري في الأرض والسماء مذكور في القرآن الكريم، ويمكن القول إن الرقابة والقدرة وما ينتجان عنهما كله مجموع في اللوح المحفوظ للإنسان.

⁵³² الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج17، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص131.

⁵³³ محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، م1، ط4، (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981)، ص589.

الآية الثالثة: قال تعالى: "وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مُبين" {سبأ: 3}.

قال الرازي في تفسيره: "هناك دليل ظاهر في قوله تعالى: "عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة" لأنه إذا كان عالماً بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة، وعلى هذا فقوله تعالى "في السماوات والأرض" فيه لطيفة وهي أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاءها في الأرض والأرواح في السماء فقوله تعالى: "لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات" إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله "ولا في الأرض" إشارة إلى علمه بالأجسام، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد. وقوله "ولا أصغر من ذلك" إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب، وعلى هذا فلو قال قائل فأبي حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر؟ فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر، لكونها محل النسيان، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته، فقال الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضاً مكتوب فيه، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال (ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم" ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح"⁵³⁴. قال الصابوني في صفوة التفاسير: "أي هو جل وعلا العالم بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، لا يغيب عنه مقدار وزن

⁵³⁴ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص242.

الذرة في العالم العلوي أو السفلي "ولا أصغر من ذلك ولا أكبر" أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها "إلا في كتاب مبين" أي إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ، والغرض أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو تعالى عالم أين ذهبت وتفرقت، ثم يعيدها يوم القيامة" ⁵³⁵. نقول إن الآية تدل على أن الغيب ميزانه ذري تماماً كما أن كل معلوم هو موزون بذات الميزان، وبالتالي فإن معرفة الساعة وقيامها وما قبلها وما بعدها بالنسبة لله كله يحسب حساباً بمثاقيل الذرات وما هو أصغر منها، وبالتالي فإن الآية دالة على قدرة علم الخالق نسبة إلى قدرة علم مخلوقاته.

الآية الرابعة: قال تعالى: "قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير" {سبأ: 22}.

هذا أمر للنبي بأن يقول لكفار قريش، أو للكفار على الإطلاق هذا القول، ومفعولاً زعمتم محذوفان: أي: زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما. وقوله تعالى: "لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض" أي: ليس لهم قدرة على خير، ولا شر، ولا على جلب نفع، ولا دفع ضرر في أمر من الأمور، وذكر السماوات والأرض لقصد التعميم لكونهما ظرفاً للموجودات الخارجية. وقوله تعالى: "وما لهم فيهما من شرك" أي: ليس للآلهة في السماوات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك، ولا بالتصرف "وما له منهم من ظهير" أي: وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمر السماوات

⁵³⁵ محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، م2، ط4، (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981)، ص545.

والأرض ومن فيهما" ⁵³⁶. ويقول تعالى ذكره: "ولا هم إذ لم يكونوا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، منفردين بملكه من دون الله، يملكونه على وجه الشركة، لأن الأملاك في المملوكات، لا تكون لمالكها إلا على أحد وجهين: إما مقسوماً، وإما مشاعاً، يقول: وآلهتهم التي يدعون من دون الله، لا يملكون وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، لا مشاعاً ولا مقسوماً، فكيف يكون من كان هكذا شريكاً لمن له ملك جميع ذلك" ⁵³⁷. قال الرازي في تفسيره: "إن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة: (أحدها): قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماوات وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم، فقال الله تعالى في إبطال قولهم (إنهم لا يملكون في السماوات شيئاً) كما اعترفتهم، قال ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم. (وثانيها): قول من يقول السماوات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فإن الله خلق العناصر من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فإن الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوابع فجعلوا لغير الله معه شركاً في الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له، فقال في إبطال قولهم "وما لهم فيها من شرك" أي الأرض كالسماء لله لا لغيره، ولا لغيره فيها نصيب. (وثالثها): قول من قال: التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب، وفعل المأذون ينسب إلى الأذن ويسلب عن المأذون فيه، مثاله إذا قال ملك لمملوكه اضرب فلاناً فضربه يقال في العرف الملك ضربه ويصح عرفاً قول القائل ما ضرب فلان فلاناً، وإنما الملك أمر بضربه

⁵³⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1196.
⁵³⁷ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص220.

فضرب، فهؤلاء جعلوا السماوات معينات لله فقال تعالى في إبطال قولهم "وما له منهم من ظهير" ما فوض إلى شيء شيئاً، بل هو على كل شيء حفيظ وراقب. (ورابعها): قول من قال إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى في إبطال قولهم "ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له" فلا فائدة لعبادتكم غير الله فإن الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله "حتى إذا فرغ عن قلوبهم" أي أزيل الفزع عنهم، يقال قرد البعير إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب⁵³⁸. نقول: إن الله ينفي عن كل من يدعي الألوهية إمكانية أن يملك مثقال ذرة في السماوات والأرض التي خلقها الله، يعني أن أي إله من دون الله لا يملك أقل وزن من المادة التي خلقها الله في الكون الذي خلقه الله. كما أن الله ينفي عن نفسه صفة الاسناد لهؤلاء أو الإعانة على خلق شيء بوزن مثقال الذرة.

الآية الخامسة والسادسة من سورة الزلزلة: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره (7) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (8)".

نقول: إن العمل فيه خيرية وقد ربط الله هذه الخيرية بالثواب والعقاب وفقاً للوزن، بل وجعل أثر ورؤية الإنسان لعمله الخيري مرتبط بالثواب والعقاب بحسب الوزن. بمعنى آخر، ربط الله أعمال بني آدم وذريته بوزن مثقال الذرة باعتبار أنه محاسب على أعماله بحسب التقويم الإلهي لوزن الذرة. قال البيضاوي في تفسيره: "لعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب. وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة، أو من الأولى

⁵³⁸ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص255، 256.

مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله "أشتاتاً"⁵³⁹. ذكر الرازي في تفسيره: "في الآية إشكال وهو أن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة، وإما ابتداء وإما بسبب اجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر؟ وعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه: (أحدها): قال أحمد بن كعب القرظي (فمن يعمل مثقال ذرة) من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقي الآخرة، وليس له فيها شيء، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، ويدل على صحة هذا التأويل حتى يلقي الآخرة، وليس له فيها شيء، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي أنه (عليه السلام) قال لأبي بكر "يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا ما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاهها يوم القيامة". (وثانيها): قال ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته (وثالثها): أن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة، فتقدر تلك الحسنات أحببت من عقاب كفره، وكذا القول في الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية (ورابعها): أن تخصص عموم قوله تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره" ونقول: المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خير يره، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره⁵⁴⁰. كان ابن عباس يقول: من يعمل مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، ولا يُثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة شر عُوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويُتجاوز عنه، وإن عمل

⁵³⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج30، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص559.

⁵⁴⁰ الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر

بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج32، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،

ص61.

مثقال ذرة من خير يُقبل منه، ويضاعف له في الآخرة. وفي بعض الحديث: الذرة لا زنة لها. وهذا مثل ضربه الله تعالى: أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة. وهو مثل قوله تعالى: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة". وقد تقدم الكلام هناك في الدر، وأنه لا وزن له. وذكر بعض أهل اللغة أن الدر: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق بها من التراب فهو الدر. وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها، فكل واحد مما لزق به من التراب ذرة. وقال محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير. ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن، يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس عند الله شر. دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس: أن هذه الآية نزلت على النبي وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، وإنا لنرى ما عملنا من خير وشر؟ قال: "أرأيت ما تكره، فهو مثاقيل ذر الشر، ويُدخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تُعطره يوم القيامة". قال أبو إدريس: إن مصداقه من كتاب الله في الآية 30 من سورة الشورى: "وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير". وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: "ويطعمون الطعام على حبه" {الإنسان: 8}، كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر، فنزلت ترغيبهم في القليل من الخير أن يعطوه، فإنه يوشك أن يكثر، وتحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر؛ وقاله سعيد بن جبير. والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء.

وقال ابن مسعود: هذه أحكم آية في القرآن، وصدق. وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية، القائلون بالعموم ومن لم يقل به. وروي

عن كعب الأخبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزيور والصحف: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره". قال الشيخ أبو مدين في قوله تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره". قال: في الحال قبل المال. وفي "الموطأ: أن مسكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها. فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت: أتعجب! كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة. وروي عن سعد بن أبي وقاص: أنه تصدق بتمرّتين، فقبض السائل يده، فقال للسائل: ويقبل الله منها مثاقيل الذر، وفي التمرّتين مثاقيل ذر كثيرة⁵⁴¹. قال محمد بن كعب: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا، وفي نفسه، وماله، وأهله، وولده حتى يرى ثوابه في الدنيا، وفي نفسه، وماله، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله، ونفسه، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شر، والزلزل أولى. قال مقاتل: نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكافرين⁵⁴².

الآيات التي ورد فيها كلمة "ذرية" واشتقاقاتها

إن كلمة "ذرية" هي من نفس الاشتقاق اللغوي لكلمة "ذرة"، أي "ذرر". وقد ذُكرت كلمات تشير إلى الذرية وهي كلمة "النسل" التي وردت ثلاثين مرة في القرآن. إذا أدركنا معنى كلمة "الذرة" في

⁵⁴¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص424.

⁵⁴² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج30، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1646.

القرآن، وأن الحساب الإلهي يوم القيامة يكون وفقاً لحساب ذري، فإننا سندرك أن "الذرية" لا تحاسب بشكل جماعي أو عام، بل بشكل دقيق وخاص، ومن بين أحد أهم الإشارات على خصوصية الحساب يوم القيامة قال تعالى: "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" {المؤمنون: 110} وقوله تعالى: "يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون" {الروم: 19} وقوله تعالى: "قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" {الأنعام: 164} وقوله تعالى: "وكلهم آتية يوم القيامة فرداً" {مريم: 95}. قيل: الذرية تكون واحداً وجمعاً. فكونها للواحد قوله تعالى: "رب هب لي من لدنك ذرية طيبة" {آل عمران: 38} وقوله تعالى: "فهب لي من لدنك ولياً" {مريم: 5}. وكونها للجمع: "ذرية ضِعافاً" {النساء: 9}. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن: "وذرياتنا". وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وطلحة وعيسى: "وذريتنا" بالإفراد⁵⁴³. وكذلك ذكر الشوكاني في تفسيره⁵⁴⁴. كان الحسن والحسين من ذرية رسول الله، لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أنه لا ينتسب إلى إبراهيم إلا بالأم، وكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله، وإن انتسبا إلى رسول الله بالأم وجب كونهما من ذريته، ويقال: إن أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف⁵⁴⁵. وأصل ذرية: فُعلية من الدر، إن الله

⁵⁴³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج15، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص488.

⁵⁴⁴ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج19، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1050.

⁵⁴⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص70.

تعالى أخرج الخلق من صلب آدم (عليه السلام) كالذر حين أشهدهم على أنفسهم، وقيل: هو مأخوذ من: ذرأ الله الخلق يذروهم ذراً: خلقهم، ومنه الذرية، وهي نسل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذراري. وقرأ زيد بن ثابت: "ذرية" بكسر الذاو و "ذرية" بفتحها؛ قال ابن جنى أبو الفتح عثمان: يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ: أحدها: ذراً، والثاني: ذرر. والثالث: ذرو، والرابع: ذرى، فأما الهمزة فمن: ذرأ الله الخلق، وأما ذرر فمن لفظ الذر ومعناه، وذلك لما ورد في الخبر: "أن الخلق كان كالذر"، وأما الواو والياء، فمن: ذرُوتُ الحب وذريته، يقالان جميعاً، وذلك قوله تعالى: "فأصبح هشيماً تذروه الرياح" {الكهف: 45} وهذا للطفه وخفته، وتلك حال الذر أيضاً. قال الجوهري: ذرت الرياح التراب وغيره تذروه وتذريه ذرواً وذرياً، أي: سفته، ومنه قولهم: ذرى الناس الحنطة، وأذريت الشيء: إذا ألقيته، كالقائك الحب للزرع. وطعنه فأذراه عن ظهر دابته، أي: ألقاه. وقال الخليل: إنما سُموا ذرية، لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر. وقيل: أصل ذرية: ذرورة، لكن لما كثر التضعيف أبدل من إحدى الراءات ياء، فصارت ذروية، ثم أدغمت الواو في الياء، فصارت ذرية. والمراد بالذرية هنا الأبناء خاصة، وقد تُطلق على الآباء والأبناء، ومنه قوله تعالى: "وأية لهم أنا حملنا ذريتهم" {يس: 41} يعني آباءهم⁵⁴⁶. وقال الأصفهاني: الذرية أصلها الصغار من الأولاد وإن كان قد يقع على الصغار من الأولاد وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف ويُستعمل للواحد والجمع وأصله

⁵⁴⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص368، 367.

الجمع⁵⁴⁷. وذكر أن الذرء بمعنى الخلق⁵⁴⁸. وقيل: ذرأ الله الخلق: أي خلقهم. قال أبو إسحاق النحوي: الذرية غير مهموز. ومعنى قوله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم" أن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر حين أشهدهم على أنفسهم". وقيل: الذرية: اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى⁵⁴⁹. في الآيات التالية سوف نحلل الأبعاد اللغوية للخطاب القرآني الذي استخدم فيه كلمة ذرية وكافة اشتقاقاتها. فمن هم المقصودون في قوله تعالى: "ذرياتنا" في كل آية وفي مجموع الآيات، ومن هم المقصودون في قوله تعالى: "ذريتهم" في كل آية وفي مجموع الآيات، ومن هم المقصودون في قوله تعالى: "ذريتي" في كل آية وفي مجموع الآيات، وهكذا في كل الكلمات التي ورد فيها جذر كلمة "ذرية" وهي "ذرر".

أولاً: كلمة (ذرية)

آية مركزية في اصطفاء ذرية الأوائل (آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران)

الآية الأولى: قال تعالى في سورة آل عمران: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (33) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (34)".

⁵⁴⁷ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص237.

⁵⁴⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج1، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص135.

⁵⁴⁹ محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م3، ج17، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص1494، 1495.

الآية (34) التي وردت فيها كلمة "ذرية" مرتبطة بالآية (33) التي قبلها. قال الشوكاني المراد: بآل إبراهيم إبراهيم نفسه، وبآل عمران عمران نفسه. قوله تعالى: "ذرية بعضها من بعض" نصب ذرية على البدلية مما قبله قاله الزجاج، أو على الحالية قاله الأخفش، وقد تقدم تفسير الذرية، وبعضها من بعض في محل نصب على صفة الذرية، ومعناه متناسلة متشعبة، أو متناصرة متعاضدة في الدين⁵⁵⁰. ذكر الكشف في قوله "ذرية" بدل من آل إبراهيم وآل عمران "بعضها من بعض" يعني: أن الألبان ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض، وموسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله، وقيل: بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى: "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض" "والله سميع عليم" يعلم من يصلح للصطفاء، أو يعلم أن بعضهم من بعض في الدين، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها⁵⁵¹. وكذلك قال البيضاوي: "ذرية بعضها من بعض" حال أو بدل من الألبان أو منهما ومن نوح، أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. وقيل بعضها من بعض في الدين. والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فعلية من الذر أو فَعُولَة من الذرء أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت. "والله سميع عليم" بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها⁵⁵². ذكر القرطبي أن: الذرية هي

⁵⁵⁰ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص214.

⁵⁵¹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص169.

⁵⁵² ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص256.

نصب على الحال، قاله الأخفش. أي: في حال كون بعضهم من بعض، أي: ذرية بعضها من ولد بعض. الكوفيون: على القطع. الزجاج: بدل، أي: اصطفى ذرية بعضها من بعض. ومعنى "بعضها من بعض": يعني في التناصر في الدين، كما قال تعالى: "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض". يعني: في الضلالة، قاله الحسن وقتادة. وقيل: في الاجتناب والاصطفاء والنبوة. وقيل: المراد به التنازل، وهذا أضعفها⁵⁵³. يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، (عليه السلام)، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة. "واصطفى نوحاً، (عليه السلام)، وجعله أول رسول (بعثه) إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، (عليهم السلام). قال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميثا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم ابن عزاريا ابن أمصيا بن ياوش بن أجرهيو بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان بن رخبعم بن سليمان بن داود، عليهما السلام. فعيسى، (عليه السلام)، من ذرية إبراهيم"⁵⁵⁴. ذكر الرازي في تفسيره شرحاً طويلاً لمعنى الآيتين، سوف نذكره لأن لنا وجهة نظر فيه، حيث قال: اعلم أن

⁵⁵³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص98.

⁵⁵⁴ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص33.

المخلوقات على قسمين: المكاف وغير المكاف واتفقوا على أن المكاف أفضل من غير المكاف، واتفقوا على أن أصناف المكاف أربعة: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين. أما الملائكة، فقد روى في الأخبار أن الله تعالى خلقهم من الرياح ومنهم من احتج بوجوده عقلية على صحة ذلك. (فالأول): أنهم لهذا السبب قدروا على الطيران على أسرع الوجوه. (والثاني): لهذا السبب قدروا على حمل العرش، لأن الريح تقوم بحمل الأشياء. (الثالث): لهذا السبب سموا روحانيين، وجاء في رواية أخرى أنهم خلقوا من النور، ولهذا صفت وأخلصت لله تعالى والأولى أن يجمع بين القولين فنقول: أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهؤلاء هم سكان عالم السموات، وأما الشياطين فهم كفرة أما إبليس فكفره ظاهر لقوله تعالى: "وكان من الكافرين" وأما سائر الشياطين فهم أيضاً كفرة بدليل قوله تعالى: "وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوهم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون" ومن خواص الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوهم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون، ومن خواص الشياطين أنهم بأسرها أعداء للبشر. قال تعالى: "فسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو" وقال تعالى: "وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن" ومن خواص الشياطين كونهم مخلوقين من النار قال الله تعالى حكاية عن إبليس: "خلفتني من نار وخلقته من طين" وقال تعالى: "والجان خلقناه من قبل من نار السموم" فأما الجن فمنهم كافر ومنهم مؤمن، قال تعالى: "وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً"، وأما الإنس فلا شك أن لهم والداً هو والدهم الأول، وإلا لذهب إلى ما لا نهاية والقرآن دل على أن ذلك الأول هو آدم على ما قال تعالى في هذه السورة: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" وقال تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها". إذا عرفت هذا فنقول: اتفق العلماء على أن البشر أفضل من الجن والشياطين، واختلفوا في

أن البشر أفضل أم الملائكة، وقد استقصينا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: "اسجدوا لآدم فسجدوا" والقائلون بأن البشر أفضل تمسكوا بهذه الآية، وذلك لأن الاصطفاء يدل على مزيد الكرامة وعلو الدرجة، فلما بين تعالى أنه اصطفى آدم وأولاده من الأنبياء على كل العالمين وجب أن يكونوا أفضل من الملائكة لكونهم من العالمين. فإن قيل: إن حملنا هذه الآية على تفضيل المذكورين فيها على كل العالمين أدى إلى لتناقض لأن الجمع الكثير إذا وصفوا بأن كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من الآخر وذلك مُحال، ولو حملناه على كونه أفضل عالمي زمانه أو عالمي جنسه لم يلزم التناقض، فوجب حمله على هذا المعنى دفعاً للتناقض وأيضاً قال تعالى في صفة بني إسرائيل "وإني فضلتكم على العالمين" ولا يلزم كونهم أفضل من محمد بل قلنا. المراد به عالم زمان كل واحد منهم، والجواب ظاهر في قوله: اصطفى آدم على العالمين، يتناول كل من يصح إطلاق لفظ العالم عليه فيندرج فيه الملك، غاية ما في هذا الباب أنه ترك العمل بعمومه في بعض الصور لدليل قام عليه، فلا يجوز أن نتركه في سائر الصور من غير دليل. أما كلمة (اصطفى) في اللغة اختار، فمعنى: اصطفاهم، أي جعلهم صفوة خلقه، تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يصفى وينقى من الكدورة، ويقال على ثلاثة أوجه: صفوة، وصفوة وصفوة، ونظير هذه الآية قوله لموسى: "إني اصطفتك على الناس برسالاتي" وقال في إبراهيم "وإسحاق ويعقوب وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار". إذا عرفت هذا فنقول: في الآية قولان: (الأول): المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون الاصطفاء راجعاً إلى دينهم وشرعهم وملتهم، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف المضاف (والثاني): أن يكون المعنى: إن الله اصطفاهم، أي صفاهم من الصفات الذميمة، وزينهم بالخصال الحميدة، وهذا القول أولى لوجهين: (أحدهما): أنا لا نحتاج فيه إلى الإضمار (والثاني): أنه موافق لقوله

تعالى: "الله أعلم حيث يجعل رسالته" وذكر الحليمي في كتاب المنهاج أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانية، والقوى الروحانية، وأما القوى الجسمانية، فهي إما مدركة، وإما محركة. (أما المدركة) فهي إما الحواس الظاهرة، وإما الحواس الباطنة، أما الحواس الظاهرة فهي خمسة (أحدها): القوة الباصرة، ولقد كان الرسول مخصوصاً بكمال هذه الصفة ويدل عليه وجهان: (الأول): قوله تعالى: "زويت لي الأرض فأريت مشارقتها ومغاربها". (والثاني): قوله تعالى: "وأقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري" ونظير هذه القوة ما حصل لإبراهيم وهو قوله تعالى: "وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض" ذكروا في تفسيره أنه تعالى قوى بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل قال الحليمي رحمه الله: وهذا مستبعد لأن البصراء يتفاوتون فروى أن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فلا يبعد أن يكون بصر النبي أقوى من بصرها. (وثانيها): القوة السامعة، وكان أقوى الناس في هذه القوة، ويدل عليه وجهان: (أحدهما): قيل في الحديث: "أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى" فسمع أطيظ السماء (والثاني): أنه سمع دويماً وذكر أنه هوى صخرة قذفت في جهنم فلم تبلغ قعرها إلى الآن، قال الحليمي: ولا سبيل للفلاسفة إلى استبعاد هذا، فإنهم زعموا أن فيتاغورث راض نفسه حتى سمع خفيف الفلك، ونظير هذه القوة لسليمان (عليه السلام) في قصة النمل "قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم" فالتفت إلى النمل وأوقفه على معناه وهذا داخل أيضاً في باب تقوية الفهم، وكان ذلك حاصلاً لمحمد حين تكلم مع الذئب ومع البعير (وثالثها): تقوية قوة الشم، كما في حق يعقوب (عليه السلام)، فإن يوسف (عليه السلام) لما أمر بحمل قميصاً إليه وإلقائه على وجهه، فلما فصلت العير قال يعقوب (إني لأجد ريح يوسف) فأحس بها من مسيرة أيام (ورابعها): تقوية قوة الذوق، كما

في حق رسولنا حين قال "إن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم (وخامسها): تقوية القوة اللامسة كما في حق الخليل حيث جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه، فكيف يستبعد هذا ويشاهد مثله في السمندل والنعامة، وأما الحواس الباطنة فمنها قوة الحفظ، قال تعالى: "سنقرئك فلا تنسى" ومنها قوة الذكاء، قال علي (عليه السلام) "علمني رسول الله ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب" فإذا كان الحال الولي هكذا، فكيف حال النبي. "وأما القوى المحركة" فمثل عروج النبي إلى المعراج، وعروج عيسى حياً إلى السماء، ورفع إدريس وإلياس على ما وردت به الأخبار، وقال تعالى: "قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك". "وأما القوى الروحانية العقلية" فلا بد وأن تكون في غاية الكمال، ونهاية الصفاء. واعلم أن تمام الكلام في هذا الباب أن النفس القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس، ومن لوازم تلك النفوس الكمال في الذكاء، والفتنة، والحرية، والاستعلاء، والترفع عن الجسمانيات والشهوات، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت هذه القوى المحركة والمدركة في غاية الكمال لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصله إلى البدن، ومتى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء. إذا عرفت هذا فقله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً" معناه: إن الله تعالى اصطفى آدم إما من سكان العالم السفلي على قول من يقول: الملك أفضل من البشر، أو من سكان العالم العلوي على قول من يقول: البشر أشرف المخلوقات، ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم (عليه السلام)، هم شيث وأولاده، إلى إدريس، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم حصل من إبراهيم شعبتان: إسماعيل وإسحاق، فجعل إسماعيل مبدأ لظهور الروح القدسية لمحمد، وجعل إسحاق مبدأ لشعبتين: يعقوب وعيسو، فوضع النبوة في نسل يعقوب، ووضع الملك في نسل عيسو، واستمر

ذلك إلى زمان محمد، فلما ظهر محمد نقل نور النبوة ونور الملك إلى محمد، وبقي أعني الدين والملك لأتباعه إلى القيامة، ومن تأمل في هذا الباب وصل إلى أسرار عجبية. (المسألة الثالثة) من الناس من قال: المراد بآل إبراهيم المؤمنون، كما في قوله تعالى: "أدخلوا آل فرعون" والصحيح أن المراد بهم الأولاد، وهم المراد بقوله تعالى: "إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين". وأما آل عمران فقد اختلفوا فيه، فمنهم من قال المراد عمران والد موسى وهارون، وهو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فيكون المراد من آل عمران موسى وهارون وأتباعهما من الأنبياء، ومنهم من قال: بل المراد: عمران بن ماثان والد مريم (عليهما السلام)، وكان هو من نسل سليمان بن داود بن إيشا، وكانوا من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، قالوا. وبين العمرانيين ألف وثمانمائة سنة، واحتج من قال بهذا القول على صحته بأمر: (أحدها): أن المذكور عقيب قوله تعالى: "وآل عمران على العالمين" هو عمران بن ماثان جد عيسى (عليه السلام) من قبل الأم، فكان صرف الكلام إليه أولى. (وثانيها): أن المقصود من الكلام أن النصارى كانوا يحتجون على إلهية عيسى بالخوارق التي ظهرت على يديه، فالله تعالى يقول: إنما ظهرت على يده إكراماً من الله تعالى إياه بها، وذلك لأنه تعالى اصطفاه على العالمين وخصه بالكرامات العظيمة، فكان حمل هذا الكلام على عمران بن ماثان أولى في هذا المقام من حمله على عمران والد موسى وهارون (وثالثها): أن هذا اللفظ شديد المطابقة لقوله تعالى: "وجعلناها وابنها آية للعالمين" واعلم أن هذه الوجوه ليست دلائل قوية، بل هي أمور ظنية وأصل الاحتمال قائم. أما قوله تعالى: "ذرية بعضها من بعض" ففيه مسألتان:

(المسألة الأولى) في نصب قوله (ذرية) وجهان: (الأول): أنه بدل من آل إبراهيم. (والثاني): أن يكون نصباً على الحال، أي اصطفاهم في حال كون بعضهم من بعض.

(المسألة الثانية) في تأويل الآية وجوه: (الأول): ذرية بعضها من بعض في التوحيد والإخلاص والطاعة، ونظيره قوله تعالى: "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض" وذلك بسبب اشتراكهم في النفاق (والثاني): ذرية بعضها من بعض بمعنى أن غير آدم (عليه السلام) كانوا متولدين من آدم (عليه السلام)، ويكون المراد بالذرية من سوى آدم. أما قوله تعالى: "والله سميع عليهم" فقال القفال: المعنى والله سميع لأقوال العباد، عليهم بضمايرهم وأفعالهم، وإنما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً، ونظيره قوله تعالى: الله أعلم حيث يعجل رسالته". وقوله تعالى: "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغياً ورهياً وكانوا لنا خاشعين" وفي وجه آخر: وهو أن اليهود كانوا يقولون: المسيح ابن الله، وكان بعضهم عالماً بأن هذا الكلام باطل، إلا أنه لتطبيب قلوب العوام بقي مصرّاً عليه، فالله تعالى كأنه يقول: والله سميع لهذه الأقوال الباطلة منكم، عليم بأغراضكم الفاسدة من هذه الأقوال فيجازيكم عليها، فكان أول الآية بياناً لشرف الأنبياء والرسول، وأخرها تهديداً لهؤلاء الكاذبين الذين يزعمون أنهم مستقرون على أديانهم⁵⁵⁵. نقول: تعقيباً على كلام الرازي إن أجسام الملائكة ليست مخلوقة من الرياح، ولكن من مادة الرياح وهي (الأكسجين والنيتروجين). كما أن أرواحهم مخلوقة من نور وهذا النور هو نور الله القرآني وشريعته التي أنزلها من خلال الوحي على كل الأنبياء منذ خلق آدم (عليه السلام) والتي انتهت إلى كتاب القرآن الذي جمعت فيه كل الشرائع والأحكام والعبادات والقصاص التاريخية،

⁵⁵⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص20، 21، 22، 23، 24، 25.

وهذا النور هو الذي اشتغلوا عليه في الحياة الدنيا فجعلهم الله مبصرين بقوة شديدة، ويعرفون دقائق الأمور، ويفهمون كل اللغات ويدركون مصائر الناس، وهم قادرين على الإحياء، والإماتة، والبعث، والنشور. وإن في الآية توصيف إلهي دقيق من ناحية تصوير التسلسل الطبيعي في الآية (33) لعلاقة كل نبي بعمه من ناحية بيولوجية، ففي البدء كان خلق آدم من تراب، ثم جاء بعده نوحاً وتلاه إبراهيم وهو من ذرية نوح التي هي حام وسام ويافث، وإبراهيم هو من ذرية سام ابن نوح، ثم آل عمران وهو من ذرية إبراهيم، ولكن ليس بشكل مباشر فهناك إسحق ويعقوب وإسماعيل وهم من ذرية إبراهيم وقد جاؤوا قبل عمران في سلسلة الذرية. عموماً وبحسب الآية، كان اصطفاء هؤلاء الأنبياء الأربعة "آدم ونوح وإبراهيم وآل عمران" هو اصطفاء أفقي وعمودي، وهو بالتالي اصطفاء كوني؛ لأنه قال على العالمين، ثم قال في الآية التالية (34): "ذرية بعضها من بعض"، وهو ما يشير إلى التناسل التراتبي البيولوجي في سلسلة الذرية، علماً بأن تفضيل الأنبياء الأربعة على العالمين هو تفضيل أيضاً بيولوجي. وهو تفضيل محق لأنه تفضيل إلهي لأنبيائه على سائر البشر، وهو أيضاً تكريم للإنسان على وجه الأرض لأن الإنسان هو -على نحو صريح ودقيق بيولوجياً- من نسل هذه الذرية تاريخياً. هنا يجب أن نلاحظ ما أشرنا إليه في بداية الكتاب وهو النوعين في مسارات خلق الإنسان، لأن مسار خلق آدم (عليه السلام) من تراب في بدء الخليقة، الذي هو مسار ابتدائي خلقي طبيعي مادي حيوي، يختلف شكلياً، لكنه ينسجم جوهرياً مع مسار التناكح بين الذكر والأنثى الذي يؤدي إلى التناسل والتكاثر نتيجة التفاعل البيولوجي الأنتروبولوجي وبالتحديد البيوكيميائي والبيوفيزيائي. عندما ذكر الله أسماء الأنبياء الأربعة في الآية (33)، ثم قال في الآية (34) "ذرية بعضها من بعض"، فهو بذلك لم يفصل بين المسارين المختلفين، أي المسار الخلقي الطبيعي التأسيسي الأول، الذي يحظى بخصوصية إلهية، والمسار البيولوجي الإنشائي التراكمي

الثاني، في تأكيد على عدم الانقطاع أو فقدان حلقة الوصل في سلسلة الذرية ما بين الخلق الأول من الطين، والخلق الثاني الإنشائي التكويني في أرحام النساء. وهنا نشير إلى ثلاث ملاحظات جديرة بالذكر لأهمية ما بعدها، وهي تتعلق باختيارنا وتوصيفنا لأهم مسارين في عملية خلق الإنسان، وذلك انطلاقاً من فهمنا للآيات الثلاثة من سورة المؤمنون لقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (12) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (13) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (14)".

الملاحظة الأولى: أننا استخدمنا جملة "المسار الخفي الطبيعي التأسيسي" في رؤيتنا للمسار الأول، وذلك استعارة من فهمنا للمفردات القرآنية الثلاثة في الآية (12) من سورة المؤمنون وهي على التوالي "خلقنا" و "سلالة" و "طين"، لقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (12)". ما يعني أن المسار الأول، ينطوي على خلق أول، وهو رغم كونه خلق أول إلا أنه قائم على الاستمرارية أيضاً لأن الآية اشتملت على كلمة "سلالة" مع التعيين أن هذه السلالة مخلوقة من طين ولها ديمومة، مع ملاحظة المعنى الطبيعي عند وصف "السلالة" مع كلمة الطين في الآية. كما نستوضح هنا فهمنا للعلاقة بين "السلالة" و "الذرية" من ناحية وراثية جينية، أو على صعيد الرتب/المراتب التصنيفية الحيوية المتمثلة في النوع والجنس والفصيلة والرتبة والطائفة والشعبة والمملكة والنطاق⁵⁵⁶.

الملاحظة الثانية: أن الخلق في المسار الأول، حتى وإن كان مساراً خلقياً طبيعياً تأسيسياً -يعني من طين- إلا أنه يتفرع منه نوع آخر مساوٍ ومتجانس للخلق من الطين، لكنه غير متشابه تماماً في آلية الإعداد، وهو خلق النطفة في رحم الأم، وهذا لا يسمى إنتاجاً خلقياً طبيعياً مادياً

<https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2⁵⁵⁶>

بشراً خالصاً، بل عملية خلق إحيائي حيوي إلهي بامتياز، وأصل النطفة هنا أنها "مخلوقة" بصرف النظر عن طرق أو تعدد آليات إعدادها، ونقول "مخلوقة" لأن موضوع النطفة متصل بالمادة الخام، وهي الخلية -ومنها الخلايا الجذعية الجنينية- باعتبارها الوحدة التركيبية والوظيفية في الكائنات الحية، وتنقسم إلى خلايا نباتية وخلايا حيوانية. وفي هذا الإطار الخاص بموضوع النوع الثاني من الخلق المتفرع من المسار الأول ذكر الله في القرآن طريقة هذا الخلق من خلال إنتاج المني الذي يخرج من العضو الذكري للرجل إلى رحم المرأة وذلك في قوله تعالى في سورة الطارق: "فلينظر الإنسان مم خلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من الصلب والثرائب (7)". إن الاستخدام الإلهي لتعبير "ماء دافق" يدل على وجود قوة وطاقة منتجة في هذا الماء، وأن عملية تلقيح البويضة والتخصيب يتم من خلال فاعلية هندسية قوية ناتجة عن جهد وطاقة بدنية وعقلية مولدة لطاقة أخرى بيولوجية تتسبب في عملية إنتاج النسل. شرحنا علاقة أو أصالة الخلية في خلق آدم (عليه السلام) ثم بناء الإنسان، لكننا سنوضح علاقة الذرة بالخلية والنواة في الكائنات الحية من حيث (الحجم والأسبقية). إذا قلنا بأن جزيء الماء مكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، فهذا يعني أن الذرة أصغر من الجزيء (في العنصر الكيميائي)، والجزيء أصغر جسيم في المركب. وتتكون الذرة من النواة كما أن الخلية تتكون من النواة، لذلك تعتبر النواة أصغر من الذرة وأصغر من الخلية. بالتالي تكون (الذرة والخلية) هما الأصل في الخلق. بشكل تفصيلي نقول: إن الذرة أصغر حجر بناء داخل العنصر الكيميائي، والخلية أصغر حجر بناء للكائنات الحية، فكلا الذرة والخلية وحدات بنائية، وأما النواة فهي تقع داخل الخلية وتسمى نواة الخلية وتحتوي على غالبية المادة الوراثية في الخلية سواء كانت خلية سليمة أو غير سليمة وتكون هذه المادة في النواة على شكل جزيئات (حمض نووي صبغي أو حمض نووي ريبوزي منقوص الأكسجين DNA)

خطية منتظمة في بُنى تسمى الكروموسومات أو الصبغيات. إذا كانت الخلية مسؤولة أو منتجة لأول مخلوق وهو آدم (عليه السلام) من خلال تفاعل الماء والتراب مع حرارة الشمس وهي المواد التي خلق منهما آدم عليه السلام، فإن النواة داخل الخلية في هذه الحالة تكون سابقة على الخلية باعتبار أن النواة تحتوي على المادة الوراثية التي توجد في ذرية آدم (عليه السلام) نتيجة عملية التناسل التراكمية والمعروفة باسم السلسلة الوراثية أو علم الوراثة لكل النوع البشري على الأرض.

السؤال هنا: كيف أفهم نواة آدم (عليه السلام) ونواة باقي البشر؟

نواة آدم (عليه السلام) ونواة باقي البشر

بالنسبة لنواة آدم (عليه السلام) فإننا يجب أن ندرك ثلاث حقائق ذكرناها في شرحنا لسورة {الرحمن: 14} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص 279} وهي:

أولاً: أن العناصر التي دخلت على خلق أو تكوين جسد آدم (عليه السلام) قبل نفخ الروح فيه هي (حركة الرياح والحرارة والماء) حيث إن حركة الرياح أنتجت سخونة أو حرارة الشمس الطبيعية، على حين عملت الرياح على إنضاج أو استواء جسد آدم (عليه السلام) بفعل وجود الماء في التربة، حيث جفّ جسده ثم نفخ فيه الروح.

ثانياً: إن الله هو الذي قدّر موازين حركة الرياح وحرارة الشمس لآدم (عليه السلام) في وقت أو لحظة خلقه، أي أن الطاقة وحركة الرياح والحرارة كانت ثابتة بالنسبة لآدم (عليه السلام)، ولكنها ليست ثابتة بالنسبة لذرية آدم (عليه السلام). وقلت إن معرفة طباع وتصرفات سيدنا آدم (عليه السلام) يكون من خلال معرفة درجة حرارة الشمس وحركة الرياح ونوعية التربة وكمية الماء في المكان والزمن الذي خلق فيه آدم (عليه السلام)؛ لأن له تأثير على ذرية آدم (عليه السلام). إذا عرفنا ذلك سنعرف درجة حرارة الشمس وحركة

الرياح ونوعية التربة وكمية الماء التي نتجت عن انفجار أو تكون الكون، وهو الذي قال الله تعالى فيه: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانت رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي" {الأنبياء: 30}

ثالثاً: وجود الهيدروجين والأكسجين في الفضاء البعيد، وأن اتحاد جزيئتهما نشأ من خلال عملية تفاعلهما تزامناً مع تصادمهما مع سرعة الضوء الذي أدى إلى تكون الكون، وأن التفاعل تزامن مع سرعة الضوء، وأن السرعة مرتبطة بالحركة التي نتج عنها كل شيء. بالتالي فإن فهم نواة آدم (عليه السلام) يكون من خلال فهم نواة الكون، ومنها النواة التي يطلق عليها العلماء اسم "النواة المجرية النشطة" وفقاً للاكتشاف العلمي الحديث المسمى "الثقب الأسود"، حيث إن هذه النواة المجرية النشطة هي عبارة عن أقراص على شكل دوامات مكونة من الغاز والغبار تحاط بالثقوب السوداء، وهذه الأقراص تشع كميات كبيرة من الضوء والإشعاع، بحيث أن هذه الإشعاعات يمكنها أن تدمر الأغلفة الجوية للكواكب المجاورة فتكون منطقة ميتة حول الثقب الأسود⁵⁵⁷. علماً بأن أحد الثقوب السوداء يعد الأكثر سطوعاً والأسرع نمواً في آخر (9) مليارات سنة، وهو أكبر (3) مليارات مرة من كتلة الشمس، ويبتلع جزءاً من المادة بحجم الأرض كل ثانية. مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الثقوب السوداء تمثل نحو 1% من المادة في الكون⁵⁵⁸. نقول: إن حالة (العطش المادي) لهذه الثقوب السوداء تتطابق مع حالة (النهم المادي) لآدم (عليه السلام) من خلال إدراكنا لأصل السبب الذي أنزله الله من خلاله إلى الأرض وهو المساس بالشجرة في الجنة لقوله تعالى: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" {البقرة: 35} ولهذا السبب قال علماء هارفارد إن

<https://futurism.com/harvard-radiation-black-holes-life>⁵⁵⁷

<https://tinyurl.com/yckh2269> 558

إشعاعات من الثقب الأسود قد تخلق حياة، وهذا صحيح لأنها خلقت الكون ومن ثم حياة آدم (عليه السلام). بالتالي نقول: إن خلق الكون مرتبط بخلق آدم (عليه السلام)، لأن هذه الثقوب تتشكل نتيجة موت نجم ضخم عند استنفاد وقوده النووي، حيث تنهار النواة إلى الحالة الأعلى كثافة للمادة، وهي أكثر كثافة بعشرات المرات من نواة الذرة. أي أن الكون يموت مثل الإنسان ويلتهم نفسه نتيجة موت نواته. وكذلك موت الإنسان يتعلق بانتهيار نواته داخل الخلية، وإن تقدير نوع العقاب أو العذاب الإلهي متعلق بحالة الجهد والبذل للنواة (أي حركة الإنسان منذ لحظة خلقه) وبالتالي للذرة التي تقع فيها النواة، ومن ثم للخلية التي تتكون من ذرات، والخلية أصلها خلية نباتية وحيوانية، (أي أن أصل النواة تتعلق بشهوة الغذاء، وهذا سبب وأصل خلق الكون). نقول: هذا كله يعيد الإنسان إلى درجة من درجات حياته الأولى، فإما أن يكون علوياً فوق كل شيء خلقه الله، أي في درجة من درجات جنته، وإما أن يكون سفلياً في أرضه الطبيعية التي خلقها، وإما أن يكون بين أرضه المادية وآخر درجات النار التي شرحتها وقد ذكر فيها قوله تعالى: ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمها على الكافرين {الأعراف: 50} {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص107}. بالتالي تكون النجوم والأجسام النارية الملتهبة المكونة من غاز الهيدروجين، وكذلك المادة المظلمة والمجالات المغناطيسية المروعة في الفضاء الخارجي كلها جزء من هذا العقاب الإلهي الأخرى؛ لأن الأجسام في الكون تكون إما محترقة أو وهاجة أو مشعة ولذلك قال تعالى: "ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير" {الملك: 5}. أما بالنسبة للنواة في باقي البشر، فنقول: إن النواة داخل الخلية غُضِيَّةٌ بغشاء مغلق أو تسمى عُضَيَاتِ خَلَوِيَّةٍ أو عُضَاتِ غِشَائِيَّةٍ، حيث يبلغ قطرها من 5 إلى 10 ميكرو مترات، وهي أجزاء أو أجسام حية موجودة في سيتوبلازم الخلية حقيقية النواة بشكل

عام، وتشمل كل من الشبكة البلازمية الداخلية وجهاز جولجي، الماييتوكندريا، البلاستيدات، الجسيمات الحالة، هيكل الخلية، الجسيم الحركي والفجوات. فإذا أردنا أن نعرف حقائق السلاسل الوراثية، فيجب أن نفهم أسباب وجود العضيات في الخلايا "حقيقة النوى" فقط، ولا توجد في الخلايا "بدائية النوى"، وكذلك طرائق وأسباب اختلاف توزيع أنواع العضيات في الخلية النباتية عن الخلية الحيوانية. نقول: في الخلايا "حقيقية النوى" لأن "بدائيات النوى" هي وحيدة الخلية ومن ممالكها "مملكة البكتيريا البدائية" و "مملكة البكتيريا الحقيقية". أما "حقيقيات النوى" فمن ممالكها "مملكة الطلائعيات" و "مملكة الفطريات" و "مملكة النباتات" و "مملكة الحيوانات". مما سبق نفهم عملية "الإحياء" للنطفة، باعتبار "الإحياء" خلقاً، مع القول بأهمية الأسباب التي تؤسس للخصوبة بالمعنى الطبيعي عند الرجل والمرأة، وهذا يتعلق ببنية الجسد وطبيعة الأطعمة التي يتناولها الإنسان، والتي أصل منشأها من التربة، بالإضافة إلى علاقة الخصوبة بالبناء القويم للجسد أو الاعتلال، وهذه مسألة فرعية يطول الحديث فيها، لكن ما يهمنا هنا هو التأكيد على القاعدة الأهم التي تنشأ منها هذه العملية وهي عملية "الإحياء" التي تسمى خلق. والجزء الأهم في عملية "الإحياء" هو نفخ الروح في الجسد، أي تحويل الإنسان من كائن نائم ساكن إلى كائن يقظ ومتحرك.

الملاحظة الثالثة: أننا استخدمنا جملة "المسار الإنشائي التراكمي" في رؤيتنا للمسار الثاني، وذلك استعارة من فهمنا للمفردة القرآنية "أنشأناه" في الآية (14) من سورة المؤمنون، أي بعد آية واحدة من الآية (12) لقوله تعالى: "ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (14)". يعني ذلك أن الخلق الأول قبل النشء مختلف تماماً عن الخلق الآخر، وهذا الاختلاف هو اختلاف شكلي بنيوي، لكنه ليس اختلافاً جوهرياً، بمعنى آخر تبقى المادة الخام الأولى، الطين يليها صناعة الخلية أو النطفة هي الخلق الأول المراد منه قبل النشء، بينما

يكون الخلق الآخر هو الصورة الأصلية للاكتمال والخروج من الخلق إلى عناية الخلق. ويضاف إلى ذلك أن الآية جاءت على ذكر قوله تعالى: "فتبارك الله أحسن الخالقين"، فجعل الله بوصفه أحسن خالق، وبوصفه محسناً إتقان خلقه، مشمولاً في أداء عملياته، الخلق الأول "من طين"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النفطة"، والخلق الثالث "الإنشاء"، مع النظر إلى الآلية العملية الدقيقة والاعتبارات الموضوعية في مسار تكوين كل خلق، باعتبار أنها، أي كافة المسارات هي في الأصل خلق من ناحية مركزية. نستنتج مما سبق أن الله رسّخ للترابط الطبيعي والبيولوجي ما بين الخلق الأول "من طين"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النفطة"، والخلق الثالث "الإنشاء"، والخلق الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد"، وقد عبّر الله عن الاختلاف بين الخلق الأول "من طين"، والخلق الرابع والأخير "البعث/بعث الروح في الجسد" في قوله تعالى في سورة العنكبوت: "أولم يروا كيف يُبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير (19) قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير (20)". قيل إن الآية كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال (أولم يروا) على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه، وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري، وهذا لأن الإنسان له مراتب في الإدراك بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له، وبعضهم لا يفهم إلا بآبانه، وبعضهم لا يفهمه أصلاً، فقال: إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا في الأرض، أي سيروا ففكرم في الأرض وأجبلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفي الآية مسائل:

(المسألة الأولى): قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر، ما الحكمة فيه؟ نقول العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين، والرؤية أتم من النظر؛ لأن النظر يفضي إلى الرؤية، يقال

نظرت فرأيت والمفضي إلى الشيء دون ذلك الشيء، فقال في الأول
أما حصلت لكم الرؤية فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية.
(المسألة الثانية): ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفي الآية الأولى
بصيغة الاستفهام؛ لأن العلم الحدسي يصير الحاصل فكراً فيكون
الأمر به تكليف ما لا يطاق، وأما العلم الفكري فهو مقدور، فورد الأمر
به.

(المسألة الثالثة): أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال
(كيف يبدئ الله) وأضره عند الإعادة وفي هذه الآية أضره عند البدء
وأبرزه عند الإعادة، حيث قال (ثم الله يُنشئ)؛ لأن في الآية الأولى لم
يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال (كيف يُبدئ الله) ثم قال
(ثم يعيده) كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكرأ ولا يحتاج
إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول، وفي الآية الثانية كان ذكر البدء
مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج
زيد، اسمع مني كيف خرج، ولا يظهر اسم زيد، وأما إظهاره عند
الإنشاء ثانياً حيث قال تعالى: "ثم الله يُنشئ" مع أنه كان يكفي أن يقول:
ثم يُنشئ النشأة الآخرة، فلحكمة بالغة وهي ما ذكرنا أن مع إقامة
البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسماً من يفهم المسمى به بصفات
كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الإعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ليقع
في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته
ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته، فإن قيل فلم لم يقل "ثم الله يعيده"
لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة؟ نقول لوجهين: (أحدهما): أن الله
كان مظهراً مبرزاً بقرب منه وهو في قوله تعالى: "كيف يُبدئ الله
الخلق" ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن مذكوراً عند
البدء فأظهره (وثانيهما): أن الدليل ههنا تم على جواز الإعادة لأن
الدلائل منحصرة في الأفاق وفي الأنفس، كما قال تعالى: "سنريهم
آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم" وفي الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسي
الحاصل لهذا الإنسان من نفسه، وفي الآية الثانية أشار إلى الدليل

الحاصل من الآفاق بقوله تعالى: "قل سيروا في الأرض" وعندما تم الدليلان، فأكدته بإظهار اسمه، وأما الدليل الأول فأكدته بالدليل الثاني، فلم يقل "ثم الله يعيده".

(المسألة الرابعة): في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال (أو لم يروا كيف يبدئ) وههنا قال بلفظ الماضي فقال (فانظروا كيف بدأ) ولم يقل كيف يبدأ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسي الموجب للعلم الحدسي، وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق، فقال إن كان ليس لكم علم بأن الله في كل حال يبدأ خلقاً فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً، ويحصل المطلوب من هذا القدر فإنه يُشئ كما بدأ ذلك⁵⁵⁹. نقول: إنه يراد من قوله تعالى: "كيف بدأ الخلق" أي الخلق الأول "من طين/تراب" قبل وجود الذرية، ويُراد بقوله تعالى: "ثم يعيده" وجهين: الوجه الأول: إما يعيده عبر الخلق الثاني من خلال ذرية آدم (عليه السلام)، من خلال "الإحياء للخلية/النفطة" ويفيد ذلك بسهولة تكرار النسل، وهو ما عبّر عنه في نهاية الآية بقوله تعالى: "إن ذلك على الله يسير". والوجه الثاني: أن يكون المقصود بقوله تعالى "ثم يعيده"، الخلق الرابع، وهو "البعث/بعث الروح من الجسد" بعد الموت والفناء، ويحدث ذلك يوم قيامة كل إنسان للحساب. وهذه المسألة شرحتها في سورة {الرحمن: 14} وذلك في المسألة الرابعة التي أوردت فيها معنى "الوعد الإلهي" في قوله تعالى: "كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين" {الأنبياء: 104} وذكرت كيف أن الخطاب الإلهي فيه صدق مطلق مع استحالة وقوع الكذب، وهو دال على القدرة. وشرحنا معنى جملة "رجع بعيد" في قوله تعالى: "أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد" {ق: 3}، والعلاقة بين "الوعد" و "الرجع البعيد" والقدرة الإلهية على

⁵⁵⁹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص48، 49.

إحياء الموتى لقوله تعالى: "أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى" {القيامة: 40}. أما الآية (20)، فيقول تعالى: "فانظروا كيف بدأ الخلق" وهو يشير هنا إلى الخلق الأول "من طين/تراب" وقد ربط الله النظر بذكره كلمة "الأرض" في الآية، كأنه يقول انظروا في الأرض خلال سيركم وانظروا في هذه الأرض كيف بدأ الخلق، ما يعني أن الله يُريد التأكيد على صلة الإنسان بالمادة التي خلق منها وهي "الطين/التراب" وهي موجودة في الأرض. وبالتالي فالإنسان جزء من هذه الأرض، ولأن الأرض جزء كبير ومهم من الطبيعة، فإن الإنسان خلق منها ويعيش عليها ويدفن جسده فيها. ويُراد بقوله في الآية (20) "يُنشئ النشأة الآخرة"، وجهين: الوجه الأول: أي الخلق الثالث وهو "الإنشاء/التصوير" في أرحام الأمهات، يصبح إنشاءً أخيراً، وهو ما يعني أن عملية نمو الأجنة سوف تتوقف، وسوف ينتهي إنشاء الأجنة في الأرحام، والوجه الثاني: يقصد به الخلق الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد"، ويقصد بذلك أن الله ينشئ آخر نشأة للإنسان من خلال إحياء عظامه بعدما كانت رميم، ويصورها مرة أخرى بهدف القيام للحساب يوم القيامة.

الآية الثانية: قال تعالى: "وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" {الأنعام: 133}.

قال الزمخشري: إن قوله "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" يعني من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم، وهم أهل سفينة نوح⁵⁶⁰. نقول: إن الخطاب هنا موجه للنبي محمد (ﷺ) وقومه، ولكن لا يعني بالضرورة أن يكون المقصود بالذرية أهل سفينة نوح كما يقول الزمخشري، بل قد يشتمل معنى الذرية على كل من سبق نسل محمد

⁵⁶⁰ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج8، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص346.

(ﷺ) وقومه، وكل من تفرع منهم. وقال الطبري في تفسير قوله "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين"، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم⁵⁶¹. أراد الطبري أن يساوي بين معنى الإنشاء من جهة، والإحداث والابتداع من جهة أخرى، والمعنيان صالحان بوصفهما تعبيراً عن حدث وهيئة وتشكيل للخلق البشري، وهذا التشكيل لهيئة البشر في أرحام النساء -ونقصد بالنساء الأمهات، وذلك لأسباب تتعلق بأهمية طبائع العلاقات الشرعية الرسمية بين الأزواج من ناحية جنسية ذكورة وأنوثة- إنما هو المعنى الأصلي الذي يتبع الخلق "من تراب/طين"، ويتبع الخلق الإحيائي "من خلية أو نطفة". ونلاحظ أن الله جعل الاستخلاف للأقوام التالية في قوله "ويستخلف من بعدكم" مساو للإنشاء المتجدد للأقوام المتتالية لقوله "كما أنشأكم من ذرية". ما يعني أن للذرية من ناحية تعيين الخلق بصفته خلقاً إنسياً دور مركزي في عملية الاستخلاف. في هذا السياق، قال القرطبي: إن قوله "إن يشأ يذهبكم" بالإماتة والاستئصال بالعذاب، وقوله "ويستخلف من بعدكم ما يشاء" أي: خلقاً آخر أمثل منكم وأطوع. "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" والكاف في موضع نصب، أي: يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلاقاً مثل ما أنشأكم، ونظيره "إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين" {النساء: 133}. وقال تعالى: "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم" {محمد: 38}. فالمعنى يبديل غيركم مكانكم، كما تقول: أعطيتك من دينارك ثوباً⁵⁶². نلاحظ أن الله ذكر كلمة "أنشأكم" في قوله تعالى "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين"، ولم يقل "كما خلقكم من ذرية قوم آخرين"، وقد سبق أن قلت إن "الإنشاء/التصوير" هو الدرجة الثالثة بعد نوعين من الخلق، وهما

⁵⁶¹ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج3، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص353.

⁵⁶² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص34، 35.

الخلق الأول "من طين"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة"، ما يعني أن "الإنشاء/التصوير" هنا يقصد به الإتمام بعد وضع الأساسات، وهو للتقريب في تمثيل المعنى نوع من البشر اكتمل نموهم في أرحام أمهاتهم مع أهمية الاحتفاظ بذكر نوعية وأصل هذا النشء الذي هو من تراب أولاً ثم من خلية أو نطفة ثانياً، وهو بهذا المعنى لا يقصد في قوله "أنشأكم" الأصالة في البحث عن أصل وطبيعة الخلق، سواء الخلق الأول "من طين" أو الخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة" أو بتوصيف آخر "التكوين من خلال النفخ في الروح"، وإنما يقصد "الإنشاء/التصوير" الناتج عن ماهية وطبيعة التزاوج والنسب، وكأنه يقول إن ذريتك هذه أصلها ناشئ من أنساب وذريات أخرى مختلفة ومتعددة سابقة بالمعنى البيولوجي، وله تأثير في أشكال وطبائع الذرية. وهو بذلك يشير إلى الانقسامات الاجتماعية التاريخية التي تحدث عند تطور المجتمعات، وهذا خطاب معقول لأنه مرتبط بالإعلان عن القدرة الإلهية صراحة في مسألة الاستخلاف والتمكين للمستخلف حتى بعد تعدد الذريات واختلاف الأقسام لقوله "إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء"، أي أن الله جعل الاستخلاف مرتبط بالتطور الاجتماعي الطبيعي للبشر وطبائع أنسابهم وحصائد ذرياتهم، ولأنه مرتبط بالتطور الطبيعي الاجتماعي منذ الخلق الأول، أي آدم (عليه السلام)، فإنه قد "جعل الاستخلاف منذ عهد آدم (عليه السلام)، ومن ثم أصبح الاستخلاف لكافة البشر" ⁵⁶³. فمرة يكون "مفرداً" كما في استخلاف داوود لقوله تعالى في سورة (ص): "يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (26)" ومرة يكون الاستخلاف "جمعاً" بحسب التقديرات الإلهية المختلفة، وأنواع التراتبية الدينية أو

⁵⁶³ إسحاق السعدي، دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، ج2، ط1، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2013)، ص833.

الاجتماعية وغيرها لقوله تعالى: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (165)". أما فخر الدين الرازي فقال مفسراً الآية: إن قوله (ويستخلف من بعدكم) يعني من بعد ذهابكم. لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل الفائت. وأما قوله تعالى: "ما يشاء" فالمراد منه خلق ثالث ورابع، واختلفوا فقال بعضهم: خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس يكونون أطوع، وقال أبو مسلم: بل المراد أنه قادر على أن يخلق خلقاً ثالثاً مخالفاً للجن والإنس. قال القاضي: وهذا الوجه أقرب؛ لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق، فمتى حمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة، فكانه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي النواب، فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء القوم الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل بهم سواهم. ثم بين تعالى علة قدرته على ذلك فقال تعالى: "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" لأن المرء العاقل إذا تفكر، علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير، فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة، وإذا كان الأمر كذلك فكما قدر تعالى على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصة، فكذلك يقدر على تصويرهم بصورة مخالفة لها. وقرأ القراء كلهم (ذرية) بضم الذال وقرأ زيد بن ثابت بكسر الذال. قال الكسائي: هما لغتان⁵⁶⁴؛ لأن الرازي فتح باب التأويل بشأن تعدد معاني ودلالة قوله تعالى "ما يشاء"، فنقول: إن المشيئة هنا مرتبطة بالقدرة الإلهية بالدرجة الأولى، ومن ناحية ثانية، هي لا تنفك عن الخطاب الصريح في ثلاث مفاصل هامة في الآية، فالأول قوله

⁵⁶⁴ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص212.

تعالى: "إن يشأ يذهبكم" والثاني قوله تعالى: "يستخلف" والثالث قوله تعالى: "ذرية" بمعنى نوعية الصنف أو النسل، وهو ما يجعل قوله تعالى: "ما يشاء" مرتبطة بإمكانية التخلي عنكم سواء بمنعكم أو هلاككم أو موتكم، أو لأي سبب مقدر، وهي أيضاً مرتبطة بماهية الاستخلاف والذرية. كما أن المشيئة لمن سيأتي فيما بعد مرتبطة حتماً بالاستخلاف لقوله تعالى: "ويستخلف من بعدكم ما يشاء". أما إذا أردنا أن نثبت قول الرازي في قوله إن المراد من القول الإلهي "ما يشاء" يعني خلق ثالث ورابع، في دلالة على القدرة، فإننا نقول: إن القدرة الإلهية لا متناهية، ولكن أي معنى لأي خلق آخر أو أي عملية تجديد لخلق آخر لا يتجاوز حدود المعنى المتكامل والدقيق ذات الجدوى في النص القرآني، ولأن الإنسان، وعلى وجه التحديد آدم (عليه السلام)، هو من النوع الذي كرمه الله في طريقة استخلافه لقوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" {الإسراء: 70} كما شرحناها سابقاً {انظر الشرح في الفصل الأول، ص33}. وهناك آية أخرى تشير إلى عدم تبديل خلق الله، لقوله تعالى: "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" {الروم: 30}. هذه الآية تدل على ارتباط وثيق بين وجود الدين وأهميته في حياة الإنسان وفطرته التي خلق عليها، بمعنى أن عيش الإنسان بلا دين هي القاعدة الشاذة وليس العكس لما في الدين من ضرورات أخلاقية وإنسانية وحبوية تتعلق بالفطرة البشرية. بناءً على ما سبق، وبالتحديد الآيتين سابقتي الذكر، من غير الممكن أن يقدم الله خطاباً متناقضاً يفيد بإمكانية خلق نوع جديد مختلف عن البشر، بل هو يؤكد إمكانية تغيير النشء المرتبط بإنتاج أو اصطفاء أو تزكية أقوام جديدة وتوفيقيها، تماماً كما حدث مع أقوام عديدة في التاريخ قبل قوم النبي محمد (ﷺ)، ومنها قوم آل إبراهيم وآل عمران وغيرهم. ومع ذلك، رغم حجتنا المثبتة بالآيات القرآنية على عدم وجود تنافسية مع خلق

آخر مشابه لخلق الإنسان، إلا أننا لا ننفي أي صفات تتعلق بالقدرة الإلهية على خلق بشر بصور مختلفة أو مشابهة لأدم (عليه السلام)، مع تحقق الشروط الإلهية فيها، والتي ورد ذكرها في القرآن، وهي أن تكون أكثر تكريماً من الإنسان، وكذلك وفق شريعة مماثلة في المعنى وغير مخالفة للشرع والمنهاج الإلهي؛ لأن أي خلق أدنى من الإنسان سيكون أدنى مرتبة، وربما يقع ضمن التصنيف البهيمي. عموماً إن كلمة الذرية المقصودة في الآية ناتجة عن النوع الثاني من الخلق الذي قدمنا له تصورنا في هذا الكتاب، وهو "الإحياء للخلية/النفطة"، وهو خلق إنشائي تكويني في أرحام النساء.

الآية الثالثة: قال تعالى: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب" {الرعد: 38}.

قيل: إن اليهود عابوا على النبي الأزواج، وعيّرته بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية" أي: جعلناهم بشراً يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا. كما أن هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنتهي عن التبتل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها؛ قال في الحديث: "تزوجوا فإنني مكاثركم الأمم". وقال: "من تزوج فقد استكمل نصف الدين، فليترك الله في النصف الثاني. ومعنى ذلك أن النكاح يعف عن الزنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله عليهما الجنة، فقال: "من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة، ما

بين لحيبه وما بين رجليه" خرجه الموطأ وغيره⁵⁶⁵. وذكر الرازي: أن القوم كانوا يذكرون أنواعاً من الشبهات في إبطال نبوة النبي محمد، فقالوا: الرسول الذي يرسله الله إلى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة كما حكى الله عنهم في قوله تعالى: "لو ما تأتينا بالملائكة" فأجاب الله تعالى عنه وهنا بقوله تعالى: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية" يعني أن الأنبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فإذا جاز ذلك في حقهم فلم لا يجوز أيضاً مثله في حقه⁵⁶⁶. وقال الخوارزمي: كانوا يعيبون النبي محمد بالزواج والأولاد، كما كانوا يقولون "ما لهذا الرسول يأكل الطعام" {الفرقان: 7}. فقيل: كان الرسل قبله بشراً مثله ذوي أزواج وذرية⁵⁶⁷. وذكر البيضاوي في تفسير قوله "وجعلنا لهم أزواجاً وذرية" أي: نساء وأولاداً⁵⁶⁸.

نقول إن الآية فيها ثلاث مسائل:

أولاً: تؤكد على أن نوع الرسل من ناحية كونهم بشر عاديون مثلهم مثل أي إنسان، لكن وجه الاختلاف الوحيد هو أنهم مكلفون من الله بنقل تعاليم الرسالة السماوية التي أمروا بنقلها عبر الوحي، وكذلك هم بمثابة المعلمين والناصحين والمرشدين للناس.

ثانياً: إن ذكر كلمة "أزواجاً" لها دلالة على وجود الاختلاف الجنسي البيولوجي لنوعين من الناس وهما الذكر والأنثى، فكلمة

⁵⁶⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص84، 85.

⁵⁶⁶ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص64.

⁵⁶⁷ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج13، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص542.

⁵⁶⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص210.

"رسلاً" في الآية تعبير عن النوع الجنسي وهو الذكورة، وكلمة "أزواجاً" تعبير عن النوع الجنسي وهو الأنوثة.

ثالثاً: يلاحظ أن كلمة أزواجاً سبقت كلمة ذرية في الآية لقوله تعالى: "وجعلنا لهم أزواجاً وذرية" وهو ما يدل على أن الذرية المذكورة في الآية تخص الرسل أولاً لأنها من أصلابهم، وهي ذرية ناتجة عن تزواج الرسل من النساء، أي هي ذرية نتيجة علاقات وروابط جنسية اجتماعية صحية وشرعية بين الرسل وزوجاتهم كل حسب دوره ووظيفته.

رابعاً: أراد الله أن يميز بين طبيعة النوع الذي عليه الرسل، وهو النوع الإنسي، وبين التكليف، ففي حال التكليف قال في الآية "وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله" أي أن التكليف للقيام بمهمة النبوة منفصل عن موضوع ماهية الخلق، بمعنى أن التكليف الإلهي وماهيته لا يتضمن ولا يشتمل على وجود ضرورة وجود نوع بشري أو خلق مختلف عن الخلق البشري الذي خلقه الله وكرمه في الحياة الدنيا، بل جعل الله الرسل بشراً، ولأن مهمات الرسل والأنبياء مهمات إلهية في الوقت الذي يصنفون به كبشر، فهذا له عبرة تدل على أن الله وضع قواعد الممكن في توضيح أساسات عملية الاتصال بين السماء والأرض، أي الاتصال بين البشر والإله جل في علاه. وقد دل القرآن على ذلك وحاجج الناس بإنسية الرسل في بعض الآيات ومنها:

- قوله تعالى: "وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً" {الإسراء: 94}.

- وقوله تعالى: "لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم" {آل عمران: 164}.

- وقوله تعالى: "فقالوا أبشر منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر" {القمر: 24}.

خامساً: أما كلمة "وجعلنا" في قوله تعالى: "وجعلنا لهم أزواجاً"، فالجعل هنا يقصد به الخلق.

الآية الرابعة: قال تعالى: "ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً" {الإسراء: 3}.

هذه الآية تتعلق بما قبلها في قوله تعالى: "وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً (2)". قيل: "ذرية من حملنا" نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالثناء على النهي يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا "مع نوح" ⁵⁶⁹. وقال ابن كثير: إن قوله "ذرية من حملنا مع نوح" تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهيج وتنبيه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم، "إنه كان عبداً شكوراً" فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسال إليكم محمداً. وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف: أن نوحاً، (عليه السلام)، كان يحمد الله تعالى على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سُمي عبداً شكوراً ⁵⁷⁰. وفي نصب ذرية وجهان: الأول: أن يكون نصباً على النداء، يعني: يا ذرية من حملنا مع نوح وهذا قول مجاهد لأنه قال: هذا نداء. قال الواحدي: كأنه قيل لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة. قال قتادة: الناس كلهم ذرية نوح لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين: سام وحام ويافت. فالناس كلهم من ذرية أولئك، فكان قوله يا ذرية من حملنا مع نوح، قائماً مقام قوله تعالى: "يا أيها الناس". والوجه الثاني: في نصب قوله (ذرية) أن الاتخاذ فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى: "واتخذ الله إبراهيم خليلاً" والتقدير: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً، ثم إنه تعالى أثنى على نوح فقال تعالى: "إنه كان عبداً شكوراً"

⁵⁶⁹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 15، ط 3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص 590.
⁵⁷⁰ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي النمشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج 5، ط 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص 46.

أي كان كثير الشكر، روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أكل قال "الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاجني" وإذا شرب قال "الحمد لله الذي أسقاني ولو شاء أظماني" وإذا اكتسى قال "الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني" وإذا احتذى قال "الحمد لله الذي حداني ولو شاء أحناني" وإذا قضى حاجته قال "الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه" وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجدته محتاجاً أثره به ⁵⁷¹. وقيل المعنى: يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا. وذكر نوحاً ليذكرهم نعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم. ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوح وقد كان عبداً شكوراً، فأنتم أحق بالافتداء به دون آبائكم الجهال. وقيل: المعنى: أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله الله تعالى من ذرية نوح. وقيل: يجوز أن يكون "ذرية" مفعولاً ثانياً لـ "تتخذوا"، ويكون قوله: "وكيلاً" يُراد به الجمع، فيسوغ ذلك في القراءتين جميعاً، أعني الياء والتاء في "تتخذوا". ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون "ذرية" بدلاً من قوله: "وكيلاً"؛ لأنه بمعنى الجمع، فكأنه قال: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح ⁵⁷². تشير هذه الآية إلى أن ذرية من حُمل مع نوح في السفينة ليسوا بمقام الألوهية وهم ليسوا وكلاء نيابة عن الله، وفي ذلك تأكيد على أن الذرية التي كانت قبل نوح ثم رافقته ليست إلا ذرية إنسية. ومعنى الذرية المقصودة في الآية ناتجة عن النوع الثاني من الخلق، وهو "الإحياء للخلية/النفطة"، وهو خلق إنشائي تكويني في أرحام النساء، لأن الذرية التي اصطحبت نوحاً لم تخلق من طين/تراب مباشرة، وذلك لأن بين نوح وادم (عليه السلام) الذي خلق من

⁵⁷¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج20، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص155.

⁵⁷² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السّنة وأيّ الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص17، 18.

تراب/طين حوالي عشرة قرون على الأقل، وذلك بحسب نص الآية في قوله تعالى: "ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون" {العنكبوت: 14}. الآية تشير إلى أن الألف سنة (أي عشرة قرون إلا خمسين عاماً) هي مخصصة لقوم نوح الذي لبث فيهم يدعوهم إلى رسالة الله، ما يعني أن قوله "ذرية من حملنا مع نوح" تشير إلى تعدد الذرية وتنوعها، وهي ثلاثة أنواع -كما سيأتي توضيحه- سواء كانت من ناحية القرب أو البعد الزمني أو البيولوجي من نوح (عليه السلام)، ومنهم ذريته السابقة أو النسل المأصول، "ومن بينهم إدريس وهو جد نوح" كما قال الطبري⁵⁷³، أو الذرية التي من صلبه مباشرة مثل أبناءه أو الذرية التي عاشت تحت كنفه، وهي قومه الذين هم ليسوا من نسله مباشرة أو من الذرية اللاحقة القريبة والبعيدة زمنياً. ومن هذه الذرية السابقة داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وذلك وفق نص الآية في قوله تعالى: ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين {الأنعام: 84}. قال الماوردي: "إن الذرية يعني موسى وقومه من بني إسرائيل"⁵⁷⁴. نقول: إن الآية الثالثة من سورة الإسراء -محل الشرح- والتي تقول "ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً" هي بمثابة مثال لتذكير بني إسرائيل كي لا يتخذوا من دون الله وكليلاً، وهو مؤكد في الآية الثانية التي سبقتها في قوله تعالى: "وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً" {الإسراء: 2}. كما نلاحظ في الآية أن الله تعالى قال: "ذرية من حملنا مع نوح" ولم يقل "ذرية نوح"، ولكن المقصود يشير إلى مسألتين، الأولى: أن

⁵⁷³ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص165.
⁵⁷⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص17.

تكون هذه الذرية تابعة "للمحمولين" مع نوح، كأنه يقول "ذرية الأشخاص الذين حملناهم مع نوح"، فيصير النسب في الذرية لمن حملناهم مع نوح، وليس بالضرورة لذرية نوح مباشرة، أي ليست من صلب نوح رأساً، بل من صلب من كانوا قبله، وهذا يشمل بعضاً من قومه أو نسله المأصول، مثل إدريس أو النسل اللاحق، مثل الأنبياء الوارد ذكرهم في قوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون" {الأنعام: 84}، أي من "ذرية نوح"، وهذا على وجه الذكر والتبويض، وليس التخصيص للذرية القريبة في النسل من الدرجة الأولى.

والثانية: أن تكون هذه الذرية تابعة لنوح مباشرة، أي من صلبه، وحُملت معه على سبيل النجاة والإخلاص لنوح لأنه كان عبداً شكوراً كما جاء في وصفه بالآية. وبالتالي فهي تشمل أبناء نوح من صلبه مباشرة، وهم "سام وحام ويافت"، وهذا يعني أن ذرية نوح المباشرة مشمولة أو مشار إليها في هذه الآية صراحة. ومع ذلك نقول بوضوح إن المقصود في كل من جاء ذكره مع نوح من الذرية يشمل القريب والبعيد في النسل، وهم ثلاثة أنواع، نسل سابق مأصول النسب، ونسل مباشر من صلب نوح، ونسل لاحق قريب وبعيد زمنياً، والأنبياء المذكورة أسماءهم في سورة {الأنعام: 84} هم من النسل اللاحق البعيد زمنياً. كما أن معنى "حملنا" في قوله "ذرية من حملنا مع نوح" يأتي على وجهين، فهو إما حمل مادي أو معنوي، أي أن النجاة مع نوح، قد تكون مادية أو معنوية أو كلاهما معاً، أي النجاة وفق دعوة نوح إلى الله تعالى، وهي دعوة مخصوصة بعدم الشرك بالله، وهو واضح في شرح الآيتين (172) و (173) من سورة الأعراف {انظر الشرح في هذا الفصل، ص389-424} كأن الله يقول: إن نوحاً الذي كان عبداً شكوراً عاصر ذرية، وقد حُملت معه في السفينة، وهذه الذرية هي المثال الواضح على عدم اتخاذ أي وكيل من دون الله، ولأن نوحاً كان عبداً شكوراً فقد نجاه الله وذريته التي حملناها معه، لأنها لم

تتخذ من دون الله وكيلاً، وهكذا الحال مع بني إسرائيل الذين آتيناهم موسى بالكتاب وجعلناه هدى لهم، يجب ألا تتخذوا -كما في الخطاب القرآني- من دون الله وكيلاً تماماً مثل نوح. وبالتالي فإن الاحتجاج كان مخصوصاً للذرية التي حُملت مع نوح بشكل مادي واقعي في الفترة التي كان لهذه الذرية وجود في الوقت المذكور في سورة {العنكبوت: 14} وهو عشرة قرون أو أكثر، بعد زمن آدم (عليه السلام) لأسباب تتعلق بعدم معرفة كافة الأزمان الدقيقة بين كل نبي ومن تبعه باستثناء بعض الأزمان الخاصة بالدعوة والتي ورد ذكرها في القرآن، فإنه يصعب معرفة المحمولين مادياً مع نوح للنجاة إلا بشكل تقريبي. لذلك قال الطبري إنه "عني بالذرية: جميع من احتج عليه جل ثناؤه بهذا القرآن من أجناس الأمم، عربهم وعجمهم من بني إسرائيل وغيرهم، وذلك أن كل من على الأرض من بني آدم، فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة⁵⁷⁵. وفي بعض الروايات، كما عند المهدي وقد ذكره القرطبي، يُراد بالذرية في قوله "ذرية من حملنا مع نوح" كل من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع من على الأرض"⁵⁷⁶. نقول: إن الحجة بالإشارة إلى أن كلمة "ذرية" واشتمالها على نسل كافة سكان الأرض، وكل من احتج عليهم القرآن كما ورد سابقاً، هي حجة ضعيفة باعتبار أن الذرية ناتجة عن أربعة أنواع من الخلق، وهي التي قسّمناها وأوضحناها في هذا الكتاب، نسبة إلى الخلق الأول "من طين/تراب"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة وانطلاق التكوين"، والخلق الثالث "الإنشاء والتصوير"، والخلق الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد". نقول: إن كلمة "ذرية" لا تشتمل على كل من احتج عليهم القرآن بسبب

⁵⁷⁵ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص9.
⁵⁷⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأبي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص17.

تخصيص حادثة النجاة وقتها لفئة معينة ولأسباب واضحة معلنة، وبسبب حدوث الانقطاع بين نسل وآخر، وهو انقطاع مستمر إلى يوم القيامة، فهو يحدث في وقت تحقق الخلق الرابع "أي البعث/بعث الروح في الجسد" وذلك بوصف الآية القرآنية: "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" {المؤمنون: 101}.

الآية الخامسة: قال تعالى: "أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً" {مريم: 58}.

قال القرطبي: "أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم" يريد إدريس وحده. "وممن حملنا مع نوح" يريد إبراهيم وحده. "ومن ذرية إبراهيم" يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب. "وإسرائيل" أي من ذرية إسرائيل" أي موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى. فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم⁵⁷⁷. يريد القرطبي الإشارة إلى وحدوية الذرية، وأنه إن تعدد نسلها فهي تبقى كلها من ذات الأصل والصلة إلى الآباء، فالجميع لآدم وآدم من تراب. كما تشير الآية إلى أن نعمة النبوة كانت في الأصل لكامل ذرية آدم، ولم تنقطع حتى وفاة النبي محمد (ﷺ) بعد اكتمالها. ولذلك كي لا يغفل الله عن هذه الذرية وتعددها قال في القرآن: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر {آل عمران: 110}، والأمة هنا تشمل الذرية التي جاء منها نسل النبي محمد (ﷺ) والأنبياء كلهم لأنهم مشمولون في معنى الأمة نسبة للنسب إلى معنى النبوة تماماً كما هو نسبة للنسب إلى معنى الدين الإسلامي، وتاماً كما هو نسبة

⁵⁷⁷ المصدر السابق، ص470.

للسبب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال ابن جرير: ولذلك فرّق الله ذكره أنسابهم، وإن كان آدم يجمع بينهم جميعهم لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، وإدريس جد نوح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد من أبي حبيب، عن عبد الله بن محمد أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: "لا إله إلا الله" ويعملوا ما شأؤوا فأبوا، فأهلكهم الله عزوجل. ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم (83) ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين (84) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (85) وإسماعيل وإيسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين (86) ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (87)". وقال تعالى: منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك {غافر: 78} ⁵⁷⁸. ونشير إلى أنه جاء في آيتين قبل الآية (58) قوله تعالى: "واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً (56) ورفعناه مكاناً علياً (57)". قيل: "إن إدريس هو أول من أعطي النبوة من بني آدم" ⁵⁷⁹. ولذلك جاء القرآن متسلسلاً في الذكر والإشارة إلى أصل الذرية. أما الآيات التالية من (83) حتى (87) فهي توضح سلسلة الذرية التي جاءت بعد إبراهيم باعتباره مكرماً ومرفوعاً درجات عند الله، ثم أوضحت الآية أن نوحاً جاء قبل إبراهيم، وذلك في قوله "ونوحاً هدينا من قبل"، وأشار إلى ذريته وهي "داوود

⁵⁷⁸ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص242.
⁵⁷⁹ محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج16، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص892.

وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون". ما يعني أن نسل موسى الذي بُعث نبياً لبني إسرائيل ينحدر من النبي نوح وفق سلسلة الذرية بحسب وصف الآية. وأما قوله في نهاية الآيات "ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم" فإننا هنا نشير إلى أهمية ذكر "آبائهم" قبل "ذرياتهم" وهذا يدل على دقة وأهمية القرآن في توصيف جذر وأصل النسل أنه يأتي من الآباء، وقد كان أول الآباء آدم (عليه السلام) ولهذا السبب فهو معروف وموصوف بأنه أبو البشر، وهذه الآية تؤكد ذلك. وذكر "إخوانهم" بعد كلمة "ذرياتهم" في إشارة إلى أن الإخوة هم الأصل في تعدد النسل، تماماً مثلما كان لآدم ابنه هابيل وقابيل، وهما أخوين، والأخوة أو النسل الأخوي درجة ثانية في الذرية بعد النسل الأبوي، فالناس تُعرّف نسل الأب فتذكر أبنائه، ثم تُعرّف وتعدد نسل الابن الذي هو تابع للأب وتُعرّف أبنائه. وقيل: إن "من" في قوله "من ذرية آدم" للتبويض "وممن حملنا مع نوح" أي: من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح "ومن ذرية إبراهيم" وهم الباقون، "وإسرائيل" أي: ومن ذرية إسرائيل، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى، وقيل: إنه أراد بقوله: "ومن ذرية آدم" إدريس وحده، وأراد بقوله: "وممن حملنا مع نوح" إبراهيم وحده 580. نقول: إذا كانت "من" للتبويض في قوله "من ذرية آدم" فذلك يعني أن المقصودين هم فقط مشمولي الذكر في الآية من الأنبياء لأنه قال أيضاً في الآية (58) بعدها "ممن هدينا واجتبتينا" وهذا يعني أن المقصود بقوله "من ذرية" هم "ممن هدينا واجتبتينا" أي كل الذين جاء على ذكرهم في الآيات لاحقاً. وأما قوله "وممن حملنا مع نوح" فالبعض قال إنه إدريس مثل قول ابن جرير الذي ذكره ابن كثير 581،

580 المصدر السابق، ص 892.

581 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج 5، ط 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص 242.

والبعض قال إنه إبراهيم كما سبق وأشار القرطبي⁵⁸² في تفسيره للآية (58)، ولكني أوضحت هذه المسألة في سورة {الإسراء: 3} التي شرحناها في الآية السابقة، والتي ورد فيها قوله تعالى: "ذرية من حملنا"، وأما هنا في هذه الآية فيقول تعالى: "وممن حملنا مع نوح"، وهما يأتیان على معنى الحمل، وقد سبق أن أشرت إلى أن للحمل معنيان مادي ومعنوي، والنجاة مادية ومعنوية، فيكون معنى "وممن حملنا مع نوح" للنجاة هو إشارة إلى ما هو مادي أو معنوي أو كلاهما معاً.

للتثبيت نقول: إن هناك ثلاث أنواع من الذرية التي حُملت مع نوح بالمعنيين المادي والمعنوي، وهي ذرية سابقة "أي نسله المأصول والمعروف النسب"، ومباشرة "أي من صلبه"، ولاحقة "أي من أصلاب أبنائه ومن تبعهم".

أولاً: بالنسبة للذرية السابقة، أو النسل المأصول، كان معه إدريس من الذرية السابقة التابعة لأدم (عليه السلام)، والتي يعتبر نوح من نسلها. قال الرازي: "الذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام"⁵⁸³. وقيل إن إدريس "هو سبط شيث وجد نوح عليهما السلام"⁵⁸⁴. وشيث هو من أبناء آدم (عليه السلام)، ما يعني أن إدريس هو من الذرية القريبة نسبياً لأدم (عليه السلام) بالمفهوم القديم للمعنى الزمني آنذاك والذي جاء وصفه في الآية: "ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم

⁵⁸² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص470.

⁵⁸³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتبه بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص235.

⁵⁸⁴ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج16، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص371.

الطوفان وهم ظالمون" {العنكبوت: 14}. يعني وجود فترة زمنية أكثر من ألف سنة (أي عشرة قرون) بين نوح و آدم (عليه السلام) مع ذريته. كان النجاة مع نوح في قوله "وممن حملنا مع نوح" هي نجاة ذرية آدم المباشرة، وذلك إذا قلت إن معنى الآية محل الشرح {مريم: 58} هكذا "وممن حملنا مع نوح من ذرية آدم بما فيها من النبيين الذين أنعم الله عليهم"، وهذا مبرر في صيغة التابع المتعلق بتسلسل الذرية الزمني في لغة النص القرآني لقوله تعالى في سورة آل عمران: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (33) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (34)".

ثانياً: الذرية المباشرة التي هي من صلبه، وقد كان معه "سام وحام ويافت". "قال قتادة: الناس كلهم ذرية نوح؛ لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين: سام وحام ويافت" 585.

ثالثاً: كان معه الذرية اللاحقة على المستوى القريب والبعيد زمنياً، ومنهم على وجه الذكر لا الحصر كما جاء في الآية من قوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين" {الأنعام: 84}.

الآية السادسة: قال تعالى: "أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون" {الأعراف: 173}. هذه الآية مرتبطة بالآية التي قبلها من سورة الأعراف لقوله تعالى: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (172). يقول تعالى ذكره لنبيه محمد (ﷺ): واذكر يا محمد، وبك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده، وأشهد

585 الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 20، ط 1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص 155.

بعضهم على بعض شهادتهم بذلك وقرارهم به ⁵⁸⁶. بعدما أثبت الله منبع الذرية في كل خلق من بني آدم (عليه السلام)، أراد أن يبين علاقة الذرية بالزمن الماضي والحاضر والمستقبل، مستخدماً خطاب الكفر والإيمان مع إثبات علاقته بالذرية. وهنا لفظ الذرية في الآية فيه تعبير بصيغة الرفض، وذكر الذرية يتعلق بالتمييز في العلاقة بين الآباء والأبناء، وما كان من قبل، وما هو كائن فيما يتعلق بخطاب الشرك والإيمان.

الآية السابعة: قال تعالى: "فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين" {يونس: 83}.

قال ابن عباس: لفظ الذرية على وجوه: الأول: أن الذرية ههنا معناها تقليل العدد. الثاني: قال بعضهم: المراد أولاد من دعاهم، لأن الآباء استمروا على الكفر، إما لأن قلوب الأولاد أليين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف. الثالث: أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل. الرابع: الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها. أما الضمير في قوله "من قومه" فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون، لأن ذكرهما جميعاً قد تقدم والأظهر أنه عائد إلي موسى، لأنه أقرب المذكورين ⁵⁸⁷. وقال البيضاوي في تفسير قوله "إلا ذرية من قومه" يعني إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به، وهم مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه

⁵⁸⁶ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج3، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص221.
⁵⁸⁷ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج17، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص150.

وزوجته وماشطته⁵⁸⁸. وقال الزمخشري: "إلا ذرية من قومه" يعني إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه⁵⁸⁹. وذكر الطبري أن "الذرية" في هذا الموضع، أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل⁵⁹⁰. وأورد القرطبي أن "الذرية": هي أعقاب الإنسان، وقد تكثرت. وقيل: أراد بالذرية مؤمني بني إسرائيل. قال ابن عباس: كانوا ست مئة ألف، وذلك أن يعقوب (عليه السلام) دخل مصر في اثنين وسبعين إنساناً، فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ست مئة ألف. وقال ابن عباس أيضاً: "من قومه" يعني: من قوم فرعون، منهم مؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأته، وماشطة ابنته، وامرأة خازنه. وقيل: هم أقوام آبائهم من القبط، وأمهاتهم من بني إسرائيل، فسُموا ذرية كما يُسمى أولاد الفرس الذين توالدوا باليمن وبلاد العرب الأبناء؛ لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم؛ قاله الفراء. وعلى هذا فالكناية في "قومه" ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات، وإلى فرعون إذ كانوا من القبط⁵⁹¹. قال ابن كثير: الذرية وهم من الشباب. وقال العوفي: إن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، ومنهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه⁵⁹². نقول: إن الآية فيها قصر وحصر يقوم على أداة الاستثناء في الجملة وهي "إلا"

⁵⁸⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج11، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص112، 113.

⁵⁸⁹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج11، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص471.

⁵⁹⁰ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص234.

⁵⁹¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج11، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص31، 32.

⁵⁹² عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص287.

والمحصور عليه في الآية هو الاسم الواقع بعد أداة الحصر وهو في هذه الحالة "ذرية من قومه". والذرية جزء مخصوص من القوم ما يعني أنه يشير إلى عدد قليل من القوم لهم صفات القرب من موسى باعتبارهم من ذريته وهم الأكثر صلة به. ونلاحظ في هذه الآية أن ذكر كلمة "الذرية" ارتبط بالإيمان، أي الإيمان بالله وبأن موسى رسول الله، وهذا يُضاف إلى الآيات الأخرى التي ارتبط فيها ذكر كلمة "الذرية" بالإيمان أو الإسلام أو الشهود بوحداية الله وربوبيته. ومن هذه الآيات على سبيل المثال ما يلي:

- قال تعالى في سورة الأعراف: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (172) أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (173)".

- قال تعالى: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين" {الطور: 21}.

- قال تعالى في سورة البقرة: "ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (128)".

- قال تعالى: "وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين" {الأحقاف: 15}.

- قال تعالى: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" {إبراهيم: 40}.

الآية الثامنة: قال تعالى: "أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه

الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" {البقرة: 266}.

روي عن ابن عباس وغيره: أن هذا مثل ضربه الله تعالى للكافرين والمنافقين، كهيئة رجل غرس بستاناً، فأكثر فيه من الثمر، فأصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء – يريد صبياناً، بنات وغلماًناً – فكانت معيشتهم ومعيشة ذريته من ذلك البستان، فأرسل الله على بستانه ريحاً فيها نار فأحرقته، ولم يكن عنده قوة فيغرسه ثانية، ولم يكن عند بنيه خير فيعودون على أبيهم. وكذلك الكافر والمنافق إذا ورد إلى الله تعالى يوم القيامة ليست له كره يُبعث فيرد ثانية، كما ليست عند هذا قوة فيغرس بستانه ثانية، ولم يكن عند من افتقر إليه عند كبر سنه وضعف ذريته غنى عنه⁵⁹³. وقال الشوكاني في تفسير قوله: "وله ذرية ضعفاء" هي حال من الضمير في أصابه، أي: والحال أن له ذرية ضعفاء، فإن من جمع بين كبر السن، وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة في غاية الشدة⁵⁹⁴. وذكر البيضاوي في معنى قوله تعالى: "وله ذرية ضعفاء" أي صغار لا قدرة لهم على الكسب⁵⁹⁵. نقول: إن الذي "أصابه الكبر" والذي "له ذرية ضعفاء" كما جاء في الآية يعود إلى قوله "أحدكم" في بداية الآية، أي "أحدكم الذي أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء"، وقوله تعالى: "أحدكم" تعود إلى "الذين ينفقون أموالهم" الوارد ذكرها في الآية السابقة في قوله تعالى: "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ والله بما تعملون

⁵⁹³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص342.

⁵⁹⁴ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص184، 185.

⁵⁹⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص225.

بصير" {البقرة: 265}. تشير الآية إلى العلاقة بين ما يملكه الإنسان وكسبه وإنفاقه، وعلاقة ذلك بعمره وحال ذريته. لقد جعل الله في هذا المثل تشبيهاً بين عجز الإنسان في قوله تعالى: "وأصابه الكبر" وضعف الذرية في قوله تعالى: "وله ذرية ضعفاء" من جهة، وانفعال وإصابة الطبيعة وأحوالها بالضرر بما فيها من ثمر كالنخيل والأعناب والأنهار من جهة أخرى، وذلك في قوله تعالى: "فأصابها إحصار فيه نار فاحترقت". إن هذا التصوير الإلهي لهذه العلاقة بين الإنسان وما يملكه في الطبيعة، يدل على أن الطبيعة مسخرة للإنسان وأنها قد تهرم وتصاب بالعجز مثله، إما كنتيجة طبيعية أو ابتلاء من الله، وذلك كمثال ضربه الله للمنفقين أموالهم رياء الناس.

الآية التاسعة: قال تعالى: "وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً" {النساء: 9}.

هذه الآية اختلف العلماء في تأويلها؛ فقالت طائفة: هذا وعظ للأوصياء، أي: افعلوا باليتامى ما تحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم؛ قاله ابن عباس. وقالت طائفة: المراد جميع الناس، أمرهم باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حُجورهم، وأن يُسدوا لهم القول كما يريد كل واحد أن يفعل بولده بعده. وقول ثالث؛ قال جمع من المفسرين: هذا في الرجل يحضره الموت، فيقول له من بحضرته عند وصيته: إن الله سيرزق ولدك، فانظر لنفسك، وأوص بمالك في سبيل الله، وتصدق وأعتق. حتى يأتي على عامة ماله أو يستغرقه، فيضر ذلك بورثته، فئهو عن ذلك. فكان الآية تقول لهم: كما تخشون على ورتتكم وذريتكم بعدكم، فكذلك فاخشوا على ورثة غيركم، ولا تحملوه على تبذير ماله. قال ابن عباس وقتادة والسدي وابن جبير والضحاك ومجاهد. روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: إذا حضر الرجل الوصية فلا ينبغي أن يقول: أوص بمالك، فإن الله تعالى

رازق ولدك، ولكن يقول: قدّم لنفسك واترك لولدك، فذلك قوله تعالى: "فليتقوا الله". وقال مقسم وحضرمي: نزلت في عكس هذا، وهو أن يقول للمحتضر من يحضره: أمسك على ورتتك، وأبق لولدك، فليس أحد أحق بمالك من أولادك. وينهاه عن الوصية، فيتضرر بذلك نوو القربى، وكل من يستحق أن يوصي له. فقيل لهم: كما تخشون على ذريتكم، وتسرون بأن يُحسن إليهم، فكذلك سدّدوا القول في جهة المساكين واليتامى، واتقوا الله في ضررهم⁵⁹⁶. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة. وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في الصحيحين: أن رسول الله لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعودته قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. قال: فالشطر؟ قال: لا. قال: فالثلث؟ قال: "الثلث، والثلث كثير". ثم قال رسول الله: "إنك إن تذر ورتتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس"⁵⁹⁷. في الآية مسائل، منها أن قوله في الآية يوجب الاحتياط للذرية الضعاف، وللمفسرين فيه وجوه: الأول: أن هذا خطاب مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون: إن ذريتك لا يغنون عنك من الله شيئاً، فأوص بمالك لفلان وفلان، ولا يزالون يأمرونه بالوصية إلى الأجنب إلى ألا يبقى من ماله للورثة شيء أصلاً، فقيل لهم: كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم في الضعف والجوع من غير مال، فآخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده

⁵⁹⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص87، 88، 89.

⁵⁹⁷ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص222.

الضعفاء من ماله. وحاصل الكلام أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك، فلا ترضه لأخيك المسلم.

والقول الثاني، قال حبيب بن أبي ثابت: سألت مقسماً عن هذه الآية فقال: هو الرجل الذي يحضره الموت ويريد الوصية للأجانب، فيقول له من كان عنده: اتق الله وأمسك على ولدك مالك، مع أن ذلك الإنسان يحب أن يوصي له، ففي القول الأول الآية محمولة على نهي الحاضرين عن الترغيب في الوصية، وفي القول الثاني محمولة على نهي الحاضرين عن النهي عن الوصية، والأول أولى، لأن قوله "لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً" أشبه بالوجه الأول وأقرب إليه.

والقول الثالث، يحتمل أن تكون الآية خطاباً لمن قرب أجله، ويكون المقصود نهيهم عن تكثير الوصية لئلا تبقى ورثته ضائعين جائعين بعد موته، ثم إن كانت هذه الآية إنما نزلت قبل تقدير الوصية بالثالث، كان المراد منها ألا يجعل التركة مستغرقة بالوصية، وإن كانت نزلت بعد تقدير الوصية بالثالث، كان المراد منها أن يوصي أيضاً بالثالث، بل ينقص إذا خاف على ذريته والمروى عن كثير من الصحابة أنهم وصوا بالقليل لأجل ذلك وكانوا يقولون: الخمس أفضل من الربع، والربع أفضل من الثلث، وخبر سعد يدل عليه. والقول الرابع، أن هذا أمر لأولياء اليتيم، فكأنه تعالى قال: وليخش من يخاف على ولده بعد موته أن يضيع مال اليتيم الضعيف الذي هو ذرية غيره إذا كان في حجره، والمقصود من الآية على هذا الوجه أن يبعثه سبحانه وتعالى على حفظ ماله، وأن يترك نفسه في حفظه والاحتياط في ذلك بمنزلة ما يحبه من غيره في ذريته لو خلفهم لهم مالاً. قال القاضي: وهذا أليق بما تقدم وتأخر من الآيات الواردة في باب الأيتام، فجعل تعالى آخر ما دعاهم إلى حفظ مال اليتيم أن يبنههم على حال أنفسهم وذريتهم إذا تصوروا، ولا شك أنه من أقوى الدواعي والبواعث في هذا المقصود

598. نقول: لأن الآيات السابقة والتالية لهذه الآية تتحدث عن الورثة والنصيب والقسمة والوصية، فإن هذه الآية جاءت لتؤكد على أهمية العلاقة المادية بين الإنسان وذريته، وفيها تثبتت لأهمية الأولوية والتراتبية في عملية التكافل المالي الاجتماعي. وترسخ هذه الآية لعلاقة الإنسان المتوفي أو الذي على وشك الوفاة بذريته، وفي الأمر دليل على جدوى وأهمية علاقة كل إنسان بمن سيبقى بعده حياً من ذريته. وأما قوله تعالى: "فليخش" في بداية الآية ففيه تحذير ضمني بصيغة الأمر من التنكر لحقوق الذرية وبالتحديد في حال كانوا ضعفاء. يعتبر هذا الخطاب جزءاً من الخطاب الإلهي الطبيعي الذي يجمع بين علاقة النشء والذرية بالأمن الغذائي، الذي أشار إليه القرآن في مواضع متعددة سواء في وجود الرزق عند مريم (عليها السلام) كما في قوله تعالى: "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" {آل عمران: 37} أو حتى في علاقة ابني آدم (عليه السلام) هابيل وقابيل الذين قربا كل واحد منهما قرباناً في قضية التناكح والتناسل، لما ورد ذكره في القرآن لقوله تعالى: "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين" {المائدة: 27}. في هذه الآية سوف نشرح ما يتعلق بالقربان ودلالة قبول أحدهما ورفض الآخر، مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية دلالة ورود كلمتي "نبأ" و "الحق" وقد شرحنا معنى كلمة النبأ في قوله تعالى: "ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر" {القمر: 28} {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص94}. قيل: القربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة. وتقدير الكلام وهو قوله تعالى: "إذ قربا قرباناً"

598 الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج9، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص205، 206.

قرب كل واحد منهما قرباناً إلا أنه جمعهما في الفعل وأفرد الاسم، لأنه يستدل بفعلهما على أن لكل واحد قرباناً. وقيل: إن القربان اسم جنس فهو يصلح للواحد والعدد، وأيضاً فالقربان مصدر كالرجحان والعدوان والكفران والمصدر لا يُثنى ولا يجمع⁵⁹⁹. أما بخصوص تفاصيل القصة فسوف أذكر أهم ما جاء في تفسيرها ثم أقدم رأبي. قال الرازي: وائل عليهم: أي على الناس. والثاني: وائل على أهل الكتاب، وفي قوله تعالى "ابني آدم" قولان: الأول: أنهما ابنا آدم من صلبه، وهما هابيل وقابيل. وفي سبب وقوع المنازعة بينهما قولان: أحدهما: أن هابيل كان صاحب غنم، وقابيل كان صاحب زرع، فقرب كل واحد منهما قرباناً، فطلب هابيل أحسن شاة كانت في غنمه وجعلها قرباناً، وطلب قابيل شر حنطة في زرعه فجعلها قرباناً، ثم تقرب كل واحد بقربانه إلى الله فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تحمل قربان قابيل، فعلم قابيل أن الله تعالى قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقصد قتله. وثانيهما: ما روى أن آدم (عليه السلام) كان يولد في كل بطن غلام وجارية وكان يزوج البنت من بطن بالغلام من بطن آخر، فولد له قابيل وتوأمته، وبعدهما هابيل وتوأمته، وكانت توامة قابيل أحسن الناس وجهاً، فأراد آدم أن يزوجه من هابيل، فأبى قابيل ذلك وقال أنا أحق بها، وهو أحق بأخته، وليس هذا من الله تعالى، وإنما هو رأيك، فقال آدم (عليه السلام) لهما: قربا قرباناً، فأيكما قبل قربانه زوجته منه، فقبل الله تعالى قربان هابيل بأن أنزل الله تعالى على قربانه ناراً، فقتله قابيل حسداً له⁶⁰⁰. نقول: إن قوله تعالى: "ابني آدم" يعني من نسله أو صلبه أو ذريته وجميعها جائز، لكن الأصح أن نقول نسله، الأبناء درجة أولى في النسل، والأخوة درجة ثانية في النسل، والذرية هي كل النسل. أما عن سبب المنازعة، فإننا نجزم أنها تتسق مع الصراع على الغذاء، أي أنه استكمال لخطيئة آدم (عليه السلام)

⁵⁹⁹ المصدر السابق، ص210.

⁶⁰⁰ المصدر السابق، ص209.

ولهاثة نحو شهوته، حيث ظهرت هذه النزعة في أبنائه، أي أنها صارت متوارثة منذ الزمن الأول لحياة آدم (عليه السلام) وزوجته. ويشار إلى أن الآية وردت في سورة "المائدة" وهذه دلالة بالغة على أن شهوة الطعام لها شريعة متكاملة في الإسلام.

النباتات (الغذاء الأول) والحيوانات (الغذاء الثاني)

بالاستناد إلى ما سبق، سوف نسمي النباتات (بالغذاء الأول) والحيوانات (بالغذاء الثاني) لأن النباتات أسبق من الحيوانات، علماً بأن نوع خلية كلاهما هي "حقيقية النوى" وليست "بدائية النوى"، أي أنهما ليسوا من ممالك البكتيريا البدائية أو البكتيريا الحقيقية. نقول ذلك لأن (الغذاء الأول، أي النباتات) هو ضمن مملكة النباتات، مثل الحزازيات، (والغذاء الثاني، أي الحيوانات) هو ضمن مملكة الحيوانات، مثل دودة الأرض، ومنها نشأت الحيوانات لقوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {النور: 45}. نقول: إن مملكة النباتات أسبق لأنها وجدت كغذاء للحيوانات. بالتالي عندما أنزل الله آدم (عليه السلام) إلى الأرض جعل مركز شهوته الأول في النباتات، ثم في الحيوانات.

لذلك نعتقد أن الحيوانات شهوة متقدمة على النباتات. وزيادة على ذلك، فإن حادثة صراع "شهوة الغذاء" لم تتوقف عند هذا الحد، ولكن تعدتها إلى الشعور بالحسد ثم نزعة القتل، حيث قتل قابيل أخيه هابيل. فأضيف إلى الشهوة نزاع وجريمة، ثم تلاحقت النزاعات والجرائم في حياة بني البشر. ولما قيل في الخطاب القرآني "لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك" قصد بها أن "هابيل" كان أقوى من القاتل "قابيل" وأبطش منه، ولكنه تحرّج عن قتل أخيه واستسلم له

خوفاً من الله، لأن الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت، كما قال مجاهد وغيره⁶⁰¹. في حين قال الشوكاني: هذا استسلام للقتل من هابيل، كما ورد في الحديث: "إذا كانت الفتنة فكن خير ابن آدم، وتلا النبي هذه الآية. قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ ألا يسئل أحد سيفاً وألا يمتنع ممن يريد قتله. وقيل: هذا يوافق معناه معنى ما ثبت في صحيح مسلم من قوله: "يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم فتزداد في حسنات المظلوم حتى ينتصف، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فطرح عليه، ومثله قوله تعالى: "وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم" {العنكبوت: 13}. وقيل المعنى: إنني أريد ألا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم" {النحل: 15} أي: ألا تميد بكم⁶⁰². لقد شرحنا أبرز ثلاث آيات متعلقة بالقتل في القرآن {انظر الشرح في الفصل الأول، ص26}. نسأل هنا، إذا كان قابيل الذي كان يملك الشهوة المتدنية "وهي النباتات" هو الذي ارتكب جريمة القتل، فلماذا؟

علاقة جريمة القتل بالشهوة المتدنية (النباتات)

نقول: هو تأكيد على أن الصراع على الشهوات الغذائية هو ليس صراعاً من أجل البقاء، ولكنه صراع متعدد الأوجه، فهو صراع عضوي ونفسي وأخلاقي، وفي هذه الحادثة ارتكبت جريمة القتل بدافع الحسد، أي بدافع شعور عاطفي بين الإخوة هدفه تمنى زوال النعمة عن أخيه بهدف كسبها أو الحصول عليها. وإذا علمنا أن الصراع يكون على الشهوات الكثيرة، وليس الشهوات القليلة، فسوف ندرك أن دخول

⁶⁰¹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج6، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص286.

⁶⁰² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج6، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص366.

عامل الحسد الذي أدى إلى قتل هابيل يؤكد أن الفرد الذي يملك من ثروات كثيرة يعتبر مطمعاً لمن لا يملك الثروات، وثروة الحلال، (أي الحيوانات الحلال أكلها) تعتبر ثروة مضاعفة للنباتات أو المزروعات، من حيث حجمها ووفرتها وقيمتها. بالتالي فإن الآية تدل على أن الصراع كان على الشهوات الكثيرة وليس القليلة بسبب دخول شعور الحسد حتى وإن ظهر أن القاتل هو الذي يملك الثروات القليلة "أي النباتات". كما أن نزول النار الإلهية لأكل قربان هابيل (وهو الحيوانات) دليل على أن الله يريد بذلك استعداء كل من تكثر ثروته أو يكثر حلاله دون أن يضحى به أو يكثر ماله دون أن ينفقه أو يزكي به، وقد شرحنا علاقة الغذاء بالسوسة والعذاب الإلهي ومنه "ماء المهل" المتعلق بالشراب، و "ماء الحميم" المتعلق بالطعام وذلك في سورة {الأعراف: 50} {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص107}.

في هذا السياق، من الأمثلة الواقعية المعاصرة أنه في بعض الديانات مثل الهندوسية، يعتبرون البقر أرواح مقدسة. السؤال هنا، هل يمكن القول إن الذين يقدسون الحيوانات هم بمثابة أشخاص لا يقتربون من الشهوة الكبرى، لأنهم لا يذبحونها للأكل، رغم أنهم غير مسلمين؟ وماذا لو تحوّل أحد هؤلاء الذين يقدسون أرواح البقر (أي الحيوانات) إلى الإسلام؟ نقول: هذا سؤال في صلب العقيدة الإسلامية، أي عقيدة التوحيد، ويتطلب اجتهاداً فقهياً، لكننا نعتقد وبدون شك أن شهادتهم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مقبولة. من ناحية أخرى، نجزم وبشكل عقلائي أن عدم اقترابهم من الشهوات الكبرى (أي الحيوانات) سوف يقابل بالجزاء الحسن، فتخرج علاقتهم مع البقر من دائرة التقديس، وتدخل في دوائر أخرى لها علاقة بالنهي عن الهوى والامتناع عن الشهوات الكبرى، ويعني ذلك أن الله يبذل سيئاتهم حسنات كما جاء في قوله تعالى: "إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً" {الفرقان: 70} وهنا نسأل، إذا كانت النباتات (الغذاء الأول) شهوة

صغرى، والحيوانات (الغذاء الثاني) شهوة كبرى، فهل تتكافأ شهوتي الغذاء الأول والثاني (الصغرى والكبرى) مع شهوة الجنس (النكاح)؟

علاقة النباتات والحيوانات (الشهوة الصغرى والكبرى)، بشهوة الجنس (النكاح)

نقول: لا يتكافأ؛ لأن شهوة الجنس أسبق من شهوتي الغذاء الأول والثاني (الصغرى والكبرى) لكن شهوة الجنس أظهر وأشرف منها، لسببين:

السبب الأول: أن آدم (عليه السلام) كان في الجنة مع زوجته حواء، قبل المساس بالشجرة (أي النباتات) والتورط في (الغذاء الأول) الشهوة الصغرى، ما يعني أن شهوة الجنس قبل المساس بالشجرة كانت مشروعة وكافية بالنسبة لهم وفق الأوامر الإلهية، ولم تكن تخرجهم من الجنة إلى الأرض، فعلى ذلك يصبح النكاح مقدساً في الجنة، ودليل ذلك في القرآن قوله تعالى: "قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" {البقرة: 35}. وقد شرحنا معنى "السكن" في بحث فقهي بعنوان: فهم تأويلي لمسألة تعدد الزوجات⁶⁰³. في هذا السياق، فإن كل الموارد الطبيعية التي أوجدها الله في الطبيعة منذ خلق الكون تعتبر ملكيتها لله وحده، ولا يحق لأي إنسان على الأرض في أي جغرافيا سواء كانت مقدسة أم مدنسة أن يدعي ملكيته لأي ثروات وأن يخصصها لنفسه ولعائلته أو فصيلته أو مجتمعة أو أمته، بل هي حق مملوك لكل إنسان يؤمن بالشريعة التي أنزلها الله في القرآن، وقبل ذلك أن يكون مؤمناً بالله وحده لا شريك له وبقدرته على خلق الكون وخلق المادة وعناصرها قبل خلق الكون، وبقدرته على الخلق

<https://tinyurl.com/3466c3v3>⁶⁰³

والإحياء والفناء المطلق، وبعد ذلك أن يكون لديه مسؤولية روحية وشرعية للتصرف بهذه الثروات، لأن وجود الثروات والموارد الطبيعية في يد شخص أو عائلة أو مجتمع أو أمة لا تنطبق عليها الشروط السابقة يجعلها عرضة للإفساد في الأرض، والفساد ضد التعمير والإصلاح، والإصلاح ليس كله بناء وترفيه لأن بعض البناء والترفيه قد يكون نوعاً من الفساد المادي والأخلاقي.

السبب الثاني: أن شهوة الجنس تتعلق بالخلق، وهو نوعين كما يلي:

الخلق الأول: خلق آدم وحواء في الجنة قبل نزولهما إلى الأرض. وهنا نقول إن آدم وحواء (عليهما السلام) اللذين في الجنة غير آدم وحواء اللذين في الأرض، أي أنهما مخلوقان بهيئة وروح جديدة غير التي كانا عليها في الجنة، لأن هيئة وروح آدم (عليه السلام) الذي في الجنة غير هيئة وروح آدم (عليه السلام) الذي في الأرض، لأنه من غير المعقول أن يسقط آدم (عليه السلام) من الجنة إلى الأرض، حيث لم تكن الأرض ولا الكون موجودان قبل خلقه من تراب/طين وماء في الأرض. وبالتالي فإن هيئته في الجنة ليست كهيئته في الأرض، ولكن ربما تكون روحه في الجنة هي نفس روحه في الأرض لأنه نزل إلى الأرض بسبب رغبته ومساسه بالشجرة، فكان أولى أن يضع الله في جسده الذنوبي نفس الروح التي ارتكبت الخطيئة في الجنة عند المساس بالشجرة، والدليل على اختلاف خلق آدم وحواء (عليهما السلام) بين الجنة والأرض آيتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" {البقرة: 35}. نلاحظ أن الخطاب في الآية الأولى فيه إشارة إلى "آدم وحواء" فقط وفيه لغة أمر في قوله "اسكن أنت" ولم يقل "اسكني" لحواء، وفي ذلك دليل على أن الخطاب لآدم (عليه السلام) أولاً باعتبار أنه المسؤول الأول عن الأسرة، وقوله "زوجك"

تلقح به في الخطاب، وأما كلمة "السكن" فهي للاستقرار النفسي والبيولوجي ثم للتناكح. كما أن في الآية لغة أمر أخرى في قوله تعالى: "كُلا" أي تناولا الطعام، وإذا قال "كُلا" بصيغة المثني فهذا يعني أن الشهوة الغذائية في الجنة كان مسموحاً بها لكن وفق معايير الضوابط الإلهية، ومن هذه المعايير أنه نهي في الآية عن الاقتراب من الشجرة، وهي تمثل الشهوة الزائدة عن الحاجة.

الآية الثانية: قوله تعالى: "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" {البقرة: 36}. نلاحظ أن الخطاب الوارد في الآية بصيغة المثني، أي آدم وحواء (عليهما السلام) كما في المفردات التي وردت في الآية وهي: "فأزلهما" و "أخرجهما" و "كانا"، ما يعني أنهما لم يكن لديهما أولاد أو نسل أو ذرية. وعموماً، ذلك يؤكد أنه "لا يوجد حجة أنطولوجية تدعم وجود (آدم وحده من دون حواء) كوجود بدئي"⁶⁰⁴. كما أن وجود الإنسان – سواء أكان ذكراً أو أنثى – هو وجود متساوٍ زمنياً، فلا آدم وجد قبل حواء، ولا حواء وجدت قبل آدم، والحجة التي تقول بخلق حواء من ضلع آدم هي حجة غير متماسكة أنطولوجياً"⁶⁰⁵. نقول: إن الإخراج من الجنة كان إخراجاً لهما معاً، فلم ينزل آدم (عليه السلام) وحده من الجنة، بل نزلت معه حواء لأنه قال "فأخرجهما". وبالتالي بما أننا شرحنا في "الخلق الأول" كيف أن خلق هيئة آدم (عليه السلام) كانت مختلفة في الأرض باختلاف مادة خلقه عما كان عليه في الجنة، فإن حواء هي الأخرى يختلف خلقها في الجنة عن خلق هيئتها في الأرض، ونعتقد أنها لم تخلق من ضلع آدم (عليه السلام) بل خلقت مثله من نفس المواد الأرضية التي خلق منها وهي "التراب/الطين والماء والرياح وحرارة الشمس". وعموماً لم يقل أحد من غالبية المفسرين الذين قرأنا لهم

⁶⁰⁴ معاذ بني عامر، الجسد والوجود، ط1، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2015)، ص16.

⁶⁰⁵ المصدر السابق، ص17.

بهذا الرأي، ونرجح أنه منظور واقعي ومنطقي في القول بحقيقة أن حواء خلقت مثل آدم (عليه السلام) وإذا قيل: لماذا لم يذكر اسمها في القرآن ولم يأت على ذكر خلقها؟

دلالة عدم ذكر اسم (حواء) في القرآن

نقول: لأن آدم (عليه السلام) في الشريعة العلوية (الأخروية) والسفلية (الدنيوية) هو المسؤول عن بناء الأسرة، وبالتالي استحق أن ينفرد بلقب "الزوج" أو "المكف بالتأسيس" ودليل ذلك أن إلحاق حواء بآدم (عليهما السلام) كان إلحاقاً جنسياً اجتماعياً شرعياً بوصفها شريكة له في بناء الأسرة في قوله تعالى: "أنت وزوجك" وذلك مرتين في سورة {البقرة: 35} وسورة {الأعراف: 19}. السؤال هنا: لماذا قال في الآية "اهبطوا" بصيغة الجمع؟

دلالة قوله "اهبطوا" وليس "اهبط" لآدم من الجنة

نقول: إنه تعبير عن العقاب لهما ولذريتهما، فكأنه قال: "اذهبوا ومسوا كل الشجر الأرضي، ثم تناكحوا وتكاثروا" فكانت اهبطوا، أي أنتم ونسلكم الذي سيأتي فيما بعد كنتيجة للوقوع في غريزة شهوة الغذاء والعداء في قوله تعالى: "بعضكم لبعض عدو" سيكون عداءً شهوياً غرائزياً شاملاً، وهذه حقيقة.

الخلق الثاني: خلق النوع البشري باستخدام الخلية الأولى، وهو

نوعين:

النوع الأول: خلق أول: خلق آدم (عليه السلام) باستخدام التراب/الطين والماء والرياح والحرارة. **خلق ثان:** خلق عيسى (عليه السلام) بواسطة الغذاء الجيد الذي أنتج خلية سليمة. وكلاهما أي آدم وعيسى (عليهما السلام) من النوع البشري ودليل ذلك قوله تعالى: "وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً"

{الفرقان: 54}. وقوله تعالى: "إن عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59} نقول "المثل" هنا يدخل فيه النوع البشري من الخلق، وسوف نشرح هذه الآية باستفاضة في خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص504}

النوع الثاني: خلق بالنطفة (أي خلق نسل وذرية آدم وعيسى عليهما السلام وكافة الأنبياء والرسل والإنس جميعاً). والخلق من نطفة الرجل غرساً في رحم المرأة تتعلق بالنظام الغذائي في حياة البشر عموماً. مما سبق نستنتج أن النباتات (الغذاء الأول) كشهوة صغرى، والحيوانات (الغذاء الثاني) كشهوة كبرى، بالإضافة إلى شهوة الجنس (النكاح) كلها تعتبر رغبات مادية، "وهذه الرغبات المادية للبشر تعتبر مفتاحاً لفهم التاريخ، وبالتالي، فإن مفتاح التاريخ هو معدة الإنسان وجشعه للحصول على الاشباع المادي⁶⁰⁶.

الآية العاشرة: قال تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" {آل عمران: 38}.
هذه الآية سوف نشرحها في موضوع خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق. {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص498}.

ثانياً: كلمة (ذريتنا)

الآية الأولى: قال تعالى: "ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم" {البقرة: 128}.

⁶⁰⁶ إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، ط1، (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1998)، ص28.

نقول الآية فيها مسائل:

المسألة الأولى: نقول: إن كلمة "واجعلنا" لها دلالة في الآية، فالجعل هنا مأصول لأنه يتعلق بتثبيت ثلاثة أمور وهي قوله تعالى: "واجعلنا مسلمين" وهذا جعل بصيغة التمكين في الدين، وقوله تعالى: "ومن ذريتنا" أي واجعل لنا من ذريتنا، وهذا جعل بصيغة ضرورة تثبيت الذرية وأصلها، وقوله تعالى: "أمة مسلمة" وهذا جعل بصيغة تقوية وحدة حال الأمة، أي "واجعلنا أمة مسلمة". قال الرازي: احتج أصحابنا في مسألة خلق الأعمال بقوله "ربنا واجعلنا مسلمين لك" فإن الإسلام إما أن يكون المراد منه الدين والاعتقاد، أو الاستسلام والانقياد وكيف كان فقد رغبا في أن يجعلهما بهذه الصفة: وجعلهما بهذه الصفة لا معنى له إلا خلق ذلك فيهما فإن الجعل عبارة عن الخلق، قال الله تعالى: "وجعل الظلمات والنور" فدل هذا على أن الإسلام مخلوق لله تعالى. ولا نسلم أن الجعل عبارة عن الخلق والإيجاد، بل له معنا أخرى سوى الخلق (أحدها): جعل بمعنى صيّر، قال الله تعالى: "هو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً" {الفرقان: 47}. (وثانيها): جعل بمعنى وهب، نقول: جعلت لك هذه الضيعة وهذا العبد وهذا الفرس (وثالثها): جعل بمعنى الوصف للشيء والحكم به كقوله تعالى: "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً" {الزخرف: 19}. وقال تعالى: "وجعلوا لله شركاء الجن" {الأنعام: 100}. (ورابعها): جعله كذلك بمعنى الأمر كقوله تعالى: "وجعلناهم أئمة" {الأنبياء: 73} يعني أمرناهم بالاعتداء بهم، وقال تعالى: "إني جاعلك للناس إماماً" {البقرة: 124} فهو بالأمر (وخامسها): أن يجعله بمعنى التعليم كقوله: جعلته كاتباً وشاعراً إذا علمته ذلك (وسادسها): البيان والدلالة تقول: جعلت كلام فلان باطلاً إذا أوردت

من الحجة ما يبين بطلان ذلك⁶⁰⁷. قال ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل بن رجاء بن حيان الحصني القرشي، حدثنا معقل بن عبيد الله، عن عبد الكريم: "واجعلنا مسلمين لك" قال: مخلصين لك، "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" قال: مخلصه⁶⁰⁸. وقال القرطبي: "ربنا واجعلنا مسلمين لك" أي: صيرنا، و "مسلمين" مفعول ثان، سألًا للتثبيت والدوام⁶⁰⁹. لقد جاء معنى "الجعل" في سياق يتعلق بالخلق للأعضاء، وهذا الخلق هو جزء فرعي من الخلق الثالث "الإنشاء/ والتصوير". وقلت إن الجعل مرتبط بالالتزام الإلهي الضمني بالتوفيق والتسهيل لعملية النكاح، ما يعني أن الذرية المقصودة في الآية ناتجة عن النوع الثاني من الخلق الذي قدمنا له تصورنا في هذا الكتاب، وهو "الإحياء للخلية/النفطة"، وهو خلق إنشائي تكويني في أرحام النساء. هذه الآية {البقرة: 128} تثبت مرة أخرى أن "الجعل هنا هو المقابل الموضوعي لمعنى علاقة الدين أو رسالة التوحيد بالذرية، وعلاقة ذلك بالحياة والفناء على وجه الأرض".

والمسألة الثانية: نقول: إن لفظ "مسلمين" في الآية هو للمثنى، أي إبراهيم وابنه إسماعيل. وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابي: "مسلمين" على الجمع⁶¹⁰. نقول: إنها تجوز على الوجهين وهذا من بلاغة القرآن، فإذا قلت "مسلمين" للمثنى فإن المقصود هو الأب إبراهيم والابن إسماعيل، وهذا يحمل معنى الأسرة ويصبح لمعنى

⁶⁰⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص64، 65.

⁶⁰⁸ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج1، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص442.

⁶⁰⁹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص396.

⁶¹⁰ المصدر السابق، ص396.

كلمة "مسلمين" بعداً اجتماعياً في الإشارة إليهما لاسيما أنه جاء على لفظ الذرية فيما بعد بقوله "ومن ذريتنا". وإذا قلت "مسلمين" للجمع فإن المقصود هو التعبير عن صفة إبراهيم وإسماعيل بصيغة مجموع المسلمين، وهذا يجوز لأنه قال عن المجموع إنه "أمة مسلمة". كما أن ذلك يعطي مكانة لمركزية الأب والابن في البناء الإسلامي والأسري، وهو دال على أصل الذرية. وإن قوله في الآية "واجعلنا مسلمين" ثم قوله تعالى: "ومن ذريتنا أمة مسلمة" يراد به تقديم الدين "الإسلام" وأتباعه، على "الذرية" وعلى "الأمة المسلمة" وذلك في صلب عقيدة التوحيد. والإسلام في هذا الموضع كما يقول القرطبي: "هو الإيمان والأعمال جميعاً" ومنه قوله تعالى: "إن الدين عند الله الإسلام" {آل عمران: 19}. وفي هذا دليل لمن قال: إن الإيمان والإسلام شيء واحد؛ وعضدوا هذا بقوله تعالى في الآية الأخرى: "فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (35) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (36)" {الذاريات: 35 – 36} ⁶¹¹.

والمسألة الثالثة: جاءت الآية على ذكر إبراهيم وابنه إسماعيل، ولذلك فإن الخطاب فيه تخصيص على ضرورة جعل "الأمة" في ذرية إبراهيم وإسماعيل من دون المسلمين، لكننا نقول إن قوله تعالى: "ذريتنا" وليس "ذريتي" يعني أن الخطاب هنا عام، فقوله تعالى: "ذريتنا" يجوز أن تعود على كليهما، أي ذرية إبراهيم "الأب" وذرية إسماعيل "الابن" ومن جاء بعدهم من نسلهم، ويجوز أن تعود على كل الأمة. قال الخوارزمي: "ومن ذريتنا" أي واجعل من ذريتنا، وقوله تعالى: "أمة مسلمة لك" ومن للتبعيض أو للتبيين ⁶¹². وكذلك أورد الشوكاني أن "من" للتبعيض والتبيين ⁶¹³. حكى الطبري أنه أراد

⁶¹¹ المصدر السابق، ص396.

⁶¹² أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقوال في وجوه التأويل، ج1، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص96.

⁶¹³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص93.

بقوله: "ومن ذريتنا" العرب خاصة. وقال السهيلي: وذريتهما العرب؛ لأنهم بنو نَبْتِ بنِ إسماعيل، أو بنو تيمن بن إسماعيل، ويقال: قَيْدَر بن نبت بن إسماعيل. أما العدنانية فمن نَبْت، وأما القحطانية فمن قَيْدَر بن نبت بن إسماعيل، أو تيمن على أحد القولين⁶¹⁴. وقال السدي: "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" يعنيان العرب⁶¹⁵. وأورد الشوكاني في "فتح القدير" قول ابن جرير: أراد بالذرية العرب خاصة، وكذا قال السهيلي. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت في العرب وغيرهم من الذين آمنوا به⁶¹⁶. قال الرازي: في زمان أجداد محمد لم يكن أحد من العرب مسلماً، ولم يكن أحد سوى العرب من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. قال القفال: إنه لم يزل في ذريتهما من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ولم تنزل الرسل من ذرية إبراهيم، وقد كان في الجاهلية: زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، ويقال عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله، وعامر بن الظرب كانوا على دين الإسلام يقرّون بالإبداء والإعادة، والثواب والعقاب، ويوحدون الله تعالى، ولا يأكلون الميتة، ولا يعبدون الأوثان⁶¹⁷. وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" أي خصّاً بذلك بعض الذرية، لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله قبل مسألته هذه، أن من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره، فخصّاً بالدعوة بعض

⁶¹⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص396.

⁶¹⁵ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج1، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص442.

⁶¹⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص93.

⁶¹⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص67، 68.

ذريتهما⁶¹⁸. عموماً يُراد بالآية القول "واجعل من ذريتنا أمة مسلمة كما جعلتنا مسلمين"، وهذا يفيد أن قوله تعالى: "واجعلنا مسلمين" عامة لكل الناس في العالمين، وقوله تعالى: "من ذريتنا" خاصة بإبراهيم وذريته إسماعيل. وقال القرطبي في معنى "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" أي: ومن ذريتنا فاجعل⁶¹⁹. وهنا نقول: إن من خصوصية معنى الذرية في اقترانها بإبراهيم وإسماعيل أنها جاءت لتثبيت معنى وعلاقة الذرية بالأمة. فإما نقول إن "الأمة" من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وهذا أمر مألوف وحقيقي، أو نقول إن "الأمة" مقترنة بالدين ورسالة التوحيد التي نزلت على كافة الأنبياء والرسل والأقوام. أو نقول ما ذكره الرازي: أنها أمة محمد بدليل قوله: "وابعث فيهم رسلاً منهم" {البقرة: 129}⁶²⁰. وذكر الشوكاني: إن الأمة: الجماعة في هذا الموضوع، وقد تطلق على الواحد إذا كان يُفقدى به في الخير، ومنه قوله تعالى: "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله" {النحل: 120} وتطلق على الدين ومنه: "إنا وجدنا آباءنا على أمة" {الزخرف: 23} ومنه قوله تعالى: "إن هذه أمتكم أمة واحدة" {الأنبياء: 92} وتطلق على الزمان، ومنه: واذكر بعد أمة {يوسف: 45}⁶²¹.

⁶¹⁸ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج1، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص387.
⁶¹⁹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص396.
⁶²⁰ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص67.

⁶²¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص93.

ثالثاً: كلمة (ذريته)

الآية الأولى: قال تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين" {الأنعام: 84}.

قال الزمخشري: الضمير في قوله تعالى: "ومن ذريته" لنوح أو لإبراهيم⁶²². وقال الشوكاني: أي: من ذرية إبراهيم، وقال الفراء: من ذرية نوح⁶²³. وقال البيضاوي: "الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا الكلام فيه، وقيل لنوح (عليه السلام) لأنه أقرب، ولأنه يونس ولو طأ ليسا من ذرية إبراهيم"⁶²⁴. على حين قال الطبري: "لو أريد بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولو ط فيهم، فهما ليسا من ذرية إبراهيم"⁶²⁵. قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم من لم تلحقه ولادة من جهته من قبل أب ولا أم؛ لأن لو طأ ابن أخي إبراهيم. والعرب تجعل العم أباً كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: "نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق" {البقرة: 133}. وإسماعيل عم يعقوب. وعدّ عيسى من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن البنت. فأولاد فاطمة رضي الله عنها ذرية النبي. وبهذا تمسك من رأي أن ولد البنات يدخلون في اسم

⁶²² أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقوال في وجوه التأويل، ج7، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص36.

⁶²³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج7، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص432.

⁶²⁴ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج7، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص502.

⁶²⁵ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع

البيان عن تأويل القرآن، ج3، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص296.

الولد⁶²⁶. وقال ابن كثير: إن لوطاً ليس من ذرية "إبراهيم"، بل هو ابن أخيه مادان بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليباً⁶²⁷. وقال الرازي: إن قوله تعالى: "ومن ذريته داود وسليمان" قيل المراد "ومن ذرية نوح"، ويدل عليه وجوه: الأول: أن نوحاً أقرب المذكورين وعود الضمير إلى الأقرب واجب. الثاني: أنه تعالى ذكر في جملتهم لوطاً وهو كان ابن أخ إبراهيم وما كان من ذريته، بل كان من ذرية نوح (عليه السلام)، وكان رسولاً في زمان إبراهيم. الثالث: أن ولد الإنسان لا يقال إنه ذريته، فعلى هذا إسماعيل (عليه السلام) ما كان من ذرية إبراهيم، بل هو من ذرية نوح (عليه السلام). الرابع: قيل إن يونس (عليه السلام) ما كان من ذرية إبراهيم (عليه السلام)، وكان من ذرية نوح (عليه السلام)⁶²⁸. وأوضح الرازي أن المراد بقوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل" أنه سبحانه جعل إبراهيم في أشرف الأنساب. وذلك لأنه رزقه أولاداً مثل إسحاق، ويعقوب. وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين مثل نوح، وإدريس، وشيث. فالمقصود بيان كرامة إبراهيم (عليه السلام) بحسب الأولاد وبحسب الآباء⁶²⁹. قالوا: ولم لم يذكر إسماعيل (عليه السلام) مع إسحاق، بل أخر ذكره عنه بدرجات؟ قلنا: لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب. وأما إسماعيل فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد، ولا

⁶²⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج8، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص447.

⁶²⁷ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص298.

⁶²⁸ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص68.

⁶²⁹ المصدر السابق، ص67.

يجوز ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في هذا المقام⁶³⁰. نقول: إن هذه الآية مرتبطة بالآيتين التاليتين لقوله تعالى: "وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (85) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين (86)". نلاحظ أنه جاء ذكر عدد من الأنبياء مع ذكر قوله "ومن ذريته" ما يعني أن كل هؤلاء الأنبياء هم من ذرية النبي نوح، وقيل إبراهيم المذكور في الآيات السابقة في نفس السورة. أراد إبراهيم (عليه السلام) بقوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" ولكنه أراد نوحاً عندما قال "ومن ذريته"، لأنه أشار إلى جملة "من قبل" في قوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل" ما يعني أن نوحاً أسبق من إبراهيم في الإشارة داخل الآية. وبالتالي يعتبر إبراهيم وابنه إسحاق وولد إسحاق وهو يعقوب مشمولين في الذرية التي تتبع إلى نوح. وبالتالي نحن لا نتفق مع قول الرازي بأن "ولد الإنسان لا يقال إنه ذريته"⁶³¹. بل نقول إن الولد ذرية بالاستناد إلى فهمنا البيولوجي الحيوي لعلاقة الذرة بالذرية، وكذلك بالاستناد إلى ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" {العنكبوت: 27}، قال: "هما ولدا إبراهيم"، فمعناه: أن ولد الولد بمنزلة الولد⁶³².

الآية الثانية: قال تعالى: "قال رأيتك هذا الذي كرمت عليّ لنن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته قليلاً" {الإسراء: 62}.
قال الرازي: إن التعبير في الآية "لأحتكن ذريته إلاً قليلاً" هو قول إبليس، وهي قصة إبليس مع آدم، وقد ذكرها الله تعالى في سور سبعة،

⁶³⁰ المصدر السابق، ص 67.

⁶³¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 13، ط 1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص 68.

⁶³² عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج 6، ط 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص 275.

وهي البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص⁶³³. وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: "قال أرأيتك" أي: قال إبليس: والكاف لتوكيد المخاطبة. "هذا الذي كَرَّمت عليّ" أي: فضلته عليّ. ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة. وفي الكلام حذف تقديره: أخبرني عن هذا الذي فضلته عليّ، لم فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف، أي: أترى هذا الذي كرمته عليّ لأفعلن به كذا وكذا. ومعنى "لأحتنكن" في قوله ابن عباس: لأستولين عليهم. وقاله الفراء مجاهد: لأحتوينهم. ابن زيد: لأضلنهم. والمعنى متقارب، أي: لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنهم. وروي عن العرب: احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله. وقيل: معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث أردت⁶³⁴. وقال الواحدي في معنى قوله "لأحتنكن ذريته إلا قليلاً": أصله من احتنك الجراد الزرع، وهو أن تستأصله بأحناكها وتفسده، ثم سمي الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكاً⁶³⁵. نقول: إن في الآية دلالة بالغة التعبير في الربط بين كلمة "ذريته" في إشارة إلى نسل آدم (عليه السلام)، وكلمة "لأحتنكنه" باعتبار أن الاحتناك مرتبط بالقدرة على التأثير بهدف الاستئصال، لكن مع إيضاح إبليس بأن هذا التأثير إنما يكون للجميع إلا قليل من

⁶³³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص3.

⁶³⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص116، 117.

⁶³⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص832.

الناس، وقيل هؤلاء هم المعصومين⁶³⁶ أو الذين لا أقدر أن أقوم شكيمتهم⁶³⁷. وقيل: المحتك: هو الذي تم عقله وسنه⁶³⁸. بهذا المعنى نفهم أن إبليس أراد التعبير عن قدرته في الاستيلاء على ذرية آدم (عليه السلام) من خلال قيادة عقولهم بهدف إغوائهم وإهلاكهم واستئصالهم. لكن بما أن كلمة "الذرية" مرتبطة بأنواع الخلق التي ذكرناها في الكتاب، فهل يمكن لإبليس استئصال الخلق باعتبار أنه يعبر عن قدرته في استئصال الذرية؟

نقول: أولاً: إن هذا التحدي الإبليسي لله ناتج عن كفر إبليس ورفضه السجود لله. وثانياً: لا يمكن لإبليس استئصال الخلق، ولكن التأثير على الخلق، وثمة فرق بين التدخل في عملية الخلق والتأثير فيها بعد إنشائها، والمُرَاد أن فعل إبليس يأتي بعد الإرادة والقوة الإلهية. فمثلاً، نعلم أن الله سيبعث الأرواح في الأجساد يوم القيامة وسوف يحاسب الناس على الصراط المستقيم، وهذا هو النوع الرابع من الخلق وهو "البعث/بعث الأرواح في الأجساد". ولذلك ورد في القرآن تعبير إبليس عن محاولاته للتأثير على ذرية آدم في قوله تعالى: "قال فيما أغويتني لأقعدن لهم على صراطك المستقيم" {الأعراف: 16}.

الآية الثالثة: قال تعالى: وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً {الكهف: 50}.

⁶³⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص117.

⁶³⁷ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص309.

⁶³⁸ خليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج1، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص366.

نقول: إن اعتبار الجن بأن لهم ذرية يعني أن الجن خلق، وهذا لا يتناقض مع وصفهم في القرآن باعتبارهم خلق، لأن آيات كثيرة أشارت إليهم بوصفهم خلق، لكن مع التأكيد على اختلاف نوعية خلق الجن، أي أنهم خلقوا من نار لقوله تعالى: "وخلق الجان من مارج من نار" {الرحمن: 15}. وقوله تعالى في التمييز بين خلق الإنسان وخلق الجن في آيات متتالية: "ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون (26) والجان خلقناه من قبل من نار السموم (27)" {الحجر: 26 – 27}. ذكر ابن كثير في تفسير قوله "فسجدوا إلا إبليس كان من الجن" أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله، أنه قال: "خُلقت من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، خلق آدم مما وصف لكم". ونبه تعالى ههنا على أنه "من الجن" أي: إنه خلق من نار، كما قال: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" {الأعراف: 12}، {ص: 76}.⁶³⁹ اختلف أهل التأويل في معنى قوله: "وكان من الجن"، فقال بعضهم: إنه كان من قبيلة يقال لهم الجن. وقال آخرون: بل كان من خُزان الجنة، فُنسب إلى الجنة. وقال آخرون: بل قيل من الجن، لأنه من الجن الذين استجنوا عن أعين بني آدم. وقال آخرون: كان اسم قبيلة إبليس الجن.⁶⁴⁰ قال الرازي: ثبت أن إبليس ليس من الملائكة، ولكن الله تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية وهو قوله "أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني" والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب ألا يكون إبليس من الملائكة.⁶⁴¹ وقال

⁶³⁹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص167.
⁶⁴⁰ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص109.
⁶⁴¹ الإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص137.

البيضاوي: إن قوله تعالى: "وذريته": أي أولاده أو أتباعه، وسماهم ذريته مجازاً⁶⁴². وقف عزوجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله: أفنتخذونه يا بني آدم وذريته أولياء وهم لكم عدو، أي: أعداء، فهم اسم جنس. وقوله تعالى: "بئس للظالمين بدلاً" أي: بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله. أو بئس إبليس بدلاً عن الله. واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه؟ فقال الشعبي: سألتني رجل فقال: هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إن ذلك عرس لم أشهده، ثم ذكرت قوله: "أفنتخذونه وذريته أولياء" فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة، فقلت: نعم. وقال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات، فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذة اليمنى ذكراً، وفي اليسرى فرجاً، فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يخرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة. وقال قوم: ليس له أولاد ولا ذرية، وذريته أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر: والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر على نقل صحيح. وذكر مجاهد: أن ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدهم:

زلنبور: صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أول من يفتح وآخر من يغلق. وثير: صاحب المصائب، يأمر بضرب الوجوه، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والحرب. والأعور: صاحب أبواب الربا. ومسوط: صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلاً. وداسم: الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يُسلم ولم يذكر اسم الله بصّره من

⁶⁴² ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص343.

المتاع ما لم يرفع، وما لم يُحسن موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله، أكل معه. قال الأعمش: إني ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلم، فرأيت مطهرةً فقلت: ارفعوا هذه، وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم! أعوذ بالله منه.

زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد:
والأبيض، وهو الذي يوسوس للأنبياء.
وصخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان (عليه السلام).
والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها.
والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها.
ومرة وهو صاحب المزامير وبه يُكنى.
والهفاف يكون بالصحاري يُضل الناس ويُئيههم، ومنهم الغيلان.
وذكر الترمذي أن للوضوء شيطاناً يُسمى الولهان.
وفي "صحيح مسلم" عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل، فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه. وفي "مسند" البزار عن سلمان الفارسي قال: قال النبي: "لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها؛ فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رأيته"⁶⁴³.

الآية الرابعة: قال تعالى: ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين {العنكبوت: 27}.

تتعلق هذه الآية بالنبي إبراهيم وبذريته، والإشارة إليه في قوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" وكذلك الإشارة إليه في قوله

⁶⁴³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص301 - 303.

تعالى: "وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب". قال الشوكاني: الضمير في قوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" إلى إبراهيم. وكذا في قوله تعالى: "وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب". وهذه الضمائر لإبراهيم بلا خلاف: أي من الله عليه بالأولاد، فوهب له إسحاق ولداً له، ويعقوب ولداً لولده إسحاق، وجعل في ذريته النبوة، والكتاب، فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه⁶⁴⁴. وكذلك قال القرطبي، وأضاف: التوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده، والفرقان على محمد من ولده⁶⁴⁵. وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: "وجعلنا في ذريته النبوة" أي فكثرت منهم الأنبياء. "والكتب" يُريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة⁶⁴⁶. وكذلك قال الخوارزمي: قصد به جنس الكتاب حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة التي هي التوراة والزيور والإنجيل والقرآن⁶⁴⁷. وأجمل ابن كثير الرأي بقوله: لم يوجد نبي بعد إبراهيم (عليه السلام) إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم (عليه السلام)، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، عليهم السلام: ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه⁶⁴⁸. وكان لوط أول من صدق

⁶⁴⁴ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج20، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1118.

⁶⁴⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج16، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص356.

⁶⁴⁶ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج20، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص34.

⁶⁴⁷ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج20، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص818.

⁶⁴⁸ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي دمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص275.

إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً. قال ابن إسحاق: آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته، وأمّنت به سارة وكانت بنت عمه⁶⁴⁹. نلاحظ في الآية أن الله استخدم كلمة "وجعلنا" والجعل مرتبط بالخلق، وهو عندما أشار إلى خلق الذرية، فهو أشار إلى خصوصية الذرية الإنسية في عملية الخلق منذ خلق آدم (عليه السلام)، وهذا فيه اصطفاء وتشريف لذرية إبراهيم، ومن هم قبل إبراهيم، أي الذرية التي يتبع إليها، وأيضاً من هم بعده.

الآية الخامسة: قال تعالى: "وجعلنا ذريته هم الباقين" {الصفات: 77}.

الإشارة هنا إلى نوح الذي تقدم ذكره في الآيات السابقة والتالية لهذه الآية، لقوله تعالى: "ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (75) وقوله تعالى بعدها: سلام على نوح في العالمين (79)". قال ابن عباس: لما خرج نوحٌ من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه؛ فذلك قوله تعالى: "وجعلنا ذريته هم الباقين". وقال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقط والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقالبة والترك والأبر والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك⁶⁵⁰. وقال البيضاوي في معنى بقاء ذرية نوح: "أي إذ هلك من عداهم وبقوا متناسلين إلى يوم القيامة، إذ روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم"⁶⁵¹. وقال

⁶⁴⁹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج16، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص355.

⁶⁵⁰ المصدر السابق، ص47.

⁶⁵¹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص151.

الشوكاني: "وذريته وذرية من معه دون ذرية من كفر، فإن الله أغرقهم، فلم يبق لهم ذرية"⁶⁵². إن عنصر الربط بين ذكر كلمة "ذريته" و "الباقين" يدل على الخلق، فمعنى الذرية يشير إلى الأصل والتسلسل عن أصل الخلق وهو في هذه الحالة نوح الذي يعتبر قريباً زمنياً من آدم (عليه السلام) بالنسبة إلى زماننا هذا. أما معنى "الباقين" فهو تعبير عن حالة النجاة والاستمرارية وحيروية الحياة على وجه الأرض. أي لا انقطاع لذرية نوح التي استمرت حتى يومنا هذا. ونشير مرة أخرى إلى ضرورة النظر في استخدام كلمة "وجعلنا"، أي "وخلقنا"، ونلاحظ أهمية ذكر تلك الكلمة مصاحبة لمعاني الذرية والبقاء.

رابعاً: كلمة (ذُرِّيَّتِهَا)

الآية الأولى: قال تعالى: "فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" {آل عمران: 36}. سوف نشرح قصة مريم وابنها عيسى (عليهما السلام) وخصوصية معنى الخلق في قصة النبي عيسى (عليه السلام)، وقصة ولادة أمه العاقرة مريم من حنة بنت فاقوذ، زوجة آل عمران، في الفصل الخامس بعنوان "خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم في عملية الخلق". {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص464} تشير الآية إلى رغبة حنة بنت فاقوذ بإنجاب ذكر، ولكنها أنجبت أنثى وهذه قصة لها شرح طويل، لكن ما يهمنا هنا هو قولها: "وإني أعيذها بك وذريتها

⁶⁵² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1243.

من الشيطان الرجيم". قال الطبري: أصل "المعاذ" المَوئِل والملجأ والمعقل⁶⁵³.

وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: "وإني أعيذها بك" أي: أجبرها بحفظك. وقوله: "وذريتها من الشيطان الرجيم" أي: المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة. وعن النبي قال: "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه إلا مريم وابنها". ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة الاستعاذة⁶⁵⁴. وروى من حديث قيس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: "ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم"⁶⁵⁵. قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: "وإني سميتها مريم" هو عطف على "إني وضعتها أنثى" ومقصدها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنى اسمها، فإن معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي، وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات. وقوله تعالى: "وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" عطف على قوله تعالى: "إني سميتها مريم"، والرجيم المطرود، وأصله المرمى بالحجارة، طلبت الإعاذة لها، ولولدها من الشيطان وأعوانه⁶⁵⁶.

⁶⁵³ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع

البيان عن تأويل القرآن، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص247.

⁶⁵⁴ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص257.

⁶⁵⁵ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص35.

⁶⁵⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص215.

نلاحظ أن قوله تعالى: "وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" معطوف على ما قبله، وما قبله مخصوص بمريم (عليها السلام) في قوله: "وإني سميتها مريم" وما قبله أيضاً مخصوص لجنسها كأنثى حيث ورد في الآية قوله تعالى: "إني وضعتها أنثى". إذا كان الأمر كذلك من ناحية الخصوصية فإن كلمة "وذريتها" منعت أن تكون الخصوصية لمريم (عليها السلام) وحدها، بل تشمل ذريتها، فتصير الإعادة من الشيطان لها ولذريتها معاً. وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: "وإني أعيذها بك" يعني مريم (عليها السلام). وقوله تعالى: "وذريتها" يعني عيسى (عليه السلام). وهذا يدل على أن الذرية قد تقع على الولد خاصة⁶⁵⁷.

خامساً: كلمة (ذُرِّيَّتَهُم)

الآية الأولى: قال تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" {الأعراف: 172}.

قال البيضاوي: "أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن"⁶⁵⁸. وقال قوم: معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض. وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها⁶⁵⁹. قال مقاتل: إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية

⁶⁵⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص103.

⁶⁵⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج9، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص581.

⁶⁵⁹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص375.

بيضاء كهيئة الذر تتحرك، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال يا آدم هؤلاء ذريتك" ⁶⁶⁰. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جَمرة الضبعي، عن ابن عباس، قال: أخرج الله ذرية آدم (عليه السلام) من ظهره كهيئة الذر، وهو في آذى من الماء ⁶⁶¹. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك لحديث رواه عمر ⁶⁶². وروى عبد الله بن عمرو عن النبي أنه قال: "أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس" ⁶⁶³. قال أصحاب النظر وأرباب المعقولات: إنه تعالى أخرج الذرية وهم الأولاد من أصلاب آبائهم، وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات، وجعلها علقة، ثم مضغة، ثم جعلهم بشراً سوياً، وخلقاً كاملاً ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعه ⁶⁶⁴. وقال الزمخشري: "معنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: أي إخراجهم من أصلابهم نسلًا وإشهادهم على أنفسهم {.....} وإن قلت: بنو آدم وذرياتهم من هم؟ قلت: عني ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله حيث قالوا: عزيزاً ابن الله، وبذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله من أخلافهم

⁶⁶⁰ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص50.

⁶⁶¹ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص502.
⁶⁶² ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج9، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص581.

⁶⁶³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرغان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص377.

⁶⁶⁴ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص53.

المقتدين بأبائهم، والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله تعالى في الآية التالية: "أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل (173)"⁶⁶⁵. فسر الحسن البصري الآية بذلك، فأشار إلى أن الله قال: "وإذ أخذ ربك من بني آدم"، ولم يقل: "من آدم"، وقال "من ظهورهم"، ولم يقل: "من ظهره"، وقال "ذرياتهم"، أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض" {الأنعام: 165}، وقال: "ويجعلكم خلفاء الأرض" {النمل: 162}، وقال: "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" {الأنعام: 133}⁶⁶⁶. يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه⁶⁶⁷. وقوله تعالى: "ألست بربكم قالوا بلى شهدنا" من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك أنه: نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرروهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك⁶⁶⁸. وقيل "إن الله جعل لهم عقولاً كمنلة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، وأن لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل، فشهد بعضهم على بعض. قال أبي بن كعب: وأشهد عليهم السماوات السبع، فليس من أحد

⁶⁶⁵ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج9، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص395.

⁶⁶⁶ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص506.

⁶⁶⁷ المصدر السابق، ص500.

⁶⁶⁸ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج9، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص395.

يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد" ⁶⁶⁹. اختلف في هذه الآية، هل هي خاصة أو عامة؟ فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالى قال: "من بني آدم من ظهورهم". فخرج من هذا من كان من ولد آدم لصلبه. وقال عزوجل: "أو تقولوا إنما أشرك أبائنا من قبل"، فخرج منها كل من لم يكن له آباء مشركون. وقيل: هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على السنة الأنبياء. وقيل: بل هي عامة لجميع الناس؛ لأن كل أحد يعلم أنه كان طفلاً فَعُدِّي ورُبي، وأن له مدبراً وخالقاً. فهذا يعني "وأشهدهم على أنفسهم" ⁶⁷⁰. روى الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: إن رسول الله قال: "لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها {من ذريته} إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل رجل منهم وبيناً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: يا رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، فقال: رب، كم جعلت عُمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عُمرى أربعين سنة، فلما انقضى عُمر آدم (عليه السلام)، جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تُعْطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم، فنسيت ذريته" ⁶⁷¹. وفي رواية أخرى أوردها الرازي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه أبصر آدم في ذريته قوماً لهم نور، فقال يا رب من هم؟ فقال الأنبياء، ورأى واحداً هو أشدهم نوراً فقال من هو؟ قال داود، قال فكم عمره، قال: سبعون سنة. قال آدم: هو قليل، وقد وهبته من عمري أربعين سنة، وكان عمر آدم ألف سنة، فلما تم عمر آدم تسعمائة وستين سنة أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فقال آدم:

⁶⁶⁹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص377.

⁶⁷⁰ المصدر السابق، ص379.

⁶⁷¹ المصدر السابق، ص376، 377.

بقي من أجلي أربعون سنة، فقال ملك الموت: ألسنت قد وبهته من ابنك داود؟ فقال آدم: ما كنت لأجعل لأحد من أجلي شيئاً، فعند ذلك كتب لكل نفس أجلها. أما المعتزلة: فقد أطبقوا على أنه لا يجوز تفسير هذه الآية بهذا الوجه، واحتجوا على فساد هذا القول بوجوده. سوف ننقل بعض هذه الوجوه والحجج.

الحجة الأولى: قالوا: إن قوله تعالى "من بني آدم من ظهورهم" لا شك أن قوله "من ظهورهم" يدل من قوله "بني آدم" فيكون المعنى: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم. وعلى هذا التقدير: فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً.

الحجة الثانية: أنه لو كان المراد أنه تعالى أخرج من ظهر آدم شيئاً من الذرية لما قال "من ظهورهم" بل كان يجب أن يقول: من ظهره، لأن آدم ليس له إلا ظهر واحد، وكذلك قوله "ذريتهم" ولو كان آدم لقال "ذريته".

الحجة الثالثة: أنه تعالى حكى عن أولئك الذرية أنهم قالوا "إنما أشرك آبائنا من قبل" وهذا الكلام يليق بأولاد آدم؛ لأنه (عليه السلام) ما كان مشركاً.

الحجة الرابعة: أن جميع الخلق الذين خلقهم الله من أولاد آدم عدد عظيم وكثرة كثيرة، فالمجموع الحاصل من تلك الذريات يبلغ مبلغاً عظيماً في الحجمية والمقدار وصلب آدم على صغره يبعد أن يتسع لذلك المجموع.

الحجة الخامسة: قال الكعبي: إن حال أولئك الذرية لا يكون أعلى في الفهم والعلم من حال الأطفال، ولما لم يكن توجيه التكليف على الطفل، فكيف يمكن توجيهه على أولئك الذوات؟

وأجاب الزجاج عنه فقال: لما لم يبعد أن يؤتي الله النمل العقل كما قال (قالت نملة يا أيها النمل) وأن يعطي الجبل الفهم حتى يسبح كما قال (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) وكما أعطى الله العقل للبعير

حتى سجد للرسول، وللنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت فكذا ههنا.

الحجة السادسة: أن أولئك الذر في ذلك الوقت إما أن يكونوا كاملي العقول والقدر أو ما كانوا كذلك، فإن كان الأول كانوا مكلفين لا محالة وإنما يبقون مكلفين إذا عرفوا الله بالاستدلال ولو كانوا كذلك لما امتازت أحوالهم في ذلك الوقت عن أحوالهم في هذه الحياة الدنيا، فلو افتقر التكليف في الدنيا إلى سبق ذلك الميثاق لافتقر التكليف في وقت ذلك الميثاق إلى سبق ميثاق آخر ولزم التسلسل وهو محال، وأما الثاني: وهو أن يقال إنهم في وقت ذلك الميثاق ما كانوا كاملي العقول ولا كاملي القدر، فحينئذ يتمتع توجيه الخطاب والتكليف عليهم⁶⁷². نقول: إن لفظ الذرية يقع للواحد وللجمع، لأن الإنسان عندما يكون له ذرية فإن الواحد من ذريته يستطيع ضمناً أن يكون له هو الآخر ذرية، وإن إثبات وجود القدرة على إنشاء الذرية يعني أن كلمة الذرية تشتمل على المفرد والجمع. وإن قوله في الآية "أشهدهم على أنفسهم" تعود إلى ذرية آدم (عليه السلام)، وهي الذرية التي يمتد نسلها منذ أن خلق آدم (عليه السلام) إلى يومنا هذا، وبالتالي فالخطاب الإلهي حيوي ودال على الاستمرارية؛ لأنه يتعلق بالاعتراف بالربوبية والوحدانية الإلهية، وهذه مسألة موجبة لبني آدم (عليه السلام) كلهم. وعلى ذلك، فإن المقصود بالذرية ليست الذرية المباشرة من نسل بني آدم (عليه السلام)، بل الذرية المباشرة ثم المتتالية وصولاً إلى اليوم الذي نزل فيه الخطاب القرآني وما يليه، لأن كل إنسان من هذه الذرية يلزمه سنوات طويلة كي يصل إلى مرحلة النضج العقلي الهادف إلى الإقرار بربوبية ووحداية الله.

⁶⁷² الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص50، 51.

الآية الثانية: قال تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون" {يس: 41}.

نقول: إن فهمنا للآية يتعلق بفهم ثلاث مسائل فيها وهي قوله تعالى: "وآية لهم" ثم قوله تعالى: "حملنا ذريتهم" ثم قوله تعالى: "في الفلك المشحون". أما قوله تعالى: "وآية لهم" فإن الشوكاني قال: إن الضمير في قوله "وآية لهم" يرجع لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد⁶⁷³. وقيل: إن الضمير يرجع إلى العباد المذكورين في نفس سورة يس لقوله تعالى: "يا حسرة على العباد" {يس: 30} لأنه قال بعد ذلك: "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها" {يس: 33} ثم قال: "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار" {يس: 37} ثم قال: "وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم" {يس: 41} فكأنه قال: وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين البعض منهم، وبالضمير الآخر البعض الآخر، وهذا قول حسن⁶⁷⁴. وقال القرطبي إن قوله: "وآية لهم" يحتمل ثلاثة معان: أحدها: عبرة لهم؛ لأن في الآيات اعتباراً. الثاني: نعمة عليهم؛ لأن في الآيات إنعاماً. الثالث: إنذار لهم؛ لأن في الآيات إنذاراً⁶⁷⁵. أما قوله تعالى: "إنا حملنا ذرياتهم" فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية، والمعنى: أن الله حمل ذرية القرون الماضية في الفلك المشحون، وهذا حكاة النحاس عن علي بن سليمان الأخفش. وقيل: الضميران في قوله تعالى: "وآية لهم" وقوله تعالى: "حملنا ذرياتهم" لكفار مكة، ونحوهم. والمعنى: أن الله حمل ذرياتهم من أولادهم، وضعفائهم على الفلك، فامتن الله عليهم بذلك: أي: إنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا، أو يبعثون

⁶⁷³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1225.

⁶⁷⁴ المصدر السابق، ص1226.

⁶⁷⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص452.

أولادهم للتجارة لهم فيها. وقيل: الذرية الآباء، والأجداد، والفلك هو: سفينة نوح: أي إن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح. قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد: قال أبو عثمان: وسمي الآباء ذرية، لأن منهم ذرية الأبناء، وقيل: الذرية النطف الكائنة في بطون النساء، وشبهه البطون بالفلك المشحون⁶⁷⁶. وقال القرطبي: إن الذرية هي النطف، حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفلك المشحون؛ قاله علي بن أبي طالب؛ ذكره الماوردي⁶⁷⁷. أما تفسير قوله تعالى: "في الفلك المشحون" فقال ابن كثير، أي فيها دلالة على تسخير البحر ليحمل السفن، ومن ذلك -بل أوله- سفينة نوح، (عليه السلام)، التي أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يتبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم، ولهذا قال تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم" أي: آباءهم. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد: هي سفينة نوح (عليه السلام)⁶⁷⁸. وقال الرازي: إما أن يكون المراد الفلك المعين الذي كان لنوح، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى: "والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون" {الزخرف: 12}. وقوله تعالى: "وترى الفلك مواخر" {النحل: 14}. وقوله تعالى: "فإذا ركبوا في الفلك" {العنكبوت: 65} إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس، فإن كان المراد سفينة نوح (عليه السلام) ففيه وجوه: (الأول): أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك، ولولا ذلك لما بقي للأدمي نسل ولا عقب، وعلى هذا فقوله تعالى: "حملنا ذريتهم" بدل قوله "حملناهم"

⁶⁷⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1225.

⁶⁷⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص453.

⁶⁷⁸ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص579.

إشارة إلى كمال النعمة، أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة، هذا ما قاله الزمخشري، ويحتل عندي أن يقال على هذا إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم فقال (حملنا ذريتهم) أي لم يكن الحمل حملاً لهم، وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين. (الثاني): هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء، وقد نهى النبي عن قتل الذراري، أي النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه، يقال ذرارينا أي أمثالنا، فقله "أنا حملنا ذريتهم" أي أمثالهم وأبؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث): هو أن الضمير في قوله تعالى: "وآية لهم" عائد إلى العباد حيث قال "يا حسرة على العباد" وقال بعد ذلك "وآية لهم الأرض" وقال "وآية لهم الليل" وقال تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم"، إذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين أشخاصاً معينين. وكذلك في قوله تعالى: "وآية لهم" أي آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم، أو ذرية بعض منهم. وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر؛ لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها، فأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد، وقوله تعالى في سفينة نوح "وجعلناها آية للعالمين" أي بوجود جنسها ومثلها⁶⁷⁹. نقول: إن قوله تعالى: "وآية لهم" لها معنى رابعاً يُضاف إلى ما ذكره القرطبي وهو "رسالة لهم" و "صورة لهم"، والصورة التي نقصدها هنا هي صورة الخلق وتحمل معنيين، فإما أن تكون "صورة لهم" أي صورة الخلق الثالث وهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة. وقد وقعت

⁶⁷⁹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص78، 79.

الآية (41) بين آيات قبلها وبعدها تشير إلى الأنواع الثلاثة الأخرى من الخلق، فالآيات التي قبلها جاء قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (36)" وذكر بعدها الآيات الطبيعية الأخرى في الكون مثل وجود الليل والنهار والشمس والقمر مع الإشارة إلى تتابعهما، وذلك يؤكد على أن المشار إليه في الآية (36) هو الخلق الأول "من تراب/طين" والخلق الثاني "أي عملية الإحياء للخلية/النطفة" لأن في الآية إشارة ضمنية إلى بدء الخلق وتتابع الخلق. قال البيضاوي في معنى "سبحان الذي خلق الأزواج كلها" أي الأنواع والأصناف، وقوله تعالى: "مما تنبت الأرض" أي من النبات والشجر وقوله تعالى: "من أنفسهم" أي الذكر والأنثى⁶⁸⁰. أما الرازي فقد كان أكثر وضوحاً حيث قال: ذكر الله تعالى أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات، فقوله تعالى: "مما تنبت الأرض" يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله "ومن أنفسهم" يدخل فيها الدلائل النفسية، وقوله تعالى: "ومما لا يعلمون" يدخل ما في أقطار السماوات وتخوم الأرضين، وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا في المثال⁶⁸¹. نقول: الآية تحتل معنيين، المعنى الأول: أن يكون قوله تعالى: "مما تنبت الأرض" وقوله "ومن أنفسهم" وقوله تعالى: "ومما لا يعلمون" كلها معطوفة على قوله تعالى: "خلق الأزواج كلها" فيصبح ذكرها على سبيل المثال لا الحصر، أي أن يكون هناك أزواج مخلوقة مما تنبت الأرض، وأزواج مخلوقة من الأنفس البشرية وهي الذكر والأنثى، وأزواج غير معلوم طبيعة خلقها

⁶⁸⁰ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص132.

⁶⁸¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر

بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)،

ص69.

للبشر. والمعنى الثاني الذي نرجحه وهو ينسجم مع محتوى مادة الكتاب: أن يكون خلق الأزواج كلها في قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها" يقصد به الأزواج الإنسية، أي الذكر والأنثى، على أن يكون القصد من قوله تعالى: "مما تنبت الأرض" إشارة إلى طبيعة المادة الأولى والأصل الذي خلق منه الإنسان وهي التراب أو الطين، فيصير خلق هذه الأزواج كان أصله من الطين والتراب وهو ذات الأصل الذي تنبت منه الأرض النبات، وعليه تكون "مما" في قوله تعالى: "مما تنبت الأرض" إشارة إلى نوع وأصل المادة التي خلق منها آدم وعيسى (عليهما السلام)، وقوله تعالى: "من أنفسهم" فيه إشارة إلى النوع الثاني والثالث من الخلق، فالثاني هو "عملية الإحياء للخلية/النفطة"، والثالث هو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، وهو يحدث لكل جنين في رحم أمه، وبالتالي ينطبق قوله تعالى: "من أنفسهم" على هذين النوعين من الخلق، أي يحدث الخلق من ذات نفس الرجل، أي من صلبه، ومن ذات نفس المرأة، أي في رحمها، وكأنه أراد القول سبحان الذي خلق الأزواج من تلقاء أنفسهم عبر النوعين التاليين من الخلق، وهما "عملية الإحياء للخلية/النفطة"، و "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة. أما قوله تعالى: "ومما لا يعلمون" فإنها إشارة إلى النوع الرابع والأخير من الخلق وهو "البعث/بعث الأرواح في الأجساد"، وهذا خلق مذكور في القرآن، ولكن لا يعلمه إلا الله من ناحية الكيفية والهيئة والمضمون والأداء. أما بالعودة إلى الآيات التي بعدها، أي بعد قوله تعالى: "وأية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (41) فقد جاء قوله تعالى: ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون (51) قالوا يا ويلنا من بعثنا من مردقنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (52)"، وهذه الآيات تشير إلى الخلق الآخر، الرابع والأخير في سلسلة الخلق التي تناولناها في الكتاب، وهو خلق "البعث/بعث الأرواح في الأجساد"، وهذا النوع من الخلق لا يعلم البشر عنه شيئاً بصرياً إلا ما ورد ذكره توصيفاً في

القرآن الكريم، وهو خلق إلهي بامتياز دال على القدرة الإلهية في إبداعه الأخروي وحياة ما بعد الموت. ومن آيات الله التي تعددت في وصف علاقة الطبيعة بالإنسان وبالتحديد علاقة الأرض ومادته التراب أو الطين باستمرارية الحياة والبقاء على الأرض، قوله تعالى: "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون" {يس: 33} إن إعطاء وصف الإحياء لمادة الأرض فيه إشارة دقيقة إلى الإمكانية الحيوية والإحيائية في المادة التي خلق منها الإنسان وهي التراب/الطين. نقول: إن الآية (41) محل الشرح تشير إلى نجات الذرية من خلال حملها في الفلك المشحون، والنجاة دالة على استمرارية خلق الله، واستمرارية الاصطفاء للذرية المقصودة التي أراد الله أن يكتب لها النجاة كي تعمر في الأرض وتصبح خليفة الله في أرضه، وهذه الذرية يمثلها آدم باعتباره أصل الخلق، ومن ثم يمثلها عباد الله بحسب اصطفائهم واستخلافهم في الأرض. وقد ورد ذكر كلمة "آية" عند الإشارة إلى خلق عيسى (عليه السلام) من رحم أمه مريم (عليها السلام) من غير أب، بحيث أصبح آية على طريقة الخلق كما ورد في سورة مريم لقوله تعالى: "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً (20) قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً (21)". كما سنقوم بشرحها في الصفحات التالية. {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص502}.

الآية الثالثة: قال تعالى: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين" {الطور: 21}.

إن الآية لا تخص الذرية كلها، بل نوع مخصوص موصوف وينطبق عليهم ثلاثة شروط كما جاء في الآية وهي: **الشرط الأول:** أن يكون الذي ستلحق به ذريته مؤمناً هو وذريته، أي يتساوى أو يتوازن الإيمان عنده وعند ذريته، لقوله تعالى: "الذين آمنوا". قيل: المراد بـ

"الذين آمنوا" المهاجرون والأنصار فقط، وظاهر الآية العموم، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صح ذلك، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب⁶⁸². وقيل إن قوله تعالى: "الذين آمنوا" معطوفة على قوله تعالى: "إن للمتقين" في الآية (17) التي سبقتها⁶⁸³، وذلك في إشارة إلى علو مرتبة الإيمان وارتباطها بالتقوي، وقوله تعالى: "واتبعتم ذريتهم بإيمان"، أي أن إيمان الذرية يصح أن يكون قدوة أو إتباعاً وتقليداً أو غير ذلك. قال الشوكاني: إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه، وإن كانوا مؤمنين، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار⁶⁸⁴. وقال الرازي: ما الفائدة في تكبير الإيمان في قوله تعالى: "واتبعهم ذرياتهم بإيمان؟" نقول: هو إما التخصيص أو التنكير كأنه يقول: أتبعناهم ذرياتهم بإيمان مخلص كامل أو يقول أتبعناهم بإيمان ما، أي شيء منه. ويحتمل أن يكون المراد غير هذا وهو أن يكون التثنية للعرض عن المضاف إليه، وبيانه هو أن التقدير أتبعناهم ذرياتهم بإيمان أي بسبب إيمانهم لأن الاتباع ليس بإيمان كيف كان وممن كان⁶⁸⁵. نلاحظ أنه وصف في الآية الاتباع للذرية في الدنيا بقوله تعالى: "واتبعتمهم" بينما وصف الالتحاق بالذرية في الآخرة بقوله تعالى: "ألحقنا بهم"⁶⁸⁶. يدل ذلك على أن الاتباع أمر دنيوي يتعلق بالفعل

⁶⁸² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1413.
⁶⁸³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص251.

⁶⁸⁴ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1413.
⁶⁸⁵ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص252.

⁶⁸⁶ المصدر السابق، ص251.

البشري وهو في حال الآية مرهون بالذرية، أي أن الأبناء يلتحقون بالأباء في الاقتداء بإيمانهم عندما يكون الآباء قدوة للأبناء، أو الكبار قدوة للصغار فتتبعهم ذريتهم بالتقليد أو الريادة. أما فعل الإلحاق في قوله "ألحقنا بهم" فهو فعل إلهي بامتياز وهو يتعلق بالقرار الأخروي وقت الحساب، أي أن الله يلحق الأبناء الذين آمنوا مثل آبائهم يلحقهم بأبائهم يوم القيامة جزاء لفعل الإيمان. قال الخوارزمي في تفسير قوله تعالى: "ألحقنا بهم ذرياتهم"، أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلاً عليهم وعلى آبائهم كي تتم سرورهم ونكمل نعيمهم⁶⁸⁷. وإن الضمير في قوله تعالى: "بهم" راجع إلى "الذين آمنوا" المذكورة في أول الآية، أي ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم التي اتبعتهم بإيمان، أي أبناءهم مباشرة، وإذا قلنا إن قوله تعالى: "بهم" راجع إلى ذريتهم الأولى في الآية، فيصير المعنى: ألحقنا بذريتهم -أي الأبناء- المتبعة لأبائهم بإيمان، ذريتهم -أي أبناء الأبناء-. قيل: إن الذرية تطلق على الكبار والصغار، كما هو المعنى اللغوي، فيلحق بالأباء المؤمنين صغار ذرياتهم وكبارهم، ويكون قوله تعالى: "بايمان" في محل نصب على الحال، أي: بإيمان من الآباء⁶⁸⁸. وقال البيضاوي: قرأ ابن عامر ويعقوب ذرياتهم بالجمع وضم التاء للمبالغة في كثرتهم والتصريح، فإن الذرية تقع على الواحد والكثير، وقرأ أبو عمرو وأتبعناهم ذرياتهم أي جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقيل بإيمان حال من الضمير أو الذرية أو منهما⁶⁸⁹. على حين قال الرازي: قرئ (ذرياتهم) في الموضعين بالجمع، وذريتهم فيهما بالمفرد، وقرئ في الأول (ذرياتهم) وفي الثانية

⁶⁸⁷ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون

الأقوال في وجوه التأويل، ج27، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1056.

⁶⁸⁸ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1413.

⁶⁸⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج27، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص330.

(ذريتهم) فهل للثالث وجه؟ نقول نعم معنوي لا لفظي، وذلك لأن المؤمن تتبعه ذرياته في الإيمان، وإن لم توجد على معنى أنه لو وجد له ألف لكانوا أتباعه في الإيمان حكماً، وأما الإلحاق فلا يكون حكماً إنما هو حقيقة وذلك في الموجود، فالتابع أكثر من الملحق، فجمع في الأول وأفرد في الثاني⁶⁹⁰.

الشرط الثاني: ألا ينتقص من أعمالهم شيء، وذلك في قوله تعالى: "وما ألتناهم من عملهم شيء". قيل "وما ألتناهم": وما نقصناهم، يعني وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء. وقيل: معناه وما نقصناهم من ثوابهم شيئاً نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم، وإنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل⁶⁹¹. نقول: إن الإلحاق لا يكون على سبيل التفضل كما قال الخوارزمي، ولكن على سبيل الرحمة، ورحمة الله وسعت كل شيء، لكن ذلك لا يمنع من تأكيد القول إن إلحاق الأبناء أو الذرية بأبائهم الموصوفين بالإيمان مبنيٌّ على إيمان الأبناء أيضاً، فيكون الإلحاق جزاءً بما آمن به الأبناء، ثم رحمة من الله في حال كان هناك نقص في إيمان الأبناء، لأن الإيمان يزيد وينقص، وقد لا يتساوى الإيمان عند الآباء والأبناء، وقد يكون الإيمان تقليداً أو على سبيل الاتباع، فذلك لا نستخدم تعبير الأفضلية، بل الرحمة. كما أن قوله تعالى: "وما ألتناهم من عملهم شيء" فيه إشارة ضمنية دقيقة إلى صفات العدل الإلهي، أي أن الله سيجعل لكل عمل لهم في الدنيا خير لهم في الآخرة، وهذا تمثيل لقوله تعالى: "إنما يوفى الصابرون أجرهم" {الزمر: 10} أي أن المكافأة على قدر العمل وأكثر.

الشرط الثالث: ترسيخ معنى المسؤولية الشخصية عن الأعمال في الدنيا من دون ربط تلك المسؤولية بأحد سواء كان قريباً أو بعيداً وذلك

⁶⁹⁰ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص252.

⁶⁹¹ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج27، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1056.

في قوله تعالى في آخر الآية: "كل امرئ بما كسب رهين" يقول: كل نفس بما كسبت وعملت من خير وشر مرتبهة لا يؤاخذ أحد منهم بذنب غيره، وإنما يعاقب بذنب نفسه⁶⁹². قال ابن كثير: إنه تعالى لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد⁶⁹³. نقول: تعقيباً على قول ابن كثير إن مقام الفضل في رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء مشروط ولا يحق أن نقول إنه من غير عمل، ولذا ذكرنا هذه الشروط الثلاثة الوارد ذكرها في الآية. إن الشروط الثلاثة تتوافق مع المنهج القرآني عموماً، وبالتحديد الآيات التي تؤكد على نوعية الحساب يوم القيامة سواء كان فردياً أو جماعياً، فالجماعي يأتي بصيغة الشهادة المتعلقة بالمسلمين والأمة الإسلامية في علاقتها مع غير المسلمين من الأمم والجماعات الأخرى والأفراد في قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" {البقرة: 143}، والحساب الفردي جاء بصيغة شخصية في قوله تعالى: "كلهم آتيهم يوم القيامة فرداً" {مريم: 95}. وقوله تعالى: "من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً" {الإسراء: 15}. عموماً أورد القرطبي في تفسيره أحاديث عن موضوع إلحاق الذرية بأبائهم يوم القيامة، ولكن مجملها أحاديث ضعيفة، وهي لا تنسجم مع الآيات ذات الصلة في النص القرآني، من هذه الأحاديث. قيل عن ابن عباس عدة روايات: منها أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم عينه، وتلا هذه الآية". وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفع

⁶⁹² الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع

البيان عن تأويل القرآن، ج7، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص132.

⁶⁹³ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص434.

درجة؛ رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة؛ رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في اسم الذرية. وعن ابن عباس أيضاً يرفعه إلى النبي قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال لهم: إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: يا رب، إنني عملت لي ولهم، فيؤمر بالحاقهم به"⁶⁹⁴. قد تكون هذه الأحاديث داخلة في معنى باب التسويات المتعلقة بوقت الحساب، بمعنى أن إلحاق الأبناء بالآباء والعكس قائم على النتيجة النهائية لمسألة الثواب والعقاب، ولكن لا يعني ذلك أن يكون الابن كافراً فيلحق بأبيه لمجرد أنه مسلم أو مؤمن، ولا يعني إلحاق الأب بابنه لأنه مسلم أو مؤمن، وهكذا. فلا يلحق النبي إبراهيم ضرراً في الآخرة لكفر أبيه، ولا يلحق نبي الله نوح ضرراً لعدم اتباع ابنه أو سماعه له. نقول: إن صفات الاقتداء أو الاتباع أو الالتحاق إما أن تكون مسألة تتعلق بالتدريس أو التعليم وينتج عنها فناعة، وإما أن تتعلق بالتقليد فينتج عنها التزام. إن الإيمان بالله ينطوي على الاثنين، الفناعة أولاً والالتزام ثانياً، لكن الفناعة أولى من الالتزام. إن الالتزام في كثير من الأحيان يكون محفوفاً بالمخاطر؛ لأنه يحوّل الدين إلى ظاهرة ثقافية ويقوم على التمسك بها كظاهرة. أما الفناعة فهي نابعة من التمهيص والتدقيق في النص وممارسته في الواقع.

سادساً: كلمة (ذُرَيْتَهُمَا)

الآية الأولى: قال تعالى: "وباركننا عليه وعلى إسحاق ومن ذُرَيْتَهُمَا محسن وظالم لنفسه مبين" {الصفافات: 113}.

⁶⁹⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأبي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص524، 525.

إن قوله تعالى: "ومن ذريتهما" فيها إشارة إلى ذرية إبراهيم، أي أبنائه إسماعيل وإسحاق، وكذلك فيها إشارة إلى ذرية إسحاق وهم يعقوب ويعصو. قال البيضاوي: "وباركنا عليه" أي على إبراهيم في أولاده. "وقوله تعالى: "وعلى إسحاق" بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب، أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا. "ومن ذريتهما محسن" في عمله أو إلى نفسه بالإيمان والطاعة. وقوله تعالى: "وظالم لنفسه" بالكفر والمعاصي⁶⁹⁵. وقال الشوكاني: إن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق، فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال البين، والعرب، وإن كانوا من ولد إسماعيل، فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام⁶⁹⁶.

الآية الثانية: قال تعالى: "ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون" {الحديد: 26}.

نلاحظ في الآية أنه قدّم نوحاً على إبراهيم تماشياً مع التسلسل التاريخي المتعلق بالنسل لأن نوحاً أقدم من إبراهيم وهذا ما تقدم ذكره وشرحه في سورة آل عمران لقوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (33) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (34)" {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص353}. وكذلك قوله في سورة مريم: "أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً (58)". وكذلك في قوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل" {الأنعام: 84}، وأشار

⁶⁹⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص157.

⁶⁹⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1247.

إلى ذريته في الآية وهي "داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون". كما أن الله استخدم كلمة "أرسلنا" مع ذكره نوح وإبراهيم، واستخدم كلمة "جعلنا" مع ذكره ذريتهما، أي ذرية نوح وإبراهيم مع التمييز بينهم في قوله تعالى: "فمنهم مهتد ومنهم فاسقون". نقول: إن الإرسال يكون بالتوكيل لحمل الأمانة أو التوكيل بالتبليغ، وقد كان ذلك لنوح وإبراهيم بالنظر إلى خصوصيتهما وخصوصية الظروف التي عاشها قومهما عندما حملوا رسالة النبوة، لا سيما أن إبراهيم بعث في قوم يعبدون الأصنام ومن بينهم أبيه، إذ ورد قوله تعالى: "إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يُعني عنك شيئاً" {مريم: 42}. وقد ذكر الله صفات إبراهيم من قبل أن يكون نبياً وقبل أن يبدأ رسالة التبليغ، وذلك في قوله تعالى: "ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين" {الأنبياء: 51} وقوله تعالى: "واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً" {مريم: 51}. وقد سبق أن شرحت في كتابي "الجلي النقي في معرفة الوحي" لماذا سبقت صفة الصدق النبوة في كل الآيات التي ورد فيها صدق الأنبياء "إبراهيم ويوسف وإسماعيل وإدريس وعيسى" وذلك في دليل على أهمية صفة الصدق وفضيلته التي جعلت اصطفاؤهم كأنبياء ممكناً. {انظر الشرح في الفصل الخامس من كتابي "الجلي النقي في معرفة الوحي"، ص285}. أما الجعل فمعناه "الخلق" ما يعني أن مجمل الأنبياء الذين جاءوا بعد نوح وإبراهيم، ومن ذريتهم، كانوا جميعاً مخلوقين مجبولين على النبوة، ولأجل رسالة التبليغ. ولأن الجعل يعني الخلق، فإن الآية لم تستثني أي نوع من الخلق، سواء الخلق الأول "من تراب/طين"، أو الخلق الثاني، أي "عملية الإحياء للخلية/المنطفة"، أو الخلق الثالث وهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة. وهذا يعني بالضرورة أن الآية لم تستثني عيسى (عليه السلام) الذي اجتمع فيه كل أنواع الخلق، وهو من الذرية التي جعلت فيها النبوة والكتاب، لأنه من الذرية خلقت من تراب مثل آدم (عليه السلام)، ونسلت من نوح وبعده إبراهيم

وإسحاق ويعقوب ويوسف وعمران وموسى وهارون وداوود وسليمان وغيرهم، وصولاً إلى عيسى (عليه السلام). قال ابن كثير: "كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر بعده بمحمد"⁶⁹⁷. وقال القرطبي: إنه فصل ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب، وأخبر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم وجعل النبوة في نسلهما، أي: جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء، وبعضهم أمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزيور والفرقان⁶⁹⁸.

سابعاً: كلمة (ذريتي)

الآية الأولى: قال تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين" {البقرة: 124}.

قيل: هذا منه على جهة الاستفهام عنهم، أي: ومن ذريتي يا رب ماذا يكون؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عاصياً وظالماً لا يستحق الإمامة في قوله "ولا ينال عهدي الظالمين"⁶⁹⁹. قال الرازي في قوله "ومن ذريتي" ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: الذرية: الأولاد وأولاد الأولاد للرجل وهو من ذرأ الله الخلق، {.....} وفيه وجه آخر وهو أن تكون منسوبة إلى الذر.
المسألة الثانية: قوله "ومن ذريتي" عطف على الكاف في قوله تعالى "إني جاعلك" كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي. كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً؟

⁶⁹⁷ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق

سامي السلامة، ج 8، ط 2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص 28.

⁶⁹⁸ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه

من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج 20، ط 1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة

والنشر، 2006)، ص 270.

⁶⁹⁹ المصدر السابق، ص 367.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: إنه تعالى أعلمه أن في ذريته أنبياء فأراد أن يعلم هل يكون ذلك في كلهم أو في بعضهم وهل يصلح جميعهم لهذا الأمر؟ فأعلمه الله تعالى أن فيهم ظالماً لا يصلح لذلك وقال آخرون: إنه (عليه السلام) ذكر ذلك على سبيل الاستعلام ولما لم يعلم على وجه المسألة، فأجابه الله تعالى صريحاً بأن النبوة لا تنال الظالمين منهم، فإن قيل: هل كان إبراهيم (عليه السلام) مأذوناً في قوله "ومن ذريتي" أو لم يكن مأذوناً فيه؟ فإن أذن الله تعالى في هذا الدعاء فلم رد الله دعاءه؟ وإن لم يأذن له فيه كان ذلك ذنباً من إبراهيم، قلنا: قوله "ومن ذريتي" يدل على أنه (عليه السلام) طلب أن يكون بعض ذريته أئمة للناس، وقد حقق الله تعالى إجابة دعائه في المؤمنين من ذريته كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وجعل آخرهم محمداً من ذريته الذي هو أفضل الأنبياء والأئمة عليهم السلام⁷⁰⁰.

نقول: إن إبراهيم أراد من خلال سؤاله "ومن ذريتي؟" الحماية لهذه الذرية وضمان مستقبل الاستخلاف لهم في الأرض من بعده دون الشرك بالله كما قال: "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" {إبراهيم: 35}. لكن موضوع هذه الآية يركز بشكل أساسي على "الإمامة" "والعهد" المذكورين في الآية، وكيف أن الظالمين هم الاستثناء من موضوع الإمامة والعهد الإلهي. لقد شرح المفسرون موضوع الإمامة والعهد شرحاً مستفيضاً، وأبرزهم الرازي، وكذلك القرطبي الذي قال إنه اختلف في المراد بالعهد، فروى أبو صالح عن ابن عباس أنه النبوة، وقاله السدي. وقال مجاهد: الإمامة. وقال قتادة: الإيمان. وقال

⁷⁰⁰ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص44.

عطاء: الرحمة. وقال الضحاك: دين الله تعالى. وقيل: عهده أمره⁷⁰¹.
 نقول: إن الآية جاءت على ذكر كلمتين هامتين وهما "جاعلك" مع إبراهيم، و "عهدي" مع الظالمين. وبالتالي فإن الكلمة هنا توحى بأن الله شرف إبراهيم في عملية خلقه فكان من الذين اصطفاهم لمهمة النبوة، أي أن هناك علاقة بين الخلق الإلهي والاصطفاء لمهمة النبوة، وهذا ما يؤكد قصة أهم نبيين ارتبط اسماهما بالنبوة قبل وأثناء لحظة ولادتهم، بل إن طريقة ولادتهم كانت تدل على اختيارهم أو اصطفاءهم لمهمة النبوة، وهما عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا (عليهما السلام). طبعاً كان هناك أنبياء تم اصفؤهم كأنبيا في صغرهم مثل يوسف (عليه السلام)، لكننا نتحدث عن عيسى ويحيى (عليهما السلام) لأهمية طريقة ولادتهم، وعلاقة طريقة خلقهم باصطفائهم كأنبيا، ومما ذكر في القرآن عن نبوة يحيى وقت ولادته/خلقه على سبيل المثال:

- قوله تعالى: "يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً" {مريم: 7}.
- وقوله تعالى: "فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يُبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصواً ونبياً من الصالحين" {آل عمران: 39}.
- وقوله تعالى: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً" {مريم: 12}.

لقد حدث اصطفاء لخلق النبي إبراهيم، رغم أنه لم يولد بنفس طريقة الخلق التي ولد بها عيسى ويحيى، فما الفرق؟
 نقول: إن اختيار كلمة "جاعلك" بمعنى خالقك مع النبي إبراهيم فيها تشريف لعملية خلقه، وهي من النوع الثاني من الخلق، أي "عملية

⁷⁰¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص369.

الإحياء للخلية/النطفة"، متبوعاً بالخلق الثالث وهو "الإنشاء/التصوير" في رحم أمه. أما بالنسبة لكلمة "عهدي" فإن الله تعالى استخدمها مع الظالمين في وصف حالهم، وحال منع العهد عنهم لعدم التزامهم بميثاق العدل، ولكنه لم يقل لإبراهيم: "لا ينال عهدي ذريتك" ولم يقل: "لا ينال عهدي الظالمين من ذريتك" بل قال: "لا ينال عهدي الظالمين" فجعل الظلم عاملاً لنسل إبراهيم كافة إلى قيام الساعة، وليس مخصوصاً بذرية إبراهيم القريبة، أي أبنائه وأبناء أبنائه، ما يعني أن هناك علاقة حيوية بين الخلق والاصطفاء للنبوة، فطبائع الخلق ليست واحدة، والأنبياء ليسوا كبقية البشر، وإن الله إذا أراد بعبد خيراً سهل له الطريق، فكان الخلق الإلهي -وخاصة خلق الأنبياء- مجبولاً على العدل الذي هو في فطرة الدين وفي أساس الخلق، وهو أول خواص النبوة، وإن ذكر الظالمين في هذا الموضع هو تعبير عن إنكارهم للفطرة ولحقيقة الدين ولأول خواص النبوة، وبالتالي إنكارهم طبيعة خلقهم التي جبلهم الله عليها وأصلها التراب، وكأن الله يريد الجزم بالقول، إن الظلم يتعارض مع طبيعة الخلق والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وخير تعبير عن علاقة الخلق بالفطرة والدين والعدل والذرية قوله تعالى: "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" {الروم: 30}. جاء قوله "فأقم" للإشارة إلى ضرورة اتباع الشرع والاستقامة فيه وإقامة الدين عندما يتبين الأمر وتظهر الوحداية دون اهتداء المشرك إلى شيء، وقوله تعالى: "خلق الله" تعبيراً عن الدين. السؤال هنا: لماذا قال عن الدين إنه "خلق الله"؟

دلالة وصف الدين بأنه "خلق الله"

نقول: إن الدين هو اعتقاد أولاً ثم إنه نظام شرعي أو تشريعي أو أخلاقي ثانياً. بالنسبة للإسلام فإن الشرعي فيه هو نظام تشريعي، والأخلاقي فيه هو نظام تربوي، والأهم من ذلك أن الإسلام فيه نظام طبيعي مادي خلقي وإحيائي وروحي، وهذه المسألة لم يطرق بابها بتدقيق صريح في التاريخ الإسلامي، أي ارتباط الخلق (الكاننات الحية) بالمادة، وارتباط كلاهما بالروح، والروح من أمر الله. بالتالي يصبح معنى كلمة "أقم" بلغة الأمر، أي أقم روحك بأمر الله على الدين القيم من خلال إِبصار وجهك لشرائع (تشريعات) وأخلاقيات (تربويات) ومادية وطبيعية (الخلق والإحياء) في هذا الدين الإسلامي. بالتالي فإن هناك ارتباط بين الدين والفطرة وخلق الله، وذلك من خصوصية علاقة الاصطفاء بالأنبياء، وهذا جزء مهم من تنزيه الأنبياء والرسول عن الخطأ، حيث كانت عصمتهم منذ اللحظة الأولى لخلقهم، وليس فقط منذ أن أمرهم الله بتلقي وأداء واجب رسالة النبوة من السماء، ولذلك فإن هذه الآية تدل على عصمة الأنبياء من الزلل، بل هي تؤكد على إقامتهم للعدل الذي هو نقيض الظلم. وإذا قيل: "إن يونس (عليه السلام) قال: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" {الأنبياء: 87}. وقال آدم: "ربنا ظلمنا أنفسنا" {الأعراف: 23} رد عليه الرازي: إن المذكور في الآية هو الظلم المطلق، وهذا غير موجود في آدم ويونس عليهما السلام⁷⁰². وقال الرازي: الآية دالة على أنه تعالى سيعطي إبراهيم بعض ولده ما سأل لهم، ولولا ذلك لكان الجواب: لا، أو يقول: لا ينال عهدي ذريتك يا إبراهيم، فإن قيل: أفما كان إبراهيم (عليه السلام) عالماً بأن النبوة لا تليق بالظالمين، قلنا: بلى، ولكن لم يعلم حال ذريته، فبين الله تعالى أن فيهم من هذا

⁷⁰² الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص46.

حاله وأن النبوة إنما تحصل لمن ليس بظالم⁷⁰³. وقال سعيد بن جبير: الظالم هنا المشرك. وقال ابن خُويزمندان: وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ولا خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً، ولا إمام صلاة، ولا يُقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تُقبل شهادته في الأحكام⁷⁰⁴.

الآية الثانية: قال تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" {إبراهيم: 37}.
قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي" أي بعض ذريتي أو ذرية من ذريتي، فحذف المفعول وهم إسماعيل ومن وُلد منه فإن إسكانه متضمن لإسكانهم⁷⁰⁵. وقال الفراء: من للتبعيض، أي: بعض ذريتي. وقال ابن الأنباري: إنها زائدة، أي: أسكنت ذريتي، والأول أولى؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعض ولده⁷⁰⁶. وقال القرطبي: أسكنت بعض ذريتي، يعني: إسماعيل وأمه؛ لأن إسحاق كان بالشام. وقيل: هي صلة، أي: أسكنت ذريتي⁷⁰⁷. وأشار الرازي "أن اللام في قوله "ربنا ليقيموا الصلاة" متعلقة بأسكنت، أي أسكنت قوماً من ذريتي، وهم إسماعيل وأولاده بهذا

⁷⁰³ المصدر السابق، ص45.

⁷⁰⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص369، 370.

⁷⁰⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص226.

⁷⁰⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص750.

⁷⁰⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص150.

الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة" ⁷⁰⁸. ارتبطت الذرية في الآية بأمرين متتابعين إلى جانب الإحياء الإنسي من ذرية إبراهيم، وهما أولاً: العيش، وثانياً: العبادة. أما العيش فجاء في صيغة طلب النجدة في شرح إبراهيم لربه: "بواد غير ذي زرع" والعبادة جاءت بصيغة الأمر لإقامة الصلاة في قول إبراهيم: "ليقيموا الصلاة"، ثم بعد ذلك أفاد بأهمية الشكر على توفير العيش في قوله: "وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون". نقول: والشكر يكون من خلال إقامة الصلاة. ونشير بأن "الواد غير ذي زرع" هو موضع الزرع وهو الأرض، كأنه قيل، إن الأصل أن تكون الأرض في خدمة الإنسان وأن يسخرها الله لذرية إبراهيم، وهذا ما فعله الله تأكيداً على أهمية تسخير الأرض التي هي موضع الزرع والنبات للإنسان، وثانياً: بالصلاة، وإقامتها في الأرض التي هي موضع الخضوع لله في السجود. نقول: إن قوله تعالى: "أسكنت من ذريتي" هي إشارة ظاهرية إلى بعض الذرية، أي إسماعيل وأمه، لكنها إشارة ضمنية حياتية أنثروبولوجية إلى كل ما سيأتي لاحقاً من ذرية إسماعيل، أي أن دعوة إبراهيم عبر تكراره كلمة "ربنا" مرتين في الآية بصيغة الدعاء، هي في محل طلب الحماية والحفاظ على نسله ونسل ابنه إسماعيل، وهذه دعوة تخص إحياء الحياة للإنسان عامة، وإحياء الجنس البشري من ذرية إبراهيم خاصة، وهذا الإحياء الإنسي مقترن بالإحياء الطبيعي من خلال توفير سبل العيش للإنسان من أجل استمرارية بقاءه خليفة في الأرض.

الآية الثالثة: قال تعالى: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" {إبراهيم: 40}.

⁷⁰⁸ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص139.

قال البيضاوي: "رب اجعلني مقيم الصلاة" أي مُعَدِّلاً لها مواظباً عليها. "ومن ذريتي" عطف على المنصوب في اجعلني⁷⁰⁹. وقال القرطبي: "رب اجعلني مقيم الصلاة" أي: من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. "ومن ذريتي" أي: واجعل من ذريتي من يُقيمها⁷¹⁰. وكذلك قال الرازي⁷¹¹.

نقول: إن هذه الآية جاءت بعد آيتين من الآية السابقة رقم (37) وقد ورد فيها تأكيد على الدعاء الذي سبق أن دعاه إبراهيم مرتين في قوله "ربنا" في الآية السابقة (37) من نفس السورة. وهو في هذه الآية كرر الدعاء أيضاً مرتين، فقال إبراهيم في الأولى "رب اجعلني مقيم الصلاة" متحدثاً عن نفسه، وقال في الثانية "ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء"، وهو دعاء على لسان الذرية، أي ربنا تقبل إقامتهم للصلاة.

الآية الرابعة: قال تعالى: "ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين" {الأحقاف: 15}.

قال الشوكاني: أي اجعل ذريتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه⁷¹². قيل إن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى

⁷⁰⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص228.

⁷¹⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص156.

⁷¹¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتبه بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص142.

⁷¹² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج26، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1364.

عنه؛ لأنه لم يكن أحد أسلم هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه
713.

وقال ابن عباس: فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده. وقال سهل بن عبد الله: المعنى اجعلهم لي خَلْفَ صِدْق، ولك عبيد حق. وقال أبو عثمان: اجعلهم أبراراً لي مطيعين لك. وقال ابن عطاء: وفقهم لصالح أعمال ترضى بها عنهم. وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً⁷¹⁴. نقول: إن الآية ابتدأت بذكر الإنسان في قوله تعالى: "ووصينا الإنسان" وهي هنا عامة لكل بني آدم (عليه السلام)، وخاصة لنسل بني آدم (عليه السلام)، وحثتنا في ذلك أن الآية ترسخ لنوعين من الخلق، أي "عملية الإحياء للخلية/النفطة"، بالإضافة إلى النوع الثالث من الخلق، وهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة،

وقد عبرت الآية عن هذين النوعين من الخلق في قوله تعالى: "حملته أمه كُرْهاً" والحمل هنا ينتج عن عملية التلقيح للبويضة في رحم الأم، يليه إنشاء وتصوير شكل الجنين، ثم بعد ذلك، أشارت الآية إلى مرحلة النمو خارج الرحم، أي بعد الولادة في قوله تعالى "ووضعت كُرْهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً"، ثم تلاه مرحلة الشدة والبلوغ في قوله تعالى "إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة"، وبعد ذلك حصل دعاء الشكر من قبل الإنسان على كل ما تقدم منذ لحظة خلقه، وذلك في قوله تعالى: "قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين".

713 ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج26، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص278.

714 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص198.

نقول: إن الدعاء بالتوبة والإصلاح هو خاص بالإنسان، وأما الدعاء بإصلاح الذرية فهو يشتمل على طلب الإصلاح منذ لحظة الخلق الثاني والثالث، أي "عملية الإحياء للخلية/المنطفة"، وكذلك "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة. أي أن طلب الإصلاح للذرية يشتمل على معالجة جذرية أنثروبولوجية، وهي دعوة إنسية تهدف إلى ضرورة الحفاظ على النسل الإنساني.

ثامناً: كلمة (ذرياتنا)

الآية الأولى: قال تعالى: "والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً" {الفرقان: 74}.

نقول في الآية ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: في الآية دعاء لقوله تعالى "ربنا هب" وهو دعاء مخصوص للأزواج والذرية، وهذا الدعاء بذات الصيغة، أي استعمال كلمة "ربنا" أو "رب" تكرر في عدة آيات سابقة في سياق الحديث عن الذرية وذلك في قوله تعالى: "قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك" {الأحقاف: 15}. وقوله تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة" {إبراهيم: 37}. وقوله تعالى: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" {إبراهيم: 40}. نقول: إن وجود الذرية في الأرض من خلال استمرار نسل آدم (عليه السلام)، أي بقاء الجنس البشري أو وجود الأزواج والذرية بحسب وصف الآية مرتبط أيضاً باستمرارية العيش من خلال توفير نعمة الله، أي الزرع والنبات، أو بمعنى أدق الأمن الغذائي الذي أنعمه الله على عباده، ومرتبطة أيضاً بضرورة إقامة الصلاة أو العبادة عموماً، وبالإمامة. قال ابن كثير في تفسيره: الذين يسألون الله أن يُخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده

لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعمل بالطاعة، فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة. وقال الحسن البصري -وسئِل عن هذه الآية - فقال: أن يُرى الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله. لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً، أو ولد ولد، أو أخاً، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل. وقال ابن جريج: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم للإسلام⁷¹⁵.

المسألة الثانية: إن قوله تعالى: "هب لنا من أزواجنا وذرياتنا" تدل على أن الأزواج غير الذرية، علماً بأن كل زوج أو زوجين هما في الأصل ذرية. نقول: إن هذه الآية تؤكد على أن الذرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنسل وعملية الإنجاب. إن ذكر كلمة "أزواجنا" في الآية تشير إلى النوع الثاني والثالث من الخلق، وهما "عملية الإحياء للخلية/النفطة"، وكذلك "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، وهذا ما قصده في قوله تعالى: "هب لنا من أزواجنا". أما قوله "وذرياتنا" فهي إضافة إلى أزواجنا في إشارة إلى عملية تنالي أو تتابع النسل الناتج عن النكاح الذي هو سنة في الإسلام. كما أن هناك اتساق بين الهبة والجعل في قوله تعالى: "هب لنا" وقوله تعالى: "واجعلنا" فالهبة في هذا المعنى الخاص بالذرية والأزواج هي الإكرام بالإنجاب، وهي من المنح والعطاء والإغاثة. وإن كلمة "هب" بسكون الباء، وكلمة "هبب" بتشديد الباء هما من نفس الجذر اللغوي، وتستخدم الأخيرة، أي "هبب" بتشديد الباء في مسائل تخص الحركة والطبيعة. يقال: هبَّت الرياح تهب هبوباً⁷¹⁶. وإن الحركة والطبيعة هما في صلب عملية الإنجاب؛ لأنها

715 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص132.
716 الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج4، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص284.

تقوم على حركة الجسد التفاعلية، وأما إنتاج النسل فهو يتشكل من حصيلة النظام الغذائي الذي يتبعه الإنسان في حياته.

أما الجعل فالمقصود به الخلق. السؤال هنا، لماذا سبقت الهبة الجعل، أي لما قال "هب" أولاً ثم "واجعلنا" ثانياً، ولماذا جاءت الهبة مع الأزواج والذرية؟ بينما جاء الجعل/الخلق مع الإمامة؟

إن الهبة التي يمنحها الله للإنسان قد تكون ذكراً أو أنثى أو لاشيء، أي عقيماً كما قال في القرآن لقوله تعالى: "ويجعل من يشاء عقيماً" {الشورى: 50}، لكن الجعل جاء مع الإمامة باعتباره مذكراً، فجعلت صفة الخلق في موضوع الإمامة للذكورة ما دون الأنوثة. أما قوله تعالى: "واجعلنا" بصيغة الجمع فإنها خطاب يعود للمؤمنين جميعاً، وكل من لهم صفات أعلى من صفات المتقين أو تلك الصفات التي تؤهلهم للإمامة، فتصبح الإمامة للعموم، وإذا كانت للخصوص فهي لخصوص الصفات الأخلاقية، وهذا ما عبر عنه القرآن في بعض المواضع التي جاء فيها ذكر الأئمة بصيغة الجمع، وذلك في قوله تعالى: "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين" {القصص: 5}.

المسألة الثالثة: إن جعل الإمامة أو "خلق صفة الإمامة" في البشر في قوله تعالى: "واجعلنا للمتقين إماماً" لا يكون للأزواج والذرية المذكورين في الآية الذين يُرجى أن تنتقل لهم الإمامة، وإنما يعود إلى لسان القائل "واجعلنا" إلى ذكره تعالى: "والذين يقولون" وهؤلاء هم "عباد الرحمن" وهم المؤمنون الذين تم ذكرهم في الآية (63) من نفس سورة الفرقان. نلاحظ هنا أن "عباد الرحمن" لهم صفات تكررت في الآيات من {63 – 74} وتكررت الإشارة إليهم ست مرات في هذه الآيات بقوله تعالى: "والذين". ومن صفاتهم مثلاً أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً، وأنهم يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، وأنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وأنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر، وأنهم

لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأنهم لا يزنون، وأنهم لا يشهدون الزور، وأنهم إذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً، وأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُماً وعُمياناً. هذه الصفات تؤهل عباد الرحمن المؤمنين للإمامة إذا اتصفوا بها، وأن يكون الإنسان إماماً على المتقين في قوله تعالى: "واجعلنا للمتقين إماماً"، فهذه درجة عليا من الإمامة، ما يعني أن واحدة من صفات الإمام هنا أن يكون أكثر تقوى من المتقين كي ينال صفة الإمامة على المتقين. يتسق ذلك مع معنى قوله "واجعلنا" أي "واخلقنا" باعتبار أن الجعل هو الخلق، فإذا كان الأمر كذلك، أي إذا اجتمعت الصفات الأخلاقية العليا للإمامة مع وجوب تحققها في خلق الله، فإن ذلك لا يكون أو يتحقق إلا للأنبياء أو الأتقياء الصالحين الذين يتصفون بصفات الأنبياء، ولكن في حال الآية فإنها لـ "عباد الرحمن" ولسانهم في الآية "والذين يقولون" كما ذكرنا. كما أن هذه الآية تتسق مع مضمون قوله تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين" {البقرة: 124} وقد سبق شرح هذه الآية، وبالتحديد المقصود بالجعل باعتبار أن الجعل هو الخلق في قوله تعالى: "جاعلك للناس إماماً" والمقصود بالعهد في قوله تعالى: "لا ينال عهدي"، أي علاقة الإمامة والعهد بالذرية. إن الآيتين {البقرة: 124} و {الفرقان: 74} تدلان على أن الإمامة تكون في نوع مخصوص من الخلق، وهو خلق يتم اصطفاؤه بتدبير وتوفيق من الله، وهذا قائم إلى يوم القيامة.

تاسعاً: كلمة (ذرياتهم)

الآية الأولى: قال تعالى: "ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم" {الأنعام: 87}.

إن هذه الآية تتبع الآيات التي سبقتها، وإن تفسيرها لا ينفك عما قبلها، وقد ورد قبلها ذكر الله تعالى أولاً أربعة من الأنبياء، وهم: نوح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر من الأنبياء: داوود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوطاً، والمجموع ثمانية عشر⁷¹⁷. أما قوله تعالى: "ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم" يفيد أحكاماً كثيرة: الأول: أنه تعالى ذكر الآباء والذريات والإخوان، فالآباء هم الأصول، والذريات هم الفروع، والإخوان فروع الأصول⁷¹⁸. نقول: إن ما أشار إليه الرازي بأن الذريات هم الفروع، فذلك بالمعنى بالاجتماعي لكلمة الذريات. أما بالمعنى الأنثروبولوجي فإن كلمة "ذرياتهم" تعتبر أصولاً وفروعاً، فالأصول لأنها وحدة كلية تشتمل على أصل الذرية السابق واللاحق منها من ناحية أصل حركة المادة التي تشكلت سابقاً منذ خلق آدم (عليه السلام) ثم تألفت من وحدات ذرية متناثرة عدة مرات على مدار التاريخ. والفروع لأنها جزء من الكل، أي أن فرع الذرية هو تابع للأصل وجزء مأصول منها. لأن في الآية اجتناباً وهداية لهؤلاء الآباء والذرية والإخوة، فبالتالي يصح أن يكون هناك خصوصية أيضاً في نوع الذرية أو الخلق، يعني أنه خلق يشتمل على النوع الأول من الخلق "من تراب/طين".

الآية الثانية: قال تعالى: "جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب" {الرعد: 23}.

⁷¹⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص68.

⁷¹⁸ المصدر السابق، ص70.

قال الزجاج: بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال سالحة، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال السالحة⁷¹⁹. وكذلك ذكر القرطبي: يجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم، أي: من كان سالحاً، ولا يدخلونها بالأنساب⁷²⁰. نقول: إن الآية تشير إلى نوعين أو أكثر من الآباء ومن الأزواج، وكذلك إلى نوعين أو أكثر من الذرية، والذي يميز بين هذه الأنواع هو الصلاح، أي أن هناك آباء وأزواج وذرية فاسدون وآخرون سالحون. بالتالي يكون الثواب المذكور في الآية، أي عقبى الدار ودخول الجنة، مخصوص لمن صلح من هؤلاء جميعاً، ومنهم الذرية. والسؤال هنا، هل يكون صلاح الذرية من خلال صلاح نوعية الخلق؟

نقول: نعم، إن هذا النوع من الصلاح مشمول مع كافة أنواع الإصلاح الأخرى وهو أولها وأهمها، وبالتحديد صلاح النوع الثاني من الخلق، أي "عملية الإحياء للخلية/النطفة"، وكذلك النوع الثالث من الخلق، وهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة. نقول: صلاح "عملية الإحياء للخلية/النطفة" لأن صلاح الذرية يشتمل على صلاح الجانب الحيوي البيولوجي على قاعدة اختيار المناسب من الناس للزواج، ويتم اتباع تلك القاعدة الإرشادية من خلال الفحص الطبي الذي يجريه المقبلون على الزواج؛ وذلك لمعرفة ما إذا كان هناك إصابات ببعض أمراض الدم الوراثية أو بعض الأمراض المعدية، أي أن العامل الوراثي المتعلق بالنسل والنسب داخل في ضرورة عملية الإصلاح، لأنها إصلاح للذرية. أما صلاح النوع الثالث من الخلق، أي "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، فهو يتم من خلال اتباع

719 المصدر السابق، ص46.

720 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص60.

الإرشادات الطبية في حراسة وحماية الجنين من التشوهات وإتباع نظام غذائي صحي، والحفاظ على نظام يهدف إلى تكامل صورة الجنين وهيئته. بالإضافة لما سبق، ورد معنى مقارب لهذه الآية من ناحية الصلاح من جهة الإيمان، وذلك في شرحنا لقوله تعالى: "والذين آمنوا وأتبعناهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين" {الطور: 21}. {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص435}.

الآية الثالثة: قال تعالى: "ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم" {غافر: 8}.

إن هذه الآية نظير الآية السابقة من سورة الرعد، وينطبق عليها حال الذرية وصلاحها وفق شروط الإصلاح ونوعيته. قال الشوكاني: المراد بالصلاح ها هنا: الإيمان بالله، والعمل بما شرعه الله، فمن فعل ذلك، فقد صلح لدخول الجنة، ويجوز عطف، ومن صلح على الضمير في وعدتهم، أي: ووعدت من صلح، والأولى عطفه على الضمير الأول في وأدخلهم، قال الفراء، والزجاج: نصبه من مكانين إن شئت على الضمير في أدخلهم. وإن شئت على الضمير في وعدتهم. قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح. وقرأ ابن أبي عيطة بضمها، وقرأ الجمهور "وذرياتهم" على الجمع، وقرأ عيسى بن عمر على الأفراد

721

721 محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1295.

الفصل الخامس

خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم
في عملية الخلق

شرحنا كل ما يتعلق بالذرة والذرية للوصول إلى جدوى العلاقة بين خلق آدم (عليه السلام) من تراب، وخلق عيسى (عليه السلام) في رحم أمه من غير أب، وهو ما عبّر عنه القرآن بوضوح غالباً في ثلاث سور مركزية في القرآن وهي (آل عمران، والمائدة، ومريم). كما أن قصة ولادة عيسى (عليه السلام) من غير أب لها دلالة تتعلق بامتداد سلالة بني آدم منذ بداية الخلق، وهو ما يستحق الإشارة هنا إلى خصوصية نسل آل عمران وزوجته حنة بنت فاقوذ، التي أنجبت مريم (عليها السلام) رغم أنها كانت عاقراً، وإنجاب مريم لعيسى (عليها السلام) فيما بعد. نقول: إن ولادة عيسى (عليه السلام) من أمه مريم (عليها السلام) من دون أب، لها أسبقية "في الذرية" دالة على القدرة الإلهية في إتمام عملية الخلق بأنواعه الأربعة، سواء كان الخلق الأول "من طين/تراب"، أو الخلق الثاني "الإحياء للخلية/النفطة"، أو الخلق الثالث "الإنشاء/التصوير"، أو الخلق الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد" يوم القيامة، وهذه الأسبقية تتمثل في ولادة مريم (عليها السلام) من رحم أمها حنة بنت فاقوذ وهي عاقرة، وتحقق في عملية تكوينها وولادتها، الخلق الثاني "الإحياء للخلية/النفطة"، والخلق الثالث "الإنشاء/التصوير". أما حالة السيد المسيح، فقد جمع الله في خلقه الأنواع الأربعة من الخلق، أي "الماء/التراب/الطين، والإحياء، والإنشاء، والبعث" وقد تجلت هذه الأنواع في عدد من الآيات القرآنية التي سنشرح من خلالها ولادة مريم (عليها السلام) أولاً، ثم ولادة عيسى (عليه السلام)، ثم المعجزات التي مكّنه الله منها، وسوف نذكر علاقة كل ما سبق بالمادة التي خلقت منها مريم وعيسى (عليهما السلام)، ونفخ الروح فيهما.

الآيات المركزية هي عشر آيات كما يلي:

- الآية الأولى: قوله تعالى: "إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم" {آل عمران: 35}.

- الآية الثانية: قوله تعالى: "فلما وضعتها قالت رب إنني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنني سميتها مريم وإني أعيذاها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" {آل عمران: 36}.

- الآية الثالثة: قوله تعالى: "فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" {آل عمران: 37}.

- الآية الرابعة: قوله تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" {آل عمران: 38}.

- الآية الخامسة: قوله تعالى: "قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" {آل عمران: 47}.

- الآية السادسة: قوله تعالى في سورة مريم: "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً (20) قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً (21)".

- الآية السابعة: قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}.

- الآية الثامنة: قوله تعالى: "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بأية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" {آل عمران: 49}.

- الآية التاسعة: قوله تعالى: "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وثبّرت الأكمه والأبرص بإذني وإذ تُخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مُبين" {المائدة: 110}.

- الآية العاشرة: قوله تعالى: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" {المائدة: 116}.

عملية إنجاب مريم من أمها العاقر (حنة بنت فاقوذ، جدة النبي عيسى عليه السلام)

توصيف أنثروبولوجي حيوي لجنس مريم

الآية الأولى: قوله تعالى: "إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم" {آل عمران: 35}.

في الآية ثلاث كلمات هامة تستحق الشرح وهي "نذرت" و "بطني" و "محرراً". أما النذر فهو للعبادة خالصاً لله، وفيه تضحية نفسية وروحانية لله. قيل: النذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر، يقال: نذرت لله أمراً. قال تعالى: "إنني نذرت للرحمن صوماً" {مريم: 26}. وقال تعالى: "وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر" {البقرة: 270} ⁷²². وقوله تعالى: "بطني" فهو إشارة إلى بطن

⁷²² الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص630.

حنة ابنة فاقوذ، امرأة عمران، وفيه دلالة على أن ولادة مريم (عليها السلام) كانت ولادة طبيعية. أما كلمة "محرراً" في الآية فإن لها دلالات مختلفة، وأرجح واحدة منها:

أولاً: ذكر فخر الدين الرازي أن "المحرر الذي يجعل حراً خالصاً، يقال: حررت العبد إذا خلصته عن الرق. والطين الحر الخالص عن الرمل والحجارة والحماة والعيوب. وقال الشعبي: محرراً: أي مُخلصاً للعبادة. وقيل: خادماً للبيعة، وقيل: عتقاً من أمر الدنيا لطاعة الله. وقيل: في انتصاب قوله تعالى "مُحرراً" وجهان: (الأول): أنه نصب على الحال من (ما) وتقديره: نذرت لك الذي في بطني مُحرراً (والثاني): وهو قول ابن قتيبة أن المعنى نذرت لك أن أجعل ما في بطني مُحرراً⁷²³. على حين ذكر القرطبي في تفسيره أن "مُحرراً" نعتٌ لمفعول محذوف، أي: إني نذرت لك ما في بطني غلاماً مُحرراً⁷²⁴. وأشار: أن "مُحرراً" مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية. ورُوي عن عكرمة ومجاهد: أن المحرر الخالص لله عزوجل، لا يشوبه شيء من أمر الدنيا. وفي اللغة يقال لكل ما خَلَصَ: حُر. وطين حُر: لا رمل فيه⁷²⁵. نقول: إن اللفظ "مُحرراً" يتعلق بموضوع النسل والذرية، ولأنه كذلك فإن الكلمة لها دلالة على التكوين البيولوجي للإنسان، وأصل خلقه من طين. كأن بنت عمران تقول: تقبل مني يا الله هذا الخلق الذي في بطني وأنت تعلم ما في الأرحام لأنك أنشأت هذا الكون وخلقته فيه الإنسان كائناً حياً من صلصال كالفخار، ثم جعلت له حياة يتزوج فيها، ثم جاءت منها هذه الذرية التي اصطفتيتها. نقول: إن تأكيد الحرية في الآية هو استنكار العبودية ويدل ذلك على

⁷²³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص27.
⁷²⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص100.

⁷²⁵ المصدر السابق، ص101.

أن الإنسان يتعلم الحرية من عملية تراكم المعرفة عبر التعلم منذ ما بعد الولادة، ولهذا السبب فإن أهم ثورة لخلق الحرية هي "ثورة الوعي والمعرفة".

(آل عمران) أهم اصطفااء عائلي في القرآن

الآية الثانية: قوله تعالى: "فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" {آل عمران: 36}.
نقول: هذه الآية مرتبطة بما جاء على لسان أم مريم (عليها السلام)، وهي حنة بنت فاقوذ التي وصفت حالة ولادتها لمريم (عليها السلام)، وأشارت إلى علاقة نوع الجنس بولادة ابنتها مريم (عليها السلام)، وهي دلالة على أصالة ذريتها، أي ابنها عيسى (عليه السلام). وفي الآية مسائل سوف أوردتها مع نقل آراء المفسرين حول خصوصية جنسي "الذكورة والأنوثة" في قوله تعالى: "وليس الذكر كالأنثى"، وسبب الإشارة إلى جنس المولودة أنها أنثى، كما يلي:

المسألة الأولى: إن جنس الأم التي حملت بمريم هي امرأة عمران (حنة بنت فاقوذ) وهي أم مريم (عليهما السلام)، وتُعرف هي وذريتها في الأدبيات القرآنية كعائلة معروفة باسم (آل عمران)، وهي العائلة الوحيدة التي سُميت سورة باسمها في القرآن، وهي سورة (آل عمران)، وقد ذكرت إلى جانب عائلات أخرى مثل: آل إبراهيم، وآل موسى أو آل فرعون. قال ابن كثير: "امرأة عمران هي حنة بنت فاقوذ، قال محمد ابن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتتهت الولد، فدعت الله عزوجل أن يهبها ولداً، فاستجاب

الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون "محرراً" 726.

المسألة الثانية: لا يمكن إدراك المعاني النفسية والاجتماعية والتاريخية الكاملة للآية بدون الرجوع إلى الآيتين السابقتين لها بغرض الاستدلال على دلالة المعنى الذي يتضمن توجيهاً إلهياً يخص الضرورات الجنسية التي تُبنى عليها الأسرة في الشريعة السماوية. ورغم أن خطاب بنت عمران يشبه الشكاية في إنجابها مريم (عليها السلام) كأنتى وليس ذكراً كما رغبت، إلا أن الحكم والقدرة الإلهية ظلت فوق شكايتهما من ناحية اختيار الله لجنس مريم (عليها السلام)، أي أنه لم يكن هناك تفضيل إلهي بين جنسي الذكورة والأنوثة، بل كان التفضيل قائماً على ماهية وأصالة الذرية، حيث وقعت المساواة بين الجنسين لعدة أسباب:

أولاً: أن الله أقر صراحة في الآية الثالثة والثلاثون من سورة آل عمران أن الاصطفاء يكون لأدم، ونوح، وآل إبراهيم، وآل عمران من بين العالمين لقوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين" {آل عمران: 33} {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص353}.

ثانياً: ورود كلمة "آل" فيه إشارة إلى عائلة إبراهيم، وعائلة عمران، وليس إلى أفراد، ما يعني أن الاصطفاء كان عائلياً للزوجين أو أحدهما ثم للنسل أو الذرية، وآل عمران هو أهم وأبرز اصطفاء عائلي غير فردي في القرآن، لأنه الاصطفاء الذي تحقق فيه أهم خلق إحيائي روحي بعد خلق آدم (عليه السلام)، وهو خلق عيسى (عليه السلام).

726 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص33.

ثالثاً: إن التأكيد الإلهي على اصطفاء مريم بنت عمران (عليها السلام) وذريتها، هو اصطفاء ضماني يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، وهو تثبيت لاصطفاء عيسى (عليه السلام) الذي سيولد من أمه مريم (عليها السلام) المولودة الأنثى التي لن يكون لها زوج، وسوف تلد النبي عيسى (عليه السلام) من غير أب فيما بعد. لذلك ذكر القرطبي في تفسيره أن قوله تعالى: "وإني أُعِيدُهَا بَكَ"، يعني: مريم. "وذريتها" يعني عيسى. وهذا يدل على أن الذرية قد تقع على الولد خاصة⁷²⁷.

رابعاً: إن التأكيد على أصل نسل عيسى (عليه السلام) من خلال الإشارة إلى لفظ "الذرية" يدل على أنه معروف النسب، وليس كما يقال إن عيسى (عليه السلام) هو ابن الله، لأن نسبه إلى الله دون معرفة الحقائق عن الله وعن أصل وحقيقة التكوين العائلي لآل عمران يعتبر جهلاً بالحقيقة، ولأن ذلك يتعارض مع أبسط قواعد الألوهية التي تؤكد وحدانية الله، أي تنفي عنه الطباع البشرية وأبرزها النكاح.

المسألة الثالثة: لأن أم عمران سمّت مولودتها باسم مريم (عليها السلام)، فقد كان من الطبيعي أن يكون عيسى (عليه السلام) رسولاً، أي أنه من طبع أمه في العبادة، حيث سُميت مريم (عليها السلام) بهذا الاسم لأنها -كما يقول البيضاوي- تعني: "العابدة"⁷²⁸، لذلك يستحق أن يوصف عيسى (عليه السلام) بالنبي العابد.

المسألة الرابعة: عرفت بنت عمران ماذا وضعت لأنها قالت صراحة "فلما وضعتها"، والإشارة هنا للأنثى في كلمة "وضعتها"، ولو أنه مولود ذكر لقالت "وضعته" وليس "وضعتها"، ثم إنها أوضحت جنسها عندما أكملت تقول "رب إني وضعتها أنثى". قال

⁷²⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص103.

⁷²⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص257.

البيضاوي في تفسيره: "جاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنيثها علم منه فإن الحال وصاحبها بالذات واحداً"⁷²⁹. بالتالي فإن قوله تعالى: "والله أعلم بما وَضَعْتَ" يعني أن معرفة الله سابقة على معرفة مريم (عليها السلام) فيما يتعلق بجنس المواليد وما تحمله الأرحام. لقد تكرر هذا البيان في آيات أخرى مثل قوله تعالى: "الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار" {الرعد: 8} وقوله تعالى: "إن الله عنده علم الساعة ويُنزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير" {لقمان: 34}. ذكر القرطبي أن دلالة جملة (إني وضعتها أنثى) في الآية تعني "لا تصلح لخدمة الكنيسة؛ قيل: لِمَا يصيبها من الحيض والأذى، قيل: لا تصلح لمخالطة الرجال. وكانت ترجو أن يكون ذكراً، فلذلك حررت"⁷³⁰.

المسألة الخامسة: جاء التمييز واضحاً لناحية جنس المولود في قوله تعالى: "ليس الذكر كالأنثى". "ليس" هي من أخوات كان، تدخل على المبتدأ والخبر فترفع الأول اسماً لها وتنصب الثاني خبراً لها، ولأن الأنثى هي المولودة وهي المُخبر عنها في الآية، ذُكرت ثانياً، ولأنها عنوان حدث الولادة فقد صارت خبر ليس. ذكر فخر الدين الرازي عدداً من المسائل في تفسير قوله تعالى: "وليس الذكر كالأنثى" أن فيه قولان (الأول): أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه (أحدها): أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث (والثاني): أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان (والثالث): الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة

⁷²⁹ المصدر السابق، ص257.

⁷³⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص100.

دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة (والرابع): أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى". والقول الآخر عند الرازي: أن المقصود من قوله تعالى: "ليس الذكر كالأنثى" هو ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه" ⁷³¹.

نقول: إن التمييز بين جنسي المواليد في قول بنت عمران "ليس الذكر كالأنثى" يُعتبر متجانساً مع لفظ "الذرية" في قوله تعالى: "ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم" {آل عمران: 34} قال الأخفش في تفسير معنى "بعضها من بعض" هي في محل نصب على صفة الذرية، ومعناه متناصلة متشعبة، أو متناصرة متعاضدة في الدين ⁷³².

هذا يعني أن أصل الذكر والأنثى هو من الذرية التي اصطفاه الله، ومن ثم تكاثرت وانتشرت في الأرض، حيث يشير الله إلى جملة: "بعضها من بعض" وكذلك في قوله تعالى: "خلقكم من نفس واحدة" {النساء: 1} أي جعل نسل الإنسان كله من النفس الواحدة التي خلقها الله وقرر أن يكون منها الأزواج الذين حدد طباعهم وجنسهم في قوله "رجالاً" و "نساءً" لأنه حدد منشأ وأصل تكوين هذين الجنسين في لفظ "والأرحام" بحسب الآية. إن قوله تعالى: "بعضها من بعض" {آل عمران: 34} هي نفس الميزان الأنثروبولوجي التقديري لقوله تعالى: "من نفس واحدة" {النساء: 1}. بالتالي لم يكن التفضيل بين جنسي الذكورة والأنوثة لصالح ماهية عمل الذكر والأنثى بالدرجة

⁷³¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص28، 29.

⁷³² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص214.

الأولى، بل هو توضيح إلهي أنثروبولوجي لماهية الإنسان وأصله الحيوي، وامتداد وتعدد وتشعب نسله. كذلك فيه تأكيد على أهمية التدقيق والتمييز في أصل النسل بين الذكورة والأنوثة عند لحظة الولادة، أي من ناحية بيولوجية أصيلة، وليس التمييز في النسل من ناحية الأفضلية النفسية والاجتماعية. كأنه يقول "ليس الذكر كالأنثى أو هكذا يجب أن يكون عند لحظة الولادة"، ما يعني أن الأصل هو الفرق الجنسي الحتمي المقرر سلفاً، وكل ما دون ذلك، أقصد أي اختلال جنسي هو ناتج عن عبث الإنسان في الطبيعة. لذلك فسّر البيضاوي واصفاً طلب بنت عمران: "ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهِيت، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعنى وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون الكاف للجنس" ⁷³³. بالتالي ليس التفضيل كما ذكر الرازي له علاقة بتحديد خدمة الذكر والأنثى، ولا حتى الطبري الذي أشار أن "الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة، لما يعتريها من الحيض والنفاس" ⁷³⁴ بل لأن الرؤية الإلهية الكونية أكثر دقة من حيث وصف طبائع وأصالة الجنس البشري، وأكثر شمولية من حيث تبرير أصل النسل أو الذرية وطبيعة التكوين الإنساني كما أنشأه الله أول مرة.

مصدر ونوعية (الرزق/الغذاء) لمريم

الآية الثالثة: قوله تعالى: "فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً قال

⁷³³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص257.

⁷³⁴ الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص246.

يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" {آل عمران: 37}.

قبل شرح هذه الآية، نقول: أولاً يجب الإشارة إلى أن كلمة "الترائب" في سورة الطارق لقوله تعالى: "فلينظر الإنسان مم خلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من بين الصلب والترائب (7)" تساعد على فهم معنى ودور "الترائب" ككلمة بشكل منفصل من دون ما قبلها، أي (النفطة/الماء الدافق) في لعب دور حيوي بيولوجي في بناء جسد النبي عيسى (عليه السلام)، فهي تذكرنا بالحقيقة القائلة بارتباط النشء القويم السليم بسلامة النظام الغذائي وبالتحديد النباتي باعتباره مكون أساسي في الخلق، وذلك في الإشارة إلى مريم (عليها السلام) وتكوينها ونظامها الغذائي بعد وقيل ولادتها للنبي عيسى (عليه السلام) كما هو موضح في الآية عبر الإشارة إلى أربع مسائل كما يلي:

أولاً: القبول الحسن.

ثانياً: النبات الحسن.

ثالثاً: وكفالة زكريا.

رابعاً: الرزق من عند الله.

قبل أن نتحقق ولادة عيسى (عليه السلام) من رحم أمه مريم (عليها السلام)، كانت مريم (عليها السلام) مؤهلة لهذه الولادة أو عملية خلق عيسى (عليه السلام)، وذلك من خلال الإشارة إلى هذه المسائل الأربعة التي ذكرناها وسنشرحها كما يلي:

ماهية القبول الحسن لمريم

أولاً: القبول الحسن:

وردت الإشارة إلى هذه المسألة في قوله تعالى: "فتقبلها ربها بقبول حسن". قال القرطبي: المعنى: سلك بها طريق السعداء كما قال ابن

عباس. وقال قوم: التقبل: التكفل في التربية والقيام بشأنها⁷³⁵. أما الرازي: فقال إن في موضوع القبول مسألتين: المسألة الأولى: أنه قال "فتقبلها ربها بقبول" ولم يقل: "فتقبلها ربها بتقبل" لأن القبول والتقبل متقاربان. قال تعالى: "والله أنبتكم من الأرض نباتاً" {نوح: 17} أي إنباتاً، والقبول مصدر قولهم: قبل فلان الشيء قبولاً إذا رضي به. وفي الآية وجه آخر وهو أن ما كان من باب التفعّل فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالصبر والتجلد ونحوهما، فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلادة، فكذا ههنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول. فإذا قيل: فلم لم يقل: فتقبلها ربها بقبول حسن حتى صارت المبالغة أكمل؟

(الجواب) أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع، أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع فذكر التقبل ليفيد الجد والمبالغة، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع، بل على وفق الطبع، وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها، وهذا الوجه مناسب معقول. المسألة الثانية: أنه تعالى عصمها وعصم ولدها عيسى (عليه السلام) من مس الشيطان⁷³⁶. نقول: إذا كان القبول وفق الطبع وليس على خلافه، فإن ذلك يشير إلى الإقرار الإلهي بالقبول وفق الطبع، وأن هناك علاقة بين القبول الإلهي والطبع، وهي تفيد بقبول الله لأمر ورد ذكرها في الآية السابقة (36) وهي: أنها أنثى، وأن اسمها مريم (عليها السلام)، وأنها معاذة وذريتها من الشيطان لقوله تعالى: "وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها

⁷³⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص104.

⁷³⁶ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص29، 30.

مريم وإني أعيدها وذريتها من الشيطان الرجيم (36)". والأهم من ذلك أن الله قَبِلَ أهم طبع، وهو قبوله لأصل خلقها، وخلقها كان من أمها حنة بنت فاقوذ التي كانت عاقر، فأراد الله أن يطمئن على طبيعة خلقها باعترافه أنه متقبلاً قبولاً حسناً لطبيعة خلقها. والطبع: هو ما يقع على الإنسان بغير إرادة، وقيل: الطبع الجبلة التي خلق الإنسان عليها⁷³⁷. إن ذلك يشير إلى الاعتدال الإلهي في النظر إلى حقيقة خلقه وطبيعة منشأه، وإن منشأ خلقه من تراب وطين وماء. هكذا فالأصل في القبول المذكور في الآية أنه يقوم على قاعدة أصلية تتعلق بالحقائق البيولوجية.

دلالة إنبات مريم نباتاً حسناً

ثانياً: النبات الحسن:

تمت الإشارة إلى هذه المسألة من خلال الربط بين النشأة وعلاقتها بالغذاء في الآية لقوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} فيه ارتباط وثيق ما بين نوع الجنس والنظام الغذائي، وهي هنا أنثى، أي مريم (عليها السلام). بالتالي فإن الأنثوية مرتبطة بالطبيعة النباتية وهي أولى وأقدم من الطبيعة الحيوانية، وهذا تشريف وأصالة للبناء الجسدي لمريم (عليها السلام)، لماذا؟

نقول: إن تشبيه نموها بالنبات دلالة على وجود خواص متشابهة بين النبات والإنسان، مثلاً النباتات كائنات حية والإنسان كائن حي، والنباتات تحتوي على الخلايا والألياف والأوعية والأنسجة (كالنسيج الخلوي والليفي والوعائي) وكذلك جسم الإنسان يحتوي على خلايا وألياف وأوعية وأنسجة⁷³⁸. فنظرة الرجل التي يلقح بها بويضة المرأة

⁷³⁷ العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1،

(القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص119.

⁷³⁸ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج10، ط3، (بيروت: دار المعرفة،

1971)، ص4.

وقت عملية الإخصاب أصلها خلية حية. كما أن أول ما يوجد من النبات هو أيضاً خلية صغيرة وهي عبارة عن حويصلة صغيرة من غشاء داخلها سائل لزج يسمى البروتوبلازما سابحاً في وسط نواة⁷³⁹. وأيضاً النباتات لا تتحرك بإرادتها والإنسان كذلك في سن الصغر وحتى عام من ولادته، وفي كبره أيضاً عندما يشيخ ويصبح كهلاً لا يتحرك بإرادته أو تقل وتكثر حركته وتصبح بطيئة أو سريعة أو بطيئة وسريعة بحسب عمره. ويقال: ما أحسن نابتهم" أي ما أحسن ما نشأ عليه أولادهم. ويقال: "إنهم نابتة شر" أي نشأ شر⁷⁴⁰. إن تشبيهه نمو مريم (عليها السلام) البدني والعناية بها في صغرها بنمو النبات والعناية به فيه إشارة إلى أصل المادة المشتركة التي أنبتت النبات وجعلته يعيش ويكبر وهي إضافة الماء إلى التراب/الطين، وإن الماء كمصدر أساسي في خلق آدم (عليه السلام)، والكائنات الحية جميعها تتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، ومن الماء أو بفعله تتكون الخلية التي هي أصل خلق آدم (عليه السلام) وذريته، والتي خلقت منها مريم (عليها السلام) وذريتها. وفي ذلك دليل على أصالة الطبيعة أو التراب/الطين والماء بشكل أساسي في خلق الإنسان والبشر عموماً. بمعنى آخر، كان وجود الماء أساسياً في إنبات النبات وتقويم البناء الجسدي لمريم (عليها السلام)، وجعل جسد مريم (عليها السلام) مؤهلاً لإنتاج الخلية التي مهّدت وعملت على خلق عيسى (عليه السلام)؛ لأنه بدون الماء لن يكون هناك خلق، وذلك عملاً بقوله تعالى: "وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً" {الفرقان: 54} وهذا ما يجعل عيسى (عليه السلام) من حيث النوع بشراً مثل آدم (عليه السلام) وليس إلهاً أو ابناً لله. ولذلك ذكر القرطبي في معنى قوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" يعني سوى خلقها من غير

739 المصدر السابق، ص4.

740 المصدر السابق، ص3.

زيادة ولا نقصان⁷⁴¹. وقال الشوكاني: أصله إنباتاً، فحذف الحرف الزائد، وقيل: هو مصدر لفعل محذوف، أي: فنبتت نباتاً حسناً. وقيل: هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها⁷⁴². وهذا ما قاله البيضاوي⁷⁴³ والزمخشري⁷⁴⁴. علي حين قال ابن الأنباري: منهم من صرف هذا النبات الحسن إلى ما يتعلق بالدنيا، ومنهم من صرفه إلى ما يتعلق بالدين. أما الأول فقالوا: المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد، وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة⁷⁴⁵. في حين قال الجرجاني: النبات: هو كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتوَلَّد ويزيد ويتغذى⁷⁴⁶. نقول: إن جهة ما يتولد ويزيد ويتغذى منه النبات هو التربة والماء، وإن طباع الإنسان من طباع التربة والماء، وقد كان الماء هو الأصل الذي أنتج خلية نباتية في بطن مريم (عليها السلام)، وهي التي أوجبت خلق عيسى (عليه السلام). نقول: إن الذي ساعد على خلق مريم (عليها السلام) هو خلية نباتية وليست حيوانية في نظامها الغذائي؛ لأن النبات أسبق من الحيوان، والحيوانات تتغذى على النباتات. ولهذا السبب بعدما وضعت مريم (عليها السلام) ابنها

⁷⁴¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص104.

⁷⁴² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص215.

⁷⁴³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص258.

⁷⁴⁴ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص170.

⁷⁴⁵ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص31.

⁷⁴⁶ العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص201.

عيسى (عليه السلام) أمرها الله في القرآن بتناول الرطب في قوله تعالى: "وهزي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً" {مريم: 25} والنخيل نباتات، وقد كان أول غذائها بعد ولادة عيسى (عليه السلام) متسق مع الخلية الأولى في بنائه داخل رحم مريم (عليها السلام). لهذا السبب نقول: إننا نصرف الجملة في قوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" إلى ما يتعلق بالمادة الموجودة في الطبيعة وأولها وأبرزها الماء لأهميته في عملية الخلق والنشء معاً. لقد ورد ذكر إنبات البشر أو الأزواج من الأرض في آيتين كما يلي:

الآية الأولى: قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" {يس: 36}. نقول: في الآية أربع مسائل وهي: "خلق الأزواج" ثم "مما تنبت الأرض" ثم "من أنفسهم" ثم "مما لا يعلمون". أما كلمتي "خلق وكلها" فهما تشيران إلى تعدد الخلق، وأما "الأزواج" فهذا يدل على أن تعدد الخلق وإن كان يشمل كل شيء إلا أن كل شيء هو ثنائي في الأصل وليس فردي في عملية الخلق من ذكر وأنثى، علماً بأن آدم (عليه السلام) كان مع زوجته في الجنة ولم يكن وحده، أي كانت حالة ثنائية من ذكر وأنثى وهو ما ورد ذكره في القرآن لقوله تعالى: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" {البقرة: 35}. أما عيسى (عليه السلام) فهو ابن مريم بنت عمران وهما من نسل آدم (عليه السلام). بالتالي فإن الخلق الثنائي محصور في معنى كلمة "الأزواج". قال الزمخشري: "الأزواج" يعني: الأجناس والأصناف⁷⁴⁷. على حين قال البيضاوي:

⁷⁴⁷ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 23، ط 3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص 895.

الأنواع والأصناف⁷⁴⁸. وهذا ما قاله الشوكاني⁷⁴⁹. وكذلك القرطبي: أنواع وأصناف، وزاد عليه القرطبي فقال كل صنف زوج؛ لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر، فاختلافها هو ازدواجها⁷⁵⁰. نلاحظ أن كل المفسرين متفقين على أنها أنواع وأصناف، باستثناء البيضاوي استثنى الأنواع وقال هي أجناس وأصناف، فأضاف الجنس واستثنى النوع، وهو بذلك تخلى عن الأصل وهو النوع الإنسي لصالح الفرع وهو الجنس، وما ينتج عن التزاوج. نقول: إن الآية تدل عليها كلها، أي "النوع والجنس والصنف". بالنسبة للنوع فإن دلالاته في الآية قوله تعالى: "مما تنبت الأرض" وهذا متعلق بأصالة النبات كأساس للنظام الغذائي في بناء الكائنات الحية وأهمها الإنسان، وفي بناء مريم (عليها السلام) كما تقدم ذكره في معنى "وأنبثها نباتاً حسناً"، والنوع منه الإنسان العاقل بحسب المراتب التصنيفية⁷⁵¹، فيكون عقل الإنسان وبنائه الجسماني مرتبطاً بطبيعة نظامه الغذائي وأصله من النبات أو من الحيوانات التي تتغذى على النباتات أو من الماء، وهو أصل كل الكائنات الحية. أما قوله تعالى: "من أنفسهم" فقيل: أي: خلق الأزواج من أنفسهم، وهم: الذكور والإناث⁷⁵². وكذلك قال البيضاوي: أي الذكر والأنثى⁷⁵³.

⁷⁴⁸ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص132.

⁷⁴⁹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1224.

⁷⁵⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص441.

⁷⁵¹ <https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2>

⁷⁵² محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1224.

⁷⁵³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص132.

على حين قال الرازي: يدخل فيها الدلائل النفسية⁷⁵⁴. ونحن نميل إلى قول الرازي ونقول إن "أنفسهم" وردت بصيغة الجمع ومعناه من التزاوج الذي يتم بين الذكر والأنثى، لكن لماذا اختار كلمة "أنفسهم"؟ نقول: لأن فيها إشارة إلى أهمية النفس في الخلق وهي الأصل فيه قبل عملية التزاوج، حيث وردت جملة "من نفس واحدة" في القرآن ثلاث مرات في ثلاث آيات كما يلي:

- قال تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً" {النساء: 1}.

- قال تعالى: "وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون" {الأنعام: 98}.

- قال تعالى: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتينا صالحاً لنكونن من الشاكرين" {الأعراف: 189}.

نقول: إن موضوع النفس له خصوصية، ولكننا نختصره في الإشارة إلى ما جاء في قوله تعالى: "إن النفس لأمره بالسوء" {يوسف: 53} فنقول اختصاراً إن السوء يدخل في دائرته سوء استخدام النظام الغذائي والإفساد في الأرض والطبيعة. أما قوله تعالى في الآية: "مما تنبت الأرض" يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار. وقوله تعالى: "ومما لا يعلمون" يدخل ما في أقطار السماوات وتخوم الأرضين، وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها

754 الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص69.

وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم⁷⁵⁵. على حين قال الزمخشري: "ومما لا يعلمون" يعني ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به لأنه لا حاجة بهم في دينهم وديناهم إلى ذلك العلم ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون⁷⁵⁶. في حين قال القرطبي: أي: من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء والأرض، ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة، ويجوز ألا يعلمه مخلوق، ووجه الاستدلال في الآية: أنه إذا انفرد بالخلق فلا ينبغي أن يُشرك به⁷⁵⁷.

الآية الثانية: قوله تعالى في سورة نوح: "والله أنبتكم من الأرض نباتاً (17) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً (18)". قال النحويون: قوله تعالى: "نباتاً" موضوع موضع الإنبات وهو مصدر "أنبت إنباتاً" وقال غيرهم: قوله: نباتاً حالاً لا مصدر، ونبه بذلك أن الإنسان هو من وجه نبات من حيث إن بداه ونشأه من التراب، وإنه ينمو نموّه وإن كان له وصف زائد على النبات⁷⁵⁸. قال الشوكاني: يعني: آدم خلقه الله من أديم الأرض، والمعنى: أنشأكم منها إنشاءً، فاستعير الإنبات لكونه أدل على الحدوث والتكوين⁷⁵⁹. وهذا

⁷⁵⁵ المصدر السابق، ص 69.

⁷⁵⁶ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقوال في وجوه التأويل، ج 23، ط 3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص 895.

⁷⁵⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج 17، ط 1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص 441.

⁷⁵⁸ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج 2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص 621.

⁷⁵⁹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج 29، ط 4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص 1535.

ما قاله البيضاوي أيضاً⁷⁶⁰. نقول إن في الآية تعيين لعدد من المسائل وهي:

- الفعل: "أنبتكم".
- المكان: "الأرض".
- التشبيه في الوصف: "نباتاً".

المسألة الأولى: معنى "أنبتكم" يُحمل على معنى خلقكم أو أنشأكم، وتشبيه النبات بآدم (عليه السلام) باعتباره أول الخلق له علاقة بالخواص التي تجمع بينهما وبالمادة الخام التي نتج عنها النبات وخلق آدم (عليه السلام). فالمادة الأصل هي الماء، والماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، والنواة هي الجزء المركزي من الذرة. كما أن النواة هي الجزء الأساسي في الخلية النباتية والخلية الحيوانية. فأول ما يوجد من النبات خلية صغيرة وهي عبارة عن حويصلة صغيرة من غشاء داخلها سائل لزج يسمى البروتوبلازما سابقاً في وسط نواة. هذه الخلية في حالة الحياة تكون ممتعة بقوة امتصاص ونمو فإذا وضعت في بيئة رطبة امتصت مما حولها من السوائل التي تناسبها فازدادت حجماً ثم انقسمت إلى خليتين متلاصقتين وهما بالامتصاص يكبر حجمهما وينقسمان وهلم جرا فيتألف من مجموع هذه الخلايا جسم النبات. كما تحتوي الخلايا النباتية على حبيبات مختلفة الطباع كالنشأ والدقيق والزيت أو شحوم أو مواد متبلورة. وأجساد الحيوانات تتكون من هذه الخلايا المتناهية في الصغر⁷⁶¹. نقول: إذا كان الماء هو الأصل الذي يعمل على إحياء خلايا النبات والحيوان، وبالتالي يعمل على تكوين النواة، وإذا فهمنا أن النواة هي جزء مركزي من

⁷⁶⁰ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج29، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص452.

⁷⁶¹ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج10، ط3، (بيروت: دار المعرفة،

1971)، ص4.

الذرة التي يتكون منها الماء، فإن الماء يكون أسبق من الذرة والنواة، وإذا أدركنا قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30} وأن الله استوى عرشه على الماء كما ورد في قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7}، عندها سنفهم أن الله أعظم من النواة ومن الذرة ومن الماء الذي خلقه، وبالتالي أعظم من المادة، فقوله تعالى: "أنبتكم" يعني خلقكم من نواة أساسية في خلية نباتية أصلها من الماء.

المسألة الثانية: اختيار المكان "الأرض" يعود إلى أصل البيئة الحاضنة التي خلق منها آدم (عليه السلام)، والأصل أنه اختار الأرض كبيئة حاضنة لنمو النباتات، فهو لم يقل "أنبتكم من التراب" لأن الأرض خلقها الله وهي أعم وأشمل، فتكون الأرض كلها مكاناً للزراعة أو يوصى بأن يتم زراعتها أو استصلاحها وفق الشريعة الإلهية في الأرض. وقد سبق أن شرحنا في سورة {فصلت: 39} علاقة المادة -أي الماء- بالأرض وعلاقة ذلك بالخشوع، والفرق بين خشوع الأرض وموتها والفقر بين الإحياء والإخراج، وعلاقة الإنسان بالإحياء {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص 97-101}.

المسألة الثالثة: التشبيه في الوصف "نباتاً". نقول: إن التشبيه يعني أن كثير من أعضاء ومكونات جسد الإنسان تشبه أعضاء جسم النبات، فجسد الإنسان فيه أنسجة وأغشية وأوعية وأحماض وقصبات هوائية، وكذلك من أجزاء النباتات المكونة لها ما يسمى القصبات وهي أغشية أسطوانية متضامنة ومبطنة بخيط حلزوني، ومنها الأوعية اللبينية وهي عبارة عن مجموعة أنابيب، بالإضافة إلى التركيب الكيماوي للأنسجة الخلوية التي تقاوم المؤثرات الكيماوية مقاومة عظيمة وبذلك يمكن فصله بسهولة من المواد الغريبة والحصول عليه في غاية النقاء وهو يتكون من السللولوز، أي الخليين ولأجل الحصول على هذه

المادة تعامل أجزاء النباتات المختلفة بمحلول البوتاسا، أو الصودا ثم بمحلول حمض الكلورايدريك حتى تنفصل المواد الخشبية والجواهر الغريبة المختلطة بالسلولوزاي الخلويين ثم يغسل الباقي بالماء ثم الكحول أو الإيثر لرفع المواد الدسمة. فالخلويين المتحصل بهذه الطريقة يكون أبيض شفافاً عادم الذوبان في الماء والكحول والأثير والمحاليل القلوية الضعيفة ومحاليل الحوامض الضعيفة لا تأثير لها عليه. وحمض الكبريتيك والفسفوريك المركز يحيلانه إلى دكسترين ثم إلى جيليكوز. وحمض الأزوتيك البخاري يتحد به ويتكون منهما جسم قابل للاشتعال والفرقة يسمى بالقطن البارودي. الخلويين مركب من كربون وأوكسجين وأيدروجين. أما تركيب المادة الخشبية فغير معلوم كما يجب أن يكون ولا يعلم إن كان تركيبها الكيماوي واحداً في جميع النباتات بل وفي الأعضاء المختلفة من النبات الواحد⁷⁶².

مضمون كفالة زكريا

ثالثاً: كفالة زكريا:

تمت الإشارة إلى الكفالة في الآية بقوله تعالى: "وكفلها زكريا". قال الرازي في موضوع الكفالة: الكافل هو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه، وفي الحديث "أنا وكافل اليتيم كهاتين" وقال تعالى: "فقال اكفليها" {ص:23}. واختلّفوا في كفالة زكريا (عليه السلام) إياها متى كانت، فقال الأكثرون: كان ذلك حال طفوليتها، وبه جاءت الروايات، وقال بعضهم: بل إنما كفلها بعد أن فطمت، واحتجوا عليه بوجهين (الأول): أنه تعالى قال: "وأنبئتها نباتاً حسناً" ثم قال (وكفلها زكريا) وهذا يوهم أن تلك الكفالة بعد ذلك النبات الحسن (والثاني): أن الآية تدل على أنها كانت قد فارقت الرضاع وقت تلك

⁷⁶² دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج10، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص5.

الكفالة، وأصحاب القول الأول أجابوا بأن الواو لا توجب الترتيب، ففعل الإنبات الحسن وكفالة زكريا حصلاً معاً⁷⁶³. على حين قال القرطبي: "وكفلها زكريا" أي: ضمّها إليه. وقال أبو عبيدة: ضمّن القيام بها. وقرأ الكوفيون: "وكفلها" بالتشديد، فهو يتعدّى إلى مفعولين؛ والتقدير وكفلها ربّها زكريا، أي: ألزمه كفالتها، وقدّر ذلك عليه، ويسرّه له. وفي مصحف أبي: "وأكفلها"، والهمزة كالتشديد في التعدي. وأيضاً فإن قبله: "فتقبّلها، وأنبتها" فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها، فجاء "كفلها" بالتشديد على ذلك. وخفّفه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا، فأخبر الله تعالى عنه أنه هو الذي تولّى كفالتها والقيام بها، بدلالة قوله: "أيهم يكفل مريم". قال مكّي: وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف، لأن الله تعالى إذا كفلها زكريا بأمر الله، ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان⁷⁶⁴. وقال ابن كثير: قدر الله كون زكريا كافلاً لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زوج خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما. وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح: "فإذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة"، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال: "الخالة بمنزلة الأم"⁷⁶⁵. نقول: إذا صحّت صلة القرابة، فذلك يعني أن قلة الإنجاب في الكبر أو عدم الإنجاب مطلقاً متوارث

⁷⁶³ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص31، 32.

⁷⁶⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنّة وأيّ الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص106.

⁷⁶⁵ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص35.

أيضاً في هذه الذرية بالنظر إلى أن زوجة زكريا التي كانت عاقراً وقد طلب من الله أن يهبه ذرية طيبة في قوله تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" {آل عمران: 38}، كما سنشرح في الآية التالية {انظر الشرح في هذا الفصل، ص498} كما أن موضوع الاصطفاء الإلهي للنبوة متوارث في نسل العائلة، وذلك يدل على أن الذرية التي اختارها الله لتمثيل النبوة معروفة النسل والأصل وهي مختارة بعناية ورعاية إلهيتين. كما أن ذلك يعني أن هذه الصلة دالة على أن تربية مريم (عليها السلام) لم تكن تربية رجولية ذكورية من خلال مسؤولية زكريا المباشرة عليها، بل من خلال خالتها إيشاع بنت عمران -زوجة زكريا-، وذلك لسبب أساسي وهو أن الكفالة لها شروط فيما يتعلق بالرجل كما المرأة، وهذا ينطبق على حالة مريم (عليها السلام). بالإضافة إلى ما سبق، نقول: إن الآية جاءت على كلمة "محراب" في قوله تعالى: "كلما دخل عليها زكريا المحراب"، وهذا من ضرورات أداء ودور زكريا في كفالتها، ما يعني أن تربيتها وتنشئتها ونموها البدني البيولوجي كان في هذا المحراب، وإن قوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} يعني أن ذلك الإنبات والاستواء والنضوج كان في المحراب. كما أن ذكره فعل الإنبات في إشارته إلى قوام مريم (عليها السلام) البدني والنفسي لا يتعارض مع ذكره للمكان، حيث أن ذلك كان في المحراب، بل هو تأكيد على صلة كل ما له بالعبادة والطبيعة والنمو في بيئتها التي هي بيئة عبادة، ومن فاعليتها وديمومتها وصيرورتها التي يحدث فيها تحول نوعي وليس تراكما كمياً فقط. قيل: إن زكريا بنى لها محراباً في المسجد، أي: غرفة يصعد إليها بسلم⁷⁶⁶، وهذا ما

⁷⁶⁶ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص170.

ذكره الرازي ⁷⁶⁷. وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدّماتها؛ كأنّها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تُسمى المحاريب، وروي أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب ⁷⁶⁸. على حين قال البيضاوي: سُمي محراباً لأنه محلّ محاربة الشيطان ⁷⁶⁹. وقال عدي بن زيد:

رَبُّهُ محراب إذا جنّتها لم أدن حتى أرتقي سلماً ⁷⁷⁰، نقول: إن رأي الخوارزمي في قوله "كان لا يدخل عليها إلا هو وحده" يخالف حقيقة ما قيل عن صلة مريم (عليها السلام) بزوجة زكريا باعتبارها خالتها، وبالنظر إلى وجودها في ذات المكان. كما أن قوله بتسمية المساجد محاريب يخالف ما ورد في القرآن من تسميات صريحة ومباشرة لأماكن العبادة واللقاء بين الناس باسم "المساجد" أو "المسجد" كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى، كقوله تعالى: "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة" {التوبة: 18}. وقوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير" {الإسراء: 1}.

⁷⁶⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص32.

⁷⁶⁸ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقوال في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص170.

⁷⁶⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1،

(بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص258.

⁷⁷⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه

من السّنة وأيّ الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة

والنشر، 2006)، ص108.

مكان سكن مريم وعلاقة المحراب بالمسجد

إن "المحراب" لم يذكر في القرآن سوى أربع مرات في آيات منفصلة، كانت واحدة منها تشير إليه صراحة كمكان للصلاة في موضوع زكريا أيضا عندما كان ينتظر بشرى ولادة ابنه النبي يحيى (عليه السلام)، وذلك في قوله تعالى: "فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يُبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين" {آل عمران: 39}. نقول: من الواضح لنا أن هذا المحراب هو ذات المحراب التي نشأت فيه مريم (عليها السلام)، أي أن بشرى الملائكة تحققت لزكريا لولادة ابنه النبي يحيى (عليه السلام) في ذات المحراب الذي كان الغداء يصل إلى مريم (عليها السلام)، وتتناول فيه طعامها، وهو ما يرجح أن يكون للملائكة دور في إنزال الرزق إلى مريم (عليها السلام) في ذات المكان. كما أن المحراب مكان للعبادة، ولكنه أيضاً مكان للخلوة، وقد يكون موجوداً داخل البيت في أحد أركانه أو في أحد أركان المسجد، ونحن نرجح الأول، أي أنه مكان للعبادة داخل البيت ويُسمى محراباً. كما أن هذا المحراب المذكور في الآية، والذي كان يصلي فيه زكريا قد يكون هو ذاته المحراب الذي كانت تتعبد وتسكن فيه مريم (عليها السلام)، والذي قيل فيه "كلما دخل عليها زكريا المحراب"، إذا سلمنا بالقول إنهما -أي مريم ومتكفلها زكريا- كانا يعيشان في ذات البيت الذي كان فيه محراباً. قيل: كانت مريم (عليها السلام) إذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكون عند خالتها، {...} وكانت إذا طهرت من حيضتها واغتسلت ردها زكريا إلى المحراب. وقال بعضهم: كانت لا تحيض، وكانت مُطَهَّرة من الحيض⁷⁷¹. نقول: إن ما سبق ذكره هو موضع تحقيق، بالنظر إلى صلة القربى ومكان وجود المحراب الذي كانت تعيش وتتعبد فيه، لقوله تعالى في الآية: "كلما دخل عليها زكريا

⁷⁷¹ المصدر السابق، ص108.

المحراب وجد عندها رزقاً" {آل عمران: 37} لأنه إذا كان المحراب بعيداً عن البيت فهذا يعني أن مريم (عليها السلام) نشأت وحيدة بعيدة عن بيت زكريا في غالبية الأوقات، وهي في عمر صغير، وهذا لا يُحتمل لأمرين:

أولاً: لأنها في كفالة ورعاية زكريا، وبالتالي في رعاية خالتها - زوجة زكريا-.

ثانياً: لأنها تتطلب أن تكون واقعة تحت مسؤولية من يكبرها لأسباب كثيرة، وهو في هذه الحالة زكريا بعدما وقع عليه الاختيار بحسب ما يشير إليه قوله تعالى: "أيهم يكفل مريم" {آل عمران: 44} وهذا يدل على أن الكفالة كانت مشرعة قبل الإسلام، وقبل عهد النبي عيسى (عليه السلام). إن السبب الوحيد الذي يقودنا إلى القول بأن نشأتها كانت وحيدة في محراب مشيد خارج البيت أو على مقربة منه أو داخله، لكنه منفصل عنه هو القدرات التي تملكها، وأنها كانت تقوى على فعل كل شيء بمفردها لأسباب تتعلق باصطفائها، وهذا يشتمل على طهارتها الكاملة من الحيض وأي نجاسات بحسب ما ورد في قوله تعالى: "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" {آل عمران: 42}. نقول: إن الاصطفاء والطهارة تتوافق مع ما ذكره البيضاوي -ونحن نؤيده- في قوله بأن المحراب سُمي محراباً؛ لأنه محل محاربة الشيطان، ما يعني أنها كانت مصونة ومحفوظة بعناية إلهية، وذلك ينسجم مع شرحنا للهوى والشهوة الغذائية وعلاقتها بوسوسة الشياطين. {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص 123-128}.

رزق مريم من عند الله

رابعاً: الرزق من عند الله.

تمت الإشارة إلى هذه المسألة في الآية بقوله تعالى: "وجد عندها رزقاً" و "إن الله يرزق". نقول: إن "الرزق" عموماً له معاني متعددة، وقد يكون رزقاً مادياً أو معنوياً، فالمادي يكون رزقاً في الأولاد أو المال وما يشتمل عليه من الموارد أو الأعمال، وكذلك المطر يسمى رزقاً وهو مادي، والمعنوي يكون رزقاً في الصحة أو في العلم ويحمل معنى الاعتماد والتوكل على الله. وقيل: الأرزاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم⁷⁷². نقول: في هذا الموضوع من الآية يحتمل معنى واحد وهو الغذاء، أي الأرزاق الظاهرة للأبدان وفق إشارة زكريا (عليه السلام) إلى الرزق/الغذاء متسائلاً كما في الآية: "قال يا مريم أنى لك هذا؟" أي: من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء⁷⁷³. وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: "إن الله يرزق من يشاء بغير حساب": تعليلية لما قبلها، وهو من تمام كلامها، ومن قال إنه من كلام زكريا، فتكون الجملة مستأنفة⁷⁷⁴. علي حين قال الرازي: هذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم (عليها السلام)، وأن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى، وقوله "بغير حساب" أي بغير تقدير لكثرتة، أو من غير مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها، وهذا كقوله "ويرزقه من حيث لا يحتسب"⁷⁷⁵. ويجوز أن نقول بأن سؤال زكريا عن كثرة الطعام عند مريم (عليها السلام)،

⁷⁷² محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م3، ج17، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص1636.

⁷⁷³ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص258.

⁷⁷⁴ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص215.

⁷⁷⁵ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص34.

وردها عليه بالقول "إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" يتعلق بمسألة بيولوجية عضوية خاصة بمريم (عليها السلام) لا سيما أن "دوام الأكل في الإناث أعم منه في الذكور" ⁷⁷⁶. نقول: إن تثبتنا للطعام كمعنى وحيد لكلمة "الرزق" المشار إليها في الآية هو إشارة ضمنية إلى العناية الإلهية بالنظام الغذائي لمريم (عليها السلام) منذ صغرها. كما أن الإقرار بولادة مريم (عليها السلام) من أمها العاقر يجيز إقرار وجود كرامات دالة على القدرة الإلهية، وسوف نتحقق لها لاحقاً مراراً وتكراراً، ومنها توفر الرزق/الغذاء بتسهيل ورعاية ورقابة من الله، وكرامة حملها وولادتها لابنها عيسى (عليه السلام). والسؤال هنا: هل هناك ربط بين الرزق/الغذاء، وولادتها لعيسى (عليه السلام) ككرامة من الله؟

نقول نعم، إن الكرامة هنا مرتبطة بثلاث مسائل:

أولاً: مصدر الرزق/الغذاء.

ثانياً: نوعية الرزق/الغذاء.

ثالثاً: استمرارية الرزق/الغذاء.

سوف نشرح هذه المسائل الثلاثة كما يلي:

أولاً: مصدر الغذاء/الرزق:

نقول: إن مسألة وجود الرزق عند مريم (عليها السلام) وكونه من عند الله، أثارت قريحة العلماء. فالسؤال هنا حول كيفية وصول الرزق إليها، أي هل يصل إليها بتيسير من الله، أي من خلال تسخير جنود من الله في الأرض لخدمة مريم (عليها السلام) أم نزول الطعام مباشر من السماء من خلال وحي مرسل بإرادة الله، أم غير ذلك؟

أولاً: سأقدم ما ذكره العلماء، ومن ثم سوف أقدم رأبي في هذه المسألة شديدة الخصوصية. لقد احتج بعض العلماء على صحة القول

⁷⁷⁶ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج1، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص112.

بكرامة الأولياء بهذه الآية، {.....} وقيل إن حصول الرزق عندها إما أن يكون خارقاً للعادة، أو لا يكون، فإن قلنا: إنه غير خارق للعادة فهو باطل من خمسة وجوه: (الأول): أن على هذا التقدير لا يكون حصول ذلك الرزق عند مريم (عليها السلام) دليلاً على علو شأنها وشرف درجتها وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى (والثاني): أنه تعالى قال بعد هذه الآية: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة" والقرآن دل على أنه كان آيساً من الولد بسبب شيخوخته وشيخوخة زوجته، فلما رأى انخراق العادة في حق مريم (عليها السلام) طمع في حصول الولد فيستقيم قوله "هنالك دعا زكريا ربه" أما لو كان الذي شاهده في حق مريم (عليها السلام) لم يكن خارقاً للعادة لم تكن مشاهدة ذلك سبباً لطمعه في انخراق العادة بحصول الولد من المرأة الشبيخة العاقر (الثالث): أن التكرار في قوله "وجد عندها رزقاً" يدل على تعظيم حال ذلك الرزق، كأنه قيل: رزقاً، أي رزق غريب عجيب، وذلك إنما يفيد الغرض اللائق لسياق هذه الآية لو كان خارقاً للعادة (الرابع): هو أنه تعالى قال: "وجعلناها وابنها آية للعالمين" ولولا أنه ظهر عليهما من الخوارق، وإلا لم يصح ذلك. {.....} (الخامس): ما تواترت الروايات به أن زكريا (عليه السلام) كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فثبت أن الذي ظهر في حق مريم (عليها السلام) كان فعلاً خارقاً للعادة، فنقول: إما أن يقال: إنه كان معجزة لبعض الأنبياء أو ما كان كذلك، والأول باطل لأن النبي الموجود في ذلك الزمان هو زكريا (عليه السلام)، ولو كان ذلك معجزة لكان هو عالماً بحاله وشأنه، فكان يجب أن لا يشتبه أمره عليه وأن لا يقول لمريم "أنى لك هذا" وأيضاً فقله تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه" مشعر بأنه لما سألها عن أمر تلك الأشياء ثم أنها ذكرت له أن ذلك من عند الله فهنالك طمع في انخراق العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة الشبيخة العاقر وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال

إلا بإخبار مريم (عليها السلام)، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ما كانت معجزة لذكريا (عليه السلام) فلم يبق إلا أن يقال: إنها كانت كرامة لعيسى (عليه السلام)، أو كانت كرامة لمريم (عليها السلام)، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل، فهذا وجه الاستدلال بهذه الآية على وقوع كرامات الأولياء⁷⁷⁷. على حين قال أبو علي الجبائي: يحتمل أن يكون ذكريا يشاهد عند مريم (عليها السلام) رزقاً معتاداً إلا أنه كان يأتيها من السماء، وكان ذكريا يسألها عن ذلك حذراً من أن يكون يأتيها من عند إنسان يبعثه إليها، فقالت هو من عند الله لا من عند غيره. وقال لا نسلم أنه كان قد ظهر على مريم (عليها السلام) شيء من خوارق العادات، بل معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقاً على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات، فكان ذكريا (عليه السلام) إذا رأى شيئاً من ذلك خاف أنه ربما أتاها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي، فكان يسألها عن كيفية الحال، هذا مجموع ما قاله الجبائي في تفسيره، وقال الرازي هو في غاية الضعف⁷⁷⁸. نقول: إن هناك مصدر ثانوي تابع للمصدر الأساسي، فيكون الأصل هو المصدر الأساسي وهو الله. لكن المصدر الثانوي هو الذي يجب فهمه من خلال فهم عملية أو طريقة وصول الرزق إلى مريم (عليها السلام) من خلاله أو كيفية تسخير هذا المصدر الثانوي بهدف إيصال الرزق إلى مريم (عليها السلام). هذا المصدر الثانوي يكون من خلال ثلاث طرق:

الطريقة الأولى: من خلال كفالة ذكريا، أي أن الغذاء يصل إليها ضمن كفالته، ولكن هذا غير ممكن ولا نرجح ذلك بسبب حالة الاستغراب التي كان يبديها ذكريا وحالة الاستفهام التي كان يطرحها على مريم (عليها السلام) في قوله تعالى: "كلما دخل عليها ذكريا

⁷⁷⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص32، 33.

⁷⁷⁸ المصدر السابق، ص33، 34.

المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" {آل عمران: 37} إن سؤال زكريا: أنى لك هذا؟ يدل أو ينفى أن يكون هو نفسه مصدر هذا الرزق. وقد شرحنا هذه الآية في موضوع "كفالة زكريا". {انظر الشرح في هذا الفصل، ص481}.

الطريقة الثانية: أن يكون المصدر الثانوي مباشراً "من عند الله" من خلال جنوده في الأرض والسماء سواء كانوا بشراً أم ملائكة، وذلك بسبب الاصطفاء قوله تعالى: "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" {آل عمران: 42}. نقول: إن الاصطفاء والطهارة يشتمل على ضرورة خدمتها وتقديم طعام طاهر مضمون في جودته؛ لأنه سوف ينعكس على ولادة عيسى (عليه السلام) فيما بعد. كما أن جزءاً من فهم المصدر هو فهم طبيعة المكان، وهو المحراب الذي قال فيه البيضاوي -ونحن نؤيده- بأن المحراب سُمي محراباً؛ لأنه محل محاربة الشيطان⁷⁷⁹. يُقصد بمحاربة الشيطان، أي محاربة الوسوسة التي أنزلت آدم (عليه السلام) من الجنة عندما أغواه الشيطان للمساس بالشجرة. لذلك صح قول البيضاوي، وذلك ينسجم مع شرحنا لمعنى الهوى والشهوة وعلاقتها بوسوسة الشياطين. {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص121} أي أن المصدر لا يكون من خلال سقوط طعام من السماء كما يتخيل البعض، بل يُقصد به أن الغذاء كان يصلها بتدخل من الملائكة بأوامر الله، بالتالي فهو محفوف بالعناية الإلهية.

الطريقة الثالثة: نقول: إن المصدر يعود إلى ما أوجده أو خلقه الخالق في الأرض، فيكون مصدراً غير مباشر، أي ثانوي دال على نوعية الطعام الذي كانت تتحصل عليه. كما أن النبات يأخذ فترة طويلة في النمو، ويمر في عدة مراحل، كإنبات البذرة أو التخصيب أو التلقيح

⁷⁷⁹ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص258.

أو التطور أو الوفرة، ويتطلب ذلك توفر الماء والهواء والتربة والمغذيات ودرجة الحرارة، وكذلك الإنسان يتطلب ما يتطلبه النبات، ولكن بشكل ومراحل مختلفة، فالإشارة إلى الإنبات في قوله تعالى: "وأنبثها نباتاً" يعود إلى الرزق/الغذاء الذي وقره الله لمريم (عليها السلام). وعلى إثر ذلك، يكون معنى الرزق دالاً على الغذاء، ومعنى الغذاء دالاً على الإنبات -وهو مصدره-، ومعنى الإنبات دالاً على مرحل النمو في الطبيعة، ومعنى مراحل النمو دالة على كافة العناصر التي يتكون منها النبات، ومنها: الكربون - الأيدروجين - الأكسجين - النيتروجين - الفوسفور - البوتاسيوم - الكالسيوم - المغنيسيوم - الكبريت - الحديد - الزنك - المنجنيز - النحاس - البورون - الموليبيدوم - الكلور، وهذه العناصر تعتبر دالة على مصادر الإنبات وهي الماء والهواء والأرض، وهي الأصل في عملية الإنبات، تماماً كما هي الأصل في إمداد مريم (عليها السلام) بالرزق/الغذاء، وهي كذلك الأصل في عملية الخلق بكافة أنواعه. واستكمالاً للإجابة على سؤال هل هناك ربط بين مصدر الرزق/الغذاء، وولادة مريم (عليها السلام) لابنها عيسى (عليه السلام) من غير أب ككرامة من الله؟

نقول: إن "مصدر الغذاء" كان عاملاً أساسياً مساعداً في خلق عيسى (عليه السلام) ونموه في رحم أمه مريم (عليها السلام). ومصدر الغذاء مرتبط بأميرين وهما: أولاً: إرادة وقدرة وقوة الله. وثانياً: موارد الطبيعة التي أوضحتها في قوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37}. إن هذين الأمرين هما اللذان جعلوا الرزق/الغذاء ممكناً، وهما اللذان جعلوا خلق عيسى (عليه السلام) بالطريقة التي صورها الله وأرادها له. ونذكر هنا أن أصل كل الصفات الإلهية المتعلقة بالإرادة والقدرة والقوة الإلهية سابقة على وجود الموارد الطبيعية، وأبرزها بأربعة موارد متصلة بخلق الإنسان من خلية أو من نطفة، وتعتبر أساس بقائه حياً على الأرض، وهذه الموارد هي: "التراب - والماء - والرياح/الهواء -

والحرارة/الطاقة"، وما ينتج عنها جميعاً من تفاعل يؤدي إلى الحرارة التي هي عنصر أساسي في إنتاج النبات أو خلق الإنسان. صحيح أننا ذكرنا بأن الإرادة والقدرة والقوة الإلهية سابقة على وجود موارد الطبيعة، لكنها أيضاً لاحقة، بمعنى أنها قوة فيها استمرارية وهي لا نهائية، ويدل على ذلك اسم الرزاق: وهو اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: المفيض بالنعمة بعد نعمة، والمُكثّر الموسع على عباده⁷⁸⁰. وقد ورد في القرآن قوله تعالى: "إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين" {الذاريات: 58}. قيل: تعليلاً لما تقدم من الأمرين، فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى: "ذو القوة" تعليل لعدم طلب العمل، لأن من يطلب رزقاً يكون فقيراً محتاجاً ومن يطلب عملاً من غيره يكون عاجزاً لا قوة له، فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق ولا أعمل فإني قوي⁷⁸¹. نقول: إن الله ربط الرزق أو الأسباب الشرعية الجالبة للرزق بقوته ومتانته بحسب وصف الآية: "ذو القوة المتين"، فالقوة جاءت قبل المتانة لإظهار القدرة على جلب الرزق، والمتانة جاءت بعدها لتثبيتها. ثقة الإنسان بالله والتوكل على الله والإقبال عليه يحتم أن يقابل بإظهار الله لقوته ومتانته في جلب الرزق لعباده. ومن الإشارات الإلهية على سابقة ولاحقة الموارد الطبيعة كمصدر للرزق، ذكر الماء والأرض. وقد يسمى المطر رزقاً⁷⁸². في كثير من الآيات يترافق ذكر الماء مع

⁷⁸⁰ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب،

2008)، ص884.

⁷⁸¹ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص235.

⁷⁸² محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م3، ج17، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص1637.

المطر والسماء، وذكر الأرض مع التربة والطين والنبات كما في الآيات التالية:

- قوله تعالى: "وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها" {الجاثية: 5}.
- وقوله تعالى: "هو الذي يُريكم آياته ويُنزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب" {غافر: 13}.
- وقوله تعالى: "وفي السماء رزقكم وما توعدون" {الذاريات: 22}.
- وقوله تعالى: "ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً" {النحل: 73}.
- وقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" {هود: 6}.

قال مجاهد: الرزق: هو المطر، وهذا اتساع في اللغة، كما يُقال التمر في قعر القليب، يعني به سقى النخل⁷⁸³. نقول: إذا أدركنا هذا المصدر، أي الماء والأرض، وفهمنا علاقة الأرض بالماء/المطر والإنبات، وفاعلية الحركة بما تنتج من حرارة أو طاقة، فإننا سوف نستدل على أن الله ليس له خوارق غير مفهومة أو غير مبررة أو غير منطقية، بل إننا سنفهم أن لخالق هذا الكون قدرات يمكن الاستدلال عليها والإعجاب بتكوينها وحركتها وانتظامها وإبداعها، وكل ذلك من أسرار الخالق.

ثانياً: نوعية الرزق/الغذاء:

نقول: إن النوعية دلّت عليها كلمة "حسناً" في قوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} وهو وصف لبناء مريم (عليها السلام) الجسدي وتشبيهه لسلامة بنيتها وهيئتها ونموها وبيئتها بسلامة بنية وهيئة ونمو وبيئة النباتات. والحسن ضد القبيح، وعلى هذا فإن الحسن

⁷⁸³ المصدر السابق، ص1637.

هنا له علاقة بالجمال. والحسن ضد الاعوجاج، وعلى هذا فإن الحسن هنا له علاقة بالاستقامة. والحسن ضد السفاهة، وعلى هذا فإن الحسن هنا له علاقة بالتخلق والأدب. وإذا كانت النوعية تدل على الشيء الحسن، فإن النوعية يمكن أيضاً أن تدل على الجودة. وإذا كان وصفاً "الحسن" جاء للنبات وطريقة الإنبات معاً، فإنه أيضاً يكون وصفاً للرزق/الغذاء. وقيل: الرزق الحسن: ما يصل إلى صاحبه بلا كد في طلبه⁷⁸⁴. نقول: وهذا متحقق في حالة وصول الرزق إلى مريم (عليها السلام)، ما يعني أن الكد للحصول على الغذاء بما يشتمل عليه من زروع وثمار يكون بفعل فاعل غير الشخص الذي يحصل عليه. وإذا كان للنبات أثر في الإنسان وهو موصوف بأنه حسن لقوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} والرزق هو في الأصل نبات، بالتالي فإن الحسن يكون للرزق والنبات معاً، وفي ذلك دليل على القدرة في الكمال الإلهي لإتمام أحسن النبات والرزق للنوع البشري. لقد ورد ذكر الرزق/الغذاء أو ما يدل عليه مع التوصيف بأنه حسن في ثلاث آيات كما يلي:

- قال تعالى: "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون" {النحل: 67}.
- قال تعالى: "قد أحسن الله له رزقاً" {الطلاق: 11}.
- قال تعالى: "قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" {هود: 88}.

إذا ربطنا مسألة نوعية ومصدر الغذاء بالاستمرارية الدالة على تكرار وجوده عندها، فإن ذلك يدل على أن إنبات مريم (عليها السلام) نباتاً حسناً كان بفعل التيسير والرعاية الإلهية في مدها بالرزق/الغذاء

784 أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص885.

لفترة طويلة منذ صغرها إلى أن اصطفاها الله لإنجاب عيسى (عليه السلام). كما أنه رغم وجود كفالة زكريا لمريم (عليهما السلام)، إلا أن الله جعلها -وهي تحت كفالته- في غنى عن كفالته من خلال كفالة إمدادها بالرزق/الغذاء، وهذا يدل على كثافة الرعاية الإلهية لمريم (عليها السلام)، ويعتبر ذلك جزءاً هاماً من التمهيد لعملية خلق عيسى (عليه السلام). نقول: إن الآية تحمل ذات المعنى القائم على علاقة الإنسان أولاً: بالنظام الغذائي -وهو نفسي وبدني- وثانياً: بالأمن الغذائي -وهو اجتماعي واقتصادي- وكلاهما كان أساسياً عند ذكر الإنسان والأزواج في القرآن عموماً، وكذلك ذكر الأماكن كالأرض والقرى وغيرهما، مع الإشارة إلى أهمية ذكر أربع كيانات اجتماعية على وجه الخصوص في موضوع النظام الغذائي والأمن الغذائي، وهي مريم (عليها السلام) كما شرحنا هنا، وإبراهيم (عليه السلام) في قوله تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي في واد غير ذي زرع عند بيتك المحرم" {إبراهيم: 37} وهذا ما شرحناه سابقاً {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص448} وقريش في قوله تعالى: "إيلاف قريش (1) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (2) فليعبدوا رب هذا البيت (3) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (4)". وسبأ في قوله تعالى: "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور" {سبأ: 15}. إن الأمور الأربعة سابقة الذكر، أي "القبول الحسن" و "النبات الحسن" و "وكفالة زكريا" و "والرزق من عند الله" تشير إلى أن النبي عيسى (عليه السلام) كان بالضرورة قوي البنية ومعافى في بدنه نتيجة هذا النشاء الحسن والسليم لأمه مريم (عليها السلام). وبعد كل ما سبق شرحه، فإن الماء الدافق في الترائب بالنسبة لمريم (عليها السلام) الذي تسبب في خلق عيسى (عليه السلام) -إذا ما أردنا القياس على مريم (عليها السلام) وترائبها لتبيان حقيقة وحدة النص القرآني- فإنه، أي الماء الدافق من الترائب، يتعلق بأهمية وجود الشروط الأربعة

الصحية لمريم (عليها السلام) وهي "القبول الحسن" و "النبات الحسن" و "كفالة زكريا" و "الرزق من عند الله"، وهذه كلها حقائق تشتمل على صحة مريم (عليها السلام) واستعدادها البيولوجي الحيوي في إنجاب النبي عيسى (عليه السلام)، أي أن النظام الغذائي، والرعاية الإلهية -من الله- والرعاية البشرية -من زكريا- ساعدت ومهّدت جميعها لعملية إنجاب عيسى (عليه السلام). وقد شرحنا معنى الترائب {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص242}

ثالثاً: استمرارية وجود الرزق/الغذاء:

نقول: إن "الاستمرارية" دلت عليها كلمة "كلماً" في قوله تعالى: "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً". ورد في معجم اللغة المعاصرة أن "كلماً": هي كلمة وظيفية: ظرف زمان يفيد الشرط⁷⁸⁵. وقيل: هي لفظ مركب من "كل" اتصلت بها "ما" المصدرية الظرفية. وبعضهم يُسمي "ما" نكرة موصوفة بمعنى: "وقت". وتفيد معنى التكرار في كل وقت، ولا تدخل إلا على الفعل الماضي⁷⁸⁶. إذا أدركنا أن "كلماً" الوارد ذكرها في الآية لا تدخل إلا على الفعل الماضي، وأن زكريا (عليه السلام) كرر كلماته في الآية بصيغة الماضي في قوله "دخل" و "وجد" و "قال" في إشارة إلى موضوع الرزق/الغذاء، عندها سوف نفهم أن الاستمرارية كانت متطابقة مع الوفرة في وجود الرزق. بالتالي يصبح معناها في الآية: "في كل وقت دخل عليها وجد عندها رزقاً/غذاءً" أو "ما من وقت دخل عليها إلا وجد عندها رزقاً/غذاءً". أي أن "الاستمرارية" دالة على عدة أمور منها الكثرة والوفرة والتتالي، أي عدم الانقطاع. كما أن "الاستمرارية" دالة على التراكمية، وهي تفيد وجود العافية والصحة

⁷⁸⁵ المصدر السابق، ص1953.

⁷⁸⁶ عريزة فوال بابستي، المعجم المفصل في النحو العربي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص834.

من خلال تناول نوع غني ومخصوص وذات جودة عالية من الطعام دلت عليه كلمة "كلما". كما أن الاستمرارية دالة على الأثر الذي أحدثته الطعام ونوعيته وجودته في جسد مريم (عليها السلام) وهو ما أدى إلى حدوث أثر العافية والسلامة قبل وأثناء وبعد ولادة عيسى (عليه السلام).

الآية الرابعة: قال تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" {آل عمران: 38}.

لما كفل زكريا مريم (عليهما السلام)، ولما رأى زكريا كيف وُلدت مريم مع أن أمها حنة بنت فاقوذ كانت عاقراً، أراد أن يكون له ذرية بالمثل، ولذلك دعا ربه كما جاء في الآية "هنالك دعا زكريا ربه". بالتالي فإن جملة "ذرية طيبة" في الآية المراد بها التشبيه، وهي تعود على مريم (عليها السلام). قال القرطبي: "هنالك" في موضع نصب؛ لأنه ظرف يُستعمل للزمان والمكان، وأصله للمكان. وقال المُفضَّل بن سَلْمَة: "هنالك" في الزمان، و "هنالك" في المكان، وقد يُجعل هذا مكان هذا⁷⁸⁷. نقول: إن كلمة "هنالك" على لسان زكريا فيها إشارة إلى المكان الوارد ذكره في سورة {آل عمران: 37} لقوله تعالى: "كلما دخل عليها المحراب" أي كلما دخل زكريا على مريم (عليها السلام) في المكان الذي رزقت فيه الطعام، أي "هنالك" بمعنى في ذلك المكان عندما رزقت مريم (عليها السلام) في ذلك المكان، وبعدما عملت على كفالتها واضطلعت على الحقيقة، "هنالك" بالتحديد خاطب زكريا ربه ودعاه أن يرزقه ذرية طيبة كمريم (عليها السلام)، وذهب بعدها للسؤال عن حاله وحال زوجته معاً كما في الآية: "رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني من الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء"

⁷⁸⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص108.

{آل عمران: 40} وفي ذلك دليل على أن البيئة التي نشأت فيها مريم (عليها السلام) لم تكن غريبة عنها، أي لم يكن غريباً أن تولد من أمها حنة بنت فاقوذ وهي عاقر، لأن ذلك سيحدث لزوجة زكريا الذي كفل مريم (عليها السلام) في صغرها. أي كأن زكريا طلب أن يكون له ذرية طيبة مثل مريم (عليها السلام)، وطيبة هي وصف زكريا لمريم (عليها السلام) باعتبار أنه كان كافلها، وأيضاً ذرية متقبلة عند الله، وإنشاءها بشكل حسن كما وُصف سابقاً في قوله تعالى: "فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبثها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} وقد سبق أن شرحنا هذه الآية بالتفصيل مع الإشارة إلى صلة قرابة زكريا وزوجته بمريم (عليها السلام)، ومكان وجود المحراب، وكيفية عيشها وتحصيلها للرزق {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص469} عموماً، تدل الآية على استعداد زكريا للتربية إذا ما رزق بمولود، وهو الذي طمع في الولد وقال: إن الذي يأتي مريم (عليها السلام) بالرزق قادر على أن يرزقني ولداً وفقاً لسؤاله الموجه إلى مريم (عليها السلام) في قوله تعالى: يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ⁷⁸⁸. في إشارة للرزق الذي يأتيها، وقد دعا زكريا ربه بعدما ما شاهد من كرامة لمريم (عليها السلام)، فتحققت دعوته ورزق بالنبى يحيى (عليه السلام) لاحقاً. وهذا الاستعداد للتربية بائن الأثر ويُراد به أن يكون مشابهاً لنشوء وقوامة مريم (عليها السلام) في قوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37}؛ لأن ذلك مرتبط بالتربية وبالنمو البيولوجي ضمن كفالة زكريا، وهو تشبيه بالنمو النفسي والطبيعي للنبات. وقد ذكر القرطبي في معنى قوله تعالى: "وأنبثها نباتاً حسناً" يعني سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ⁷⁸⁹، وهذا ما أراده زكريا لنسله المتوقع. إن قوله تعالى: "ذرية طيبة" أي: نسلًا صالحًا. والذرية تكون واحداً وتكون جمعاً، ذكراً

788 المصدر السابق، ص108.

789 المصدر السابق، ص104.

وأنتى. وقد أتت "طيبة" لتأنيث لفظ الذرية⁷⁹⁰. وروي من حديث أنس قال: قال النبي: "أي رجل مات وترك ذرية طيبة، أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئاً"⁷⁹¹. وفي حديث النبي "إذا مات أحدكم، انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"⁷⁹². نقول: إن دعوة الولد الصالح لا تنقطع لأن فيها دليل على ترسيخ أهمية النسل وضرورات الخلق وفاعلية الذرية. إن ذرية النسل، هو لفظ يقع على الواحد، والجمع، والذكر والأنثى، والمراد منه ههنا: ولد واحد، وهو مثل قوله تعالى: "فهب لي من لدك ولياً" قال الفراء: وأنت (طيبة) لتأنيث الذرية في الظاهر، فالتأنيث والتذكير تارة يجيء على اللفظ وتارة على المعنى، وهذا إنما نقوله في أسماء الأجناس، أما في أسماء الأعلام فلا؛ لأنه لا يجوز أن يقال جاءت طلحة، لأن أسماء الأعلام لا تفيد إلا ذلك الشخص، فإذا كان ذلك الشخص مذكراً لم يجز فيها إلا التذكير⁷⁹³.

عملية خلق عيسى (عليه السلام) (جمع في خلقه كل الأنواع).

قدرة الله على (خلق ما يشاء) و (القضاء في الأمر) و (تثبيت مشيئته)

الآية الخامسة: قوله تعالى: "قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" {آل عمران: 47}.

⁷⁹⁰ المصدر السابق، ص109.

⁷⁹¹ المصدر السابق، ص110.

⁷⁹² المصدر السابق، ص111.

⁷⁹³ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص36، 37.

إن القول في الآية على لسان مريم (عليها السلام) لأن قولها "قالت رب" أي: خطابها لجبريل؛ لأنه الرسول المكلف من الله بالتحاور معها، لأنه لما تمثّل لها قال لها: إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً". فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد، فقالت: أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر؟ أي: بنكاح. وقولها "لم يمسنني بشر" يشمل الحرام والحلال⁷⁹⁴. نقول: هذا التعجب والاستفهام من مريم (عليها السلام) في خطابها مع رسول الله، أي جبريل، فيه اعتراف صريح بأنها لم تتزوج رجلاً شريكاً في حياتها لا من قبل ولا من بعد. وفي الخطاب علم تام من مريم (عليها السلام) أن الولد يأتي عن طريق الزواج والنكاح، أي أن له طرق شرعية، وهي تدرك ذلك. ولكن لماذا قالت "يكون لي ولد" أي كيف عرفت أنه ولد ذكر وليس أنثى؟ نقول: لأن خطاب الوحي "الرسول" من الله بشرها بجنس المولود في قوله تعالى: "قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً" {مريم: 19}. كما نلاحظ أن قولها "ولم يمسنني بشر" تكرر مرتين في القرآن، فكانت المرة الأخرى في قوله تعالى: "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً" {مريم: 20}. وفي هذا الأمر تأكيد على نفي وجود أي نوع بشري شريك لها في أي نكاح لإنجاب عيسى (عليه السلام). كما أنها نفتت عن ذاتها أن تكون قد وقعت في الحرام أو من خلال الزنا في قولها: "ولم أك بغياً". لذلك جاء التأكيد الإلهي لتثبيت خطاب مريم (عليها السلام) واستفهامها وتعجبها في ثلاثة ردود متتالية دالة على قدرته وهي قوله تعالى في الآية: "الله يخلق ما يشاء" ثم قوله تعالى: "قضى أمراً" وقوله تعالى: "يقول له كن فيكون" {47: آل عمران} وهو تثبيت لثلاثة أمور: الأول: تثبيت لمشيئة الله. الثاني: تثبيت للأمر الإلهي وفيه دلالة على

⁷⁹⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص141.

علو شأنه وقضائه الأعلى فوق الخلق. الثالث: علمه وحده بقدرته على إتمام الخلق لأن "كن فيكون" تعبير عن مطلق تلك القدرة وخصوصيتها واختصاصها لله وحده، من خلال عملية التيسير في جعل أو إنتاج الخلية النباتية التي أحيت عيسى (عليه السلام) في بطن أمه مريم (عليها السلام).

الفرق بين (الغلام) و (الولد) في تسمية عيسى

الآية السادسة: قوله تعالى في سورة مريم: "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً (20) قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً (21)".

لقد سمّت مريم ابنها عيسى (عليهما السلام) في هذه الآية بـ "الغلام" وفي الآية السابقة سمّته بـ "الولد"، فما الفرق؟

نقول: إن تسميته بالغلام أيضاً وردت في الآية (19) من سورة مريم أيضاً في قوله تعالى: "غلاماً زكياً". قيل: المراد بالزكي النبي ⁷⁹⁵. قيل: الغلام الطار الشارب، يقال غلام بين الغلومة والغلومية. قال تعالى: "وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين" {الكهف: 80} وقوله تعالى: "وأما الجدار فكان لغلامين" {الكهف: 82}. واغتلم الغلام إذا بلغ حد الغلومة ولما كان من بلغ هذا الحد كثيراً ما يغلب عليه الشبق قيل للشبق: غلمه واغتلم الفحل ⁷⁹⁶. وقال الكسائي: الاغتلام أن يتجاوز الإنسان حد ما أمر به من الخير المباح، أي الذين جاوزوا الحد ⁷⁹⁷.

⁷⁹⁵ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج16، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص886.

⁷⁹⁶ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص472.

⁷⁹⁷ محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م6، ج36، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص3289.

أما الولد: فيقال غلام مولود وجارية مولودة، أي حين ولدته أمه، والولد اسم يجمع الواحد والكثير والذكر والأنثى. ولدته أمه ولادة، فهي والدة على الفعل، ووالد على النسب. والوليد: المولود حين يولد⁷⁹⁸. نقول: إن اختلاف التسمية هي من إبداعات الخطاب القرآني، وهو من دقة وعلم مريم (عليها السلام) الشرعي والبيولوجي في الوصف؛ لأنها لما قالت "ولد" قصدت بذلك المولود الذي يولد من رحمها، فيكون ذلك بإرادتها وهو منها وتابعاً لها. ولأن كلمة "ولد" جاءت في الآية منسجمة مع الحديث عن الخلق وتوكيده في ثلاث جمل وهي "يخلق ما يشاء" و "قضى أمراً" و "يقول له كن فيكون". أما قولها "غلام" في آية أخرى فقد جاء ذلك تأكيداً على أن الغلام يكون مولوداً بغير إرادة منها أو دون علمها ولذلك قالت في الآية: لم أك بغياً. أي أنها لم تقع في الحرام أو الزنا، وبالتالي قصدت ألا يكون الغلام قد تربى بعيداً عنها أو دون علمها من خلال وقوع زنا قد تكون شريكة فيه. أما الآية (21) التي تليها فقد ذكر فيها خمسة أمور، وهي قوله تعالى: "قال ربك" أي على لسان الملك الذي أوحى إلى مريم (عليها السلام). وقوله تعالى: "عليّ هين" أي سهل في الخلق. وقوله تعالى: "آية للناس" أي أنه إعجاز فيه توكيد دال على قدرة الله تعالى. وقوله تعالى: "رحمة منا" يجوز أن تكون معطوفة على قوله تعالى "انجعله آية" لكننا نقول إن الرحمة هنا تتعلق بتعدد خلق الله، حيث أراد الله أن يرحم النوع البشري، ولذلك جعل نسلهم من آدم (عليه السلام) ومن عيسى (عليه السلام)، وهذا تجديد وتنوع للخلق مع ثبات في المصدر، ونقصد بالمصدر الخالق "وهو الله" ومادة الخلق "وهي الخلية".

الخلية أم النطفة في رحم مريم العذراء "أم النبي عيسى" (عليه السلام).

⁷⁹⁸ المصدر السابق، ص4914.

أصبح من إلزاميات الحقائق العلمية والأخلاقية والدينية فهم عملية خلق عيسى (عليه السلام) من خلال فهم عملية خلق آدم آدم (عليه السلام).

أدوات التشبيه، وصيغة المماثلة، وبلاغة الوصف في خلق آدم وعيسى

الآية السابعة: قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران:59}.

نقول: إن المماثلة في تكرار كلمة "مثل" مرتين في قوله تعالى: "مثل عيسى" ثم قوله "كمثل آدم" لا تتعلق بكل أنواع المماثلة والمشاركة في كل الأوصاف، ولكن في نوعين من المماثلة تم ذكرهما في الآية، وهما "خلقه من تراب" أولاً، "ثم قال له كن فيكون" ثانياً. قال الرازي: "إن قوله تعالى: "خلقه من تراب" ليس بصلة لآدم ولا صفة، ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم. قال الزجاج: هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد، تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور، ثم تخبر بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا"⁷⁹⁹. نقول: هو خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم وعيسى معاً، وذلك لوجود أداتي التشبيه في الآية التي جاءت على ذكر كلمتي "مثل" و "كمثل" فكانت الأولى "مثل" أداة تشبيه تشير إلى عيسى (عليه السلام)، بينما الثانية "كمثل" أداتين للتشبيه وهما "الكاف" و "مثل" وتشيران إلى آدم (عليه السلام)، وإن استخدام "الكاف" كأداة من أدوات التشبيه، و"مثل" أيضاً كأداة من أدوات التشبيه هو صيغة مبالغة في التشبيه، وذلك يعني الملاءمة والمماثلة في الشبه، ولكن لا يعني التساوي في الشبه،

799 الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص83.

"والتماثل يكون في الكمال والجودة"⁸⁰⁰. "ويكون المثل بمعنى الآية"⁸⁰¹. "والفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس، لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين"⁸⁰². قال الخوارزمي: إن الله شبه عيسى بآدم: أي: خَلَقَ آدم من تراب، ولم يكن ثمّة أب ولا أم، فكذلك حال عيسى. فإن قلت: كيف شُبه به وقد وُجد هو بغير أب "أي عيسى" على حين وُجد آدم بغير أب ولا أم؟ قلت: هو مثيله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به؛ لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبيهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه⁸⁰³. كما أن استخدام أداتين من أدوات التشبيه يتناسب مع بلاغة الوصف والنوع في التشبيه لأمرين اثنين وهما: "خلقه من تراب" و "ثم قال له كن فيكون". إن المماثلة بين عيسى وآدم (عليهما السلام) هي في نوع الخلق ومادته وهي التراب، والمعنى كما قال البيضاوي: خلق قلبه من التراب ثم كونه⁸⁰⁴، ثم في عملية الإحياء التي أوجدته في الحياة من خلال النفخ في الروح والتي عبّر عنها بصيغة الأمر "قال له كن فيكون"، أي أنشأه

⁸⁰⁰ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص335.

⁸⁰¹ محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م6، ج46، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص4134.

⁸⁰² المصدر السابق، ص4132.

⁸⁰³ أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص174.

⁸⁰⁴ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص265.

بشراً. أما قوله تعالى في الآية: "قال له" أي لعيسى، وإذا كان عيسى مثل آدم (عليهما السلام)، فذلك يعني أن الله قال لعيسى ولآدم (عليهما السلام)، أي قال لهما لأنهما يشتركان في صيغة المماثلة التي عبر عنها القرآن في تكرار قوله تعالى: "مثل" و "كمثل". إن التماثل في عملية خلق آدم وعيسى (عليهما السلام) تؤكد أن الله أراد أن يجعل عيسى (عليه السلام) من حيث النوع بشراً كآدم (عليه السلام) وليس إلهاً أو ابناً لله. رغم ذلك قد يكون آدم (عليه السلام) أكثر تشريفاً من ناحية وجودية عند الله من عيسى (عليه السلام)؛ لأن خلق آدم (عليه السلام) كان من العدم، وذلك من خلال عملية إحياء لا يوجد قبلها أي جنس بشري. أما عيسى (عليه السلام) فإن عملية إحيائه تمت من خلال وجود أمه مريم (عليها السلام) وباقي أفراد سلالته، ما يعني أن كل الذين يمنحون صفة الألوهية للنبي عيسى (عليه السلام)، إنما يعبرون عن إهانة لآدم (عليه السلام) وأصالته باعتباره أصل الخلق، وأب هذه البشرية أو النوع الإنسي ومؤسس الحياة الأدمية على كوكب الأرض، أي أن الذي يشرك عيسى (عليه السلام) مع الله كابن، كأنه يشرك آدم (عليه السلام) مع الله كابن، وبالتالي يصبح كل البشر أبناء الله وهذا كفر وضلال والأهم أنه جهل بالحقيقة. وإن قوله تعالى في الآية: "عند الله" في الإشارة إلى عيسى (عليه السلام)، يعني وفق المعايير والموازين الإلهية في صناعة الخلق وبدء الروح، لأن الروح أمر لقوله تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" {الإسراء: 85}؛ ولأنها أمر فهي قرار، والقرار هنا إلهي بامتياز، ولا يمكن معارضة أو منع القرار الإلهي لأنه نافذ.

هنا نطرح ثلاثة أسئلة حيوية مستحقة متعلقة بألية خلق عيسى

(عليه السلام) كما يلي:

- السؤال الأول: كيف خلق الله عيسى (عليه السلام) من تراب وهو في رحم أمه، بمعنى آخر هل يعقل أن يوجد

أي تراب في رحم أمه مريم ابنه عمران، وما سبب ذكر
الكلمة في الآية؟

- السؤال الثاني: هل وجدت خلية أم نطفة في رحم أمه
مريم (عليها السلام) أم لم توجد؟
- السؤال الثالث: كيف كانت آلية التدخل الإلهي في عملية
خلق عيسى (عليه السلام)؟

معقولية التعبير القرآني: "إن عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من
تراب"

إجابة السؤال الأول:

نقول: جعل الله خصوصية في خلق عيسى (عليه السلام)، وشرّفه
في عملية الخلق بأن جمع فيه الأنواع الأربعة من الخلق، وهي الخلق
الأول "من تراب/طين"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة"،
والخلق الثالث "الإنشاء/التصوير"، والخلق الرابع "البعث/بعث
الروح في الجسد"، وهذا الخلق الرابع. قال القرطبي: "إن التشبيه واقع
على عيسى أنه خُلِقَ من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب.
والشيء قد يشبه بالشيء - وإن كان بينهما فرق كبير - فإن آدم خُلِقَ
من تراب ولم يُخلَقَ عيسى من تراب، فكان بينهما فرق من هذه الجهة،
ولكن شَبَهُ ما بينهما أنهما خُلِقَا من غير أب، ولأن أصل خلقهما كان
من تراب؛ لأن آدم لم يُخلَقَ من نفس التراب، ولكنه جَعَلَ التراب طيناً،
ثم جعله صلصالاً، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوّل من حال إلى حال،
ثم جعله بشراً من غير أب⁸⁰⁵. يُريد القرطبي لنا أن نفهم مكانة خلق
عيسى (عليه السلام) من ناحية بيولوجية باعتبارها عملية متسلسلة من

⁸⁰⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه
من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة
والنشر، 2006)، ص156.

نسل آدم (عليه السلام)، وأن التراب هو المادة الأصلية لعملية خلق آدم (عليه السلام) التي انتقلت إلى عيسى (عليه السلام) تلقائياً باعتباره ينتمي بيولوجياً إلى سلسلة ذرية آدم (عليه السلام). يعني نشير هنا إلى أن آدم (عليه السلام) هو الأصل، لأنه وُجد في الأرض كأول الخلق، أما عيسى (عليه السلام) فقد وُجد في بطن أمه مريم (عليه السلام)، فكان ناتجاً عن سلسلة الذرية التابعة لآدم مع خصوصية خلق عيسى (عليه السلام) في تماثل خلقه مع "مادة خلق" آدم (عليه السلام) وهي التراب على سبيل تبرير مسألة عدم وجود أب، وهي في حد ذاتها تبرير للقدرة الإلهية من خلال إيضاح طبيعة الاشتراك في أصل المادة، وهي على سبيل إرجاع الإنسان إلى أصل وطبيعة خلقه، ولكن دون التماثل في مكان الخلق أو آليته بين آدم وعيسى (عليهما السلام). نقول: إن عيسى (عليه السلام) يتبع سلسلة ذرية آدم (عليه السلام) بالاستناد إلى قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12} والسلسلة كما يقول الرازي "بمعنى المفعولة لأنها هي التي تسلم من أطف أجزاء الطين، ثم إنه أثبت من صفات الخلق ثلاثة أنواع: (أحدها): أنه من صلصال، والصلصال: اليباس الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي يسمع من داخله صوت. (الثاني): الحمأ وهو الذي استقر في الماء مدة، وتغير لونه إلى السواد. (والثالث): تغير رائحته لقوله تعالى: "فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه" {البقرة: 259} أي لم يتغير⁸⁰⁶. وهذه الآية الأخيرة تتناول علاقة الطعام والشراب بالإحياء بعد الموت، أي لهما علاقة بالخلق، ونحن نعلم أن النظام الغذائي للإنسان له تأثير على حركة الإنجاب والنسل عموماً. بهذا المعنى تتجلى القدرة الإلهية في إتمام وتسلسل عملية الخلق بكل أنواعها في فترات زمنية متباعدة، وذلك فيه تأكيد على

⁸⁰⁶ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامّة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص83.

خلق عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) بوصفهما ذرية آل عمران، وبالتحديد حنة بنت فاقوذ، امرأة عمران، ووالدة مريم العذراء، وجدة عيسى بن مريم (عليهم السلام). كما أن آل عمران من ذرية آدم (عليه السلام) وفقاً للتسلسل التاريخي وخصوصيته الاجتماعية بالمعنى البيولوجي الذي يؤشر إلى حيوية وجدوى الاتصال بين السلالة في قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12}. ولذلك قال الرازي: إن العقل دل على أنه لا بد للناس من والد أول، وإلا لزم أن يكون كل ولد مسبوق بوالد لا إلى أول وهو محال، والقرآن دل على أن ذلك الوالد الأول هو آدم (عليه السلام) كما في هذه الآية لقوله تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها" {النساء: 1} وقوله تعالى: هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها {الأعراف: 189} ⁸⁰⁷. كما أن قوله تعالى "من تراب" في الآية فيه إشارة إلى نوعية المادة المستخدمة في الخلق الأول "من تراب/طين"، وقوله في نفس الآية "ثم قال له كن فيكون"، هو الخلق الثاني، أي "عملية الإحياء للخلية/النطفة"، وأما الخلق الثالث فهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، وهو يحدث لكل جنين في رحم أمه، لأنه الاستكمال الطبيعي لعملية الخلق الأول والثاني، ويعتبر خلقاً للأعضاء واستكمالاً لنموها، وهو ما عبر عنه القرآن في أكثر من موضع في القرآن لقوله تعالى: "هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم" {آل عمران: 6}. وقوله تعالى: قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون {الملك: 23}. نلاحظ أن الله قال في سورة {آل عمران: 6} "يصوركم في الأرحام كيف يشاء"، بينما قال في سورة {الملك: 23} "أنشأكم وجعل لكم"، وهناك تقارب بين التعبيرين، لكنه تصوير دقيق لتتابع ودقة عملية الخلق، ففي

⁸⁰⁷ المصدر السابق، ص 83.

قوله تعالى: "يصوركم في الأرحام كيف يشاء" يعني بها مرحلة الخلق الثالث "الإنشاء/التصوير" وهي المرحلة التي تلي الخلق الأول، أي إحياء الروح في "الخلية/النطفة". أما قوله تعالى: "أنشأكم وجعل لكم" فهو يعني بها أيضاً مرحلة الخلق الثالث وهو "الإنشاء/التصوير" للخلق، لا فرق، فقوله "يصوركم" في سورة {آل عمران: 6} تقابل قوله "أنشأكم" في سورة {الملك: 23}، لكن السؤال هنا، لماذا قال في سورة {الملك: 23}، جملة "وجعل لكم" بعد قوله "أنشأكم"؟ وما معنى قوله "جعل لكم" في وصف تكوين السمع والأبصار والأفئدة؟

نقول: إن الجعل هنا المقصود به الخلق، وهو الخلق للأعضاء، وهذا الخلق هو جزء فرعي من الخلق الثالث "الإنشاء/ والتصوير"، لكنه سُمي خلقاً لأنه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان روحاً خاصة به، فجعل السمع خلقاً، والبصر خلقاً، والفؤاد خلقاً من ناحية البناء البيولوجي. ومن مجموع الخلق الذي جمعه الله في عيسى (عليه السلام)، وهو أهم أنواع الخلق وأكثرها حساسية، الخلق الرابع، وهو "البعث/بعث الروح في الجسد"، وهو الخلق الجديد المرتبط بيوم القيامة بعد فناء الجنس البشري وقيام الروح والملائكة بأمر الله، وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً" {النبأ: 38}. وقوله تعالى: "يوم يقوم الناس لرب العالمين" {المطففين: 6}. والآيات الأهم التي ارتبطت بالسيد المسيح وتعتبر عن مفصل حيوي وهام في قضية بعثه وإحيائه من جديد، وهي:

– قوله تعالى في سورة مريم: "والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً" (33).

– وقوله تعالى في سورة النساء: "بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً (158) وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً (159)".

– وقوله تعالى في سورة آل عمران: "إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيباً في الدنيا والأخرة (45)".

لهذه الآيات شرح طويل ومفصل في مجمل تفاسير القرآن، لكننا سننظر في الجزء الذي يخص موضوع وسياق الشرح في الكتاب، وبالتحديد، الخلق الرابع وهو "البعث/بعث الروح في الجسد". ورد في الآية {33: مريم} قوله تعالى: "ويوم أبعث حياً" وهذا القول هو دليل على أن النبي عيسى (عليه السلام) يعود حياً مبعوثاً بعدما يعيده الله في نهاية الزمان حين يتقرر في الميزان السماوي وقوع يوم القيامة، وهذا أمره عند الله. كما ورد في قوله تعالى: "ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً" {159: النساء} أي على قومه "أهل الكتاب" الذين آمنوا به وبرسالته السماوية قبل موته، وهو في هذا الحال يعود كي يشهد عليهم كنبى مرسل من السماء على ما فعلوه وقتذاك. كما ورد في قوله تعالى: "وجيباً في الدنيا والأخرة" {آل عمران: 45}، وذلك يفيد بأن للنبي عيسى (عليه السلام) بشرى في وقت ولادته وبشرى في الأخرة، ويقصد بالأخرة يوم القيامة. كل الآيات السابقة تدل على أن المسيح يبعث حياً مثلما يُبعث الخلق جميعاً، وإن بعثه يؤكد أن موته كان محققاً مثله مثل البشر، مع الاختلاف في الطريقة التي مات بها وهي بالمعيار الإلهي لها خصوصية قدسية، من حيث حماية الله له من الصلب ووقوع الجريمة بحقه، كيف لا، وهو رسول الله.

خلية وليس نطفة في رحم مريم العذراء

إجابة السؤال الثاني:

نقول: إن النطفة لم تكن موجودة في رحم مريم (عليها السلام)، رغم أن النطفة هي الضرورة التي من خلالها تبدأ مرحلة إنشاء

الجنين، لكن الذي وُجد شيئاً آخر وهو أولاً: الخلايا التي يمكن أن تتطور إلى أعضاء جنينية وهذا مثبت علمياً، أي أن الله أنشأ عيسى (عليه السلام) من هذه الخلايا ونفخ فيها الروح. وثانياً: الأرضية الخصبة التي أنتجت عيسى (عليه السلام) باعتباره من سلالة آدم (عليه السلام)، أي أن المادة الأصلية "نواة الخلية" موجودة أصلاً في جسد مريم (عليها السلام) ضمن السلسلة الوراثية لآدم (عليه السلام). ولذلك قال الطبطبائي: إن خلقة عيسى كانت خلقة بشرية، وإنما خرقت العادة في التناسل فتمت من غير نطفة الذكور، كما تمت خلقة آدم من غير نطفة⁸⁰⁸.

كيفية التدخل الإلهي في خلق عيسى

إجابة السؤال الثالث:

نقول: إن الله أشرف بذاته على خلق عيسى (عليه السلام) من خلال طريقة النوع الثاني من الخلق وهو "الإحياء للخلية من دون النطفة" في رحم مريم (عليها السلام)، وذلك من خلال لغة الأمر في قوله تعالى: "ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}. مع مراعاة الزمن الذي ألقى الله به صيغة الأمر، سواء كان في لحظة نشوء أو بناء الخلية أو بعد اكتمال بنائها وتكوينها، أي أن الله جعل البديل لعملية الماء الدافق من جسم الرجل إلى رحم المرأة، هو قوله تعالى: "كن فيكون" {يس: 82} في دلالة على أن القوة والقدرة الإلهية تجلت بوضوح في لغة الأمر، وما يندرج تحتها من إرادة إلهية تماثل قدرته على إنتاج الخلق الأول "من تراب/ طين"، وليس من خلال أي عملية جنسية مع أي رجل. قال ابن كثير: أراد الله أن يُظهر قدرته لخلقه، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى

⁸⁰⁸ محمد حسين الطبطبائي، تفسير البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن، ج2، ط1، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 2006)، ص219، 220.

من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى⁸⁰⁹. نقول: إن الله جعل الخلق البشري كله ذكر وأنثى وهذا هو الأصل قبل نزول آدم وحواء (عليهما السلام) إلى الأرض، حيث كانا يعيشان في الجنة كجنسين مختلفين، أي ذكر وأنثى، ولما نزل إلى الأرض بقيا ذكراً وأنثى. أما نزولهما إلى الأرض فقد كان نزولاً إحيائياً لأدم (عليه السلام)، حيث إن الله خلقه وسواه على هيئة غير التي كان عليها في الجنة، وكذلك الحال بالنسبة للتدخل الإلهي في حالة عيسى (عليه السلام)، كان إرادة إلهية ثم قراراً ثم فعلاً.

التمكين الإلهي لعيسى في الاقتدار على الخلق

الآية الثامنة: قوله تعالى: "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جنتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهينة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" {آل عمران: 49}.

نقول هذه الآية فيها نقاش لخمس مسائل، وهي:
 المسألة الأولى: خلق كائنات حية غير آدم (عليه السلام) وذريته عموماً.
 المسألة الثانية: لماذا قال "أنفخ فيه" ولم يقل أحيي فيه الروح، ولماذا قال أخلق "كهينة الطير" ولم يقل "أخلق الطير"؟
 المسألة الثالثة: مهمة الخالق - وهو الله عز وجل - كمسؤول أول وأخير عن كافة الخلق بما فيها آدم وبقية الكائنات الحية.

809 عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، 2ط، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص49.

المسألة الرابعة: تثبت معيار أو صفة النبوة للرسول، وأهم صفة للنبوة للنبي عيسى (عليه السلام) تتعلق بتسميته رسولاً ومكّن الله له في القدرة على الخلق.

المسألة الخامسة: منح الله القدرة لعيسى (عليه السلام) على الإحياء والإخراج لقوله تعالى في الآية "وأحيي الموتى بإذن الله"، على حين قال في الآية التالية "نُخرج الموتى بإذني"، فما الفرق بين الإحياء والإخراج؟ وهل هو إحياء يشبه الإحياء الإلهي؟

المسألة الأولى: فيما يتعلق بخلق الكائنات الحية غير آدم (عليه السلام) فهو في الآية أقر بخلق الطير، وهو نوع من الكائنات الحية، وذلك في قوله تعالى: "أخلق لكم". وقيل معناها: أصور وأقدر لكم، قاله القرطبي⁸¹⁰. وهذا ما قاله الرازي⁸¹¹. نقول: لما ذكرنا أنواعاً أربعة في مسارات خلق آدم (عليه السلام) وذريته، فإن واحداً منها ينطبق على معنى قوله تعالى: "أخلق لكم" وهي الخلق الأول -من تراب/طين- ثم يأتي بعدها النفخ في روح الطير وهو عملية الإحياء من نطفة خلية نشأت من طين وماء الأرض، ما يعني أن أصل الطير من الأرض، -أي من الماء والتراب/الطين- وهو نفس أصل النبات - من الماء والتراب/الطين، وبالتالي نقول بأهمية النظر في أن أصل الحيوانات كلها هو من الزواحف، وأصل الزواحف من الأرض -أي من الماء والتراب-، فإذا كان لا بد من النظر، فيجب أن يكون في حقيقة أن أصل الكائنات الحية كلها مخلوقة من الماء، وهذا ما قاله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم

⁸¹⁰ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص143.

⁸¹¹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص61.

من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع" {النور: 45}. بشكل عملي وعلمي، إذا دققنا في الحيوانات الإديكارية وهي كائنات حية قديمة يرجع أصولها وتاريخها إلى أول العصور التي ظهرت فيها أحياء على الأرض، سنجد أنهم وجدوا آثار دهون في أحفورة اسمها ديكنسونيا ويبلغ عمرها 558 مليون سنة، وتشير التقارير إلى أنها حيوان وليس فطراً أو نباتاً أو أحادي الخلية⁸¹². هذه الدهون التي وجدوها في الأحفورة عادة ما تكون ناتجة عن كائن حي سابق ميت، لأن الكائنات الحية الدقيقة مثل هذه الأحفورة ديكنسونيا تتغذى على الجثث من خلال أكل بقايا الكائنات الحية الميتة من خلال عملية تحلل الدهون. كما وجدوا أن جزيئات من دهن الأحفورة، تحتوي على الكوليسترول المعقد الذي لا يوجد في الأنماط العليا من الكائنات الحيّة، والتي ينحدر منها البشر.

نسأل هنا، ثلاثة أسئلة ونجيب عليها باختصار كما يلي:

السؤال الأول: ما علاقة الدهون بالكوليسترول؟

السؤال الثاني: هل للدهون علاقة بالخلية التي خلق منها آدم

(عليه السلام) والخليتين النباتية والحيوانية؟

السؤال الثالث: هل تعتبر هذه الدهون الموجودة في الأحافير هي

بقايا كائنات حية دالة على وجود آدم (عليه السلام)؟

علاقة الدهون بالكوليسترول في الأحافير والكائنات الحية

نقول: يوجد في الخلية النباتية أو الحيوانية (في كافة الكائنات الحية ومنها الإنسان والحيوان والنبات) طبقة من الليبيدات المفسفرة، وتسمى فوسفوليبيد أو دهن فوسفوري (Phospholipid) والتي

⁸¹²<https://www.smithsonianmag.com/smart-news/worlds-earliest-known-animal-may-have-been-blob-undersea-creature-180970379>

تتكون من مجموعة من الأحماض الدهنية، وتتكون الأحماض الدهنية من الكربون والأكسجين والهيدروجين، وتوجد هذه الأحماض على شكلين، أحماض دهنية مشبعة وأحماض دهنية غير مشبعة، أما الأحماض الدهنية المشبعة فتكون نوع الروابط الكيميائية الموجودة بين ذرات الكربون روابط تساهمية أحادية، فيكون المركب غير قادر على التفاعل مع مركب آخر، مثل زيت الزيتون. أما بالنسبة للأحماض الدهنية غير المشبعة فتكون الروابط الكيميائية بين ذرات الكربون روابط تساهمية ثنائية أو ثلاثية، فتكون المركبات قابلة لكسر الروابط الكيميائية القديمة وتكوين روابط كيميائية جديدة مع مركبات جديدة، مثل زيت عباد الشمس. توجد الأحماض الدهنية في الكائنات الحية بنسب طبيعية معينة، فإذا حدث خلل عن هذه النسب يتسبب في العديد من الأمراض مثل النحافة أو السمنة. بالنسبة للسمنة تنتج عن زيادة غير طبيعية في نسبة الأحماض الدهنية، وبسبب تراكمها في أجسام الكائنات الحية تتحول إلى الكوليسترول -وهو مركب كيميائي معقد- والذي يتعبر دهون دائمة في الجسم ويصعب التخلص منها؛ لأنه يسمى بالدهن المزمّن.

إذا كان أصل الدهون من الطعام المتحلل من الجثث، والجثث تغذت على النباتات والحيوانات، وهذه الكائنات الحية يوجد بها خلايا، والخلايا أصلها من العناصر المكونة لجزيء الماء، وهما ذرتا الهيدروجين وذرة الأكسجين، بالتالي فإن الماء هو أصل كل المواد والعناصر المكونة للكائنات الحية. قيل: إنه ليس شيء إلا وفيه ماء، أو قد أصابه ماء، أو خُلِق من ماء⁸¹³. نقول: إذا قالوا بأن أحفورة ديكنسونيا هي حيوان فهذا لا يتناقض مع الآية، ولو قالوا بأن أصلها زاحف أو حيوان تحوّل إلى زاحف، فهذا أيضاً لا يتناقض مع الآية، وإذا قالوا ليست نباتاً فهذا صحيح لأن نوع النبات غير نوع الحيوان.

⁸¹³ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص141.

أما إذا قالوا إنها ليست أحادي الخلية فذلك ليس صحيحاً لأن الله خلق الماء، وأصل كل جزيء من الماء يحتوي على ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وإن وجود الأكسجين في الماء ضروري لإحياء الكائنات الحية وهو سبب لوجودها. قيل إن الأرض في مرحلة ما خضعت لما يسمه العلماء حدث الأكسدة العظيم (Great Oxidation Event) "جي أو إي" (GOE)، حيث تطورت ميكروبات المحيطات لإنتاج الأكسجين عبر عملية التمثيل الضوئي⁸¹⁴. نقول: إن تطور الميكروبات لإنتاج الأكسجين حدث ناتج عن إحياء هذه الميكروبات من خلال الماء، وهذا مؤكد في قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}. كما أن الدليل على أن تلك الكائنات الحية سابقة على بقية الكائنات وتعتبر أصلها في الخلق، قوله تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً" {البقرة: 29}. وكلمة "خلق" ههنا إشارة إلى الماضي⁸¹⁵. بالتالي لما ذُكر الماء في الآية، كان يُقصد بها مادة خلق الكائنات، ومنها أحفورة ديكسونيا قبل 558 مليون سنة وغيرها من الأحافير. فلما كان خلق الطير و آدم (عليه السلام) من نفس المادة، اشتمل ذلك على وجود صفات أخرى متشابهة مع آدم (عليه السلام) ومنها الروح على سبيل المثال. قيل: الضمير في قوله تعالى: "كهينة الطير" راجع إلى الكاف، وقيل: الضمير راجع إلى الطير، أي: الواحد منه، وقيل: إلى الطين⁸¹⁶. ولكننا نقول: إن الضمير راجع إلى مادة الخلق وهي الطين. قال القرطبي: الطير يُذكَر

<https://www.nature.com/articles/s41467-021-23286-7>⁸¹⁴

⁸¹⁵ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص61.

⁸¹⁶ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص219.

ويؤنث⁸¹⁷. نقول: إن الحيوانات الإدياكارية ككائنات حية قديمة تفاعلت مع الماء فتطورت إلى زواحف ثم إلى طيور وبعدها إلى حيوانات وجميعها ضمن مملكة الحيوانات، وتوصف بأنها ثنائية التناظر، وفيها شعب متعددة، مثل الحبليات والرخويات، والديدان، والشوكيات، وهذا مثبت بنص القرآن؛ لأن الله تعالى قال: "فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع" {النور: 45}. على سبيل المثال، تعتبر "الثعابين من أقدم الزواحف التي يرجع ظهورها إلى العصر الترياسي من عصور زمن الحياة الوسطى Mesozoic منذ (200 مليون سنة)"⁸¹⁸. وهذا يدل على أن أول الكائنات هي التي كانت تمشي على بطنها.

الطائر المنقرض (أركيوبتركس) يجمع بين صفات الزواحف والطيور

أما عن حلقة الوصل بين الزواحف والطيور فهو مثبت علمياً، حيث تم اكتشاف الطائر أركيوبتركس وهو طير منقرض قبل ملايين السنين، وهو من أنواع الطيور التي تجمع بين صفات الزواحف والطيور، وهو أول طير يظهر له ريش في جسمه، وهذا الطائر موجود في متحف التاريخ الطبيعي البريطاني⁸¹⁹. وعموماً عاش هذا الكائن في الفترة أو العصر الجوراسي، وهذا العصر جاء بعد العصر الأدياكاري بمئات ملايين السنين. بعد ذلك تطورت الكائنات الحية إلى

⁸¹⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص143.

⁸¹⁸ الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عبد العليم خضر، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص22.

⁸¹⁹ <https://www.nhm.ac.uk/galleries/galleries-/home/treasures/specimens/archaeopteryx>

الطيور في الطبيعة، وبحسب الجاحظ فإن "الطير كله على ثلاثة أضرب: فضرب من بهائم الطير، وضرب كسباع الطير، وضرب كالمشترك المركب منها جميعاً. فالبهيمة كالحمام وأشبهاه الحمام، مما يتغذى الحبوب والبيذور والنبات، ولا يتغذى غير ذلك. والسبع: الذي لا يتغذى إلا اللحم. وقد يأكل الأسد الملح، ليس على طريق التغذية، ولكن على طريق التملح والتحمض" ⁸²⁰.

هذه المسألة تدخلنا إلى قضية أخرى للنقاش نطرح معها مجموعة من الأسئلة كما يلي:

- السؤال الأول: هل نوافق مع تقسيم الطيور عند الجاحظ؟ وما هو التقسيم التاريخي المقترح؟
- السؤال الثاني: ما هو نوع الطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) وماذا كان جنسه (ذكراً أم أنثى)؟
- السؤال الثالث: لماذا قال في الآية: أخلق (كهينة الطير) ولم يقل (أخلق الطير أو أخلق طيراً)؟
- السؤال الرابع: هل توجد خفافيش من جنس الذكور في الطبيعة؟

- السؤال الخامس: ما العبرة أو الآية الإلهية في تمكين عيسى (عليه السلام) لخلق جنس الطير أنثى وليس ذكراً؟
- السؤال السادس: هل هناك علاقة بين العناصر المكونة لطبقة التروبوسفير (Troposphere) التي تطير فيها الطيور مع مكونات الخلية الأولى في رحم مريم (عليها السلام)؟
- السؤال السابع: هل تصح المقارنة بين أنثوية جنس الخفاش بوصفه يحبل ويولد ويحيض، مع حياة مريم (عليها السلام) لحظة ولادتها لابنها عيسى (عليه السلام)؟

⁸²⁰ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص205، 206.

- السؤال الثامن: ما هي العلاقة بين مادة خلق الخفاش بالملائكة؟

- السؤال التاسع: ما هي العلاقة بين هيئة خلق الخفاش ومظهر الملائكة؟

- السؤال العاشر: ما هو أصل اسم "الخفاش"، ولماذا نقترح اسم "شبيه الطيرانكي"؟

إجابة السؤال الأول: هل نوافق مع تقسيم الجاحظ للطيور؟ وما هو التقسيم التاريخي المقترح؟

تقسيم الطيور عند الجاحظ، وتقسيمنا التاريخي المقترح

نقول إن الطير على نوعين تاريخيين خلفيين:
النوع الأول: طيور (كائنات حية) مخلوقة إحيائياً.
النوع الثاني: طيور (كائنات حية) مخلوقة روحياً.

الفرق بين النوعين:

أولاً: المخلوقة إحيائياً: هي كائنات حية خلقت في الطبيعة بفعل خلق الله لها (نقصد بالفعل هنا الأمر الإلهي)، وهو إحياء من العدم، أي من دون وجود أثر سابق لها في أي زمان أو مكان، سوى وجود مادة خلقها في الطبيعة، وهذه المادة هي التي خلقها الله، ومادة خلقها الأصلية هي التراب/الطين والماء. وهذا الخلق الإحيائي بدأ بالنوع البشري، أي آدم وحواء (عليهما السلام) عبر تشكيل هينتهما وإحياءهما من خلال النفخ في روح كل منهما. بالتالي فإن كل أنواع الكائنات الحية (الطيور) التي نراها في الطبيعة متطورة من مادة الخالق الأصلية، وقد صنّفت لاحقاً بأنها مملكة الحيوانات حقيقية النوى مثل دودة الأرض.

ثانياً: المخلوقة روحياً: هي كائنات حية وُجدت في الطبيعة (لاحظ هنا أننا قلنا وُجدت ولم نقل خُلقت لاعتقادنا بأن الطين الذي استخدمه عيسى (عليه السلام) في خلق الطير كان متكوناً أو يحتوي على الدهون، والتي قلت سابقاً إنها موجودة في الأحافير وتكون ناتجة عن كائن حي سابق ميت، لأن الكائنات الحية الدقيقة تتغذى على الجثث من خلال أكل بقايا الكائنات الحية الميتة من خلال عملية تحلل الدهون). فإذا أخذنا بعين الاعتبار فارق الزمن بين خلق آدم (عليه السلام) والتحوّلات التي طرأت على الطبيعة، سندرك وجود الكثير من الكائنات الحية الميتة والمتحللة التي أنتجت الدهون في الطين أو التراب الذي استخدمه عيسى (عليه السلام) لخلق الطير. بالتالي فإن قول عيسى (عليه السلام): "جئتم بأية من ربكم أي أخلق لكم" يقصد بها أن الخلق في الأصل هو خلق إلهي خالص، و"آية من الله" يقصد بها أن في إلقاء الأمر الإلهي مقدره نسبية لعيسى (عليه السلام) في التمكن من الخلق. أما لماذا قلنا مخلوقة "روحياً" وليس "إحيائياً" فذلك لأن "الإحيائي" متعلق بفعالين (أمرين)، وهما "الإحياء ثم النفخ في الروح". أما "الروحي" فهو متعلق بفعل واحد (حدث) ملحق أو تابع للفعالين أو (الأمرين الأوليين) وهما (أمر الإحياء وأمر النفخ في الروح) وذلك قال في الآية "أنفخ فيه" ولم يقل "أحيي فيه"، والنفخ غير الإحياء للروح، لأن النفخ بالفم البشري أدنى مرتبة من الإحياء الإلهي (عبر الملائكة) بالنفخ في الروح. فإذا تساوى (النفخ البشري) مع (النفخ الملائكي) للروح فهذا يعني أن النافخ يجب أن يكون ملاكاً وليس بشراً. بالتالي يكون "الروحي" باستتمام الخلق والإحياء "بوصفهما جاهزين مسبقاً وبشكل نسبي للخلق والإحياء" ولا نقول إنهما ناقصين؛ لأن النقص من "المخلوقة روحياً" يعني نقص من "المخلوقة إحيائياً" وهذا غير مقبول البتة لأنه تشكيك في قدرة الخالق "الله" على إتمام خلقه. بالتالي فإن الكائنات الحية بكافة أنواعها "المخلوقة روحياً" تابعة "للمخلوقة إحيائياً"، والأولى "المخلوقة

إحيائياً" أمر وإرادة إلهية، والثانية "المخلوقة روحياً" اصطفاً وآية إلهية. ومن الأسباب الوجيهة التي جعلتني أطلق تأسيساً لهذين النوعين التاريخيين الخلقيين من الطيور، وبالتحديد "المخلوقة روحياً" لأن الإحياء لروح الجنين في رحم الأم مثلاً يكون بعد تحوّل النطفة إلى مضغة بعد مرورها في مراحل متعددة، ثم تُنفخ الروح في المضغة بعد أن يكون قد مضى عليها أربعين يوماً، وهذه المسألة أوضحناها في سورة {الحج: 5} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص204} لذلك فإن هذا الإحياء للمضغة ليس مشابهاً للإحياء للخلية الأولى لآدم (عليه السلام) بعد خلقه من تراب/طين وماء، ولذلك قلت إنه خلق رُوحِي وليس إحيائي. بناءً على ما سبق، إذا كان خلق الطير "خلقاً إحيائياً" فإن خلقه لا يتطابق مع خلق النوع البشري، أي آدم (عليه السلام) سوى في مادة الخلق، وهي الطين/التراب والماء. وهذا الأمر يثبت أن عيسى (عليه السلام) لم يخلق، ولم يكن بإمكانه أن يخلق أي خلق يتساوى مع نوع بشري، وأول هذا النوع هو آدم وحواء (عليهما السلام) أو إحياء أي منهما من خلال النفخ في الروح.

نوع وجنس الطير الذي خلقه عيسى (الخفاش)

إجابة السؤال الثاني: ما هو الطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) وماذا كان جنسه ذكراً أم أنثى؟
 لما بحثت في الطيور وخصائصها وجدت أن الشوكاني أورد في تفسيره أنه "لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة، فإن له ثدياً، وأسناناً، وأذناً، ويحيض، ويطهر، وقيل: إنهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة، وبوصفه يطير بغير ريش، ويلد، كما يلد سائر الحيوانات مع كونه من الطير، ولا يبيض، كما يبيض سائر الطيور، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، وهو

يضحك كما يضحك الإنسان" ⁸²¹. وهذا ما قاله القرطبي أيضاً: لأن الخفاش أكمل الطير خلقاً ليكون أبلغ في القدرة ⁸²². في حين قال الجاحظ إن "الخفاش طائر، وهو شديد الطيران، كثير التكفي في الهواء، سريع القلب فيه، وهو ليس بذي ريش، وإنما هو لحم وجلد، فطيرانه بلا ريش عجب. ومن أعجيبه أنه لا يطير في ضوء ولا في ظلمة، وهو طائر ضعيف قوي البصر، قليل شعاع العين الفاصل من الناظر. ولذلك لا يظهر في الظلمة؛ لأنها تكون غامرة لضياء بصره، غالباً لمقدار {قوى} شعاع ناظره. ولا يظهر نهاراً؛ لأن بصره لضعف ناظره يلتمع في شدة بياض النهار. ولأن الشيء المتلألئ ضار لعيون الموصوفين بحدة البصر ⁸²³. نقول: إن الطير الوحيد الذي ينطبق عليه تقسيمنا لنوع الكائنات الحية (المخلوقة روحياً) هو الخفاش، وهو يقع خارج دائرة الشعبة ويصنف من الفقاريات، والفقاريات تشمل رباعيات الأرجل أو رباعيات الأطراف وهي تشمل: الثدييات، والطيور، والزواحف، والبرمائيات، والديناصورات، علماً بأن الخفاش يجمع بين الثدييات والطيور وهو الحيوان الثديي الوحيد الذي يستطيع الطيران، وتعرف شعبته باسم الخفاشيات. والخفش في اللغة كما ذكر الفراهيدي: هو فساد في الجفون تضيق له العيون من غير وجع ولا فُرح ⁸²⁴. على حين قال الجواهري: الخفش هو صغر في العين وضعف في البصر خلقة. وهو

⁸²¹ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص219.

⁸²² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص143.

⁸²³ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط2، ج3، (مصر: شركة ومطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1965)، ص226، 227.

⁸²⁴ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هندواوي، ج1، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص425.

الذي يُبصر الشيء بالليل ولا يُبصره بالنهار⁸²⁵. وقيل: خفش الشخص: ضعف بصره في النور الشديد، فأبصر بالليل دون النهار. أو صغرت عينه وفسدت جفونه بلا وجع. وقيل: خفافيش الظلام: تعني: أصحاب الدسائس⁸²⁶. نقول: إن رأي الشوكاني أكثر صواباً من رأي الجواهري ومما ذكر في معجم اللغة العربية المعاصرة لأن الخفاش لا يبصر في الليل إلا نسبياً ولا يكون بصره في الليل تاماً، وبالتالي فإن أقوى درجة إبصار عند الخفاش هي بين الليل والنهار، أي وقت غروب الشمس. نقول: بالنسبة لجنس الطير فهو أنثى. قيل: الطير: اسم جامع مؤنث. الواحد: طائر، وقلما يقال للأنثى: طائرة. ويُجمع الطير على أطيار كما ذكر الجواهري⁸²⁷. نقول: إن مفردة الطير تقع بين الطائر والطائرة من ناحية لغوية، لكنها في المعنى تصف الطبائع الأنثوية غالباً، وهي حتماً للكائن الحي "المخلوق روحياً"، وليس هناك كائن مخلوق روحياً سوى الخفاش. فبالتالي كان وصف الطير في موضع الآية، هو وصف للأنثى. ومما ورد في الآية أنه "يُنْفَخ في هيئته فيكون طيراً"، ولم يسمي جنسه، ثم إنه قال "طيراً" مباشرة، وذلك يعني أنه لم يكن كائناً زاحفاً ثم تحوّل إلى طير، بل هو طير بشكل أصيل، وهكذا هي خلقته الأولى والأخيرة، ولذلك قلت إنه من الكائنات الحية "المخلوقة روحياً".

لماذا قيل أخلق "كهينة الطير" ولم يقل "أخلق الطير أو أخلق طيراً"؟

⁸²⁵ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، (القاهرة: دار الحديث، 2009) ص331.
⁸²⁶ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص669.
⁸²⁷ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج3، (القاهرة: دار الحديث، 2009) ص70.

إجابة السؤال الثالث: لماذا قال في الآية: "أخلق" كهيئة الطير " ولم يقل "أخلق الطير" أو "أخلق طيراً"؟

نقول: لأن الخلق التام المأصول هو وظيفة إلهية وليست بشرية، والكاف للتشبيه، والتشبيه ينفي وجود صفات المأصول الأول، فيكون الثاني "التشبيه" صاحب الهيئة تابعاً للمأصول أو ملحقاً به. والتشبيه في جوهر الفعل الخلقى الروحي هو نفي لصفة الألوهية عن الأنبياء والرسول ومنهم عيسى (عليه السلام) وهو يدفع تلقائياً باتجاه نفي القدرة عن الأمر بالخلق التام، لكن هل أقصد أن خلق عيسى (عليه السلام) للطير خلقاً منقوصاً أم تاماً؟

نقول: لا، بل هو خلق تام وفق توصيفه في السياق الديني للآية، وفي السياق الأنثروبولوجي لولادة عيسى (عليه السلام)، وفي الظرف الطبيعي التاريخي لوجود هذا النوع من الطيور في الطبيعة، ولكنه ليس خلقاً متفوقاً على كل المخلوقات المأصولات (أصول المخلوقات) في الكون منذ خلق الخليقة، والطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) لم يكن خلقاً من العدم، بل كان من مادة الطين التي تمت الإشارة إليها في الآية في قوله تعالى: "أخلق لكم من الطين"، والطين موجود في الأرض قبل الطير، وهو من صنع الله الذي خلق السماوات والأرض، فكان وجود الطين سبباً لوجود الطير، وكان وجود عيسى (عليه السلام) الذي خلق من رحم أمه مريم (عليها السلام) بدون أب، سبباً آخر لوجود الطير. بالتالي فإن وجود المادة ثم خلق الكون ثم خلق الكائنات الحية، ومنها آدم (عليه السلام) ثم خلق ذرية آل عمران، ثم خلق عيسى، ثم تمكين عيسى من خلق طير على هيئة طير. بالتالي لم يكن خلق الطير منقوصاً، بل هو تام ولكن وفق الاعتبارات التاريخية والشروط الحيوية البيولوجية والطبيعية وكل ما يتصل بالأوامر الإلهية والتي تهدف إلى تثبيت قدرة الخالق وتصويره لدوائر اكتمال جبروته.

خفافيش من جنس الذكور في الطبيعة، وعلاقتها بمرض كورونا والمشركين

إجابة السؤال الرابع: هل توجد خفافيش من جنس الذكور في الطبيعة؟

نقول: إن الخفافيش الموجودة في البيئات الطبيعية الراهنة هي من جنسين ذكر وأنثى، وليس فقط أنثى، علماً بأن خلق هذا الطير الأول كان خلقاً فردياً وليس زوجياً وكان أنثى وليس ذكراً. ومع ذلك اكتشف علماء في نهاية القرن العشرين ذكور من خفاش الفاكهة من نوع دياك (Dayak) في ماليزيا، واكتشفوا أن لها حلمات صغيرة وغدد ثديية تنتج كميات من الحليب، وهذا يعتبر شذوذاً؛ لأن من غير المنطقي أن تقوم الذكور بإرضاع صغارها في وجود أنثى الخفاش. وقد ورد أن هذا النوع من الخفافيش يوجد في ماليزيا وتايلاند والفلبين. عموماً بعض الترجمات تقول إن هذه المسألة لها علاقة بنوع الأكل مثل تناول الفاكهة⁸²⁸. لقد كتب دون إي. ويلسون (Don E. Wilson) عالم الحيوانات الأمريكي المختص في الخفاشيات وعلم الثدييات وعلم الأحياء التطوري كتاباً بعنوان "أنواع الثدييات في العالم: مرجع تصنيفي وجغرافي" وهو أبرز وأهم كتاب على الإطلاق في هذا المجال، باعتباره أهم عمل مرجعي في علم الثدييات يقدم بيانات وتوصيفات ببيوغرافية للأنواع المعروفة من الثدييات في أكثر من ألف صفحة. صدر من الكتاب عدة طبعات بالتعاون مع روسيل إي. ميتير مير الباحث الأنثروبولوجي وعالم الحيوانات والبيئة والزواحف الأميركي، وكذلك مع ديان ريدير وهي عالمة فيزيولوجيا بيئية تعمل في كل من إفريقيا وأمريكا الشمالية، وتبحث في مجال استكشاف بيئة مرض الخفافيش في أوغندا، والتنوع البيولوجي للثدييات⁸²⁹. لاحظنا

⁸²⁸ / <https://www.batcon.org/article/the-incredible-milk-producing-male-bat>

⁸²⁹ <https://uk.inaturalist.org/taxa/40974-Dyacopterus>

من خلال اضطلاع على الكتاب أن هناك أنواع متعددة من الخفاشيات مثل خفاش الفاكهة الشيطاني الأنف (Nyctimene masalai) وهو مستوطن في بابوا غينيا الجديدة، وخفاش الفاكهة ذو الأنف الأنبوبي الجزري، وخفاش فاكهة التنين الأنبوبي (Nyctimene draconilla) هو نوع من الخفافيش الموجودة في غينيا وإندونيسيا، وخفاش الفاكهة ذو الأنف المستدير (Nyctimene cyclotis) وهو نوع من الخفافيش التي توجد في غرب بابوا وجزيرة مانسوار في إندونيسيا. وكذلك خفاش الفاكهة ذو الأنف الأنبوبي الجبلي (Nyctimene certans) وهو نوع من الميغابات في عائلة Pteropodidae. وهو مستوطن في جزيرة غينيا الجديدة داخل بابوا غينيا الجديدة (الدولة) وغرب غينيا الجديدة في إندونيسيا؛ وجزيرة بابوا غينيا الجديدة ببريطانيا الجديدة، وخفاش بالاس الأنبوبي cephalotes (Nyctimene)، المعروف أيضاً باسم الخفاش الأنبوبي Torresian أو الخفاش ذي الأنف الأنبوبي الشمالي، وهو نوع من الميغابات في جنس Nyctimene الموجود في إندونيسيا، وخفاش الفاكهة الأنبوبي الشائع (Nyctimene albiventer) وهو نوع من الميغابات في عائلة Pteropodidae. توجد في جزر شمال أستراليا، وفي إندونيسيا وبابوا غينيا الجديدة والفلبين وجزر سليمان، وخفاش الفاكهة ذو الأنف الأنبوبي العريض (Nyctimene aello)، المعروف أيضاً باسم الخفاش ذو الأنف الأنبوبي الأكبر، وهو نوع من الميغابات في جنس Nyctimene. توجد في غرب بابوا وإندونيسيا وبابوا غينيا الجديدة ووسط الفلبين⁸³⁰. بالتالي فإن أول جنس خلق للخفاش كان أنثى لها ثدياً وتلد وتحيض وتطهر، وقد كان خلق هذا

Mammal Species of the World: A Taxonomic and Geographic⁸³⁰
Reference, edited by Don E. Wilson and DeeAnn M. Reeder, 2nd ed,
1993.

الطير بجنسه الأنثوي بعد زمن من ولادة عيسى (عليه السلام)، أي بعدما كبر ثم مكّنه الله من واحدة من آياته كي يخلق طيراً، ما يعني أن الطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) لم يكن موجوداً قبل ولادته من رحم أمه مريم (عليها السلام) ولم يكن موجوداً قبل أن يخلقه عيسى (عليه السلام) بنفسه. بالتالي فإن أي بحث في عالم أو بيئة الخفافيش يحتم أن يكون بعد لحظة خلق عيسى (عليه السلام)، وهذا الزمن يُستدل عليه من خلال الآية القرآنية التي بَشَّرَ فيها عيسى (عليه السلام) بولادة النبي محمد (ﷺ) من بعده في قوله تعالى: "وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين" {الصف: 6}. بالتالي إذا كان النبي قد ولد في 53 هجرية (571 قبل الميلاد) فهذا يعني أن ولادة المسيح تمت في بداية القرن الأول الميلادي، وهذا القرن هو الذي خلقت فيه الطير (أنثى الخفاش). ولأن عيسى (عليه السلام) ولد في مدينة بيت لحم في فلسطين التاريخية بحسب روايات التاريخ، فإن ذلك يعني أن أنثى الخفاش خلقت وعاشت جغرافياً في الطبيعة الفلسطينية وبالتحديد في الحياة البرية في مدينة بيت لحم. بالتالي فإن جنس الخفاش الأول هو جنس أنثوي مأمول، وله أئداء، ويقوم بعملية الإرضاع، لكن السؤال عن الأولاد الذين سيقوم الخفاش بإرضاعهم، هي مسألة تتطلب بحثاً حول كيفية أول عملية ولادة لأنثى الخفاش، وأرجح أن تكون تمت بنفس العملية التي خلقت بها مريم (عليها السلام) من غير أب أو عملية نكاح، وكذلك الطير خلق من غير وجود ذكر أو عملية نكاح، وبالنسبة للخفاش لا بد أن يكون قد وُلد من غير وجود جنس ذكر أو عملية نكاح، لكن هذه الفرضية تحتاج إلى بحث وإثبات علمي، لا سيما بعد الحديث عن علاقة الخفافيش بالفيروسات في القرن الحادي والعشرين، وأرجح أن يكون ذلك ناتج عن اختلاط جنسي أو شذوذ

بين أنواع الخفافيش مع ارتباط ذلك بالبشر أو نوع من البشر الذين لهم صلات فيروسية مع الخفافيش.

العبرة الإلهية في تمكين عيسى خلق طير من جنس أنثى وليس ذكراً

إجابة السؤال الخامس: ما العبرة أو الآية الإلهية في تمكين عيسى (عليه السلام) لخلق جنس الطير أنثى وليس ذكراً؟

نقول: لأن في الأمر حكمة إلهية، وكان الله أراد أن يبصره بقدرته من خلال التأكيد على أن خلقه من جنس أنثى وهي مريم (عليها السلام) بدون وجود أب (جنس ذكر) هو مسألة علوية خارجية أبعد من تحليق الطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) وذلك لأن الطيور لا تحلق إلا على ارتفاعات محددة في طبقات الجو الدنيا السفلى وهذا ما عبّر عنه القرآن في آيتين، مرّة بوصفها الطير في "جو السماء" أي الدرجات الدنيا داخل الغلاف الجوي، ومرّة بوصف الطير أنها "فوقهم"، أي يمكن رؤيتها بالعين المجردة، كما يلي:

- قوله تعالى: "ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون" {النحل: 79}.

- وقوله تعالى: "أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير" {المالك: 19}

بالتالي إذا كانت الطيور في "جو السماء" و "فوقهم" أي فوق رؤوس البشر، فهذا يعني أن بيئة الطيور هي بيئة أرضية دنيوية، فإذا خرجت أو ارتفعت خارج نطاقات بيئتها المعهودة ستموت فوراً، ما يعني أن خالقها وهو عيسى (عليه السلام) ليس بإمكانه ضبط حياتها، سوى أنه تمكن من خلقها. وهذا يدل على أن الله الخالق أعلى وأقوى من رسوله عيسى (عليه السلام) ومن الخلق الذي خلقه وهو الطير.

العلاقة بين العناصر المكونة لطبقة تروبوسفير (Troposphere) مع مكونات الخلية الأولى في رحم مريم.

إجابة السؤال السادس: هل هناك علاقة بين العناصر المكونة لطبقة التروبوسفير (Troposphere) التي تطير فيها الطيور مع مكونات الخلية الأولى في رحم مريم (عليها السلام)؟

نقول: إن هذه الطبقة أولى الطبقات الخمس المكونة للغلاف الجوي للأرض، وهي أدنى الطبقات وأقربها إلى الأرض، والتي تطير فيها الطيور، وهي تناسب الكائنات الحية من الفقاريات داخلية الحرارة، وهي طائفة رباعيات الأطراف، وهذه الطبقة تناسب تنوع أحجام الطيور وكتلتها ووزنها من حيث الضغط الجوي، والأهم أن هذه الطبقة تتألف من أهم غازين وهما النيتروجين (بنسبة 78%) والأكسجين (بنسبة 21%)، بالإضافة إلى غازات أخرى بأحجام ضئيلة. أما مكونات الخلية فهي تعتمد في إنتاجها في جسم الإنسان (ذكر أو أنثى) على عملية البناء الضوئي وليس على الماء وبيئة التربة اللتان هما هو أول حياة النبات، وعملية البناء الضوئي يعتبر الضوء فيها سابق على الماء من ناحية أرضية (أي عملية البناء الضوئي) لكن من ناحية مادية، فإن (مادة الضوء وعناصره أسبق من مادة وعناصر الماء)؛ لأن الطاقة التي أنتجت الضوء متولدة عن عودة الإلكترون إلى مستوى الطاقة الأصلي في الغلاف الذري الإلكتروني، والضوء جسيم لا يصل إلى كوكب الأرض، بل يحتاج إلى وسط مادي كي ينقله، أي الهواء أو الماء وكافة الأشياء الصلبة. بالتالي فإن الماء، أول المواد وجوداً قبل خلق الكون (وعناصرها الهيدروجين والأكسجين) هما اللذان أنتجا الضوء عن طريق اندماج أنوية الذرات، أي هي نفسها الطاقة التي نتجت عن تصادم ذرات الماء، وهما (ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين)، وهما اللذان أنتجا الانفجار الكوني. وخلال عملية البناء أو التمثيل الضوئي تعمل النباتات على تحويل الطاقة الضوئية

إلى طاقة كيميائية، تنتج عنها مركب سكر الجلوكوز وغاز الأكسجين، علماً بأن سكر الجلوكوز يتكون من ذرات (الكربون والهيدروجين والأكسجين) التي تعتبر الغذاء الأساسي للكائنات الحية (والهيدروجين والأكسجين هما الذرات المكونة لجزيئات الماء)، وتقوم النباتات بامتصاصها بمساعدة الطاقة الناتجة عن حرارة الشمس الأرضية وتفاعل حركة الرياح، وكنتيجة لهذه العملية، تُعيد النباتات تدوير عنصر الأكسجين الذي خلقه الله في الماء قبل خلق الكون، فتطلق النباتات الأكسجين في الغلاف الجوي عبر الثغور، بينما تستخدم الهيدروجين لصنع طعامها، ولهذا السبب نجد أن الهيدروجين والأكسجين هما أكثر العناصر الموجودة في جسم الإنسان. إذا أدركنا أن أهم غازين وهما النيتروجين (بنسبة 78%) والأكسجين (بنسبة 21%) هما العنصران الأساسيان الموجودان في طبقة التروبوسفير (Troposphere) وأن الأكسجين يوجد بشكل أساسي في الماء وبالتالي في الخلية النباتية، وأن الخفاش خلق خلقاً روحياً من خلال نفخ عيسى (عليه السلام) فيه، فذلك يعني أن الخلية الأولى التي خلقت منها مريم (عليها السلام) من بطن أمها (حنة بنت فاقوذ) كانت غنية بالأكسجين من مادة الماء والذي انعكس على هيئتها وبنيتها الجسمية، وذلك نتيجة تناول أمها (حنة بنت فاقوذ) لغذاء صحي. وكذلك الحال مع غذاء مريم (عليها السلام) الذي كان صحياً بتوفيق من الله فأنتج خلية نباتية سليمة غنية بجزيء الأكسجين، وهذا الأمر انعكس على ولادة عيسى (عليه السلام) بخلية غير منقوصة من جزيء الأكسجين. إذا كان الأكسجين داخل في كل العمليات الإحيائية الروحية بقوة وقدرة الخلق (الله) وفق ضوابط شرعية، وبالاحتكام إلى أصل خلق الله وإلى أصل مادة الماء وهي العناصر الذرية التي خلقها الله قبل خلق الكون والماء، فإن ذلك يعني أن كل العناصر المكونة لطبقة التروبوسفير (Troposphere) التي تطير فيها الطيور، ومكونات الخلايا الأولى في رحم مريم وأمها حنة بنت فاقوذ (عليهما السلام) مرجعها إلى

الخالق (الله) عزوجل. بالنسبة للطيور التي تطير في طبقة التروبوسفير (Troposphere) فإن لها إمكانيات وقدرات تؤهلها للعيش في بيئة السماء والتعامل مع مؤثراته مثل سرعة الرياح والبحث عن الطعام، فمثلاً يُلاحظ أن طائر الشاهين (الصقر) يوجد في فتحة أنفه عظمت تسمى الدَّرَنَات، وهي تساعد على إبطاء دخول الهواء إلى رئة الصقر، وبالتالي تخفف عليه الضغط فينعكس ذلك على توازنه عندما يغير سرعته، أي كأن هذه الدرنات بمثابة لوحة التحكم الخاصة به. أما بالنسبة للخفافيش فقليل إن بعضها يتغذى على الحشرات، وبعضها يتغذى على الدم، وهنا سوف نستنتق مسألة ذات جدوى، سبق أن أوضحت جزء منها وهي علاقة الحشرات بمجتمع الجريمة من خلال غذائها على الدم في بيئات دموية، وكيف كانت عقاباً إلهياً للمجرمين لتشابه النمط الغذائي، وقدمت توصيفاً لعلاقة الدم بالنشاط الإنسي والإجرام في شرحنا لكلمة "الفصيحة" في القرآن. {انظر الشرح في الفصل الأول، ص23} واستكمالاً لهذه المسألة ثبت أن الخفافيش التي تتغذى على الدم تفرز مادة مضادة للتخثر في لعابها، تعمل على إبطاء آثار الجلطات عند البشر⁸³¹. ما يعني أن عيسى (عليه السلام) خلق طائراً غير دمويّاً باعتبار أن غذاء الخفافيش على الدماء لها سبب وجيه متعلق بالاستشفاء، لكن التغير الذي طرأ على الخفافيش والأمراض التي انتقلت من خلالها للبشر جعل الأمر أكثر تعقيداً، ولا شك أن للجرائم التي يرتكبها الأشخاص غير الأخلاقيين في الأرض والذين ليس لديهم ضوابط شرعية كما هو في الإسلام وتطور هذه الجريمة على يد البشر من (مرتبة) الأدمية إلى (رتبة) البهيمية الحيوانية لها علاقة بطريقة غير مباشرة بتحولات الطبيعة حيث تتجه أفعال وتصرفات البشر غير الأخلاقيين لتصبح أفعالاً

⁸³¹<https://abcnews.go.com/WNT/story?id=129898&page=1>

مستوحشة، ولهذا السبب بدأ الإنسان باكتشاف سبب علاقة الفيروسات، ومنها فايروس كورونا بالخفافيش.

العلاقة بين أنثوية جنس الخفاش، وحياة مريم

إجابة السؤال السابع: هل تصح المقارنة بين أنثوية جنس الخفاش بوصفه يحبل ويلد ويحيض، مع حياة مريم (عليها السلام) وولادتها لابنها عيسى (عليه السلام)؟

نقول: نعم؛ لأن ذلك سيفسر الرابطة المأسولة بشكل أساسي بين المادة الاستشفائية التي تفرزها الخفافيش الأنثوية⁸³² مع سبب وطريقة ولادة مريم (عليها السلام) من أمها العاقر حنة بنت فاقوذ، وحياتها الصحية، وذلك يدل على أن هناك بُعداً صحياً استشفائياً يتعلق بحياة وصحة حنة بنت فاقوذ وابنتها مريم (عليهما السلام) وقد انتقل بالوراثة إلى ابنها عيسى (عليه السلام) ليكون بذلك سبباً في التمهيد الإلهي بجعله آية متصلة في الخلق داخل الطبيعة من خلال خلق الطير، وبهذا تكتمل الصورة الاستشفائية لآل عمران، وهو تثبيت للكرامة الإلهية لهذه الذرية في الخلق. بمعنى آخر، أراد الله أن يجعل قدرته وتمكينه لعيسى (عليه السلام) في خلق الطير مثل قدرته على إحيائه في رحم أمه مريم (عليها السلام) من غير أب أو عملية نكاح، وذلك من خلال إيجاد عنصر مادي كيميائي إحيائي متعلق بالخلية وحلقة أو سلسلة الغذاء الذي يعود أصله إلى الطبيعة بالنسبة لمريم (عليها السلام) أما بالنسبة للطير فمن خلال الخلق الروحي من جنس أنثوي من دون ذكر أو وجود زوج للأنثى أو عملية جماع بين نوعين من الطيور. بالتالي فإن وجه الشبه بين الطير ومريم (عليها السلام) أن كلاهما من جنس أنثوي مأصول، وكلاهما له أنداء، ويقوم بعملية الإرضاع، مع الأخذ بعين الاعتبار كافة التفاصيل المتعلقة بأنواع

⁸³² <https://www.mdpi.com/1424-2818/14/3/179>

الكائنات الحية، أي أن الطير كائن حي حيواني، أما مريم (عليها السلام) فهي كائن حي من نوع آدمي، لكن هناك مسألة فارقة وهي أن مريم (عليها السلام) لا تحيض مثل الطير، حيث كانت "مُطَهَّرَة من الحيض"⁸³³. والطمهارة تشمل كل شيء لقوله تعالى في اصطفاء وطهارة مريم (عليها السلام): "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" {آل عمران: 42}. نقول: الاصطفاء الأول هو الاختيار لشخصها من أجل عبادته ولولادة عيسى (عليه السلام)، والاصطفاء الثاني بعد الطهارة هو لتربية عيسى (عليه السلام). بالإضافة إلى ذلك، ندرك أن الخفافيش منها الذكر والأنثى، ولا تطير في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وأنها قوية البصر، فالخفاش "يتحرى الوقت الذي لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء وهو قريب غروب الشمس"⁸³⁴. والإناث هي الوحيدة التي تحبل وتلد وتحيض (علماً بأن الضبع والأرنب هي فقط من الحيوانات التي تحيض)، فإن هذا يدفعنا إلى القول بأن ولادة مريم لابنها عيسى (عليهما السلام) كانت في وقت يتراوح بين غروب الشمس وظلام الليل، وأن ولادتها لم يشهدها أحد في ضوء النهار ولا في ظلام الليل. وعموماً هناك أنواع متعددة من الخفافيش، ومعلوم أنها تعيش في الطبيعة لفترات تزيد عن 20 عاماً، ولهذا السبب إذا كان الخفاش هو الطائر الذي خلقه عيسى (عليه السلام) فيحتم أن يكون نوعاً من الخفافيش مختلف بشكل كبير عن الخفافيش الحالية نسبة إلى الزمن البعيد والمتغيرات البيئية، ولكن ذلك قد يفتح آفاقاً جديدة لفهم علاقة الإحياء الإنسي بالخفاش.

⁸³³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص108.

⁸³⁴ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة،

(1971)، ص721.

سماد الخفافيش وعلاقته بمادة خلق الملائكة

إجابة السؤال الثامن: ما هي علاقة السماد الذي تنتجه الخفافيش بمادة خلق الملائكة؟

تقوم الخفافيش بتلقيح النباتات، وتنتج سماداً غنياً بالنيتروجين وهو عنصر كيميائي حيوي من أجل الحياة على الأرض فيدخل في تكوين البروتينات وتكوين الأمونيا التي تساهم في زيادة خصوبة التربة ونمو النباتات، والوجه الآخر للنيتروجين هو أنه يصنع منه السموم ويُستخلص منه المواد المتفجرة مثل مادة تي أن تي (TNT) شديدة الانفجار. ذكرت سابقاً أن الملائكة مخلوقون من الأكسجين والنيتروجين وهي نفس المواد التي تتكون منها الرياح/الهواء. كما أن النيتروجين موجود في غلاف الأرض الجوي، وهذا ما يفسر وجود أو ظهور أو نزول الملائكة من السماء أو وجودها في هذه البيئة أو الحاضنة الأصلية كحلقة وصل بين السماء والأرض. فإذا كانت مادة النيتروجين عامل مشترك بين السماد الذي تنتجه الخفافيش، وتدخل في خلق الملائكة، وفي خلق الرياح، وفي غلاف الأرض الجوي، فهذا يعني أن العامل المشترك بين كل ذلك هو وجودها في البيئة أو الطبيعة، لكن مكونات مادة النيتروجين التي تنتجها الخفافيش تختلف من ناحية جوهريّة وروحية عن المادة التي خلقت منها الملائكة من ناحية التركيب والمصدر حتى وإن كانت العنصر المادي الكيميائي هو ذاته النيتروجين؛ لأن مصدر تركيب مادة النيتروجين في حالة الخفافيش ناتج عن تحلل مواد عضوية بعد جمع مخلفات الخفافيش. أما المصدر فهو بيئي طبيعي حيواني من الخفاشيات وهي فقاريات، والفقاريات تشمل رباعيات الأرجل أو الأطراف ومنها الثدييات. أما مصدر نيتروجين الملائكة فهو من الله مخلوق في شكله الأول الذي أوجده الله قبل خلق الكون، والخفافيش خلقت على يد عيسى (عليه

السلام) في مرحلة بعيدة جداً عن خلق الكون، وبالتالي فإن مصدر وجود النيتروجين في الملائكة سابق على مصدر وجوده في الخفافيش وسمادها، بل هو سابق على خلق الكون؛ لأن الملائكة موجودة قبل خلق الكون وقبل خلق الكائنات الحية وقبل خلق عيسى (عليه السلام) وقبل خلق عيسى للخفاش. ومن ناحية مادية نلاحظ هنا أن النيتروجين هو السابع من حيث العدد الذري في الجدول الدوري للعناصر الكيميائية، وهو يسبق الأكسجين، لأنه ينتج طاقة هائلة، ما يعني أن النيتروجين لديه قدرة على تفعيل أرواح الملائكة وجعل طاقتها هائلة وسريعة ومتحركة، وهذا ما يفسر قدراتها المطلقة على حمل عرش الرحمن والقيام بواجبات غير آدمية (بشرية) مثل الخلق (الإحياء) والإماتة والبعث وغير ذلك من المهام الموكلة من الله والتي يأمرها بتنفيذها. وأما الأكسجين فهو العنصر الثامن بعد النيتروجين في الجدول الدوري، ويدخل هو الآخر في مادة خلق الملائكة، وهو ما يدل على أن الملائكة تنفس ولها قوة جبارة، ومع ذلك فهي ليست كائنات مادية، أي أنها لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، بل هي كائنات روحية إحيائية، وروحيتها أسبق من إحيائيتها لأن روحيتها طاهرة، وإحيائيتها أسبق من مادية خلقها. عموماً، ذكرت موضوع الملائكة بشكل تفصيلي في الإجابة على عدد من الأسئلة وهي: هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟ وهل خلقت الملائكة من نار أم من حرارة الشمس؟ وخلق الملائكة من العناصر المكونة للرياح/الهواء (الأكسجين والنيتروجين)؟ {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص290} وأشرت في الإجابة على السؤال إلى كافة الآيات الهامة التي ورد فيها ذكر عدد الملائكة وحملة العرش وبالتحديد في قوله تعالى: "والمَلَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" {الحاقة: 17} وقوله تعالى: "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين" {الزمر: 75}.

العلاقة بين مظهر وحال الخفاش بالملائكة

إجابة السؤال التاسع: ما هي العلاقة بين مظهر وحال الخفاش بنظيرها عند الملائكة؟

لقد أشرت إلى خلق الخفاش بمفرده "الهيئة" بينما أشرت إلى خلق الملائكة بمفرده "المظهر" لأن الهيئة مفردة قرآنية وردت في الآية لقوله تعالى: كهيئة الطير" وقد شرحنا معنى الجملة في إجابة السؤال الثالث. أما المظهر فهو مرتبط بالحال، لأن ظهور الملائكة يكون بتعدد أحوالها، وتعدد أحوالها مرتبط بالأوامر الإلهية التي تُلقى إليها، والأوامر تُلقى إليها لسبب، وفي أوقات معلومة، ولأشخاص محددين. ومن أنواع الملائكة مثلاً: الملائكة التي تستقبل أهل الجنة كما ورد في قوله تعالى: "ولا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون" {الأنبياء: 103} أو ملائكة حملة عرش الرحمن ولها صفات مخصوصة شرحناها في سورة {الرحمن: 14} في إجابتي على سؤال هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟ {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص290}. بالتالي نقول إن المظهر متصل بحال مادة الخلق، والحال يكون سائلاً نيتروجينياً بامتياز في حالة الملائكة حيث أن النيتروجين في الملائكة يكون تشكياً ذا قوة فائقة (طاقة) معززة بالأكسجين ومظهر بهيج، ولذلك يكون المظهر شديد الشفافية والبياض، وهي حالة وشكل النيتروجين السائل، وهنا يمكن القول إن الملائكة "مخلوقة روحياً". أما الخفاش فمظهره "مخلوق إحيائياً" وليس "مخلوقاً روحياً"، وهو على ثلاثة ألوان أسود أو رمادي أو بني، وليس بينهما تشابه في الهيئة والمظهر مطلقاً من حيث الروح والجوهر، ومن ناحية شكل المادة التي خلق منها أو يظهر عليها الخفاش والملائكة أبدأً. أما من ناحية الحجم فإن هيئة الخفاش مصغرة وهي على شكل حيوان يمكن تقييمه بيولوجياً وهو خلق بفعل إنسي

بإرادة إلهية، لكن الملائكة خلق إلهي بإرادة إلهية مطلقة، وهينئها أكبر مما نتخيل من حيث التكوين البصري، ولا يمكن تقييم حالها لأن الوحيد القادر على ذلك هو الله، وهي على شكل أبيض يثير العجب والحب، وبه تثبت قدرة الله المطلقة، لأن الملائكة أكثر قوة وأجمل حضوراً، وقد سبقت الإشارة إلى أن رسول الله رأى جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم" ⁸³⁵. وفي رواية أخرى، قال رسول الله: "أتاني جبريل، (عليه السلام)، في خضر معلق به الدر" ⁸³⁶. بمعنى آخر يعتبر الخفاش نموذجاً وتمثيلاً حيوانياً أرضياً مصغراً في السماء الدنيا، بينما الملائكة تعتبر تأصيلاً تطبيقياً روحياً هائلاً في السماوات العليا، أي أن البيئتين، وطرائق الحضور، والحركة مختلفتين تماماً، فالخفاش بيئته في الطبيعة الأرضية، ولا يحضر لأحد بالمناداة، وحركته محدودة في أوقات الغروب غالباً. أما الملائكة فإن بيئتها في كل زمان نهاري أو ليلي، وأي مكان أرضي أو علوي أو ما فوق علوي وصولاً إلى الفردوس الأعلى وحتى عرش الرحمن، وأقصد بطرائق الحضور أن الملائكة لا تتكشف إلا للعلماء والأولياء والعارفين الصادقين، وهذه حقيقة وسر من أسرار المقربين إلى الله والواهبين أنفسهم للتجليات العلوية دون السفلية، وحركة الملائكة حركة من الأعلى إلى الأسفل لأن وجودها الأصلي هو تحت عرش الرحمن (الله) وهي إذ تتلقى الأوامر فتعود بها إلى الأرض الدنيا أو تحملها إلى أرواح العلماء والأولياء العارفين الصادقين في أماكن وجودهم سواء في الأرض أو في جنات الفردوس الأعلى. وأعتقد أن أرواح الأنبياء والعلماء الصادقين الطاهرين يحدث لها جذب لأرواح الملائكة فتصير أرواحهم أرواح ملائكية، وهذا الجذب

⁸³⁵ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص446.
⁸³⁶ المصدر السابق، ص452.

أسميه جذب العلم والصدق والجهد والإخلاص لله تعالى وملائكته. أما الشكل فإن التشابه يكون على مستوى الأجنحة، مع الأخذ بعين الاعتبار الفروقات بين الجنسين من ناحية أن جنس الملائكة روعي إحيائي طاهر. أما الخفاش فهو من جنس حيواني أرضي، فالخفاش له أجنحة صغيرة جداً، أي حوالي (150) ملم مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف أحجام الأجنحة نسبة إلى طول الخفافيش الذي يتراوح بين (3) سنتيمتر كخفاش أنف الخنزير وهو أصغر الثدييات حجماً وخفاش الثعلب الطائر الذي يبلغ طوله (41) سنتيمتر. أما شكل أجنحة الملائكة فهي لا توصف لأنها متعددة والدليل على ذلك قوله تعالى: "الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {فاطر: 1}. قال القرطبي: الفاطر هو الخالق. والفطر: الابتداء والاختراع⁸³⁷. لكننا نخالف قوله؛ لأن الخلق خلاف الابتداء والاختراع؛ لأن الله لم يبتدئ خلقه بخلق الكون أو الكائنات الحية، ولكن بخلق المادة التي خلق منها كل شيء فيما بعد. فالملائكة مخلوقين مثل باقي الكائنات الحية، لكن خلقهم أسبق من خلق الكون وأسبق من خلق الكائنات الحية، ومنها آدم (عليه السلام). أما قوله تعالى: "جاعل الملائكة رسلاً" فالرسل منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقوله تعالى: "أولي أجنحة": نعت، أي: أصحاب أجنحة. وقوله تعالى: "مثنى وثلاث ورباع": أي: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرة كذا في وقت واحد، أي: جعلهم رسلاً. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبي رأى جبريل (عليه السلام) له

⁸³⁷ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص340.

ست مائة جناح. وقوله تعالى: "يزيد في الخلق" أي: في خلق الملائكة. وقال الحسن: "يزيد في الخلق" أي: في أجنحة الملائكة ما يشاء. وقال قتادة: "يزيد في الخلق ما يشاء" أي: الملائحة في العينين، والحسن في هذه الأنف، والحلاوة في الفم. وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن؛ ذكره القشيري. وقيل في معنى: "إن الله على كل شيء قدير" من النقصان والزيادة. على حين قال الزمخشري: إن الآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق؛ من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب، وسماحة في النفس، ودلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأت في مزاولة الأمور⁸³⁸. نقول: بالنسبة لقوله تعالى "يزيد في الخلق" هي ليست زيادة في الخلق أو الملائكة أو أجنحة الملائكة، ولكن زيادة في عناصر المادة التي خلقت منها الملائكة وهي النيتروجين والأكسجين، ولأن النيتروجين مصدر طاقة قوية ونظيفة، والأكسجين مصدر للإحياء؛ فإن الزيادة تحدث في طاقة النيتروجين وفي الأكسجين، وهذا ينعكس على خلق أو تكوين شكل الملائكة، فأى زيادة في عناصر المادة يعني التأثير على شكل خلق الملائكة وحجمهم وعدد أجنحتهم ودرجة لونها الأبيض وشفافيتهم. ولذلك فإن الذي يقول إن الزيادة في الخلق يقصد بها الخلق البشري نقول: هذا صحيح عندما تتدنى أرواح الملائكة إلى أرواح الخلق البشري، ولكن ذلك لا يحدث إلا نادراً عندما تزيد أو تنقص درجات العلمية الفقهية والإيمان، أي أن هذا التغيير يخضع لمعايير الصراط المستقيم وهي معايير شرعية متمثلة بالقرآن أولاً. بالتالي إذا كانت الملائكة خلق إلهي، وأدم (عليه السلام) خلق إلهي، فإن الأنبياء والعلماء الأطهار الأشراف الزاهدين والشهداء والصالحين الذين لا يمسون من شجرة الزقوم وشهوة الغداء

⁸³⁸ المصدر السابق، ص341، 342.

ويمتنعون عن ذلك في الدارين، دار الدنيا ودار الآخرة، سوف تكون أرواحهم أرواحاً ملائكية. هذا التحذير أو المنع قال الله تعالى فيه في سورة الصافات: "أذلك خير نزلأ أم شجرة الزقوم (62) إنا جعلناها فتننة للظالمين (63) إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (64) طلعتها كأنه رعوس الشياطين (65)". مما سبق فهمت دلالة كلمة "طائره" في قوله تعالى: "وكل إنسان أُلزِمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً" {الإسراء: 13} قال ابن عباس: "طائره": عمله وما أُدر عليه من خير أو شر، وهو ملازمه أينما كان. وقال مقاتل والكلبي: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يُحاسب به. وقال مجاهد: عمله ورزقه. وقال الحسن: "أُلزِمناه طائره" أي: شقاوته وسعادته. وقيل: أراد به التكليف، أي: قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينزجر عما رُجر به أمكنه ذلك⁸³⁹. نقول: إن الطائر الذي يلزم العنق هو ملاك من الملائكة، فإذا كان الإنسان نبياً أو عالماً أو عارفاً أو زاهداً فإنه سوف يلزم عنقه ملاك بحجم عمله في الدنيا، ويظل حريصاً عليه فيوجهه في حياته وأخرته، وقد يكون الطائر الذي في العنق شيطاناً يوسوس للإنسان في الدنيا ويصعبه في الآخرة وهكذا فإن الذي يحدد حجم ملاك أو شيطان الإنسان هو أعماله اليومية، بداية من الأنبياء الذي يبلغون رسالات الله، إلى العلماء الذين يرشدون إلى الله وقد عاهدهم الله في قوله تعالى: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير" {المجادلة: 11} ثم تتوالى الدرجات كالشهداء والعارفين والأتقياء والزاهدين والفقراء والمساكين والأيتام وغيرهم، لكن درجاتهم ليست كلها واحدة، وهي مرتبطة بالأعمال الدنيوية، فقد يكون للإنسان الواحد عدد من الملائكة لا تعد ولا تحصى يحيطون به من كل جانب، وقد يكون له ملاك واحد، وقد يكون له ملاك وشيطان، وقد يكون له شيطان واحد

⁸³⁹ المصدر السابق، ص40.

بدون ملاك، وقد يكون له عدة شياطين. لقد ذكر القرآن اسم ملكين من الملائكة يصاحبان الإنسان ويراقبان أقواله وأفعاله في حياته وذلك في قوله تعالى: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" {ق: 18}.

الفرق بين (منطق الطير) و (أمم الطير)

إجمالاً، إن التوصيف السابق والاختلاف الجذري بين مظهر حال الملائكة وشكل الخفافيش جعلتني أفهم معنى الجملتين القرآنيتين "منطق الطير" و "طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم" والوارد ذكرهما في الآيتين التاليتين:

- قوله تعالى: "وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس غلّنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين" {النمل: 16}.

- وقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يُحشرون" {الأنعام: 38}.

قيل في معنى: "علمنا منطق الطير" أي: تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسنا⁸⁴⁰. نقول: في الآية تضمين لفهم الإنسان، (وهو سليمان في هذه الآية) للغة الطير وطرائق الحديث معهم، فيكون الحوار مبني على قاعدة نوع آدمي يتعلم بالتفكر والتأمل والإبصار، مقابل درجة حيوانية لديها فطنة وتتعلم بالإشارة أو التنبيه. والنوع الأدمي الذي يعقل هو البالغ منه غير المنتقص، ومن العقلاء أيضاً الملائكة، والجن. أما الذين لا يعقلون فهم كافة الحيوانات. أما الآية التالية، فقيل إن الدواب والطيور يحشرون، والمقصود: بيان أن الحشر والبعث كما هو حاصل في حق الناس فهو أيضاً حاصل في

⁸⁴⁰ المصدر السابق، ص114.

حق البهائم. وقيل إن الفائدة في قوله تعالى: "يطير بجناحيه" مع أن كل طائر يطير بجناحيه ليبين اختلاف الطيور عن الملائكة. وقوله تعالى: "إلا أمم أمثالكم" قال الفراء: يقال إن كل صنف من البهائم أمة. وقد ذهب طائفة عظيمة من المفسرين وقالوا: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه. واحتجوا عليه بقوله تعالى: "وإن من شيء إلا يسبح بحمده" وبقوله في صفة الحيوانات "كل قد علم صلاته وتسبيحه. وعن أبي الدرداء أنه قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الإله، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيؤ كل واحد منها لصاحبه. وروي عن النبي أنه قال: "من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعج إلى الله يقول يا رب إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني أكل من حشاش الأرض". والمراد إلا أمم أمثالكم في كونها أمماً وجماعات وفي كونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضاً، ويأنس بعضها ببعض، ويتوالد بعضها من بعض كالأنس. وما رواه أبو سلمان الخطابي عن سفيان بن عيينة، أنه لما قرأ هذه الآية قال: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم، فمنهم من يقدم إقدام الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبج نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقى إليه الطعام تركه وإذا قام الرجل عنه رجيعة ولغ فيه. فكذاك نجد من الأدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها، ولم يجلس مجلساً إلا رواه عنه. ثم قال: فاعلم يا أخي أنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فبالغ في الحذر والاحتراس، فهذا جملة ما قيل في هذا الموضوع. ذهب القائلون بالتانسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى موصوفة بالمعارف الحقة وبالأخلاق الطاهرة، فإنها بعد موتها تنقل إلى الأبدان أبدان الملوك، وربما قالوا: إنها تنقل إلى مخالطة عالم الملائكة، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية فإنها تنقل إلى الأبدان الحيوانات، وكلما كانت تلك الأرواح أكثر شقاوة واستحقاقاً للعذاب نقلت إلى بدن حيوان

أخس وأكثر شقاء وتعباً، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فقالوا: صريح هذه الآية يدل على أنه لا دابة ولا طائر إلا وهي أمثالنا، ولفظ المماثلة يقتضي حصول المساواة في جميع الصفات الذاتية. أما الصفات العرضية المفارقة، فالمساواة فيها غير معتبرة في حصول المماثلة. ثم إن القائلين بهذا القول زادوا عليه، وقالوا: قد ثبت بهذا أن أرواح جميع الحيوانات عارفة بربها وعارفة بما يحصل لها من السعادة والشقاوة، وإن الله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولاً من جنسها، واحتجوا عليه بأنه ثبت بهذه الآية أن الدواب والطيور أمم. ثم إنه تعالى قال "وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" وذلك تصريح بأن لكل طائفة من هذه الحيوانات رسولاً أرسله الله إليها. ثم أكدوا ذلك بقصة الهدد، وقصة النمل، وسائر القصص المذكورة في القرآن⁸⁴¹. نقول: إن الله تعالى ذكر كلمة "أمة" و "أمم" في عدة مواضع في القرآن، وعندما ذكرت كلمة "أمم" جاءت مصاحبة للجن والإنس في قوله تعالى: "أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين" {فصلت: 25}. لذلك كانت الأمم متعددة بحسب النوع في الخلق ثم المرتبة ثم الرتبة ثم الدرجة ثم الفئة ثم العينة وغيرها. نقول: إن تشبيه "أمم الطير" بأمم النوع الأدمي (الإنسان) يفرض وجود تماثل حتمي.

التمائل بين النوعين الأدمي (الإنسان) والحيواني (الدواب والطيور)

السؤال هنا: ما هو التماثل بين النوعين الأدمي (الإنسان) والحيواني (الدواب والطيور)؟

⁸⁴¹ الإمام محمد الرّازي فخر التّين ابن العلامة ضياء التّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج12، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص222، 225.

نقول: إن التماثل هو "الروح" لأن الذي يُحشر عند الله هو الروح، وإن الله يُحاسب كافة الكائنات الحية بأرواحها لا بأجسادها، علماً بأن الأجساد لاحقة بالأرواح وهي تحصيل حاصل، أي أن اكتمالها يكون باكتمال بالروح وليس قبل وجود الروح، لأن الجسد بلا روح هو جسد مادي، والمادي إلى الروحي لا قيمة له. ونقول بعلاقة الحشر مع الروح لأن الله بدأ في الآية من الأدنى إلى الأعلى، فقال بالدواب أولاً وهي أرضية ثم بالطيور ثانياً وهي سماوية ثم بالبشر ثالثاً وأرواحهم علوية غالباً. فكل الأرواح تصعد من الأسفل إلى الأعلى فتكون روح الدواب روح متسافلة دنيئة في جسدها، ما يضطرها إلى أن تكون روحها متسافلة دنيئة فيها خسة، ولذلك يُضحى بها. أما روح الطيور فتكون شبه علوية، ما يعني أن فيها روح عالية، لكنها روح دنيئة فيها خسة أقل من الدواب، وذلك لصغر أحجام أجسادها، وإن النهي عن قتل العصفور إنما هو بسبب أن روحه باعتبارها مؤهلة للانفكاك عن جسده؛ فتصبح روحاً غير حيوانية، لكنها لن تصبح روحاً ملائكية بل قد تصبح روحاً آدمية في روح طفل صغير لا يتحكم في برازه أو تفكيره مثل العصفور إلى أن يكبر هذا الطفل ويصبح قادراً على التبرز وعلى النطق والمشي وهكذا. ولذلك لما قال أبو سلمان الخطابي عن سفيان بن عيينة أن ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم، فهذا صحيح، ولكننا نقول إن الذي يتحكم في هذه العلاقة هو درجة الارتقاء بالروح، وهي الحد الفاصل بين الغريزة الغذائية والجنسية مع الروح. فالبشر الذين يتصرفون في حياتهم الدنيا بطريقة دنيئة شهوية غير أخلاقية في علاقتهم مع شهوة الطعام وطرائق تناوله، تكون أرواحهم سفلية وليست علوية. أما الأنبياء والعلماء الزاهدين الأتقياء العابدين فإن أرواحهم تزداد في علويتها. أما روح الإنسان فهي روح فوق علوية، ولكن ذلك يتراوح بين إنسان وآخر، فالنبي غير العالم، والعالم غير الشهيد، والشهيد غير الزاهد، والزاهد غير الصادق، والصادق غير العابد، وهكذا تُحفظ وتُصان كل روح في الفردوس

الأعلى وفي اللوح المحفوظ، وتبقى روحاً ملائكية خالدة ثم ترتقي الروح بالملائكية من خلال الأعمال وتحيا بالصدق. إن الروح هي طاقة النيتروجين الملائكية بدون الجسد، تنتقل الروح بمادة النيتروجين من روح إلى أخرى وهكذا وتظل خالدة.

أصل اسم (الخفاش)، ولماذا نقترح اسم (شبيه الطيرانيكي)؟

الإجابة على السؤال العاشر: ما هو أصل اسم الخفاش، ولماذا اقترح اسم "شبيه الطيرانيكي"؟

نقول: إن القرآن ذكر اسمه "كطير" دون أن يذكر اسمه بل نوع طائفته علماً بأن اسم "الخفاش" وتعريفاته لا تليق بالتاريخ الأنثروبولوجي لولادة النبي عيسى (عليه السلام) ولا بالسياق الديني القرآني التي أوجدت فيه هذه الكلمة، ولا حتى الظروف التاريخية، والدينية، والبيئية الطبيعية الموضوعية الزمانية والمكانية التي وُجد فيها هذا النوع من الطيور في الطبيعة. لذلك فإننا نرجع أصل الكلمة إلى حقيقة الحدث، ونقول: إن اسم الطير عُرف منذ لحظة خلقه الروحي على يد عيسى (عليه السلام) وبالتالي فإن التسمية والتعريفات تعتبر توصيفاً لشكل وطبائع الخفاش بحسب المعلومات التي وردت عنه باعتباره أقرب الطيور التي تنطبق عليه حالة الخلق على يد عيسى، لكن لم يُذكر تاريخياً من الذي أسماه الخفاش، علماً بأن الجذر اللغوي "خفش" دل على شيء يشبه دلالة الخفش وهو الاختباء أو عدم الظهور في الليل والنهار، ولذلك قيل خفافيش الظلام: تعني: أصحاب الدسائس⁸⁴²، ولكننا نقول: إن خفافيش الظلام هم الذين يستترون وراء أفعالهم الشيطانية. ومع ذلك فإن هناك توصيفاً آخر يستوجب أن يوصف به طير عيسى (عليه السلام)، على اعتبار أنه ذكر في القرآن

⁸⁴² أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص669.

مصحوباً بعملية خلقية روحية لهذا الطير من مادة الطين والنفخ في روحه. بحسب حاجتنا في المعاني التي تتعلق بهيئته المشابهة نسبياً لهيئة الملائكة دون أي تطابق في الشبه أبداً بين الملائكة والخفافيش (لا سيما أن للخفافيش علاقة بفيروس كورونا وأصل ذلك يعود إلى بيئات وثقافات ومجتمعات غير المسلمين، وبالتحديد المشركين)، فإنه يستحق أن يكون اسم الطائر المعرفي الذي يجمع بين اللغوي القرآني الروحي والأنثروبولوجي الطبيعي " هو "شبيه الطيرانكي" وهذا أصوب من التوصيف اللغوي لهيئته في تسميته بـ "الخفاش"، لأن كلمة الخفاش تعتبر توصيفاً حركياً ثقافياً شعبياً. وللتبيين نقول إنه من يرى شكلاً يشبه "الخفاش" في منامه فلا يعي أو يصدق بأنه الوحي أو يشبه الوحي، لأن الوحي يختلف كثيراً عن هيئة الخفاش وهو أبهج هيئة وأكثر امتداداً في الآفاق، وهو متكلم وليس حيواناً أو طائراً غير ناطق، فالوحي أصدق قولاً وفعلاً. وإنما نسميه "شبيه الطيرانكي" كنوع من التنسيب اللغوي العربي ليس أكثر، وليس لذلك علاقة في الشبه بين الخفاش والملائكة.

المسألة الثالثة: مهمة الخالق في خلق آدم (عليه السلام) وكل الكائنات الحية، وهذه يدل عليها جملتين في الآية، وذلك في قوله تعالى: "جنتكم بأية" وقوله تعالى: "بإذن الله". نقول: إن خلق وإحياء آدم ومريم وعيسى ويحيى (عليهم السلام) وكذلك إحياء الطير، كلها كانت بأمر الله، ومن روح الله، وآية من الله، وبإذن الله. وذلك يعني أن النفخ في الروح لأدم ومريم وعيسى ويحيى (عليهم السلام) وبقية الخلق كله كان من الله. قال الشوكاني: "بإذن الله" فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى (عليه السلام)، قيل: كانت تسوية الطين، والنفخ من عيسى، والخلق من الله عز وجل⁸⁴³. وقال الرازي:

⁸⁴³ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص219.

"بإذن الله" معناه بتكوين الله تعالى وتخليقه لقوله تعالى "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله" أي إلا بأن يوجد الله الموت، وإنما ذكر عيسى (عليه السلام) هذا القيد إزالة للشبهة، وتنبيهاً على إني أعمل هذا التصوير، فأما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل⁸⁴⁴. على حين قال البيضاوي: فيصير حياً طياراً بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه⁸⁴⁵. ولما قال عيسى (عليه السلام) أنه جاء بأية من الله كرسول فقد كان ذلك مؤكداً في آيات أخرى كقوله تعالى: "وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب" {الرعد:38} وقد سبق أن شرحنا علاقة الذرية بذكر قوله تعالى: "وأية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون" {يس:41}. {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص430}.

نقول: إن كلمة "آية" هنا مخصوصة لعيسى (عليه السلام) ولقومه بني إسرائيل.

المسألة الرابعة: تثبيت صفة النبوة للرسل في الآية يكون من خلال قوله تعالى: "رسولاً" وتكرار قوله تعالى مرتين في الآية: "بإذن الله". تعتبر تسمية عيسى (عليه السلام) "رسولاً" أهم صفة دالة على تثبيت نبوته وليست ألوهيته، وقد مكّن الله له في القدرة على الخلق. قيل: "ورسولاً": أي: ونجعله رسولاً. أو يكلمهم رسولاً. وقيل: هو معطوف على قوله تعالى: "وجيهاً". وقال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو في قوله: "ورسولاً" مَفْحَمَةً والرسول حالاً للهاء، تقديره: ويعلمه الكتاب

⁸⁴⁴ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامّة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص63.

⁸⁴⁵ ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص262.

رسولاً. وفي حديث أبي ذر الطويل: "وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى (عليه السلام)"⁸⁴⁶.

المسألة الخامسة: منح الله القدرة لعيسى (عليه السلام) على الإحياء والإخراج لقوله تعالى في الآية: "وأحيي الموتى بإذن الله" بينما قال في الآية التالية: "أخرج الموتى بإذني"، فما الفرق بين الإحياء والإخراج؟ وهل هو إحياء يشبه الإحياء الإلهي؟

نقول: إن الإحياء هنا إحياء لا يتعلق بالخلق، أي أنه لا "يحيي" بمعنى "يخلق" وإنما يحيي بمعنى يسهّل ظروف العيش للناس بهدف إحياءهم، وكذلك الحال مع الإخراج. وقد سميتها سابقاً في سياق مختلف ب (الإحيائية الإصلاحية) كتوصيف عقلائي أدق من "الانتخاب الطبيعي" و "التكيف"، وهي نوعان من الإحياء: الأول: إحياء خلقي. والثاني: إحياء مادي. وعموماً إن الإحياء والإخراج كفعالين يتعلقان بالحياة الدنيوية، وهما مرتبطان بالزمن وحركة الإنسان والتاريخ. وقد شرحنا معنى الإحياء والإخراج، وأجبت على سؤال هل الإنسان قادر على الإحياء والإخراج علماً بأن هذا فعل إلهي بامتياز، وذلك في شرحنا للآيتين التاليتين:

- قوله تعالى: "ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير" {فصلت: 39}.

- قوله تعالى: "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيها فكأنما أحيها جميعاً" {المائدة: 32}. {انظر الشرح في الفصل الأول، ص101}.

⁸⁴⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص143.

الآية التاسعة: قوله تعالى: "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهدي وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وثبّرت الأكمه والأبرص بإذني وإذ تُخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين" {المائدة: 110}.

هذه الآية مشابهة في شرح أهم تفاصيلها لسورة {آل عمران: 49} (الآية الثامنة السابقة) التي شرحناها وأشرنا فيها إلى الخلق ومادة خلق الطير وهي الطين، ومعنى الإذن من الله، والنفخ في الطير لإحيائها.

الجدل القرآني بشأن ألوهية عيسى وأمه مريم أمام ألوهية الخالق

الآية العاشرة: قوله تعالى: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" {المائدة: 116}.

قال الرازي: في الآية سؤالان: أحدهما أن الاستفهام كيف يليق بعلام الغيوب؟ الجواب: أنه استفهام على سبيل الإنكار. وثانيهما: أنه كان عالماً بأن عيسى (عليه السلام) لم يقل ذلك فلم خاطبه به؟ فإن قلتم الغرض منه توبيخ النصارى وتقريعهم فنقول: إن أحداً من النصارى لم يذهب إلى القول بالهية عيسى ومريم (عليهما السلام) مع القول بنفي الهية الله تعالى فكيف يجوز أن ينسب هذا القول إليهم مع أن أحداً منهم لم يقل به. والجواب: أن الإله هو الخالق والنصارى يعتقدون أن خالق المعجزات التي ظهرت على يد عيسى ومريم هو عيسى ومريم (عليهما السلام) والله تعالى ما خلقها البتة وإذا كان كذلك فالنصارى قد قالوا إن خالق تلك المعجزات هو عيسى ومريم (عليهما السلام)،

والله تعالى ليس خالقها، فصح أنهم أثبتوا في حق بعض الأشياء كون عيسى ومريم (عليهما السلام) إلهين له مع أن الله تعالى ليس إلهاً له فصح بهذا التأويل هذه الحكاية والرواية⁸⁴⁷. بالنسبة لنا فإن السؤال الأصح الذي يجب طرحه هو: هل كان الله يقصد في السؤال داخل الآية أن يقول: يا عيسى كان يجب عليك أن تقول للناس اتخذوني وأمي إلهين مع الله؟

نفي عيسى ادعاء الألوهية أو التفكير فيها

نقول: ليس هذا المقصود، لأن كل الدلائل المادية والعلمية والإرادية والخلقية التي ذكرتها حول طريقة ولادة مريم وخلق عيسى (عليهما السلام)، تنفي صيغة الطرح للجملة في الآية، وبالتالي ينتفي أن يكون المقصود في الآية إشراك مريم أو عيسى (عليهما السلام) كآلهة مع الله. كما أن صفة النوع الإنسي التي تنطبق على كل من مريم وعيسى (عليهما السلام) تحولان دون اعتبارهما آلهة، وبالتالي لا يكون المقصود حقيقياً أو صحيحاً في قوله تعالى: "اتخذوني وأمي إلهين من دون الله". كما أن قول عيسى (عليه السلام) في الآية: "إن كنت قلته" هو بحد ذاته نفي لهذا القول أو نفي لادعاء الألوهية له ولأمه مريم (عليهما السلام) على لسانه. كما أن عيسى (عليه السلام) نفى أصلاً أن يكون قد فكر في ادعاء الألوهية هو وأمه مريم (عليهما السلام) وذلك في قوله في الآية: "ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق". وقول عيسى (عليه السلام): "تعلم ما في نفسي" هو في حد ذاته تأكيد لقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" {ق: 16}. كما أن اعتراف عيسى

⁸⁴⁷ الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامه ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج12، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص142.

(عليه السلام) بنفي علمه بالغيب وتأكيده أنه من علم الله هو تحقيق
وتثبيت لقوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق
أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً" {الكهف: 51}.

مراجع الكتاب

المراجع العربية:

1. عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، مقدمة ابن خلدون، ج2، (دمشق: دار يعرب، 2004).
2. أبو حامد الغزالي، الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي، (مطبعة الآداب والمؤيد، 1317).
3. أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009).
4. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006).
5. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943).
6. طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ط1، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013).
7. أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، تحقيق سعيد زايد، الشفاء، الطبيعيات، السماع الطبيعي (قم المقدسة: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1984).
8. أبو منصور التميمي البغدادي، تحقيق أحمد شمس الدين، أصول الدين، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002).
9. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، (القاهرة: دار الحديث، 2009).
10. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008).
11. إسحاق السعدي، دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، ج2، ط1، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2013).
12. الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994).

13. الإمام محمد الرّازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981).
14. الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عبد العليم خضر، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983).
15. الإنسان نشوؤه وارتقاؤه، من نظرية داروين إلى مكتشفات العلوم الحديثة، جان شالين، تعريب الصادق قسومة، ط1، (دمشق: بئرا للنشر والتوزيع، 2005).
16. إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، ط1، (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1998).
17. تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005).
18. تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004).
19. خالص جليبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010).
20. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003).
21. دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971).
22. الإمام أبي حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، (أميركا، مكتبة الكونغرس، 1998).
23. د. عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط2، (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993).
24. ديزموند موريس، ترجمة: ميشيل أزرق، القرد العاري، دراسة في التطور العضوي والجنسي والاجتماعي للإنسان، ط1، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1984).
25. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (مكتبة نزار مصطفى الباز).
26. طه عبد الرحمن، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2017).
27. عزيزة فوال بابستي، المعجم المفصل في النحو العربي، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992).
28. العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004).

29. العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، حققه عبد الله الدرويش، مقدمة ابن خلدون، ط1، (دمشق: دار يعرب، 2004).
30. علي جمعة محمد، المكابيل والأوزان الشرعية، ط2، (القاهرة: القدس للإعلان والنشر، 2001).
31. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999).
32. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، (القاهرة: 2004).
33. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007).
34. محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، ج42، (القاهرة: دار المعارف، 1998).
35. محمد حسين الطبطبائي، تفسير البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن، ط1، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 2006).
36. حيدر حب الله، مدخل إلى الوحي وبشرية اللفظ القرآني، (بيروت: دار روافد، 2021).
37. محمد شحرور، الكتاب والقرآن، (دمشق، الأهالي للنشر والتوزيع).
38. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، م1، ط4، (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981).
39. معاذ بني جابر، الجسد والوجود، ط1، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2015).
40. معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968).
41. مهتدي الأبيض، اجتماعية التدين الشعبي، دراسة تأويلية للطقوس العاشورائية، ط1، (بيروت: الرافدين، 2017).
42. جون كولون، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، (العدد 1995).
43. ميشال فوكو، ترجمة محمد هشام، تاريخ الجنسانية، استعمال المتع، الجزء الثاني، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2004).
44. ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000).
45. نفولا حداد، ذكر وأنثى خلقهم، أو مرشد الشبيبة، (القاهرة: المطبعة العصرية).
46. نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012).

المراجع الأجنبية:

1. Mammal Species of the World: A Taxonomic and Geographic Reference, edited by Don E. Wilson and DeeAnn M. Reeder, 2nd ed, 1993.

الأبحاث والمجلات والصحف العلمية الإلكترونية:

1. <https://www.durham.ac.uk/research/current/research-news/fetuses-react-to-taste-and-smell-in-the-womb>
2. <https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2>
3. <https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3644635>
4. <https://web.archive.org/web/20170815101448/http://farsi.khamenei.ir/treatise-content?id=228>
5. <http://www.pbs.org/wgbh/aso/databank/entries/dp27bi.html>
6. <https://abcnews.go.com/WNT/story?id=129898&page=1>
7. <https://futurism.com/harvard-radiation-black-holes-life>
8. <https://geology.com/kبحث-عن-الرياح-وكيفية-تكونها>
9. <https://islamqa.info/ar/answers/88746/%D8%AD%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%88%D8%B9%D8%A7%D9%84-%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%B6%D8%B9%D9%8A%D9%81>

- <https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/18497290/> .10
- <https://uk.inaturalist.org/taxa/40974-Dyacopecterus> .11
- <https://www.aljazeera.net/news/science/2022/6/20/%D8%AB%D9%82%D8%A8-%D8%A3%D8%B3%D9%88%D8%AF-%D8%B6%D8%AE%D9%85-%D9%8A%D9%84%D8%AA%D9%87%D9%85-%D9%82%D8%B7%D8%B9%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%AF%D8%A9-%D8%A8%D8%AD%D8%AC%D9%85> .12
- <https://www.batcon.org/article/the-incredible-milk-producing-male-bat> .13
- <https://www.mdpi.com/1424-2818/14/3/179> .14
- <https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2> .15
- <https://www.mominoun.com/articles/%D9%81%D9%87%D9%85-%D8%AA%D8%A3%D9%88%D9%8A%D9%84%D9%8A-%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A3%D9%84%D8%A9-%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%88%D8%AC%D8%A7%D8%AA-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86%D9%8A-7323> .16
- <https://www.nature.com/articles/s41467-021-23286-7> .17
- <https://www.nhm.ac.uk/galleries/galleries-home/treasures/specimens/archaeopteryx> .18

[https://www.smithsonianmag.com/smart-
news/worlds-earliest-known-animal-may-have-been-blob-
undersea-creature-180970379](https://www.smithsonianmag.com/smart-news/worlds-earliest-known-animal-may-have-been-blob-undersea-creature-180970379) .19

دعاء الختام

- اللهم إني أسجد لمنطق عظمتك، ومطلق جبروتك وقوتك، وأسألك أن تجعل روحي في علو دارك ومستقر جناتك، روحاً ساكنة مطمئنة في ملكوتك الأعلى، مقيمة في فردوسك المغمور بأنهار من لبن وعسل مصفى. روحاً تطير مع ملائكتك، من حولك وتحت ظل عرشك، فتسبِّح تسبيحاتك وتشكر فضائلك.

- اللهم اعصمني من فتنة المحيا والممات، ومن فتن الشهوات، ومن أذى المشركين والمشركات، وطهر عقلي وقلبي من سوء الخطايا والتدبير كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس. وباعد بيني وبين الأوهام والشبهات ودسائس شياطين الإنس والجن ومنابت الأفات.

- اللهم اسقني من رحيقك المختوم، وعطرنى بشذى المسك وأريج الريحان، فأنظر إليك طاهراً عفيفاً، وطيباً نزيهاً أسكن بروحي على سررك المصفوفة، مزواجاً من الحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون، خالداً تحت ظل عرشك خلوداً أبدياً، أرتوي من ريانك رواءً لا أظمأ بعده أبداً.

- اللهم إني أسألك من واسع فضلك العظيم ونور سلطانك السديم أن تبصرني إياك من فوق العرش، فأكون من الوجوه الناضرة التي إلى ربها ناظرة، وأن تجعل لي لسان صدق في الدنيا والآخرة، وأن تدخلني جنات الفردوس الأعلى مع الأتقياء الطاهرين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

- اللهم اجعل روحي مستقيمة كقوامة آدم (عليه السلام) في الجنة، لا ماساً من شجرته، ولا ممسوساً من وسوسة شيطانها أو نار وشرور إبليسها أبداً، وكروح عيسى (عليه السلام) وزهده وطهارته، معززاً بآياته. اللهم اجعل لي روحاً كشجاعة نوح، وقوة وسحر موسى، وتسبيح يونس، وحكمة لقمان، وطهارة لوط، وذكاء زكريا، وغنى سليمان، وعفة وجمال يوسف، وصبر أيوب، وأناة وحلم إبراهيم، ولسان إسماعيل، وبشرى يعقوب، وأمانة وأخلاق ونور النبي محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

E-KUTUB

Publisher of publishers

No 1 in the Arab world

Registered with Companies House in England
under Number: 07513024

Email: ekutub.info@gmail.com

Website: www.e-kutub.com

Germany Office

/Linden Strasse 22, Bruchweiler 55758

Rhineland-Palatinate

UK Registered Office:

28 Lings Coppice,

London, SE21 8SY

Tel: (0044)(0)2081334132